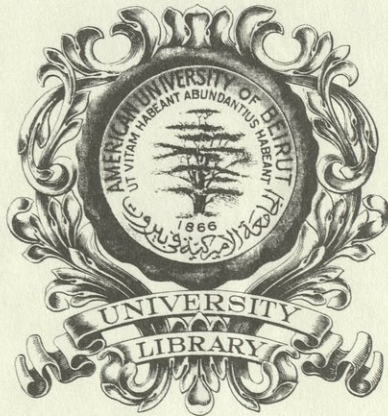


A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY

L55
16438

فَيْلَيْكُنْ فِي الْفَارِسِ



لا يَتَمَكَّنُ الشَّعْبُ سِوَا مَصْرِ
وَيُقَدِّرُهَا قَدْرَهَا الْأُمَّةُ عَسَلٌ
يَجِدُّ عَلَى أَحْيَاءٍ مَسْأَلًا لِاحْتِرَامِ
وَالِإِحْتِلَالِ لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا
أَجْرًا كَرِيمًا وَتَقْتَسِمَ الْبُطْنَةُ لَهُ
(فُرْدَا الْأَوَّلُ)
من قطاب جريدة نوبتية العرس
يوم الثلاثاء ١٢٤٢ هـ الموافق ١٩١١

MS 16438

CA: 892.78
F22rA
c.1

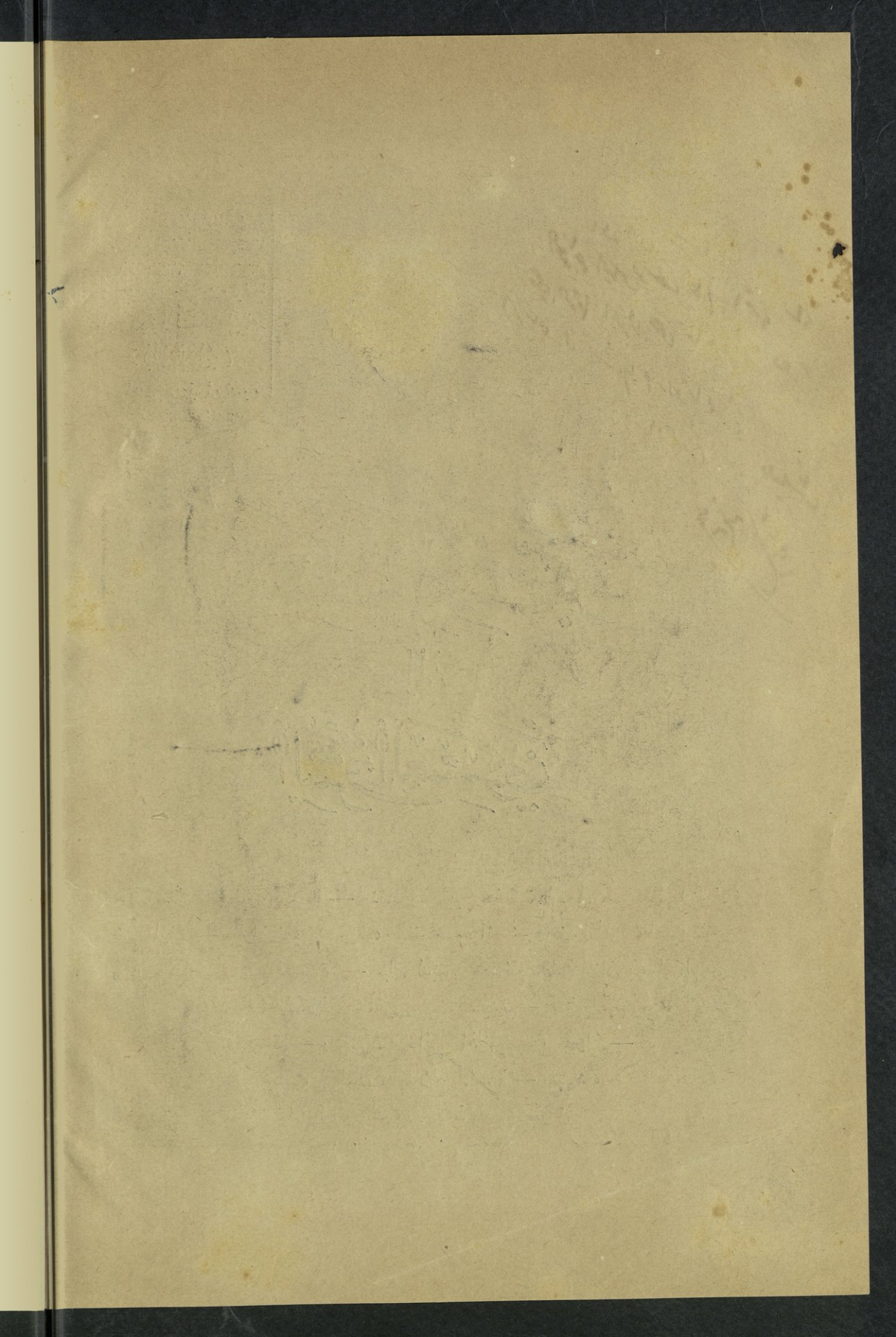
الى ابن شريفنا الوصي
الخواج ابي الحسن يوسف خان اقدم رسالت
زنجي درجه اعزها على ما ظهر من جود طول
الامانة في شهرام الايام الرابع
اوجه اهدى الى فليكن
فقطه نند

رِسَالَةُ الْمُنْبَرِ

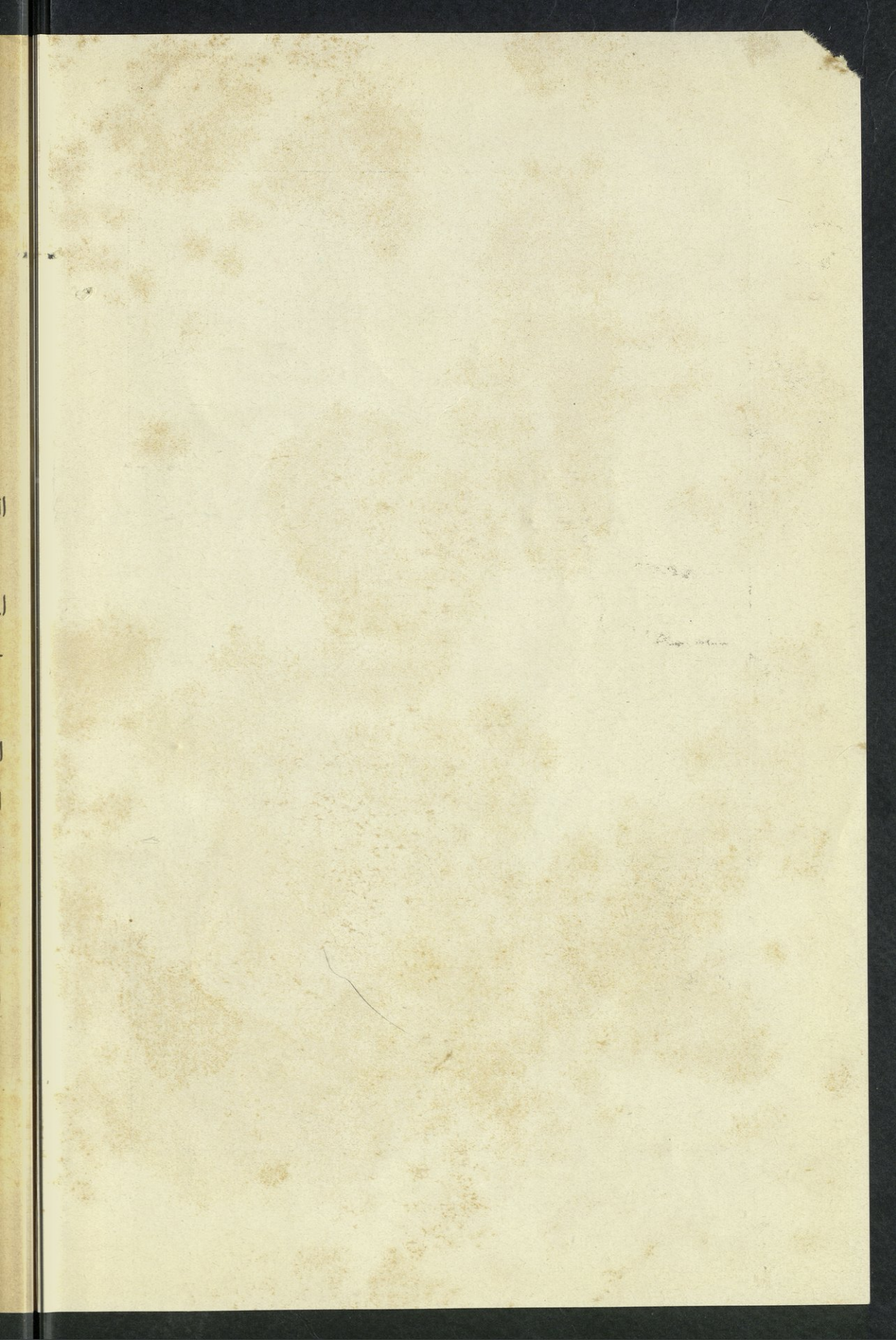
إِلَى

الشُّرُقِ الْعَرَبِيِّ

مصر وسائر الاقطار العربية — الثقافة العربية ، فطرة الشعوب وحياتها ، فوزي
المعلوف — جبران خليل جبران ، فلسفته وحياته — هاتف الخلود ، قصيدة —
الهام شوقي ، قصيدة — جان الدبس ، تمائيل مجاعة لبنان وهياكل
بعليك — الكاظمي شاعر العرب ، قصيدة — المدفن المهجور ،
قصيدة — رد على كتاب الاستاذ نعيمه عن جبران —
منابت الاطفال ، اصلاح الاسرة — المهود ،
روثيا في السماء للاستاذ مصطفى صادق
الرافعي ، مقدمة وتعليق —







اهداء الكتاب

الى المصلح الكبير الاستاذ محمود بسيوني رئيس مجلس الشيوخ المصري

والرئيس العام للرابطة العربية

أستميحك ، ياسيدي ، أن أصدر هذه الرسالة باسمك وهي موجهة إلى الشرق العربي ، وأنت عميد رابطة والمجاهد الكبير العامل على إحياء قوميتته وبعث فضائله وأمجاده وما هذه الرسالة إلا فصولٌ عقدها إجابةً لرغبة بعض الأدباء مما استلهمته المنبر في محاضرات ألقىتها في هذا القطر وقد ضمنت إليها مباحث وقصائد ترمي جميعها إلى هدفٍ واحد وإن تنوعت مطالبها .

لقد اتجهت في ما أوردت من وصف ونقد وتحليل إلى إظهار ما في الأقطار العربية من مبادئ وقوى هاجمة مهيبة بالنشء إلى استنهاضها واعتمادها في معترك الحضارات الحديثة .

إنني ما زلت معتقداً منذ قدّرتي أن أعتلي المنابر أن هذه البلاد العربية مستودعٌ لأشرف الثقافات ومكن لأسمى المواهب ، وإن من واجب أحناد المنابر والاقلام فيها إظهار هذه القوّات لا بنائها نزوعاً بهم عن الانقياد لدخيلات العادات والأخلاق التي تغلبت عليهم بما أوجدوه من التوهم في أنفسهم فاستصغروها . إن كلاً من سلالات العالم تنتفض الآن لتنبّه ما يكمن في قومياتها من حوافز وهي تناويء قوميتنا السامية منزلتها منزلة تنحط عن مراتب الشعوب الآرية ، فالأقوام المنتشرة في جزيرة العرب وفلسطين وسوريا ولبنان ووادي الفرات ووادي النيل وعلى الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط وشواطئ البحر

(ب)

الاحمر تدمغها حضارات الغرب والعالم الجديد بطابع التواكل والخنول في حين أن القومية في الشرق العربي لا تقف تجاه السلالات المنكشة على ذاتها في العالم موقف كتلة تبني وحدتها على المميزات الجسميّة مفتشة على الوحدة في الانساب والعروق، بل هي تبنيها على المميزات الروحيّة في حوافز أصبحت فطرة لكل سلالة قديمة توطنت هذه البلاد التي خشع عطاء العالم تحت سماها الصافية وفوق أرضها المطهرة بدماء الشهداء من أجل الاعضاء الانساني والحق المطلق. فاذا ما افتخرت قوميات الدنيا بالعرف، فانما نحن نباهي بالفكرة الحيّة السماوية التي أقامت من شتاتنا أسرة واحدة كلمة التعارف بينها اسم الواحد الأحدث رب العالمين .

لا ريب في أن هذه الأسرة الروحيّة نزلت بها عوادي الزمان حقبة من الدهر يستطيلها الجاهلون، ولكن العارفين يعلمون أنها أقصر من أن تقضي على مبادئ حضارة بقيت أربعين قرناً محوراً لتيارات الأفكار في العالم .

*
*
*

قُضي على هذه الرسالة الا تنشر حتى اليوم وقد كانت نصفها مطبوعاً منذ خمس سنوات، وقد رأيت الاشارة الى ذلك ليرى المطالع وهو يقابل بين السوانح التي وردت فيها وما توالى من تطور على أحوال الشرق العربي وحتى على نزعات الغرب الاجتماعية خلال هذه الاعوام القليلة أن العقيدة التي ندين بها والتي يستلهمها مفكرونا الناهضون مما أنزل على رسل الشرق وأنبياؤه إنما هي النور الذي سيسود العالم محرراً الانسانية من عبوديتي القوة والضعف، ومرجعاً الأسرة إلى حضارة الحق والواجب لصالح المجتمع وتطهير الحياة .

فليكس فارس

الاسكندرية في أول سبتمبر سنة ١٩٣٦

رئيس الرابطة العربية في الاسكندرية

(ج)

الاستاذ محمود بسيوني

رئيس مجلس الشيوخ المصري وعمير الرابطة العربية

في العوالم أقطاب تمركزت القوة فيها ، تدور حولها الأجرام منجذبة اليها ،
وفي أجواء النفوس كما في أجواء المادة ، أقطاب تمركزت فيهم العقيدة قوة تعالت
فوق كل تردد وكل حيرة ، تنجذب اليها النفوس الحائرة مستجيبة باشعاعها ما يمكن
من تلك العقيدة في أغوارها .

أولئك الاقطاب في المجتمع الانساني ، وهم الزعماء السائرون في الطليعة من
كل نهضة تندفع إلى التكامل بالفرائز وأشواق النفوس ، إنما هم المؤمنون على
رسالات يؤدونها في الحياة لاصلاح الحياة .

من السائرين في طليعة هؤلاء الاقطاب في شرقنا العربي ، عميدنا الاستاذ
محمود بسيوني الذي دعته أخيراً روح البلاد الماثلة في تقدير أوصياء العرش الى
ترأس مجلس الشيوخ ، وقد كانت روح بلاده تدعوه في كل زمن فيأتمر بالهامها
متجرداً للدفاع عن الحق ، زيهياً في تولي شؤون العباد بصيراً بتصريف الأمور ، إذ
أنه يواجهها بالفكرة الثاقبة وبالنيّة السليمة ، والكم تبرُّ الغوايا العقول في مضمار
خدمة الأمة بنصرة حقها وإزهاق باطلها .

عرفت العميد العام للرابطة العربية ، وأنا أحد أجنادها العاملين في سبيلها
منذ ربع قرن ، فكأنني رأيت فيه مجسم العقيدة التي تغلغلت في نفوس النابهين
في الشرق العربي فغدت لها منابرهم واقلامهم وسقاها الشهداء منهم بدمائهم .

الأستاذ محمود إسيوني مثالاً للشخصية المصرية التي تشرّبت من أجواء مصر
مجدها القديم ومن أجواء بلاد العرب تلك العظمة المتحدرة من السماء شرائع
حق أخرجت الدنيا من طفولتها الى طور إدراكها .

إنّ الغرائز العربية الشرقية كامنّة في جميع هذه الشعوب التي وحدتها المباديء
العلوية وفرقتها عوادي الزمان ، غير أنّها لا تتجلى ناصعة جليّة الا في الفيئة القليلة
من المجاهدين الذين يحيون بروح بلادم وأستاذنا وعميدنا محمود إسيوني يحمل
هذه الروح في نظراته الوقادة وكتباته العالية ، فإذا ما أنت جلست إليه شعرت
بأنّ بلادك ستر بطها غرائزها ويوحدها إيمانها فتستعيد أممها المعقود
ومقامها المنشود .

فليكس فارس

كلمة العمير الكبير الاستاذ محمود بسيوني

رئيس مجلس الاعيان المصري

حضرة الأديب المفضل الأستاذ فليكس فارس ،

سعدت بقراءة (رسالة المنبر) التي توجهت بها الى الشرق العربي ، شارحاً بقلمك الفيض ، وتفكيرك الخصب ، وفؤادك الجياش بالأخلاص ، أصل الداء الذي انتاب العروبة بسبب اختلاف بنيتها واتخاذهم في الحياة طرائق قديماً من التخاذل والتناوب في الأديان ، ممهّداً للوحدة العربية وضم صفوف حقدتها بما تعجز عنه ريشة المصور الماهر ، ولقد كان لصدى صوتك في هذه الرسالة رنة أعجاب في نفسي ، وعظيم تقدير عندي ، وخاصّة تلك الأمور الأربعة التالية فأنها أجدر بالذكر وأحق بالتسجيل .

الأول - إبانة عن ضلال من يرون في تعدد الأديان السماوية في الشرق سبباً للتفرّق والتنازع بين المسيحيين والمسلمين من أبناء الشرق العربي ، وهم أبناء عمومة وحنولة ما كان لهم أن يساموا زمان تفكيرهم للأهواء فيضلوا سواء السبيل . وما أجل ما ذكرته في الصفحة الثامنة والعشرين من رسالة المنبر دفماً لهذا الضلال المبين .

(إن الأديان في الشرق لا تحول دون اتفاق أبنائه ، ومن رأى في الإنجيل والقرآن ما يدفع الى شقاق ويؤدي الى خلاف فقد جهل حقيقة الإنجيل والقرآن ..)
وقلت في الصفحة الثامنة والستين :

(إن الثقافة الدينية مشاع بين البشر كلهم فهي دعوة في صحراء التيه وعظة

على جبل فلسطين وهداية في الحجاز لكل أنسان أينما ولد وأيات يعيش وهذا الوحي الواحد في أصله المنزل لأصلاح الحياة في ثلاثة أزمنة مختلفة لا يتجلى للفريزة الشرقية المستنيرة بما كمن فيها من حق الا صوتاً واحداً تعالى ثلاث مرات داعياً الى المعروف ناهياً عن المنكر)

الثاني — حديثك عن المرأة ووجوب تهذيبها وتثقيفها وإعدادها إعداداً كاملاً لتكون ربة بيت جديرة بالاء كبار والاء جلال . وماذا تراني واجدٌ للتعبير بدقّة عن هذا المعنى الجليل أفضل من عبارتك في الصفحة السادسة والستين بعد المئتين من رسالة المنبر .

(أنا من أنصار تعليم المرأة وتهذيبها ، أريدها شاعرة كاتبة فيلسوفة ، اذا أمكن ، لأن العلم والشعر والرقى الأدبي ألزم للناس في بيوتهم منه في المجتمع ، ولكنني لا أريد المرأة عاملة خارج بيتها يتحكّم فيها الغرباء عنها ، فإن لم تنزل الأهانة بها كأمرأة نزلت بها إهانات التقرّيع كما مورة يجب عليها أن تحو شخصيتها وتكفيها طبقاً لواجبات التنظيم .)

الثالث — إشاراتك برجال الشرق وحكمائه وأدبائه ، فهذا سبيل من الهداية واضح المحجّة للناشئة الشرقية العريضة ، أرجو أن يكون لهم هادياً ومرشداً في ترسم خطوات أسلافهم الذين أسسوا مجد الشرق وشيّدوا حضارته حتى يستعيد هؤلاء الحفدة مكانة العروبة السامية ويستجيبوا لنداء مجدها القديم .

الرابع — إباطك اللثام عن قصور مدارك فيئة من أبناء الشرق العربيّ تحاول الاء نسلخ عن قوميتها والبراءة من الثقافة الشرقية العربية التي قامت على أصول من الوحي الربّاني واستمدت مقوماتها من الفطرة السليمة والتنزيل الحكيم لتندمج في حضارة أجنبية مادية يحاول بعض أهلها الأ نسلخ منها

والانتساب الى القومية الشرقية العربية ، وما أبدع هذا الذي نقلته في
الصفحة الرابعة والاربعين في رسالة المنبر عن الشاعر الاسباني (فيلاسبازا)
ليس في طاقتنا نحن الاندلسيين المعتنقين بايمان ثابت دين المسيحية أن
نجد دين أسلافنا المسلمين ، فلئن كان الأول مستقراً في ضعائنا فإن الثاني
ما برح مستقراً في فطرة قوميتنا المزدانة بالبدائع ، وكما إننا لو انتزعنا بعض
الألوان التي موّهت بها جدران كنفائنا نجد وراءها مبعاً مذهبة لاسم الله
الصمد محفوراً بالحروف الكوفية ، فاننا لو خدشنا بشرتنا الأوروپية الصفراء
لبرزت لنا من تحتها البشرة العربية السمراء فاقوميتنا الغربية إلاّ العرض الظاهر ،
أما حقيقتنا الخالدة فهي القومية الشرقية)

وعلى الجملة ، فقد بلغت بهذا المجهود القيم من العمل على ضمّ صفوف
أبناء الشرق العربيّ وجمع كلمتهم على هدى وارشاد مكانة تلت في سموها وجلالها
مكانة الرسل والانبياء . ومما يزيد في سمو مكانتك هذه ، أنه لم يسبقك الى هذا
العمل الجليل الا أفراد قلائد في مقدمتهم الزعيم الخالد الذكر المغفور له سر
زغلول فقد نادى باتحاد عناصر الأمة المصرية ، وكان له من إخلاصه لوطنه وسامي
مكانته ما سهل عليه تحقيق غايته النبيلة فاتحدت كلمة مصر ولم يبق في ميدان
وطنيتها مسلم وقبطي بل صار الكل مصريين دون أن يؤثر ذلك في الدين
والعقيدة ، فصر اليوم تجني ما غرس هذا الزعيم العظيم ، وسيكورت لدعوتك
هذه ما كان لتلك ، فها هي ذي تبشيرها تلوح وضآة في أفق الشرق العربيّ
ولقد أخذ جسم العروبة يتأثر أبلغ التأثر كلما مس الأئم عضواً من أعضائه ،
وما خطب فلسطين ببعيد .

(ح)

فإنك تهنيئتي على مجهودك العظيم ودعوتك الرشيدة الموفقة إن شاء الله
تعالى ، وتمهيدك للوحدة الشرقية العربية بأمانة وأخلاص .

وانني أدعو الله العلي القدير أن يمدّ في حياتك الطيبة المباركة حتى ترى
غرسك استوى على سوقه وأتى بأطيب الثمرات وأن يكثر من أمثالك
العاملين المخلصين .

القاهرة في ١٣ من شعبان سنة ١٣٥٥ هجرية

٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ ميلادية

محمود بسيوني

(ى)

كلمة فقير الشرق المغفور له الاستاذ الكبير

العلامة محمد رشيد رضا

صاحب المنار

إنّ رسالة منبرك جديرةً بالنشر، فانشرها لأنّها من التمهيدات الأدبيّة
للاصلاح والوحدة الانسانية الكاملة التي سنتعاون علانية على النهوض بها إذا
قرب الاستعداد العام لها، والسلام عليك .

القاهرة في ٨ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

محمد رشيد رضا

كلمة الفيلسوف العربي الكبير العلامة الأستاذ

مصطفى صادق الرافعي

عزيزي الأستاذ النايفة فليكس فارس ،

قرأت كتابك (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) فما أحسنت ما أبدعت وما
أبدع ما أحسنت ، لكأنَّ الشرق هو ألقى حكيمته في فك وأرسل كلمته من قلمك ،
ثم نصب لك منبره العالي وقال لك - قم فتكلم

لم أرك انحرقت عن الحقيقة ولا ملت عن وجه الرأي ولا نزعتم إلى
تقليد ولا جنحت إلى متابعة ولا غرقت اسم فيلسوف ولا خدعتك اسم كاتب ، بل
كنت كالسيف لا يعمل إلا عمل حده القاطع ضارباً في كل مرة ضربته في كل مرة
وفي كتابك أتات هي رعد قلبك الحر ، وفي بيانك إشراق هو نور نفسك
القوية ، فلا جرم كان ما كتبتك من الكلام الروحي البليغ الذي يقرأ بالعين
ويُسمع في النفس في وقت واحد

ولقد أدركت بفطرتك السليمة وروحك الملهم ما في دين الفطرة من
الحكمة الإسلامية البالغة وجئت من ذلك بأشياء كأنها من نبع الوحي ، فكنت
بعقلك وذكائك وإحساسك النبيل صورة أخرى لحكيم الألمان وشاعرهم (جيته)
حين قال : -- إذا كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون .

حيّاك الله وأدام النفع بك وأمتع بأدبك والسلام

من المخلص

مصطفى صادق الرافعي

كلمة العزومة الكبير الشيخ الجليل عبر الوهاب النجار

حضرة الأستاذ الأديب والخطيب المصقع فليكس فارس

قرأت (رسالة المنبر الى الشرق العربي) فحسدتك حسداً أعينك بكلمات الله
التألمات من شره . رأيتك تخلق دائماً فوق البواعث المادية وتنظر الى العواطف
المهاتفة بالأهم الشرقيّة الحافزة الى التألف والتعاطف المهيبة بها الى نبذ البالي
العتيق من دواعي التفرّق والتباين .

وهذا الذي تدعو اليه وتهتف بالاستمساك به هو الثمرة الناضجة لدين الحق
الذي رضيّه الله لعباده وفي سبيل تلك الثمرة الشبيهة أرسل موسى وعيسى ومحمداً
وسائر أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ليقيموا الناس على الجادة الجامعة غير
المفرقة (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده - النساء ١٦٣)
أشعر لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به إبراهيم
وموسى وعيسى إن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه - الشورى ١٣) .

رأيتك أيها الفاضل ، تناجي العواطف الكميّة في أمم الشرق وعقلها الباطن
الذي لا يلمّ بساحته الا كل حقيقة مجردة عما نسجتها حولها الأجيال الزاهية ،
وتري الامم الشرقيه صورة اتحادها وتآلفها في أبهج صورة حالية بأبداع حلية
تشتبهها الأ نفس وتلذها الأ عين .

ولله إبداعك في ضربك المثل لآبناء الشرق المتباعدين او الذين باعدتهم
أكداس الاضاليل باثنين أحدهما في جانب من هرم عاتٍ لا يمكن أن يتصل

أحدهما بالأخر والسكنها لو علوا بنفسيهما على تلك الأكداس وارتفعا عن تلك
الأضاليل وارتقيا لالتقيا عند قمة الهرم .

ان مثلك هذا الساحر الأثاذ الذي جلوت فيه الحقيقة سافرة هـو المزرع

الذي ينزع اليه جملة الواصلين من الصوفية المتحققين بها

فقد أخبرنا أستاذنا الأمام المرحوم الشيخ محمد عبده حين زار السودان

وأخر سنة ١٩٠٤ واولئ ١٩٠٥ إن أحد الصوفية الأنجاب الواصلين (وقد ند

اسمه عني الآن) كان يأتي اليه اليهودي والنصراني والمسلم فيأخذ على كل منهم

العهد ويدله على الطريق التي يصل منها الى الله تعالى متى جاهد نفسه حق الجهاد

وسار في الطريق التي رسمها له ، فقال له قائل كيف تدخل هؤلاء المتفرقين في

الأديان والعقائد في طريق واحد ، فقال الشيخ : لا بأس فانهم سيلتقون في آخر

الطريق حين تزول عنهم تلك الحواجز التي فرقهم .

إن الذي يدعو مثل الى ما دعوت اليه سيلتقي من الجامدين من الديانين أذى

كثيراً وليسمن منهم غير ما يجب ولكن ذلك لا يعطل سيره على الجادة ولا يحد

به عن سبيله السوي وجدير بمن كان مثلك أن يصغي الى صوت شيخ المعرة

وهو يقول .

إذا قال فيك الناس ما لا توده
فصبراً يبي ود العدو اليك
لقد كذبوا مينا على الله وأفتروا
فما بالهم لا يكذبون عليك
وقفك الله وسدد خطاك والسلام

القاهرة اكتوبر سنة ١٩٣٦

عبد الوهاب النجار

تمهيد

أوجه رسالتي هذه الى الشرق العربي متوجهة بالحكمة البالغة التي نطق بها المغفور له صاحب الجلالة فؤاد الاول لتمكون شعاراً لا لمصر فحسب بل لسائر الاقطار العربية التي ترى اليوم في صاحب الجلالة فاروق الاول - موئل العروبة ومعقد أمالها لأنه ينطق بمثل هذه الحكمة وينشر روحها في بلاده كما ينشرها سائر ملوك العرب وامراءهم وزعمائهم في بلاد العرب وينشرها في المهاجر أمراء الأقاليم والمنابر بين اخوة لنا تزحو وما هجـروا ولم تزل العروبة علمهم وفخرهم اينما نزلوا

ويجدر بي في مطلع هذا العصر الجديد الذي تحل المعاهدة المصرية البريطانية فيه العقدة الكبرى في المسألة العربية ان أصدر هذه الرسالة بالقصيدة التي قيمتها في حفلة لجنة الوفد في حديقة الزهراء بالاسكندرية يوم ١٤/١٠/١٩٣٦، ثم الحقا بالخطاب الذي قيمته في الحفلة التي اقامتها جماعة نشر الثقافة لتكريم وفد الطلبة العراقيين في ٣/٢/١٩٣٦، ولكل من القصيدة والخطاب مرماه في هذا التمهيد



العهد الجديد

الى دولة الرئيس الزعيم مصطفى النحاس باشا

حَيْسِي سَعْدًا إِنَّ ذَا يَوْمٍ الْوَفَا لَيْسَ سَعْدٌ مُدْرَجًا تَحْتَ الصَّفَا
 رُوحٌ مِصْرٍ نَفَخَتْ فِي رَوْعِهِ فَمَوْعِيسَاهَا وَأَنْتَ الْمُصْطَفَا
 كَتَبْتَ مِنْ وَحْيِهِ إِنْجِيلَهَا فَأَتَيْتَ الْآنَ تَمَلِي مُصْحَفَا
 يَخْتُمُ الْهَدْيَ بِشَرَعٍ عَادِلٍ كُنْتَ فِيهِ مُنْصِيفًا مُنْتَصِفَا
 أَكْمَلَ السَّعْيُ مَعَ الدُّنْيَا فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ السَّعْيِ يُدْنِي الْهَدَفَا
 دَارَتْ الْأَقْطَابُ فِي أَبْرَاجِهَا فَأَدَارَتْ قَلْبًا كَمَا مَوْتَلِفَا
 شَمْسُهُ الْحَقُّ وَلَوْلَا سُحُبٌ عَمَّرَتْهُ فِي الدِّيَاجِي مَا صَفَا
 رَبُّ مَا تَكَرَّهُهُ مِنْ غَابِرِ الْوَدَّهِرِ يُوْتِيكَ الْجَنَانَ الْمُرْهَفَا
 رَبُّ آرَاءٍ إِذَا مَا انْصَدَعَتْ كَشَفَتْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ مَا أَخْتَفِي
 عَرَفَ الشَّمْلُ بِهَا وَجْهَتَهُ وَهَوَّ لَوْلَمْ يَنْفَرُطْ مَا عَرَفَا
 إِنَّ آرَاءَ لِصَمْرٍ اخْتَلَفَتْ مَا بَنَتْ يَوْمًا عَلَيْهَا الْحَلْفَا
 بُذِلَ الْجَهْدُ مَدِيدًا كَامِلًا مَنْ رَأَى نَاقِصًا مَا أَنْصَفَا

إِنَّمَا الْأَصْدَافُ فِيهَا دَرَّةٌ قَدَحَ اللَّاحِي يَعْذُّ الصَّدْفَا
لَيْسَ مَنْ يَبْلُو الْوَعْيَ مُسْتَبْسِلًا كَالَّذِي يَرْقُبُهَا مُسْتَكْشِفَا

* * *

أُمَّةَ الْمَجْدِ أَنْهَضِي وَاسْتَقْبِلِي مِنْ وَرَاءِ الْعَهْدِ مَجْدًا سَلَفَا
حَيَّ فَارُوقًا فَسَنِي طَلَعْتَهُ بِسْمَةِ الْأَقْدَارِ أُنَى عَطَفَا
إِنَّ فِي مَفْرَقِهِ رُوحَ الْبَهَا وَبِيرْدِيهِ الْعُلا وَالشَّرَفَا
عَشِقَ الشَّعْبُ بِهِ أَمَّا لَكُهُ فَعَدَا بِالشَّعْبِ صَبًّا كَلِفَا
كَلَّاحِنًا إِلَى أُمَّتِهِ زَادَتِ الْأُمَّةُ فِيهِ شَغَفَا

فليكن فارسي

الاعلام القديمة

أمام هذا الحفل يتلاقى فيه أبناء العراق وأبناء مصر ، أقف من أحلامنا القديمة موقف من يشهد فكرة تستحيل واقعاً محسوساً ، فيخيّل لي أن هذه الجدران الاربعة تتراجع وتراجع حتى كأننا على منبسط فسيح لا يتصافح عليه أبناء مصر والعراق فحسب ، بل جميع أبناء العروبة من جميع الاقطار .

وإذا نحن أصغينا الي همسات السرائر الكامنة فينا فأنها تسمعنا هائل الجدود في اللحود ومناعات الاطفال في اليهود يستقبلون من قوميتهم فجراً جديداً .

إن لهذه الشعوب المنتشرة في الشرق العربي فطرة واحدة كونتها العقيدة والتقاليد والبيان ، فهي تشد مثلاً علياً للحياة تتوافق وحوافزها المستقرّة في أساليب تفكيرها لذلك كان لزاماً على هذه الشعوب أن تتجه الى جامعة واحدة تبعث لها الحضارة الملائمة تروح اليها سريرتها .

لقد مرّ زمنٌ طويلٌ على هذه الشعوب بلتها الايام فيه بالعوادي فاستنامت غرائزها حتى أصبح العربي يُعدّ دخيلاً على أية فرقة من فرق قومه إذا تحطّى مسقط رأسه .

وكان طوراً مليئاً بالشقاء والذل ، ذلك الطور الذي تخدّرت فيه السريرة في الأمة المشتته المتقاطعة إذ أصبحت كالجسم استحكّم الخلل في ضفيرة أعصابه فامتنع عليه الاءحساس المشترك ، وهكذا كان كلٌّ من هذه الشعوب وقد انفرط

عقدتها ينكمش على ذاته متلفعاً بآء نانيته ، غير مشعر الا بأوصابه والامه ، بل غير مشعر حتى بتلك الاوصاب والالام ، اذ كانت تنزلق عن كتل الشعب المتخدر لتسقر في صدور العباقره والناهضين حيث لجأت سريرة الأمة العربية عقيدة تغذي الأرواح بالآمال هازيئة بكل وعيد واضطهاد .

ومن عرف هذه الشعوب العربية كما عرفناها نحن منذ ثلاثين عاماً ، ومن تكشفت له علما وأدواؤها كما تكشفت لنا ونحن نتسّم منابرها في عهد الدستور العثماني ، ليقف اليوم مندهشاً مما فعلته الخوافز القديمة الطيبة نبهتها نبرات المنابر وصرير الأقلام بين عناصر كل قطر وبين جميع الأقسام في جميع الأمصار العربية .

إن في الأمم كما في الافراد ، ضمائر وسرائر ، فما أضمرنا من تفكيرنا في عقلنا الواعي ونحن نضع المقدمات ونأخذ بالنتائج ، فهو الضمير يحفزنا الى التمتع بيومنا منكمشين على أنفسنا في محيطنا الضيق ، وما شعرنا به بمعزل عن تقديرنا والاعتبارات التي يأخذ بها تحليلنا فذلك هو سريرتنا التي تتحكم بأجهانا ويكمن فيها مصيرنا . وما دام ضميرنا المسير بأرادتنا الجزئية الناظر الى يومنا متناسياً أمسنا ومعرضاً عن غدنا يعارض سريرتنا وهي محلي الارادة الكامية العليا فنحن لما نزل نقوم بالجهاد الأكبر في نفسنا متجهين نحو الحقيقة الكامنة فينا ، ولن نبلغ الفتح الذي وعد الله للمجاهدين ما لم تشرق سريرتنا على ضميرنا فترينا آيات ربنا في أنفسنا وفي الآفاق .

ها إن السريرة العربية تشرق على البلاد العربية بأسرها بعد إن كانت لربيع قرن مضى شرارات مبددة في صدور الأفراد المضطهدين المرشدين ، أصغت

الأمة المبددة لصوت نفسها بل لأصوات القبور تتعالى من أفواه أبطالها فسقط
التقاطع الدخيل أمام الوحدة الأصيلة ، وهذا هو الشرق العربي يتجسم أمامنا كما
رسمته أشواق مجاهدينا ودماء شهدائنا .

أفليس هذا الاجتماع هـ — ذا المساء تتعاقب فيه جميع الأقطار العربية بين
سواعد أبناء دجلة والنيل تحقيقاً للرؤى التي أحاطت بمنابر خطبائنا ونثرتها
حواري الخلد على قصائد شعرائنا؟ . . . أفليس هذا الاتحاد بين اخوة طال فراقهم
أجيالاً المثل الأعلى الذي تتبَّعه فيصّل بين إرعاد القذائف وصليل السيوف
أفليس الرجوع الى الثقافة العربية الشرقية الأصيلة وتوحيد الأدب بلغة الجنان
ما طمح اليه المليك المقدى ابو الفاروق العامل على بعث مفاخر الجدود في الاحفاد ؟
أن ما نرى من تضامن بين شعوبنا ، وما سمعنا من أبناء النيل في رحلتكم
هذه إنما هو الدحض المبين لكل تفرقة يراد دسها بين أخوان العروبة وهم
متجهون الى إحياء حضارتهم وأدبهم على ما ترتاح اليه دون سواء فطرتهم
الشرقية العربية .

ما لنا ولا أقلام الحدّثان تمرّ منشيئة نخوماً وحسدوداً تتراقص كراً وفرّاً
بالخطوط الحمراء والزرقاء ، ما همّنا أن تمثّل جامعتنا أقواماً وأوطاناً على صفحة
الفبراء اذا كان وطننا واحداً وقوميتنا واحدة في السرائر والقلوب ؟
أنا لا نمثّل الآن مؤتمر فصل ووصل بل نمثّل سريرة واحدة لأمة تدين
بتوحيد ربّها والانسانية وتتكلم بلغة الجنان .

لقد يحسبنا الغريب عنا شعوباً متقاطعة ، كلٌّ منها منكشٍ على نفسه في

بقاعه ولكننا عندما نجتمع وتنتبه فينا سرأرنا قاضية على ما أضمرت العوادي فينا
من دخائل التفريق ؛ تنبض في صدورنا قلوب الجدود وتسمعنا افواها هنا اصواتهم
في القبور .

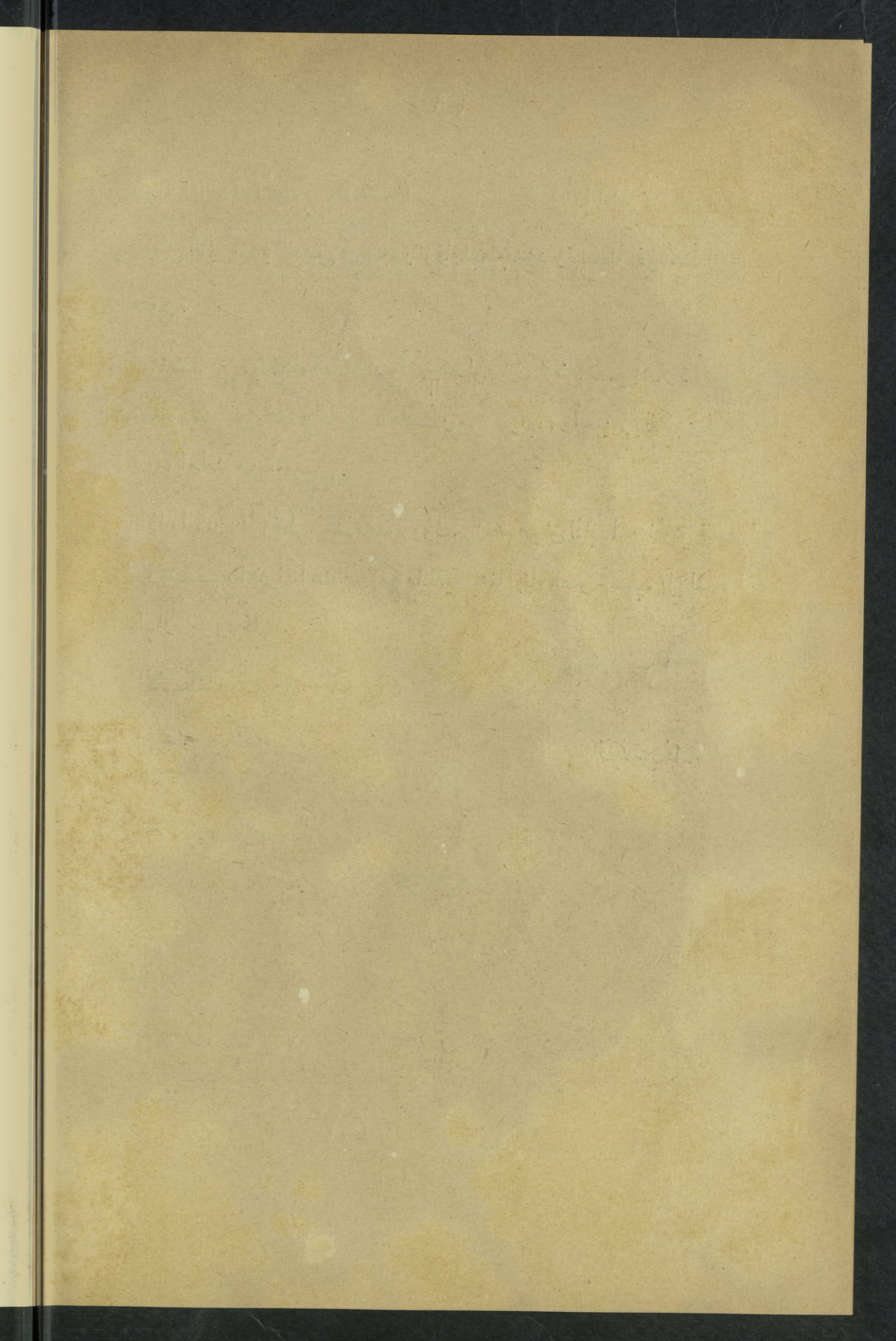
أفما شعرتم ، يا ابناء العراق ، وأنتم تحلون ارض مصر أهلا ، أنكم لقيتم
على هذه الأرض جميع ما في الأمصار من عرب ، وأحييتهم بالذكر والأمل ما
ورأنا وما أمامنا من أجيال .

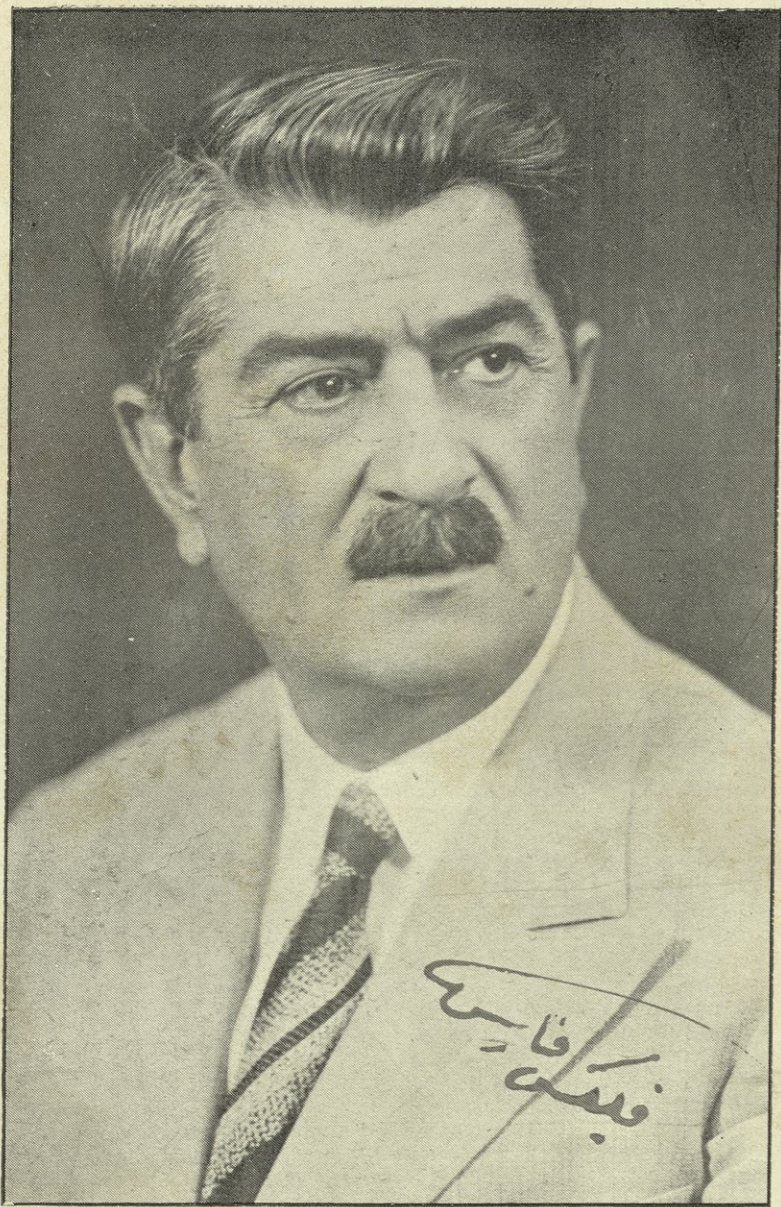
إذا ما عدتم الى قطركم الناهض ووقفتم أمام عرش المليك غازي فقولوا له
وقولوا للجميع أخواننا هنالك إنكم ما لقيتم هنا أبناء مصر فحسب بل لقيتم أبناء
الأقطار العربية كلها .

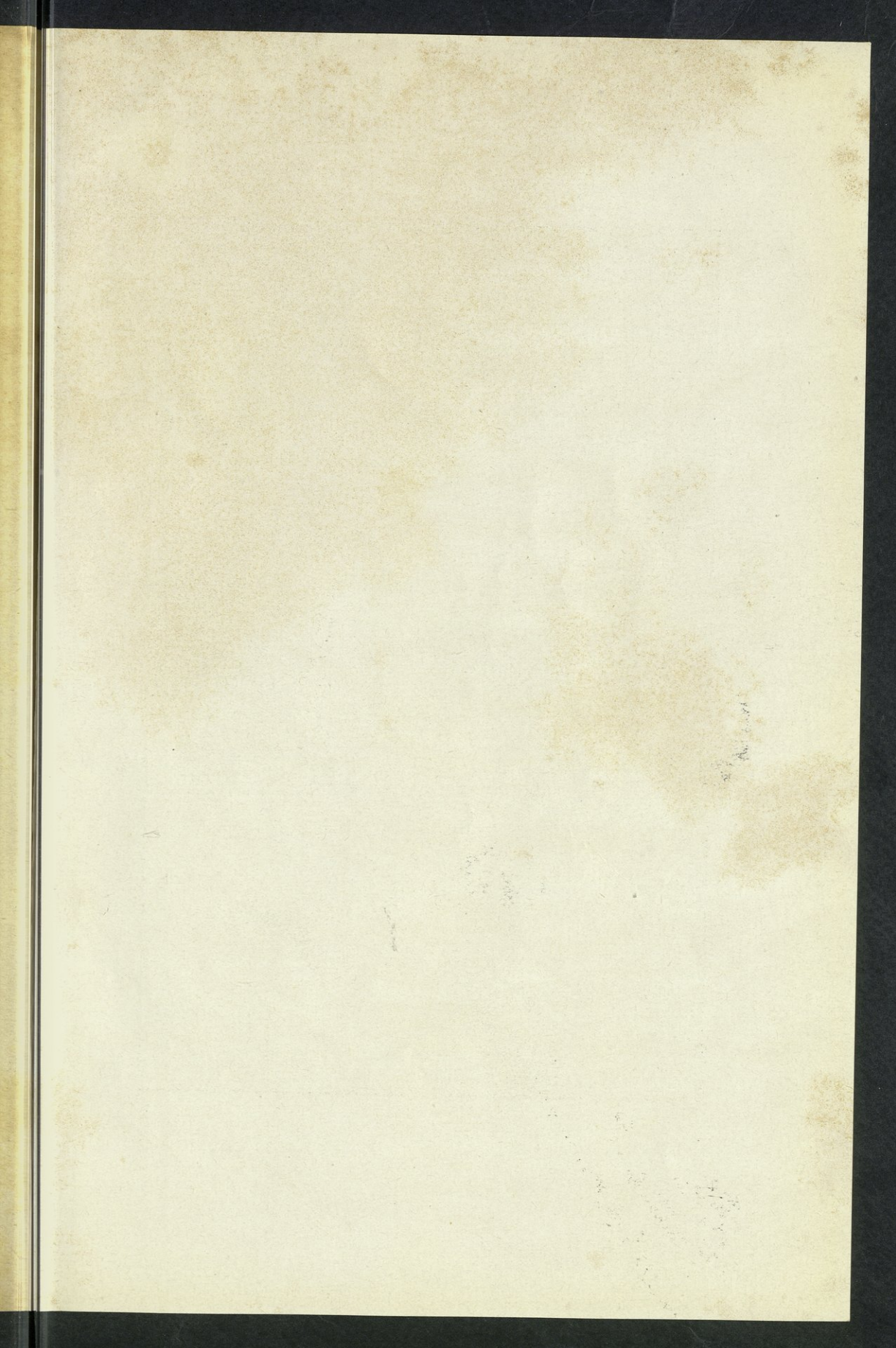
الاسكندرية في ٣ - ٢ - ٣٦

فليكسى فارس









انتم ونحن

مصر والبلاد العربية

البلدان الآهلة بالعرب على سواحل البحر المتوسط وما ورأها - نظرات
في شعوب سوريا ولبنان وتاريخها القديم - روح الجماعات قبل اعلان الدستور
العماني وبعده - منشأ التفرقة بين عناصر مصر وسوريا ولبنان منذ ربع قرن -
ولي الدين بك يكن - تأثير الجماعات على المنابر وسر الالهام في الخطباء - مصر
والبلدان العربية من حيث الثقافة والادب والاجتماع - تفاهم المدينتين العيسوية
والمحمدية - المدينة العتيدة في قلب الدنيا

يا أبناء النيل

خطيبكم هذا المساء ، أيها الاخوان ، نشأة الفطرة الشرقية المحررة من كل انطباع غريب في الفكر ومن كل استهواء دخيل في العاطفة، ولدت تحت ظلال الصنوبر والارز ودرج بين قم لبنان واغواره ، حرّاً طليقاً من كل ما هنالك من تعاليم مشتمة الاهداف وثقافات متباعدة المرامي ، قضى الله له الا يستظل سقف مدرسة ، فكانت اجواء الشرق مدرسته الكبرى يتلقن من اصداء آفاقها ما لم نزل تهمسه فيها اصوات القبور

ان من يقف بينكم هذا المساء يدين بوحى الشرق المثلث في التوراة والانجيل والقرآن والموحد في قبة هذه الطرق المنتهية عند قاعدة عرش الله ، يقف الآن كما وقف في كل زمان مستقبلاً الشرق ومستشرقاً القبلة ومن المطلعين نور وحرارة للافكار والقلوب ،

لقد استلهمت طويلاً على القمم ، حيث تنعكس بين مغاور الصخور اصداء الشرق من جهاته الاربع ، روح الشرق الهاتفة المهللة في الجردود والهامسة الناحية في الاحفاد ، وما كلماتي اليكم الا نبرات ذلك الالهام .

في صيف عام ١٩٠٨ عند ما جاء الدستور العثماني مقيماً المنابر على الجهة الثانية من ضفاف بحر الروم ، رفعتي الاستلهام الصامت طوال عشرين سنة الى ذرى هذه المنابر فتسنتها ، لا رسول سياسة ، بل رسول حرية ومساواة واخاء ، وان كانت نبرات صوتي قد تغلغلت في النفوس ابان ذلك الانقلاب وما تلاه من الحادثات ، فما كان ذلك الا اصرخة في فمي من اصوات القبور تهب فوق كل سياسة تنال منها الاشخاص والايام ، فما كنت بالامس ولا انا اليوم بالخطيب السياسي ، انصرفة على فئة او زعامة على زعامة ، وقد اخترت لنفسى السير في قافلة الجهاد الاكبر طلباً لا تنصار النور على الظامة في شخصية الفرد وفي شخصية الامة لانني

اعلم ان القوة العليا لا تغير ما يقوم ما لم يغيروا ما في انفسهم . ونحن وانتم على ضفتي هذا البحر حيث يخفق قلب الشرق فينا لمعات الانوار وحوالنا حنادس الظلام ، والمجاهدون الحقيقيون بيننا هم المنتصرون للنور على الظلمة فينا .

اما وقد اردتم ان اسامركم هذا المساء بحديث عنكم وعننا ، فانتى سأرجع بكم الى عام ١٩٠٩ الى الزمن الذي أتيح لنا فيه ان نكشف عن قروحنا امام وجه الشمس لننكأ صديدها ونداويها .

اعود بكم الى ذلك العهد فالتو رسالة كنت نشرتها في جريدتي لسان الاتحاد عن سوريا ولبنان وفي هذه الرسالة اساس بحثنا الآن .

« ما بين آسيا الصغرى للشمال والفرات والبادية للشرق وقسم من بلاد العرب للجنوب ، والبحر المتوسط للغرب ، تتجلى سوريا ولبنان بسلسلة جبالهما باتجاه ينتهي غرباً إلى البحر المتوسط وشرقاً الى شمال نهر الفرات وجنوباً الى رمال صحراء الشام ، وهذه السلسلة التي تمتد بطولها من آسيا الصغرى حتى بلاد العرب ، من طوروس القاحل الى الصحراء تعرض للناظر أغرب تجليات الطبيعة وأبهى اتساق فيها تلك هي بلاد سوريا ولبنان وفيها بيروت ودمشق وحلب وأورشليم المدائن الأربعة الواقفة كالعواصم لما حولها ، يطوق جبالها الكبيران بسلاسلهما أثلام الاودية العميقة والسهول المستدرة منهما مياه السماء

في تلك البلاد ما ليس في سواها من أنواع التربة والاقليم فهنالك سهول الحر وجبال القر وهنالك السفوح المنخفضة والقمم العالقة بأهداب السحاب ، فأرضنا منبت كل ما في مملكة النبات من غلال وأزهار وأثمار وهي كذلك منبت كل ما تتطلب الحضارة من مراتب العقول والاجسام فأذا ما أوجدت لنا السهول رجال القناعة والجد دفعت لنا الجبال برجال العزيمة والفكر والخيال وأمدتنا الأوساط

رجال المهارة والفنون

لنا السنديان والارز ، لنا الكروم والحقول ، لنا المروج والازهار — فهناك
إذاً القوة والفائدة والجمال .

تلك هي بلاد سوريا ولبنان ، أغدقها العناية مناعة الحياة وبهاها ، ولكنك
لا تقلب صفحة من صفحات تاريخها دون أن تجد عليها لطخة سوداء من مظالم
الانسان وضلاله وأطاعه ... وقد كانت هذه البلاد أرض ميعاد لكل الشعوب
دوراً فدوراً وما بلغ شعب أمنيته منها فاستقر فيها إلا ورفع صوته بالانين متألماً منفيماً شقيماً
ما من شعب ظهر على الارض إلا مرّ بسوريا ولبنان قبل أن يتواري
عن صفحة الوجود مبقياً على تلك الارض آثار جهاده وشقائه وما مرت بها من
الانسانية قفلة إلا تركت عليها تأمها شريداً فكل معسكر غاز لها ترك فيها بقية
مستأسدة وكل حاكم فيها أبقى عليها سلالة تحلم بالتيجان وتطمح إلى العروش .

إن في أصغر الاقاليم من هذه البلاد خليطاً من سلالات العبرانيين والعجم
واليونان والروم وفيهم الظالم والمظلوم والمتحكّمون واللاجئون ، العناصر الضاحكة
والعناصر الباكية ، الأقوام التي تتعصب وتضرب والأقوام التي تتعصب وتخضع
للشقاء . هنالك التركي والعربي والبدوي ، هنالك السني والجعفري والنصراني بعيد
طوائفه والدرزي واليهودي واليزيدي ، مزيج غريب من المبادئ الراسخة في
خلافها والمتلبسة بالتساهل تبعاً لتقلبات الزمان ..

نحن ممن لا يرون عصبية في الدين ولا قومية في المعتقد ولكن من الاديان
في سوريا ولبنان ما يتلمس دعامته في القومية لا في الاعتقاد ومن أبناء هذه
الاديان من ينصرون أخام ولو كفرةً بالحق المطلق على الغريب عنهم ولو مخلصاً
لربه على دين اجداده .

من الاديان ما يوجب على بعض الناس عبادة النار والسيطان ومنهما ما يوجب على أتباعه احتكار الله عز وجل لحسابهم وهناك أتباع يتحزبون لشخصية الاموات فيطرحون دين الله في مهاوى شحناء مات القائلون بها منذ قرون ولم تزل هي حية في القلوب

تلك هي شعوب سوريا ولبنان في دياجر مذاهبها ، وعلى صفحة هذه البلاد الجميلة التي تتدفق العواطف القديمة حتى من قلوب أحداثها تتلمس عبثاً وحدة الثقافة والأميل للتفان على مصلحة ، فان ما تراه فيه من القوم نفعاً يتجلى ضرراً فادحاً لفئة أخرى وما يراه أحد العناصر شجاعة يراه الآخر تهوراً وجنوناً ،

إذا كانت بعض العصور قد أبتقت لنا حب الاسفار ومهارة الاتجار عن الفينقيين واليونان فأنها قد أبتقت لنا أيضاً تراث الربا والمضاربة و تطلب الكسب تحيلاً لا اجتهاداً . وإذا كان عصر العرب قد أبقى لنا الشهامة والألفة فقد مرّ جدودنا بعد ذلك في أدوار أورثتنا القساوة والعنف . وإذا كانت كتبنا المنزلة قد أمرتنا بالرحمة والتساهل فقد علمنا ما علق في هذه الاديان السماوية من المدينيات البائدة وما دس فيها مستغلو حق الله في خلقه كيف نتعصب عن غباوة وكيف نهدم شريعة رب العالمين بأسم رب العالمين .

من هذا المزيج الغريب المتناكر يجب أن يقوم شعب واحد للوطن الواحد ، من هذه العناصر التي تمخض بها الشرق والغرب والجنوب والشمال يجب أن يخرج النبت الجديد والعنصر النير القوي الذي يترفع عن الترهات والاوهام فلا يقوم فيه من يقول لك أن ملكوت السموات مسجل بأسمى ومن لا يعبد الله على طريقتي فهو ابن الهلاك ، لا يقوم فيه من يقول لك أنا صاحب البلاد وما سواي فدخيل تابع لاحق له لا ما أراه أنا حقاً . لا يقوم فيه من يقول لك لا تلعن

الشیطان لانك تهين ضمیری وتعامل بلغنتك على قومی .

فی ذلك الزمان ، ومن یدری متى یكون ذلك الزمان ، حیما یقدر الأ انسان أن یقول الحق دون أن تشور علیه كامنات التعصب والجهل ، حیما یستحیل القلم إلى منجل یقطع الزوان من بین القمح ، فیتمكن المفكر من قتل الترهات دون أن یقتل من أجلها الناس ، فی ذلك الحین یكون العلیل الكبیر قد قارب الشفاء . ان الجهر بالحق حق على المجاهدين فی سبيله ولكن ما یفید الجهر أمام جهلة لم نعلمهم کیف ینسلخون عن جهلهم أولاً .

قبل أن نرمی ببذور الحكمة إلى الارض المستحجرة یجب أن نمزق بالعلم والتهذیب ما اطبقت علیه من جهل وتعصب فنفتح فی جمود تلك الارض اثلام الحياة ومن لهذا العمل غیر التعليم الوطنی الذی یخلق القومیة الوطنیة بسلخه عن دین الله الواحد ما حبكت المدنیات القدیمة حول مذاهبه من بدع التفریق .

ان شقاء بلادنا كامن فی سلالاتها وتعسها راسخ فی ضلال مذاهبها وقد كشف لنا الماضي مكان قروحها وهذه سطور الدماء فی تاریخها محشر العبر لأهل الذكر إن كانوا یعقلون .

انها لبلاد ملأت جوانبها آثار الجور وخبائع الأقتال بأسم القومیة وبأسم الدین ، سرح الطرف على شاطئ بحیر الروم من بیروت إلى صیدا إلى یافا إلى اورشليم واتبع حدود البلاد حتی بلاد العرب فأسیا الصغری فلا تتجاوز هذه الاماكن حتی تمتلئ أبصارك من مشاهد الخرائب والأطلال وهی نفسها سطور التاریخ الدامیة راویة جهل الانسان وتمرده على أن یكون أخا الانسان .

لقد شاهدت صور أول عمارة تجاریة وفتحت مواینها ید الجد فهدمتها أیدی المظالم وبنی الیونان المرافیء فألقتهأ حکومت الترك فی الاجحج وكانت بادیة الشام

جنات البلاد في الشرق ومذخر الخلفاء فأصبحت مرانع المتشردين منذ القرن السادس عشر حتى اليوم .

ان صور وصيدا تلك الأماكن التي انبثقت منها حضارة العالمين وتجارتها لم يبق منها غير ذكر مظلم يكاد يكون الحلقة المفقودة في سلسلة التاريخ . تلك يبلس وانطاكية وحمص والرملة وكل المدن القديمة أصبحت أطلالاً يبنى البائسون أكوأخهم فوق ردومها ويتيه على رمادها أبناء الفقر والشقاء .

ذلك هو المبدأ الذي كنت أبذل الجهود لنشره بين أبناء قومي ، وما هذا المقال يبعث خطرات الفكر منذ ربع قرن إلا صدى خفت انبرات عاليات كنت أقرع بها الاسماع من المنابر لأدعو إلى الاستعباد للحق النير تحملاً من عبودية الضلال والأمم كالأفراد لا تشقى إلا بما منت به نفسها من علل

وما كان حالنا نحن في جهلنا وتعصنا وانقسامنا إلا ما رسمت في هذا المقال وقد نصبت فيه ميزان الحق لا مُمَارياً ولا مستضعفاً أمام أمتي وبلادى ، وقد مرت السنون على العهد الذي تطلعننا منه إلى ما وراء الدستور العثماني من آمال ؛ فإذا بنا تأهون عن المحجة بالتواء السبيل أماننا لا تتواء مناهج الأنسانية كلها منذ نزلت بالبشرية كارثة الحرب العظمى ، وإذا كانت بلاد سوريا ولبنان قد بلغت بعض الشاؤ في التغلب على أدوائها ، فإن توحيد الثقافة لم يزل فيها أمنية قد يتسنى لنا تحقيقها في مستقبل قربه وبعده مقدوران في الغيب المجهول .

أما أتم ، أتم أبناء القطر الشقيق ، وما قطرنا وقطر كم إلا فلقنا قلب الشرق النابض على ضفتي هذا البحر الفاصل بين عالمين وبين مدينتين فما كنتم منذ ربع قرن إلا ما كنا نحن ، والكن روح عباقرتكم قد تمشت فيكم بأسرع ما تمشت في أقوامنا أرواح عباقرتها النسابين ، واننى لا أعرض عليكم رسماً وضعه منكم وعنكم منذ ربع

قرن شاعركم وحكيمكم بل شاعر الشرق العربي وحكيمه ولى الدين يكن ، وأن أصدق الرسوم خطوات الامم هي التي تخطها للأحباب الآتية النفوس الصافية المجردة والاقلام التي لا تباع ولا تشرى .

عندما حكم القضاء بأحجاب ولى الدين عنكم بعد أن وفي قسطى عذابه بنفسه وبكم ، بعلمته وبعلمكم ، لم يشعر بمصاب بلاد الشرق فيه إلا الفئه الناهية التي لا يراها أبناء الزمن الحاضر وهي منتصبه كالجباريين خلقتي المجد القديم والمجد العتيد .

وكان من هذه الفئه رهط من ادباء بيروت فاجتمعوا وقاموا بحفلة تذكار وتكريم للجندي المجاهد المستشهد في سبيل الشرق كله ، وفي هذه الحفلة وقفت وتكلمت طويلا واننى لأورد لكم بعض ما قلت مأخوذاً عن مفكرات لم أزل محتفظاً بها من ذلك العهد .

حنت أخت ميمر على فقيده ميمر بل فقيده الشرق العربي بأسره ، وعددت الأقلام والمنابر خلدات ماثره ، فما عساني ان أقول بعد . أن ما يقوله الأحياء عن الاموات لمحدود ومثل ولى الدين لا يرسم شخصيته قلم ولا يحدد حياته كلام خطيب ، لأن حياة ولى الدين كانت قوة معنوية وشخصيته نسمة من وراء الحجاب تحرك كل شىء في هذا العالم ولكنها لا تتجلى شيئاً في نظر أبناء هذا اليوم في العالم .

يكرم الناس ولى الدين لأنه كان كاتباً شاعراً يشد أوتار القلوب على قيثاره إلهامه ويستنطقها فتشدهو بأغصام السماء ويأمر الألفاظ فتنقاد لمعانيه انقياد الأمواج للعواصف الثائرة ، أما أنا فلا أحمده لبيانه ولا أعظمه لصولة قامه وأن في الأرض لألسنة تستنزل البيان سحراً وكان أولى بها أن يشلها الخرس وان على الطروس أقلاماً تنمق الكلام فترسله درأيتناثر وكان أولى بهذه الأقلام أن تدوسها الاقدام .

أجل ، ليس بيان ولى الدين ما يخلد ولى الدين ، بل المبدأ الحق الذى ساد هذا البيان ولم يسده سواه مدة حياته ، ذلك مبدأ الرجل الحر الذى يؤله من قومه ما

يؤمنون به أنفسهم ، مبدأ الشرق الذي يرى ذروة المجد مرتفعة في الشرق وأبناء الشرق متعامون عنها يولونها ظهورهم مندفعين إلى المهاوى طالين الأنتحار .
اسمعوا ولي الدين يوجه قوارع الزجر إلى نواب الدولة العثمانية عام ١٩١٠ وقد لاحت له منهم بوادر الجهل المستحكم في الأمة نفسها .

« ان عادات الأخصر السالفة لا تصلح لهذه العصور ، نحن لانرضى أن نبقى على جاهليتنا في القرن العشرين ، ان كنتم لا تريدون مؤاخاة المسيحيين أو العرب أو غيرهما ، فقولوا نحن لا نريد أن تكون الدولة العثمانية إلا الأتراك وكونوا حينئذ كمن يتصايحون هنا - مصر للمصريين - واخال هؤلاء اقل شططاً منكم لو فعلتم . »
وما اراد ولي الدين إلا تكون مصر لاهلها ، ولكنه ثار في روحه على فئة كانت تنظر شذراً الى ابناء الامم العربية الذين يرون في مصر عاصمة آدابهم وحضارتهم فيحومون حولها بقلوبهم .

ومن أقوال ولي الدين أيضاً : —

« وهذا الخلاف القائم بين المسامين والاقباط مبيع الى الدمار ، ان الطائشين لا يعباون بذلك فليعبأ به الاقباط ، ان عبيد الالهواء لا يرثون لمصر فليرث لها الاقباط ، ان عهدهم بمصر أقدم وودعهم لها اوثق »

تلك فقرة من مقال ممتع طويل تحت عنوان الشرق الادنى نشرته جريدة المقطم في ذلك الزمان وقد اختتمه ولي الدين بقوله : —

« يا شرق يا مستهل النسب الا دى ومهبط الحكم ويا منبع الفتنة ، اتبته في كل شعوبك ، لقد مرت بك عظات بالغات »

« وددت ان يكون الساعة معي الرجل الحر ذو النفس الطاهرة (فليكس فارس) فنندب الشرق معاً ونرثي عزه ونبكي حريرته ، هو يبكي مع رفاقه في بيروت

وانا ابكى مع رفاقي في مصر فهل تتلاقى نوحات ونوحات اذا انتهت الى المكان الاعلى
ما اورد هذه الفقرة من قلم ولى الدين لاوجه الى نفسى الثناء ، بل لانفر
برابطة الالم لا لام البلاد يشعر بها في هذا الشرق كله كل متحرر من قيود عصور
الظلام وكل طاهر النفس لا يريد لاختوته الا ما يريده لذاته ، ان صوت الميت
العظيم يرتفع شاهداً على اخلاصى ينيل صوتى قوة يعلو بها على ضفاف النيل
ممازجاً بصوات من عرفوا الحق فاناروا الافاق المصرية بمشاعله .

رأى ولى الدين منذ ربع قرن في طليعة العاملين على سحق التعصب والتفريق
في بلادى فوجه الى كلمة منه ومن رفاقه الى والى رفاقي فاجبته بمقال طويل
اقتطف منه الفقرة الآتية :—

« وددت لو اكون معك لنبكى ، فهل انا بعيد عنك يا ولى الدين .

« هب الابعاد فاصلة لمسارح الافكار في اوجها فيصح ان نرى مصر
وسوريا وابنان حيزين ، وهما اوج واحد لعل واحد وكالات واحدة . أليس
كل سهم يصيب احدى الاختين لا يصل اليها الا مخضباً بدم الاخرى .
« ومن اشبه بكم منا ، يا ابناء النيل . بل أية دمة اشبه بدمتكم من التي

اسكبها ، يا ولى الدين .

« هى دموع ولكنها سم وماء حياة على قلوب وقلوب ، ولو لم يكن لهذا الانين
ارعاد في مطارح الاحقاب المقبلة ، لاشفقت على نفسك ونفسى واستصغرت
عليهما موقف الاختين تنوحات على قبر اتنتت الاشلاء بين لحوده .

« هات يدك وانبيك ولكن على عهد ، لنذرفن الدمع ولكن على غير ما تذرغه
النساء المستضعفات . كل عبرة لا تفعل فعل يد الأم يجراح الشرق ولا تعبت
عبت القذائف بالقلوب الجائرة فتلك عبرة نحن منها براء

« ليلعنك قومك و ليلعننى قومى ، ان بين انانيتهم وغيريتنا مجال الخلود ، ولو لم تكن حياتنا من حياة الامم بمعناها الشامل لوقفنا الى جنبهم واخترنا معهم على التجرد المتعب حياة السكون

دعهم يهزأون ويقولون اننا نسيح في الغيوم ، ان من الغيوم تنقض صواعق السماء .»
مرت السنون على هذه النجوى التى تمازج بها دمعان على امتين لم تكن تتقدم احدهما الاخرى فى مضمار النهوض ، ولكنكم خطوتم خطوات واسعة منذ ذلك العهد لان التجارب قد علمتكم فعرفتم ان الاخاء بين عناصركم اساس لمجدكم وتبينتم ان افراد اقوى عناصركم فى السير بالامة الى مقدراتها الاجتماعية انما هو سير الاعرج نحو الهدف البعيد او تحفز النسر الى الاعتلاء بجنح واحد ، اما نحن فقد مرت بنا العبر قاسيات ولم نزل نتلمس الطريق وراء خطواتكم مترددين متثاقلين .
نحن وانتم فى قلب الشرق امة واحدة ان تماكرنا فى حاضرنا نشد بنا الى الاتحاد ما وراءنا من قبور وما امامنا من مهود . بل شدت بنا الغرائز فى حياتنا الاجتماعية والمصلحة فى حياتنا الاقتصادية ، فالقوة الجامعة اصيلة فى القلب وتحت اللسان والقوة المفرقة دخيلة من هوس مضلل وجهل فاضح معيب ، افليست لغة الجنان فى كل الشرق العربى اجنحة ما فى هذه البلاد بسرهما من خطرات العواطف والافكار ، وهل الامهات تحت ظلال الارز وعلى ضفاف بردى والدجلة والفرات ينشدن فوق الاسرة غير انشاد بنات النيل لابنائهم الباسمين على ابواب العهد المنتظر ..
ما الذى يكون وحدة الامم غير الافتخار باجماد واحدة فى التاريخ والتطلع الى عظمة آتية فى ما يترك الاحياء من ذاتيتهم للاجيال المقبلة .

ان الخطباء فى الامم يشعرون بشعور تلك الامم فهم مجلى لما يكمن فيها من الغرائز متنبهة اكانت ام راقدة ، فان من يقف بين الجماعات ليمدها بشعوره مما اقتبس فى

حياته الخاصة ومن تفكيره المنعزل لا يلبث ان تستولى عليه روح الجماعات التي يلامسها فان هوامدّها بعلمه و ارادته فانما هي تمدّه بشعورها الخفي وبما يكمن في فطرتها السليمة وغرائزها الاصلية .

ان قدماء الخطباء في كل أمة يستولى عليهم الاستهواء من الامة نحو فضائلها الثابتة في الغرائز دون ان تؤثر بهم الجهالات والضلالات الطارئة عليها ، لان روح الجماعات المصغية الى بيان مخاطب عزتها ومجدها تقف بغرائزها الباطنة ساعة اصغائها على الاقل فوق نقائص افرادها ومعائب حاضرها ، فتوحى الى المتكلم على منبرها ما يرتاح اليه عقلها الباطن من المثل التي تتجه نحوها في تكاملها ، وهكذا يتاح للخطيب القديم في أية أمة ان يقرأ في عواطفه كل عواطف أمتة المتعاينة عن سفساف افرادها و كل غرائزها الثابتة التي ستتغلب على احوال الامة في آتي الزمان .

وانني لاجد في نفسي ما يثبت اعتقادي بصحة هذه النظرية ،

قبل ان اعتليت منابر سوريا ولبنان ، في الزمن الذي كنت اقيم لذاتي ثقافة مما اطالع ومما اشاهد ، كنت ارى بلادى جماعات متقاطعة يسود التعصب عليها ويحكمها ضلال الجهل وذله ، كنت ارى ابناء كل ناحية من نواحيها منكسرين على انفسهم لا يرون في غير دائرتهم الضيقة لهم موطناً ، وكانت تتجلى لي جماعات الطوائف الدينية فرق جنود استحکم العدا بينها لا تستأنس الفرقة منها الا بمن ينصرها على اعدائها ، وهكذا خفيت عنى الغرائز الباطنة في شعب سوريا ولبنان اذ امتنع على ان انفذ الحجاب الكشيف الذي نسجته اجيال العبودية والاهام فوق الغرائز الشرقية الكامنة ، وكانت هذه الغرائز نائمة في الافراد المشتتين وقد منع الحكم المطلق عليهم ان يجتمعوا وان يسمعوا صوتاً الا في معابدهم مقسمين شرادم وطوائف ، وليس من قوة غير روح الجماعة تتنادى لديها كامنات الغرائز للاستفاقة

والنهوض ، ودام هذا الحال مستمرا على السبيل الذي اختطته له القرون الطويلة الى ان أعلن الدستور العثماني فشاهدت شمس سوريا ولبنان لأول مرة بعد ذرعها السماء مئات السنين على مشاهد التقاطع والعداء ابنا الملل المختلفة والعناصر المتناكرة يقفون في سكرة الحرية هاتفين بالاتحاد والاخاء .

وكان ذلك اليوم للمقدس اول عهدي بار تقاء المنبر فاعتلمته مرتجفاً مدعوراً ، وقد وقف الفكر في دماغى ، وما كان الفكر الذى انزته بالانحناء على ذاته منعزلاً ليجد كلمة واحدة يخاطب بها هذه الالوف المحتشدة وهو ناظر الى ما عهده فيها من تقاطع ونداء ، وجمت دقائق معدودة وانا اتلمس مستنداً التى يبانى عليه فاذا بى احس بتيار يتعالى الى المنبر من الوف العيون المتجهة اليه واذا بسلك خفى يمتد بينى وبين الحشد الواجم وجوى ، سرحت ابصارى على بنى قومي فاذا هم بسيماء لم اكن اعهدتها فيهم من قبل ، وتراجع الزمان ورأى الى ايام المجد القديم وانهمز الزمان امامى الى افاق مستقبل بعيد رأيته على متناول يدي ، وارتفع صوت الجماعات تتكلم غرائم فى فى ، تكلموا فى وتكلمت فيهم فاصغينا جميعاً الى انين الاخوة افاقوا من سكرة اوهام تماكروا فيها واقتتلوا .

وما كنت اجارى الامة فى ضلالاتها لاقول انى استفززتها الى الهتاف لاقوالى بدغدغة اهوائها ، حملت على عيوب الجهل والتناكر فيها فصفقت لانها فى اجتماعها تكشفت ضلالاتها عن غرائرها السامية فكانت كل فئة تفتخر باطراح ما استترت به مئات السنين من اطوار الاخلاق وباليات العادات والمعتقدات الكاذبة السخيفة ،

ومنذ ذلك اليوم تاملت للمنبر استوحى منه غرائز بلادى متلقنا عنها كل فكرة صائبة وكل شجاعة ادبية لاصلاح ظواهرها السيئة بباطنها الجميل ،

ولتسديد خطاها المضللة بما لا تشعر به إلا مجتمعة من المبادئ السامية الكامنة فيها .
ان روح الجماعات هي ا شبه القوى بالعقل الباطن في الفرد ، فضميرها كضميره
ينتبه مكذبا ما تنتهجه في حياتها المسيره بالعادة من الضلالات ، واخطيب المتصل
بهذه الروح انما هو ضمير الامة تصفق له مجتمعة وتلغنه مفرقة مبددة ، فهو حبيبها
في آملها وعدوها في تمتعها بجاضرها ، لذلك كنت في كل الادوار التي مرت عليها
امتي ، ككل حملة المشاعل في كل الامم ، اشد بالقلوب الى يدي المرتفعة بالنور
قلوباً منتبهة الى ما كمن في غزائر هاجتي اذا تفرقت هذه القلوب عادت الى الانغماس
في عاداتها حاسبة ان حماسها كانت سكرة وان آملها كانت طفرة وجنوناً ، ولم
رأيت الايدي نفسها التي انطبقت بالتصفيق لآيات التساهل والثورة على الضلال
انطق بها على المنبر تمتد بنصال السعابه والبغضاء الى ظهري لتطعنني مخفية في الظلام
كانها تاتقم لضلالها مما نهبت فيها من حق كامن في غريزة روحها .

ولعل من اغرب ما شاهدت في حياة المنبر ، مشهد رئيس كبير من رؤساء
المسيحيين يعانق رئيساً كبيراً من رؤساء المسلمين بين خطابين على مشهد من الامة
المجتمعة ساعة اتباه الغرائز الطيبة ، يعود كل منها الى محيطه متلفعاً بما تعود من عقائد
دخيلات ، فيتهمني الاول بالكفر لتساهلي ويسند الاخر الى التزلف الكاذب لقومه
ومرت بنا السنون الطويلة مملوءة بالمصائب والعبء ، وانا الى جنب الزئيمة الحية
النابهة من اخواني نعمل على استخراج ما كمن من الحق في الامة لمقابلة باطلها ،
وان انا انخر امامكم هذا المساء بانني امير منبر في بلاد بين قومي فان هذا الفخر
لارفع جداً من ان يتدنى الى تناول الاستكبار والاعتزاز ، ان امرء المناير في
البلاد الماثلة الى الشفاء من ادوائها ليسوا هم الزعماء الذين يقودون الجماعات فتتبعهم
ليأخذوا من ضعفها قوة ومن مذلتها امجادا . نحن العاملين على احياء الغرائز السامية

القتل الضلال الدخيل انما نحن اضعف الناس حولاً في قومنا ، فساعة المجد على
المنابر تتبعها ساعات من الاضطهاد الذليل المستتر لانه يستحي من نفسه ان يظهر
امام الشمس وان انا اجزت لنفسى ذكر عهدي الطويل بمنابر سوريا و لبنان فاذلك
الا لا قول لكم ان ما اسمعتم وما سأسمعكم اياه هذا المساء ليس هو شعور فرد
وتفكير فرد بل هو شعور امة وتفكير امة وقد رايتهم كيف تستهوي روح الجماعة
من يقف بيانه عليها

نحن هنالك ، لا نسمع كلمات (مصر، الهرم والنيل ووادي الملوك) الا نشعر
بهزة في اعماق النفس وبعزة بعيدة الغور في اعماق غرائزنا، واسماء اعلامكم امواتاً
واحياء لا يهتف بها هاتف في اجماع دون ان تشمل روح ذلك المجتمع بنشوة المجد
يا كياً ومبتسماً .

ان شجرة التبوغ لا تعتلى في بلادنا وبلادكم ما لم تتغلغل جذورها في تربتنا
وفي تربتكم ، فما نحن فيلسوف مصري مفكراً تحت ظلال ابي الهول والاهرام الا
امتدت اليه اظلال بيت المقدس وتدمر وبعليك وما تغنى شاعر امام انسياب
مياه النيل الهادي القوي دون ان تهب على جبينه نسمة من نسائم الارز الخالد
الجبار .

ونحن، هل نضجت عقولنا وقلوبنا في فجر نهضتنا الا تحت سماءكم وعلى ضفاف
نيلكم؟.. اي فيلسوف عندنا لا تسود افكاره حكمة مصر القديمة واي شاعر بيننا
لا يستوحى انوار الشرق المتوهجة في افاقكم وآفاقه .

لن اعود بكم الى التاريخ منذ عهد موسى والصديق الى العهد الجديد ايام
ابراهيم، ان اثار تلك العهود راسخة في النفوس متجلية عند كل سانحة ، وما تتخذ
الادلة على المشهود .

وان حق عليّ ان اذكر دليلا فلن اذكر الا ما شهدت وما سمعت ،
شهدت وقفة لسمو البرنس محمد علي منذ ثلاث وعشرين سنة ، عقيب اعلان
الدستور في قاعة الطائفة المارونية في بيروت ، بعد ان القيت لدى سموه ما لقتني
اياه روح الجماعة من اجلال للاسرة الممثلة عظيمة مصر ، ولا تزال تلك الوقفة ماثلة
في الذكر تزيد ما أهمته رسوخاً ، وما كان سمو الامير بما تجلي في كتاباته ونبراته
ونظراته من عطف على ابناء بلادى الا ممثلا لما تضرر روح مصر انما من ولاء
وأخاء .

وأسعدت ، في تلك الايام بلقيا ، الخطيب الكبير المرحوم علي فهمي كامل
شقيق خطيب مصر بل خطيب الشرق العربي المرحوم المبرور مصطفى كامل ، وكانت
حفلة من حفلات الدستور في مسرح زهرة سوريا في ذلك العهد فصعدت مع علي
إلى المنبر لافتح لبيانه سبيلا الى روح قومي فما نطقت باسم مصطفى كامل حتى علا
هتاف واحد كأنه من فم واحد ، هتاف ساد تصديداً الا كف خفقة مع القلوب
وتنصت القوم الى بيان عليّ يسمعون نبرات أخيه سيد منابر مصر ، فاذا بسوريا
ولبنان تدفعان بروحهما الى بيان عليّ ، وعلي ساهر مسحور يتحول الكلام في فمه
صوراً ورسوماً ، وما كانت تلك الصور والرسوم الا مشاهد ما تعلنه الفطرة
المجردة وما تستره الضلالات في الامتين .

هذان الصوتان ، أحدهما يعلو من قرب العرش وثانيهما يرتفع من روح
الشعب في مصر كانا أول النبرات السامية يسمعونها أبناء بلادى عند بزوغ الشفق
بعد ذلك الليل الطويل الذي امتنع فيه عليها أن تسمع وأن تتكلم .
وما كان ما سمعته وما تكلمت به الا أصوات الغرائز الشرقية الكامنة ،
والأمم كالأفراد تبقى شخصيتها مجهولة منها الى أن يتسنى لها الانحناء على ذاتها

والرجوع الى كوامنها، وإذا كان للفرد أن يدرك فطرته منذراً متمسكاً خفياً
نفسه وهو ساكن صامت فليس للامم ما للفرد من قوة الادراك في الصمت
والسكون، ان الامم التي لا منابر لها ولا خطباء تبقى روحها مشتة في صدور
أبنائها وما تنجلي أرواح الجماعات لذاتها الا في صحافتها وعلى أعواد منابرها.

ان بلاد لبنان وسوريا قد بدأت تعرف نفسها منذ أطلقت الكامة السجينة
فيها فانتبهت الغريزة الواحدة في محتلف عناصرها وتلفتت كلها مجتمعة الى أرض
مصر مشعرة بأن عندها الكريم أقنوم لا ينفصل في حياته عن حياتها
ومنذ ذلك الحين، بدأ العراك بين جهلها ومعرفتها، بين تساهلها وتعصبها
بين حقها وباطلها. ومنذ ذلك الزمن، الزمن الذي اشربت فيه روجي غرائز امتي
شعرت بالالم المروع المقدس تجاه كل تناكر يتجلى بين عناصر بلادي وبين تلك البلاد
وكل بلاد شرقية عربية لاني اعتقدت بان ما تطوي عليه نزعات النفوس اذا تحررت من
التضليل انما هو الاتحاد لتكوين الحياة واحدة في الاداب والاجتماع لكل ابنائها
على اختلاف مذاهبهم في دين اراه واحداً وعلى اختلاف مواطنهم في وطن اراه واحداً
يا ابناء القطر الشقيق،

على أثر اعلان الدستور العثماني، سرت الى الاستانة، عاصمة الشرق الكبرى
في ذلك لزمان، وأنا اعمل بين الاتحاديين مجريديتي التي كانت تصدر في بيروت
وبخطبي ارفع لها في كل جهة من بلادي منبراً، على تشديد روابط الاخاء بين
العناصر التي كانت تقوم منها الكتلة العثمانية، ودخلت يوماً المجلس النيابي العثماني
فحضرت جلسة من أهم جلساته وأنا اتبع بكل قوى الفكر ما يدور من مناقشات
يتوقف عليها مستقبل الدولة العثمانية، وتوقفت الجلسة عند العصر واذا بصوت
المؤذن يرتفع من مأذنة القصر بكلمات الشهادة الخالدة نبرات عربية تحملها نغمات

الحجاز كأنها نجوى الروح خالق الروح ، اطرفت خشعاً رافعاً نفسي الى الله ، فاذا
بنزعات القلب تتجه نحو بلادي بما اثارته الفطرة فيها ، واذا بقطرات الدمع تسيل
على بطن من محجري ، فشعرت اذ ذاك ان دين ما بعد الموت يجاوره في الروح دين
آخر هو دين الحياة ، وان معنى كلمة الشهادة قد رفع بنفسي الى الحق ولكن
مبناها العربي قد شد بالقلب الى بلاد العرب مستنزفا الشؤون .

وما كان مثلي لو بقي منفرداً بنفسه على أعلى جبال لبنان ليتأثر تأثري
ويبكي بكائي ، ولكنني كنت حياً بروح جماعات بلادي بعد ان نفذت الى أعماق
شخصيتي على منابر الامة ، فما كانت تلك القطرات التي سالت من عيني وأنا أسمع
أشرف وأجمل ما نطق به عربي الا دموع تلك الامة كلها تبكي لاستماتة لغتها
ونزوحها عن مواقف ادارة حياتها .

ومرت السنون حتى انقشع الغيب عما لم يتوقعه فكر من فوادح الحرب
الكونية التي أخرجت دائرات الحوادث عن محورها القديم ودفعت بالشعوب كلها
الى مسالك جديدة في مقدراتها ، وكانت سنة ١٩٢١ ، فاذا الانتداب يستقر في
بلاد سوريا ولبنان ، وإذا بالناهين من الامة يعودون الى العمل على لم شعث هذه الامة
وتوحيد هدفها ، ورأيت ان العدد الوفير من ابناء وطني مشتت في المهاجر قوة
أدبية ومادية يمكنها أن تكون حجر الزاوية في البناء الجديد ، فسرت في رحلة
قصدت بها تامس روح تلك الجماعات الشرقية في مهاجرها وفيها مجسم حمتنا وصفوة
مزايانا ، طامحاً الى القيام بقسط من واجب تشديد الروابط التي فككتها النوائب
والحادثات ، بارحت بيروت ، معلقاً أبصارى على الجبال العالية تتوارى وراء الافق
الازرق ، وفي القلب غصة الفراق ، غصة مثلت فيها الام كل هؤلاء الالوف من
أبناء الوطن وقد ذهبوا يضربون في مجاهل العالمين وعلى أحداقهم هذا الرسم الاخير

يستطعونه من رسوم آمالهم العائرة وأحلامهم المبددة .

مخرت السفينة العباب حتى رست في ميناء الاسكندرية فنزات فيها أطاء
لاول مرة أرض مصر التي كان مجدها ملء فؤادي وذكرها ملء في ، فخيّل اليّ
انني ألاقى فيها الوطن الذي بارحت ، وأقاعت السفينة بي في اليوم التالي رافعة
مرساتها من تراب الشرق فوقفت معلقاً أبصاري على ذراعي الاسكندرية منبسطتين
على صفحة البحر المتوسط الفاصل بين الشرق والغرب ، فرأيت فيهما اشارة الوداع
من كل هذه الشعوب الناطقة بالضاد وتمهتت روح الجماعات المستوية عليّ ، فشعرت
بانقطاع نياط في القلب هو آخر سلك يشده بأخر بقعة من حدود أوطاني ، حينئذ
بدأت أن أكون غريباً

وعندما حطت الرحال على أرض العالم الجديد ، ماوقفت مرة على المنبر ،
أرسم بالبيان الباكي أشباح البلاد المهجورة لأبنائها النازحين ، الا انتصب الهرم
في ناظري تحت ظلال الأرز وارتفعت حولها قباب بيت المقدس وانصبت مياه
دجلة والفرات وتمازجت خيالات جنات دمشق وجنائن حلب وهبت النسائم من
لبيل لبنان وأنفاس الصحاري . وما كنت لأرى كل هذه البلدان والمشاهد مجتمعة
على مثل هذا التقارب وأنا أتقل بعيداً عنها . لقد كنت متشرباً روح الجماعات
بما كمن فيها من عواطف وغرائز ولكن البعد وحده في الغربية تمكن من أن يجمع
في البصيرة والبصر كل هذه الارض التي حفرت العوادي بينها أثلاماً .

هنالك في البلاد السحيقة حيث تحشر شعوب الارض كلها ، وتصدع الاثير
نبرات الامم ، إذا التقى ابن لبنان وابن مصر أو العراق أو الحجاز ، يشعر الغريبان
باستئناس الأخر بأخيه ، ويقفان خاشعين أمام هذا السر السامى المتأصل في ابعاد
الدهور وهو يتجلي في كل حين عاطفة في القلب وكلمة تحت اللسان .

ماست معكم هذه المرحلة الطويلة ، أيها الاخوة ، إلا لتقف أمام ما كمن
فيما مواجهين به ما يدور حولنا ، فإن أتم شعرتم مني بما أشعر منكم من صفة الغريزة
والاخلاص ، مجردتم معي عن كل دخيل في عاداتنا وأخلاقنا ، فترجع بآلنا من حق
الحياة الى السبيل السوي الذي تتلمسه ارواحنا وتعمينا عنه ضلالات حاضرنا .

اننا متفرون متقاطعون على ضلال في أدياننا ، وفي أوطاننا وفي نظم مجتمعاتنا
وهذا التقاء يحول دون تمتع كل فئة منا بالحياة على ما يلائم غرائزنا ولا معنى لحياة
قوم ضلوا السبيل في دينهم ووطنيتهم وجمعتهم .

أما ديننا في مذاهبه السماوية الثلاثة فهو واحد من حيث الايمان بالله وباليوم
الاخير وما تختلف صلاة الموسوي الى ربه عن صلاة العيسوي والمحمدي وكلهم
لا يرى في دينه ما يأمر بمنكر أو ينهى عن معروف .

ان الاديان في الشرق لا تحول دون اتفاق ابناءه ومن رأى في الانجيل
والقرآن ما يدفع بالاشقاق ويؤدي الى خلاف فقد جهل حقيقة الانجيل والقرآن
وكلاهما الهام الحق المطلق يتعالى عن ان تتناوله فكرة انسانية باصلاح وتحوير ،
ليوئي المسيحي وجهه شطر الشرق وليوئي المسلم وجهه شطر القبلة ، انهما
لجهتان متلفتان في الابتداء ولكنها ينتهيان الى وجهه الله الحق والحق محور
الكائنات وقطبها .

أي خلاف يمكن ان ينشأ بين ساجدين خاشعين يرتفعان بالروح الى الدائرة
التي تضمحل فيها اهواء الانسان وسفاسف الحياة ، بل أي موحد لله يشرك بوحدة
الانسانية دون ان يصبح مشركا بالله نفسه .

ان اتباع الاديان المختلفة في مذاهبها على الارض كالواقفين عند قاعدة الهرم
تتنكر الفئة المائة لتظر الفئة المقابلة لها على بعد المجال ومن نهض بنفسه من الفئتين

سألكا مذهبه بالاعتلاء الى الذروة لابدله أن يلتقي على نقطة موقف واحد ومن يرتقي ارتقاءه من الجهة المقابلة .

ان الارواح المتشاقة وحدها تتناكر في دينها لانها رازحة لا تريد نفض التراب عنها فهي تنظر الى الذروة من اعماق موقفها وتظن انها بلغت الاوج الأعلى فكأنها في وهمها تريد استئزال الله الى شركها بدلا من الاعتلاء طلباً للوحدة فيه .

أبي الله ان يكون ما انزل من وحي للناس مصدرا لشقاء الناس ، ولكن الاديان لم تسلم في تنظيمها للحياة من شوائب المدينيات التي ارادت اصلاحها ، فان تلك المدينيات لم تنقرض دون ان تترك لله مجتمع ميراثا ثقيلا من ترهاتها .

ان الانسان شديد التعلق بماضيه من حيث مذهب حياته ، فاذا هان على العقل ان ينتقل في اعتقاداته من ضلالة الى حق فان تحوير الحياة وفقا للزعات الجديدة لمن اصعب الامور .

اذا كان موسى قد تمكن من ان يهدي الناس الى عقيدة جديدة من التوحيد دفعت بهم الى احتمال الاضطهاد ومواجهة الموت ، فان هؤلاء الناس قد أرغموا عقيدتهم في حياتهم فاذا مروا في صحراء تيههم العجل الذهبي الذي كان خياله لم يزل مساندا على غرائرهم

واذا كان عيسى قد حرر الروح من قيود الطقوس وجعل الانسان كاهنا لنفسه في هيكل حده الافاق وسقفه السماء ، واذا كان قد وضع المرأة في مقام من الصيانة اعتبر فيه النظر المنحرف اليها دنسا ، فان المدينيات التي اراد اصلاحها الصقت باتباعه في حياتهم ما لا يصح معه وصف تلك الحياة بالمدينة العيسوية

واذا كان محمد قد قدس حياة الفرد بالجهاد الاكبر ودعا الى سيادة العقل على النقل وتبديل الاحكام بتبديل الازمان وحرر المرأة من ذل الجاهلية ، فان حياة

اتباعه الاجتماعية لم نزل تشوبها ضلالات المذنبات التي اراد اصلاحها فلستبقت
تلك الحياة على كثير من مفسدات الجاهلية والفرس واليونان ما لا يصح معه وصف
تلك الحياة بالمدينة الاسلامية

وأن يشك الشرق اليوم تبلبل أحواله الاجتماعية طالباً اصلاحها فما كان شا كياً
أديانه وما يطمح مفكره الى تناول الكتب المقدسة بنقد أو تعديل فان ما فسد
فيها ليس من هذه الكتب بل مما حبكته كل فئة منا حول كتابها من بدع في
الحياة تناقض مبدأ الحياة نفسه .

أما وقد أتيت بهذا التمهيد ، فليسمح لي الاخوة الذين تخيروا الاصغاء الى
أقوالي ان أواجه معهم بكل صراحة وحسن نية مالمصق بمجتمعاتنا على اختلاف
أشكها من خصائص استحكمت في النفوس وحالت دون الاتحاد الاجتماعي المنشود
ولا بد لي قبل الدخول في لباب الموضوع من الجهر تكررأ بانني بغنى عن
تناول السياسة والدين في هذا المبحث فالمسألة التي نعرضها على الفكر الآن انما هي
مسألة اجتماعية يتوقف على حلها صلاح المجتمع بكل أقسامه .

ان لكل أمه حية مدنية خاصة تتفق وغرائزها وثقافتها ، ولا ترى أثر هذه
الوحدة في الامم الراقية فحسب بل انك لتراها متجلية في كل مجتمع طبعته السلالة
والاقليم بطابع خاص فعاش مقرأ قواعد أصبحت دستوراً لحياته فكفل هذا
الدستور حق الكل وسعادة الكل

أما هذه الشعوب المنتشرة على ضفاف البحر المتوسط وهي نواة ما سيتكون
من الثقافات في الشرق العربي كله ، فاني أراها واعلمكم ترونها معي بابل القرن
العشرين في هيأتها ومناحيها الاجتماعية .

ليتجرد المفكر مناعماً اورثه الاعتياد من المناعة وليقف ساعة في أي محيط

يختاره لاستقراءه من هذه البلاد ، فانه لا يلبث حتى يشعر بدوار يستولي على رأسه
وبغصة تقبض على قلبه ، لأعلم إذا كان بين سامعي من اقتحم هذه التجربة ، أما
أنا فقد قتت بها مراراً على مختلف بقاع هذه البلاد العربية التي لا ترى غرائزنا الاصلية
في سراها لنا وطناً ، فكنت في كل مرة انسلخ فيها عن عقلي الباطن في هذا الموقف
أرى نفسي كالعريب التائه المروع .

واليكم ما رأيت وما سمعت وما ترون انتم كل يوم وتسمعون
روما القديمة بنساء نصف عاريات ، ترشح الانوثة من اجسادهن ، وفي نظراتهن
وقلحة الرجال وعلى شفاههن ابتسامة احتقار الحياة ، الى جنبهن رجال يصعب عليك
التصديق بأنهم أزواج أو أخوة أو لائك النسوة ، وإذا ما تحوّل نظرك الى جهة
أخرى فقد لا يذهب بك خطوات الا تشعر بالجاهلية تئيد البنات في الاطيار بدل
التراب وراء الجدران المحكمة لا ينفذ النور اليها الا من شبكات الحديد فكأنك
من هذه المساكن امام سجون المجرمين

وإذا ما سرحت أبصارك على الطرق فانك مستعرض مدينة الفرس وبدواة
العرب تمر بهما مدنيت الغرب الحية والمنقرضة ، أشباحاً متناكرة كل منها يحدج
الأخر بلفقات الاستغراب والاحتقار .

ومن غرائب ما شاهدت ، رجل يداج تحت جناح الظلام من يدقه المشبك
بالحديد على أربع نساء تاركا وراءه عصر الجاهلية والفرس متهاقناً على المجتمعات التي
يكفر بها في عقيدته متمسكاً فيها ما أبتقت مدينة روما البائدة من ملذات الحواس
المضللة التائبة .

حسي أن أستعيد الى احد اقم ما انطبع عليها من مشاهد وان اكشف لكم
ما في قلوبكم من جراح لاستوحى من روح جماعتكم القول بان أمة هذا حالها في

عقائدها الدخيلة على غرائزها انما هي أمة شقية مضللة يسود الشقاء على رجالها من نساءها ويشغل الويل على نساءها من رجالها .

ان الامم لا تتكون من اجتماع رجال تتنافر مناباتهم وبين مساكن فئاتهم مجال المهاوي السحيقة البعيدة الغور .

وانى لحامل الجاهلية في تخلفه ان يتفق ومن ادخل مدينة قيصرية روما القديمة الى اعماق روحه ؟ . . .

ان هذا التنافر الذى ينوء علينا بالنوائب انما هو منشأ العلل كلها فى حياتنا ولو اننا نرجع الى غرائزنا المستقرة فى أعماق فطرتنا لاجعل البعض منا أن يتلمس عفاف أخته وزوجته فى تعسفه وارهاقه ، ان الخلق العربي ليا بى ان يرى صيانة المرأة وعفافها يتجلىان فيها صنيعه الاكراه دون ارادتها واختيارها . ولو اننا نرجع الى غرائزنا لاجعل البعض الآخر منا أن ينزل بالمرأة من مرتبة الام المقدسة الى مرتبة الدمى الحسان او جدت للهو والافتتان .

ان عطاء المصلحين قد قضوا على كثير من سخافات الجاهلية وعادات الفرس على ضفاف النيل ، ولكن ضلالات روما وتقاييد الغرب الحديثة التى يبكي لها عقلاء الغرب ومصلحوه لم تزل مهاجم الفئة المخدوعة بنظم الاجتماع الناسية أو المتناسية غرائزها الشرقية وما فى كتبها من روائع الطهر وآيات العفاف .

لقد رفع قاسم امين صوته فتلته اصوات عالية ذهبت بالحجاب فى الاصوات من الجهة المقابلة تستنزل من الشمم العربي اوشحة تستر هذه الصدور والنحور وتصون متكأ الاطفال من رؤوس الغرباء تجارى الاقدام خفة وهو سآ فى مراقبها؟ ذلك هو داؤكم ، وذلك هو داؤنا ، فعبثاً تدعون وندعى اننا أمة أو شبه أمة مادمننا العوبة بين ساعدى الافراط والتفريط ، ان الامم التى بلغت قمة المجد انما هى التى

توحدت مناحي حياتها في نظم اجتماعها ، وخير الامة ان تتمشى على سبيل ضلال واحد من ان تنهج أجزاؤها مناهج مشعبة من السداد

ان الذين تكشفت لهم غرائزهم عما تجهله الاقوام في اندفاعها بقوة الاستمرار هم المسؤولون أمام التاريخ باعلاء القبس الهادي ، وما مصر وهي في مقام الرأس المفكر من كل هذه البلدان الشرقية العربية المائلة الى النهوض الالمثال الاعلى الذي يستهوى شكله نزعات الاقوام التائهة ، فاذا ما تقدم المتأخرون فيها نحو القمة وعاد المتدهورون منها الي المنحدر أدراجهم من الجهة الاخرى تكوّنت على هذه الارض العظيمة الامة الجديرة بان تصبح نواة للامم النابهة المتطلعة من الجهات الاربع الي ذرى الاهرام انتم ونحن لا يحول بيننا حائل الا الحائل نفسه الذي يقطع الصلة بين أجزاءكم وهو نفسه يبدد أجزاءنا ، فاذا ما عدنا وعدتم الي غرائزنا المسترشدة فغدونا نحن نحن وأنتم أنتم يقف التاريخ على اعتزاز بنا وبكم .

وما أرى لكم ولنا من حياة الا بالاستقرار على مدينة نحن متجهون اليها بما كمن فينا شاءت عادتنا المضللة أم ابنت ، فان الرجوع الي مدينة الفرس أو التمسك بعادات الجاهلية لأمر هو العبث بعينه والاندفاع الي المدينت العربية انما هو سكرة من السكرات التي بداء الغرب نفسه يستفيق منها ، وما ذلك الاندفاع الموقت يمتفق وكامنات الغرائز ليسير بنا الي هدف معين نقف عنده ، فان الاخذين بهذه المدينت من بني اقوامنا يشعرون هم انفسهم في اعماق فطرتهم بانهم قد أضاعوا شخصيتهم دون ان يتمكنوا من ان يستبدلوا بها شخصية من يسرون وراء تقليدكم فالراقص منا لا يقدر على تخدير غريزته الشرقية عندما يضطر للتوازن أن يرقص أمه واخته وزوجته

والكاتب منا بلغة أجنبية يملك زمامها يشعر بأحطام جناحي الالمعية فيه، فهو

ان تخطي الاجادة لا ينال مرتبة الامعية ،

والمدعى الطرب على نغمات الغرب لا تنال هذه النغمات منه سوى خطرات
فكره أو خفة قدميه ، أما قلبه الذي تحجر على نغمات غريزته فيبقى أبداً متجمداً
على صقيع الموت

وأولئك الذين تحدروا من محيط ساد فيه ضلال الفرس القديم باستعباد المرأة
ان هم انفوا مما احاط بهم فأنهم لا يرجعون الى غرائم السلمية لاختيار الحالة الاجتماعية
التي توافقهم بل يندفعون بعواطف التمرد المريضة الى الافراط المقابل ، فاذا ما
شاء ابن الرجل ذي الاربع الزوجات ان يتزوج سار تواء الى اختيار الفتاة المترجلة
من بنات الغرب الفتاة الغلامية التي ينال الغرب منها وأقامها صنماً لقلبه للتمرد، وهكذا
يجد الابن في الافراط ما وجده أبوه من شقاوة وبؤس في التفريط
وما أجد مثالا لضلال الشرق افصح بياناً من مثال هذا المتألم المتمرد يطلب السعادة
في الانتحار وينشد انقاذ نفسه فيهلكها

الفئة الناهضة الحية في القطر المصري تعرف هذه الحقائق وتعمل على انهاض
الامة من كبوتها ، فالحالة الاجتماعية التي يجب علينا ان نستقر عليها انما هي الحالة
المستمدة مبادئها من غرائز الشرق ومن وحي انجيله وقرآنه .

هذه حالكم وحالنا من الوجهة الاجتماعية ، اما اتم ونحن من حيث وجودكم
على ضفاف النيل ووجودنا على الضفة الثانية من البحر المتوسط وقد أصبحنا نحن
بلدانا يتوهم بعض ابناءها انهم على قوميات مستقلة تتراحم وتتنافس ، فاني لا أجد
مثالا أورده عنا ينطبق علينا كلنا الا مثل الاخوة مات عنهم الاب الجامع الشمل
بالنسب الشريف العريق القدم فتفرقوا على ارض ميراثه المقتسم ، وداموا أخوة
يتساندون ويتناصرون حتي اعبت بينهم خطرات الحظوظ ففاضت بالخيرات أرض

بعضهم وأجدبت ارض الآخريين ، فاصبح العاثر بينهم يفاخر بانتسابه الى الواثيين
السابقين في حين ان هؤلاء ينكرون انتساب المقصرين اليهم

هكذا نحن نقف صفاً طليعته مصر ووراءها لبنان ووراءه سوريا ووراءها
القبائل المتوغلة في أرض الشرق العربي الى اطراف بحر الرمال ، وقد أصبح القوي
منا يرى في أخيه الضعيف إذا أمّ داره دخيلاً يستنكر عطفه وولاءه .

لقد قال البعض منكم في مصر - اننا أبناء الفراعنة ، واننا تاريخنا المستقل ومجدنا
المتغلغل ما وراء التاريخ الحديث ،

وقال بعضنا في لبنان - نحن ابناء المردة ، شعب لا ينتسب الا الى نفسه ،
فما لنا ولمن يقفون وراءنا من الشعوب ،

وقال بعضنا في سوريا - نحن ابناء المدينة القديمة فما لنا وللبداوة وشؤونها
ووقفت القبائل بعضها ازاء البعض الآخر يتصل قواها من ضعيفها ومتقدمها
من متأخرها ،

ان الامم التي تسكر المتقدم فيها عزّة حوالها انما تستند الى زائل متخلية عن دائم
ان الامة المتجهة الى الاعتلاء على سلم الجهاد الادبي والمادي ، لا بد ان تسير
أجزاءها فئة تتقدم فئة فان مدّ المتقدم لمن وراءه يد المعونة بلغ الجميع القمة ظافرين
وان ترفض الصاعدون تحتم عليهم السقوط وكان ارفعهم مقاماً أشدهم تألماً في انحداره
ان المشعل الاقوى توهج في الشرق هو في يديكم يا ابناء النيل فامدوا مشاعلنا
المتضائلة في لبنان وسوريا ليمتد هذا التوهج الى ما وراءنا وحوالنا من شعوب

أقيموا الحضارة الانجيلية القرآنية المحررة في الغرائز الشرقية السامية تتبع
خطواتكم الامة المفرقة قبائل وشعوبا

ان فوق عرشكم الاسنى مليكا ما تجلت غرايز الشرق وعزته بقلب اكبر من

قلبه، فكونوا مجسم ما في هذا القلب العظيم من نزعات
أيها الاخوة، قبل ان بارحت لبنان الى ارضكم، سمعت احد اللبنانيين يقول
معتزاً - ان لبنان قد بلغ درجة من الرقي يجب عليه وهو عليها أن يدير ظهره نهائياً
لآسيا ويتجه شطر اوروبا،
فقلت له، - ان الله قد أوجد لبنان مستقبلاً لشمس الشرق فان هو اشاح بوجهه
عنها، امتنع عليه ان يكون رأساً في الشرق إذ يسبح ذنباً للجهة التي يستقبلها
ابي الله يا ابناء النيل ان تدير والشرق ظهوركم وانتم الرأس الاكبر لهذا النسر
الذي لوت الدهور جناحيه واكنها لم تحطهما.



« ٢ »

الثقافة الشرقية العربية

تحديد الثقافة والفطرة - مميزات الامم الشرقية العربية - الحوافز
الموروثة تجاه الارادة الحرة في الفرد وفي المجموع - فيلاسبازا الشاعر الاسباني
الاشهر ورائيه في الفطرة العربية - الامة المشردة ، آدابها وشعرها وتقاليدها -
مثال الفطرة الشرقية العربية الشاعر الكبير المرحوم فوزي المعلوف - البلدان
العربية ماضيها وحاضرها تجاه الالهام الباطن - اللغة واثارها في التصور والعبقرية -
الموسيقى العربية ماهي وما يجب ان تكون - تقمص روح المدنية في الجماعات -
الثقافة العربية في ارواح العباقرة وفي طبقات الشعب - الدين والقومية -
المهاجرون من البلاد العربية وموقفهم في غربتهم تجاه فطرتهم - النزعات
المقدورة وحياة الامم - المدنية المنتظرة ، مطلعها وما ستكون :-



الثقافة لغة يشمل معناها التعليم والتهذيب ، والذي اراه انها من حيث
الوضع، وهي تعني التقويم مادة والتطبيع معنى ، لا ترمي إلا الى تسديد العواطف
والاميال دون أن تتناول التعليم ، ما لم يقصد من التعليم التدريب للشعور خاصة
فان العلم بنفسه انما هو نتاج الاستقراء المجرد ومركزه الفكر فالحساب والكيمياء
وعلم الهيئة وعلم طبقات الارض الخ. انما هي علوم وضعية لا علاقة للتهذيب بها
فهي فوق الثقافة أو دونها ولكنها على كل حال بمعزل عنها لان العلم مشاع لكل
الامم ولكل الافراد يتفقون على اوياته على ما بينهم من اختلاف بعيد في
نظريات الحياة في حين أن الثقافة مستقرة في الشعور فهي « دماغ في قلب »
لا قانون ولا قاعدة لها لانها راسخة في الفطرة، والفطرة في الفرد كما هي في الامم
ميزة خاصة في الذوق واختصاص في فهم الحياة والتمتع بها ، فإذا كان العقل رائداً
لبلوغ الحاجة فليست الفطرة إلا القوة المتمتعة في الانسان بتلك الحاجة بعد بلوغه
اليها . فالعقل اذاً عام والفطرة خاصة ، وكما ان لكل فرد ثقافته التي تتجلى فطرته
فيها هكذا لكل امة ثقافتها المستقرة في فطرتها . وما الفطرة إلا الصفات التي
تتكون منها شخصية الانسان كالعطف والنفور والشجاعة والجن والبخل والكرم
والأخلاص والختل . تلك الشخصية إن هي إلا اللوح المسطور الذي قدرت فيه
على الانسان حياته ، وما ارادة الانسان إلا مظهر لهذه الفطرة .

اذن فالارادة سواء كانت في الفرد أم في المجموع انما هي مظهر الفطرة
الكامنة ، فهل الفطرة مقدورة أم هناك حرية الاختيار .

لقد اجمع سقراط وافلاطون وارسطاطليس من فلاسفة الاقدمين على أن
الانسان مسير لما قدر له بحفز فطرته وقال ابقرراط وبلوتارك أن في مراحل الحياة

مواقف يتمكن الانسان فيها بأرادته الحرة أن يغير مجرى حياته، وقد وافق سياتارك على وجود مثل هذه المواقف ولكنه رأى الارادة في هذه المواقف نفسها تحوّل الجرى مضطرة لا مختارة ولكنها تؤخذ بالتوهم فتحسب انها تخلق البداية من ذاتها. أما الفلاسفة المتأخرون ومنهم سبينوزا في القرن السابع عشر وسبنسر في الثامن عشر فقد قالوا بالجبرية ورأوا العوالم وفيها الانسان مسيرة بقوة لا امكان للاختيار فيها . وقال فلاسفة آخرون كديكارت وريد وماين بمذهب سقراط في سيطرة الارادة المختارة على الحياة .

أما الهند وهي مهد الفلسفة القديمة فقد اعتقدت أن الحياة الحاضرة ليست إلاّ احدى المراحل المقدورة على النفس وان الارادة تعمل عملها في مرحلة سابقة ناسجة المرحلة التي تليها شخصية منطورة على ثقافة يكمن المقدور فيها . وقد ورد في الاسفار الهندية المقدسة ان الاناء الخزفي يتسوى الى درجة صلابة الفولاذ في النار فهو ينحطم ولا يتغير منه شكله المقدر عليه ولكن اصابع الخزاف كان يمكنها في البدء ان تجعله على غير ما هو عليه ، لقد كانت فترة وراء الزمان سارت الارادة فيها أما الآن فلا سيد إلاّ المقرر المقدور .

ورأى شو بنهور يتفق وهذه النظرية اذ يقول « اذا كان هناك من ارادة حرة فأنهم ولن تتجلى إلاّ ما وراء الزمان والمكان فشو بنهور يرى اعمال الانسان ناشئة عن ثقافة مكتسبة لا قبل له بتعديلها في الحياة

وقد جاء ليبنز يوفق بين كل هذه الآراء على ما بينها من تناقض فقال

« اننا احرار باكثر مما نظن لأن المقدور فينا لم ينشأ إلاّ منا »

على أن ليبنز في حكمه هذا لم يأت إلاّ بجمع الدوائر كلها في دائرة واحدة يستقر فيها الفكر على ان الانسان مكره نفسه بنفسه وان افعاله ليست إلاّ نتيجة

أمياله وان امياله ليست سوى سلسلة مرتبطة الحلقات متغلغلة في ماضيه ، ولكن عند وصولنا إلى هذه النتيجة يقف امامنا سؤال يحار العقل في الجواب عليه

- أين هو الماضي الذي يتلمس الفلاسفة فيه انطباع الفطرة في الانسان؟

أماضي النفس قبل حلولها في الجسد؟ أم هو سن الحداثة أم هو زمن

تكوّن الأجنة أم هو انطباع حياة الجدود في جرثومة حياة الالبناء؟

ان الروحانيين يرون القضاء والقدر مرتسما في النفس والطبيعيين يرونه ماثلا

في الامزجة الجسمية ، وهناك من يقول بتسلسل النفس اباً عن جد ومن يقول

بأن النفس مستقلة تحل حلولاً في تناسل الاجساد ، على أن هذه النظريات لم تتعد

مجال الحدث والتخمين وسواء اكان المقدر منطبعاً في الافراد والامم في الجسوم

أم في القوة المتجلية فيها فإن الذي نراه هو أن كلمة « اريد » التي ينطق بها

الانسان مجتمعاً ومنفرداً ليست مبدأ مستقلاً بل هي نتيجة لمقدمات لا يمكن

الرجوع اليها لتحويرها فإذا كان المنصرم من الحوادث روحية أ كانت أم جسمية

قد ابقى طابعه على الارادة فلا امكان لأزالة ذلك الطابع دون الغاء علته والغاء العلة

الماضية مستحيل ، لذلك يلوح لي أن الاستعداد الفطري هو الذي يخطط للانسان

سبيله في حياته لانه عندما يريد لا يكون الا منفذاً للمقدور في حوافز ارادته

ولكن الانسان يتوهم ان ما يريد في الحاضر انما هو ابتداء لا نتيجة

لقد توصل العلم الحديث الى تأكيد وجود قوة مستترة في الانسان أسموها

العقل الباطن وهي مستودع الفطرة والانطباعات السابقة وهي نفسها تسيّر

الانسان متلبسة بمظهر الاختيار وماالعقل الباطن كما دلت الابحاث والتجارب

الأحوافز التي وجدت في الاجداد ونمت على اتجاه مقدور ايضاً زمن الطفولة.

يتراى لنا اذا ان الانسان مأخوذ بالاستهواء تسطو عليه من ماضيه القوة

نفسها التي تسود النوم من ارادة النوم بالقوة المغناطيسية . فان النوم يوحى الى عقل النوم الباطن من شخصيته افعالاً يأمره بالقيام بها فاذا ما انتبه النوم من نومه يهرع الى القيام بما أمر به معتقداً انه انما يفعل ذلك اجابة لحافز نشأ في شخصيته المستقلة وبملاء اختياره واذا ما انت ايتت تاتقد على المستهوى عمله وقد يكون عاقلاً يأتي عملاً صيبانياً فانه يقف بوجهك مسخراً كل ما أوتي من منطق وقوة حجة لا ثبات صحة ذلك العمل الصيباني وانطباقه على المعقول .

ليس ما أقصد في محاضرة هذا المساء السير في بحث الارادة الى أقصاه وقد لا نصل في آخر الطريق الى ابعدها وصلنا اليه الآن ، ان ما نحتاج اليه في بحثنا الثقافة الشرقية العربية هو ان نعلم ان في الافراد والمجموع ميولا فطرية قوية كالحياة لانها راسخة في الماضي الذي لا قبل لاحد برده وهذه الميول هي الحوافز التي تكمن فيها الفطرة ، والفطرة في الفرد كما في المجموع انما هي اداة الشعور بالحياة فهي دماغ في قلب كما قلت اولاً فاذا ما كان الامر على هذه العقيدة فلا يبقى من ريب لدينا في ان سعادة المرء والمجموع وشقاء كل منهما يتوقفان على ملائمة الحياة أو عدم ملائمتها لما فطرا عليه . وسواء اكان المرء مخيراً أم مسيراً في ارادته واءاله فانه على الحالين غير مخير في ذوقه في الحياة وفي لذته وامله منها ، فكل فرد خالفت طريقة حياته ما استقر من الحوافز في فطرته يفقد الشعور التام بتلك الحياة ويكون معرضاً للسقوط في المعتك وهكذا الامم كلها وفي الافراد ، فالثقافة الشرقية العربية ما يؤلم فطرتها فانها تفقد قوة الارتقاء بذاتها فتميت شخصيتها دون أن تتوفق الى الانبعاث في شخصية تستعيرها من سواها .

تلك هي الفطرة او الثقافة في الامم كلها وفي الافراد ، فالثقافة الشرقية العربية هي العقل الباطن لامم هذا الشرق العربي وهي اللوح الذي سطرت عليه مبادئ

سقوطه واعتلائه ، واننى قبل ان اتكلم عن مميزات هذه الثقافة مما عرفته استقرأ
بنفسى ، ارى ان اورد ما كتبه عنها اشعر شعراء الاسبان المعاصرين وهو الشاعر
فرنسيسكو فيلا سبازا المتوطن مدينة ريودي جانيرو (البرازيل)
واننى اقتبس ما اورد من المقدمة التى كتبها فيلا سبازا لترجمته قصيدة (على
بساط الريح) لفقيد العرب الشاعر الخالد فوزي المعلوف ، وهذه المقدمة مشبعة
بالروح الشرقية العربية التى لم يزل يستلهمها الشاعر الاسبانى الاكبر من ثقافته
العربية الكامنة في فطرته الموروثة .

قال « ما من شعب كالشعب العربى عرف كيف يحصر مواضعه الشعرية بدقة
صارمة وايمان حار ولا غروفاً اوئى سواه ما اوّتيه هو من خيال حساس مخصب
وذكاء متوقد مدقق وعاطفة متمعمة مثبتة وفضلا عن ذلك فان له من لغته اقوى
ظهير فهي متفوقة بتشاكل الكلم مع الاصوات والمعانى غنية بسهولة الاشتقاق
ومرونة التعبير ونقاوة الصقل وكأني بها أوجدت للاحاطة بمكونات الشعر البشري
والالهي فتراها تخرج من دائرة الفن لتتحول الى دين صرف لا يتطرق اليه تطور
ولا يؤثر فيه زمان او مكان

« ان الفنون العربية استنبطت لفاهية واللذة والبحران ، يروّح بها العربى عن
مشاعره المحلّاة بفضائل هي وايم الحق شعلة روحه المتوقدة وسراج ضميره الاوحد
فشعره كهندسته اذ ترى ظاهر ابنيته بسيطاً عادياً وفي هذه البساطة اناقة خشنة
لا تشوهها البهارج ولكنك لا تتجاوز العتبات الوضيعة والقباب الحدباء الى داخل
تلك الابنية حتى تحزّ على وجهك مدهوشاً لبذخ ونخفة لم تحلم بمثلها ، وما من
ريشة في العالم لا كبر الفنانين امكنها ان تأخذ بمثل تلك الالوان المتناسقة في
الخزف المموه والفسيفساء المرصعة والنقوش الساحرة الباقية من آثار العرب وكأني

بكل ما في الطبيعة من مناظر واشكال يستشف من خلال هاتيك الخطوط البسيطة
والالوان النقية وكأن الله شاء ان يجلو بها كوامن الجمال فجاءت بدائع لا يقو على
استجلائها غير العيون التي تبصر في الظلمة والأذان التي تسمع في الصمت

«ولشعور العربي صلة باللباس فوق صلته بالهندسة ففيه الوان فنية تجدها في
حرير القفاطين المتوهج وفي خطوط المعاطف المتموجة وما نراه من بديع التنزيل
ودقة الصقل على الفولاذ الماع في اخوذ الحربية والقبضات البراقة في السيوف الحدباء
«ان التسليم بالمقدور هو اس فلسفة هذا الشعب ، وان دينه الذي هو اجلي
مظاهر روحه اما هو بحق دين القانعين ، فالعربي يرقب الحياة من خلال طبعه
القدري فلا يدعز ولا يدهش بل يرمقها بنظر هادىء ثابت هو وليد الحكمة .

«ومتى عمل الاسبانيون على استخراج الاثار الغنائية العربية من مدافنها فسوف
يرون عصر آدابنا الذهبي على جانب من المسكنة ازاء العصور الزاهرة في قرطبة
وطليطلة واشبيلية وغرناطة حتى في بلنسية ومالاقا والمريه ومرسيه ، وان الشعر
الرائع الذي تغنى به الشعراء الاندلسيون والاسبانيون والعرب لهو واسطة العقدة
وآصرة الروح بين الامم الشرقية الغربية التي تأهل بها سواحل بحر الروم ففيه
يندمج خيالها في خيال واحد وتتوحد امانيتها في أمنية واحدة .

ومنذ عهد قريب استيقظت في الشرق كله رغبات عظيمة في كل ماله علاقة
بالتقافة الاسبانية وذلك يبدو لنا واضحا في هذا المهجر الاميركي حيث شعر
الاسبانيون والعرب انهم اخوان في شوقهم الى اوطانهم المتوارية وراء التاريخ وفي
حرف دمعة الحنين اليها فتعارفوا وتحابوا على نعم القيثارة وهو أ بين ما في الشعر
من لهجات

«ان للمأسوف عليه جرجي زيدان المؤرخ الروائي الكبير روايات عديدة

درس فيها بأسلوبه الرائع العصور الاولى لسيطرة العرب على اسبانيا، وفي القاهرة
رجعة الى ما في شعر الاندلس من الروائع»
وقد قال هذا الشاعر النصف في موضع آخر،
« يولد العرب فيخلق معهم النضوج وتواكبهم الحكمة، وانك لتستشف
في نظرات اطفالهم العذراء روحاً قديماً تجول الخبرة فيه فلا تلبث ان تقول ما
ذلك من هذا العالم بل من قوة وراء هذا العالم . »

ويلتفت دي سبازا بعد ذلك الى ما حوله من المدنيات الالية فيهتف قائلاً،
« ما هي الآثار الحديثة القيمة التي خلقتها ثقافة الغرب الروحية،
لقد حجب الغرب انوار المسيحية الاولى وبدل بالادب المستحدث ما في شعر
المسيحية السامى من مؤاساة وحول فلسفتها الى احاجي ومعميات . . .
» ان جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جذيرة بكفكفة دمعاً واحدة ولا
بخلق ايتسامه واحدة، وليس أجدر من أم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة الشرقية
والقائمة على اذاعتها بوضع حدّ نهائى لتدهور الغرب المشوّوم الى هوة التموش
الاقتصادي . »

ثم يتنصت هذا الشاعر الاسباني الى همس عقله الباطن فيشعر بالتمرد الخفي
فيقول :-

« ليس في طاقتنا نحن الاندلسيين المعتنقين بايمان ثابت دين المسيحية ان
نمجد دين اسلافنا المسامين، فلئن كان الاول مستقراً في ضمائرنا فان الثاني ما برح
مستقراً في فطرة قوميتنا المزدانة بالبدايع وكما اننا لو انتزعنا بعض الالوان التي
موهت بها جدران كنائسنا نجد وراءها معاً مذهبة لاسم الله للصمد محفوراً
بالحروف الكوفية فاننا لو خدشنا بشرتنا الاوربية الصفراء ابرز لنا من تحتها لون

بشارة العرب السمرء ، فما قوميتنا الغربية الا العرض الظاهر أما حقيقتنا الخالدة
قهي القومية الشرقية »

لاقض قليلا امام روح هذا الشاعر الكبير الذي يرى المسيحية مستقرة في
ضميره ويرى الاسلام مستقراً في فطرته ، ولاقولن له انه بالرغم من ادراكه ان
العرب قد بدل فلسفة المسيحية السامية بالاحاجي والمعميات لم يتمكن من اتصال
الاسلام الى ضميره كما انه امتنع عليه ان يبلغ بالمسيحية الى فطرته ، فبقي النزاع
مستحكماً فيه بين الفطرة والضمير لان ثقافته المسيحية لم تزل متأثرة بالاحاجي
والمعميات وهو مولود على ارض هي غير الارض التي ارتفع منها صوت المسيح ،
ولو ان فيلا سبازا تسنى له ان ينشق ملياً نسمات جبل الطور المشبعة بلفحات صحراء
العرب ، لو كان قد رله ان يقرأ الانجيل حيث تغنت الاصداء بكلماته الخالدات كما قرأه
صديقه فوزي وكما تلاه جبران والريحاني لما كان يحس باستقرار الانجيل والقرآن
منفصلين الاول في ضميره والثاني في فطرته .

واليكم الآن كلمة من هذا الشاعر ايضاً تبين ما لثقافة الاجداد من القوة في
هواهب الاحفاد قال ،

« ان غونجروا وهو اكبر شعرائنا واتقام روحاً لم يزل مشهوراً بغموض
تعايره في تأدية معانيه وما ذاك الا دليل على سيادة الروح العربية في اقصى ثقافته
حتى ضاقت به لغته في استطباع ما في الشرق من المعاني والصور فانه يستنزل بلغة
مبهمة ما تسمعه نفسه من الآيات الخالدات ويظهر الادب العربي في اناشيد
الاسبان فوق ظهوره في قرائمهم الشعرية وانشيد غرناطة شديد الشبه بالمقام
البغدادي في بلاد العرب »

ان هذه الكلمات التي يزيد في قيمتها تجاه الحقيقة صدورها عن اكبر شاعر

اسباني قد كتبت في معرض تحليله لشعر فوزي المعلوف ، ولسوف اورد لكم بعض الشيء عن هذا الشاعر الفذ الذي تتمثل الثقافة الشرقية العربية في كل مقطع من مقاطع اشعاره .

ولد هذا الشاعر الكبير في زحلة من اعمال لبنان ، وقد عرفته طفلاً ورائته يافعاً يدفع بقدميه على سبيل الخلود في وثبات خياله وقد كنت له الرفيق والدليل . هجر فوزي وطنه قاصداً سان باولو البرازيل في سنة ١٩١١ وهو في الثانية والعشرين من عمره فسطع نجمه في بلاد المهجر بكل انوار الثقافة العربية حتى خشعت لديه النفوس وتلفت اليه كبار الشعراء في تلك البلاد تلفتهم الى نور جديد من الشرق يعيد اليهم الاشعة التي تلقاها اجدادهم من مطالعته . . .

مات هذا الشاعر الخالد في اول سنة ١٩٣٠ فدفن في سان باولو باحتفال لم يقيم مثله لشاعر عربي ، واني لاورد الآن ما كنت كتبته عنه لتعلق حياته بصميم الموضوع الذي أبحثه ، وقد جعلت لمقالى الطويل فيه عنواناً في كتاباته انين ونزوات والعنوان هو (شاعر الامة المشرّدة)

أريد ان يكون لي صفحة بين الصفحات التي تحمل الى الاجيال المقبلة اقوال معاصري فوزي ، وفوزي خالد فوقها بتموجات فكره ونزعات قلبه ، اريد ان تلتقي شخصيتي الكامنة في حياتي في شخصيته المطلقة المتجلية في موته لاقول فيها ما قالته عن نفسها الخالدة بفمه الزائل . . . فتشهد قلمي صورة فوزي المنطبعة في تذكري ويقف امامي ذلك الفتى اليافع وقدملاً انسان عينه حدقتها المنفرجة باهداب كأنها الاشعة الربداء لكوكب عينه المتألق في سواده . يقف أمامي بذلك القدر المرتفع كأنه ساق زنبقة تتعالى ناهضة بتويجها الى ما فوق جازعة ان تلتطخه ذرات التراب ، يقف أمامي بذلك الجبين العالى كأنه القمر متملصاً من القمر يتنازعه

جمالان من روعة الارض ومن روعة السماء .

أرى فوزي على مرتفعات المربجات الشاخصة الى جبل حرمون وقد طوق
بسلاسله سهول البقاع ، اراه على ضفاف نهر الكوثر الجارى في وادي زحلة الظليل
اراه بين الجنائن المرتوية من بردى الرابضة تحت عرين قاسيون ، اراه تقبل
اقدامه امواج البحر مع اقدم لبنان وقد حمل على مفرقة الابيض من الارز تاج الخلود .
اراه فارى كل هذه المواطن فيه ، وما انعكست كل هذه الامجاد وأشع كل
هذا البها على شخصية اشد صفاء من شخصية فوزي ، وتلك هي الشخصية المنطبعة
على صفحة تذكاري كما تجلت امامي منذ خمسة عشر عاما عندما كان يسند خيالها
الوثاب الى خيالي المتناقل وهو يرتطم بالصخور على اول الطريق ..

وكان فوزي يشد على قيثارته من شعور الهات الحكمة والحب اوتارا ويسمع
سوريا ولبنان اناشيد الشاعر تلاعبه اسماء الامل وتصدمه اعاصير الالام ،
ابتسم للحياة وبكى لها حتى ضاقت اوطانه بما في دماغه من فكر وبما في قلبه من
طموح فاذا برنين القيثارة يستحيل ايننا واذا في نبرات المنشد بلبل الدموع ...

تلك النفس الجبارة الناشدة بوثة من وثبات ناموس الرجعة في الكون حياة
الجدود في استقالاتهم وفي انطباق ما حولهم على نزعات ارواحهم ، تلك النفس
الحساسة اللبنانية العربية ، وقد وجدت لتتقود الامة الى الحق والجمال ، نشرت
جناحيها الواسعين وحملت كالنسر لتفتح في الافاق سبيل الاعتلاء فاذا بالقفص
الحديدي يشد على قوادم النسر في مطاره ، واذا الحياة المنبعثة من ارفع القمم وابعدها
في التاريخ تستحيل قبورا تتعثر عليها حياة التبديل والشذوذ في هذه الايام

وما كان فوزي حين عرفته وسهر يأسى اقصى امانيه الالمدينة الشرقية الحرة
الراسية على ما انزلت سماء الشرق من آيات التسامح والتعاون والاخاء ، وما كان

فوزي الا احدى المناثر القليلة التي ترتفع من اعماق الشرق القديم فتشع فترة من الزمن حتى تدور بها الاعاصير فترجع انوارها الى الظلمات ..
عرفته يجرح ابصاره ويخدش اسماعه كل ما يرى وما يسمع في وطن يبصر اهله
بعيون غير عيونهم ويسمعون باذان غير آذانهم ...

عرفته تثور نفسه الجبارة على كل تشوس وظلامه في بلد توالت نكباته
واستحكمت فيه داء العبودية حتى رأت البشرية في انالة شعوبه لقب القاصرين منه
ونعمة فما كان الحب المضلل في هذه الامة الحب القاضي على خلود العاطفة في قلوب
بناتها وفي قلوب ابنائها ويزعزع قدسية العيال في نفوس رجالها ونساءها ، ما كان
هذا الحب الا صورة مشوهة للحب الصادق المعانق للحق في قلب الشاعر اقنومين
متحدين الاله المضيع في هياكلنا ومنابت اطفالنا .

ما كانت هذه المجتمعات في اوطاننا وقد رسا اساسها الاقتصادي على استقطار
آخر نقطة من ضرعها المتحجر ورسا اساسها الادبي على طرائق واذواق تنكرها
ارواحنا وتنفر منها دماؤنا الا مسخاً قبيحاً يظفر ضاحكاً من المثال الاعلى الذي اقامه
الشاعر في خياله لحالة تنشدها اصوات القبور في فمه ويوحىها حق حياة الشعوب
الى قلبه : —

ما كان هذا الشعب المغلوب على أمره، المتناذب المتناكر في قوته المستعيض عن
وحدة حياته بكلمة واحدة طبعت على جبينه يتيه بها اعجاباً امام عين الشمس ، ما
كان هذا الشعب المستهزى ، برجاله المعرض عن ممثلون ماضيه البعيد ليشعر بوجود
فوزي وامثال فوزي اذا رفعوا صوتهم لاقامة حق وهدم باطل ..

أية قوة لكلمات الشاعر العربي اليوم اذا خرجت من فمه نوراً وناراً وهي ان
صدمت القصور لا يبصر سكانها شرارها ولا يحسون بسعيرها وان حامت فوق

كواخ الشعب مرت كالشهب التائهات وميضاً لا يلوح حتى يختفي ...
على ذروة الامة عرب لغة العرب في آذانهم صخب وضجيج ، وعند قاعدتها
عرب لا تبلغ اللغة افهامهم حتى تفسد ... على القمة وطن ليس من الوطنية على
شيء ، عاداته غريبة كلسانه ودواطفه مضللة كعادته ، وفي الاودية وطن كاشجار
الصنوبر طما عليها من العباب ضباب فلا تلوح لك الا كاقطيع المبدد في آكام الثلوج
عرفت فوزى ، عرفت فرخ النسر في الفترة التي لاحت له فيها بلاده وامته
فضاء يضيق على جناحيه الوارفين فاذا يأس البلاد يقتل امانيه واصنامها تحطم
خياله .

صافحي مودعاً فقرأت انشودة الطيارة الخالدة في عينيه وسمعت مقاطعها
كلها بكلمات قليلة تهامسنا بها بين قبلتين ودمعتين ...

وطوى فرخ النسر ذراعيه على شاطي ، بحر الروم والتي آخر نظرة على قم
صنيز وهو المظهر الوحيد المتوَّج في البلاد ولكن بتاج الضيق والموت ، نظرة
المودع لنعش رفيع لم يزل الكفن الابيض منسدلاً منذ اجيال على ما فيه من مجد
مضيع وآمال عائرة ثاوية

كل من اقتلعته اعاصير الدهر من تربة اجداده ورمت به الى الامواج كان
يترك قطعة من قلبه على مرفأ بيروت ، ولو يتكلم الحجر المكسور عند سلم ذلك
المرفأ لروى ما لا يرويه حجر على ابواب أي موطن باية امة ...

كل مهاجر يودع حياة ثقلت عليه يستقبل في اماله حياة يرجوها مفرجة
لسكره ، ولكن الرجال الذين تخلقهم الحياة اعمدة لبناء الوطن المنشود فهم ان
بارحوه لا يتركون على ارضه قطعة من قلب بل يوسدون تراه حياة كاملة تفتي
وشخصية سامية تاتجر ...

طوى النسر جناحيه منكرًا على عينيه اختراق الظلمات بعد ان ملاًهما الألم
قتاما وقد تناسى ان قوادمه اقلام تتحطم فاستنبت من ثورته استكانة ومن جهده
العائر تسليما ومخرت السابحة بجر الظلمات وفوزى يرى بأخر دمعة ذرفها على
ارض الشرق آخر ما يوجد به على شخصية فيه جارت عليه فتعمد قتلها

الشاعر اللبناني العربي ، وهو لو ولد في غير أمته لكان شكسبير أو لامارتين ،
لكان الزعيم يهيب بالشعب الى معرفة نفسه وبالوطن الى تكوين ذاته من تلك
المعرفة ، ذلك الشاعر قطع بجر الظلمات كما تقطع الارواح البرزخ الفاصل بين عالمي
الحياة والموت ، مات شاعراً عربياً على شاطئ لبنان حاسباً أنه سيبعث تاجراً
امريكياً على شواطئ العالم الجديد . حسب فوزى أنه سيقم سداً بين ارادته
وفكره وبين شخصيته ، فاذ هو يثب وثباً ليقف بين كبار المتاجرين واذ هو يلعب
بالنضار كما يتلهى العاشق البأس بخطرات الحظ على المائدة الخمراء

وما يصعب على امثال فوزى ان يقبضوا على أعنة الاتجار يسخرونه لنفعتهم
الخاصة واسهل ما تقوم به النفوس الجبارة المهيأة بالفطرة لتسديد خطوات الشعوب
ان تسدد خطواتها هي في هذا الميدان القصير المجال ، ميدان العمل من اجل حياة
واحدة ، ولكن صدر فوزى كان غاصاً بمهود وقبور لامة كاملة فما كان المجال
الفسيح للفرد الا ليضيق بصدرة ويشد على قلبه ، وما كان ذلك القلب الخافق
بنبضان القلوب التي اوقفها الموت ونبضان القلوب الماثلة للحياة ليعلق بالارض
منفردا مجردا عن تذكاراته وآماله

ولو امكن لفوزى ان يبعث في العالم الجديد شخصاً جديداً يتدغم بما حوله
من مدينيات واداب واخلاق ، لكان مشى كما يمشى سواه من شذاذ الافاق الذين
تمحى شخصيتهم دون ان يستعيضوا عنها بشخصية جديدة اولئك هم اشباح الاحياء

لا يتمتعون بلذة الحياة ولكنهم لا يشعرون بالآلامها

ولكن شخصية فوزي وقد انطبعت عليها مميزات سلالة اجتازت مراحل الاجيال وتغلغت في اعماقها الروح التي رفرفت على انحاء المعمور من مهب الكايات الخالده على طور سيناء وعرفات الصحراء ، تلك الشخصية المنتشرة من أثير الشرق كل ما حمل من انفاس ابي العلاء وابي تمام والبحثري والفارض والمتنبى تلك الشخصية الحاملة بمجد فينيقيا وعظات العرب ، وقد أشع من ثناياها نور الكواكب الآفلة في سماء الشرق ، نور صلاح الدين وهارون الرشيد وطارق ابن زياد . تلك الشخصية ، روح الشاعر المستوحى التاريخ والحكمة في افاق الخيال ، ما كان يمكنها ان تنكر على ذاتها حقيقة ذاتها ...

ان ابناء المدينة القديمة يحملون في اعماق شخصيتهم طابعاً خاصاً لا تسكن ارواحهم الا بانطباق الحياة عليه ، ولا يمكن ان يحل مقام هذا الطابع طابع آخر ينزل في اعماق الفطرة الى مستقر الطابع القديم ، وكل ابناء الشعوب التي اكتسحتها المدينة الآلية الحديثة وصدمت اللغات والعادات الغربية لغاتهم وعاداتهم انما هم على ارض اجدادهم وفي أية بقعة شردتهم عليها انغلابهم على امرهم مضللون يعاكس ظاهريهم المكتسب ما في بواطنهم من الفطرة

لقد يظهر الشرق مندغماً في اية أمة كانت وتضمحل شخصيته في شخصيات من يحيطون به من الشعوب فيتألم بالآلامهم ويتنعم بملاذاتهم ، قد يراه من حوله مندغماً فيهم ، اما هو فيبقى ابداً مشعراً من نفسه انهم لم يندغموا به عبثاً يحاول الانسان ان يهدم بحياة سنين ما كوّنته اجيال توالت على ممر القرون .

ان اولئك الذين يقلدون الاجانب في غرائزهم يخادعون انفسهم لانهم يسرون

من احساساتهم على طرق لا تصل بهم الى مستقر شعورهم الباطن ذلك هو ناموس الرجعة يسود الأئمة جميعها على ان الشعوب العريقة في القدم اكثر تحصناً في شخصيتها من سواها ، ولا يتساوى الافراد من امة واحدة في هذا الشعور فان من ابناء الامة من لا تناله غربة الفكر والعاطفة الا بالحرمان من لذة ادراك الذات الخفية ولكنه لا يشعر من هذا فقدان الألم ، ومن ابناء الامة من فتحت الألمعية امامهم خفايا نفوسهم بكل ما كمن فيها من مميزات ، فهو لاء هم ضحايا الاعتزاب اينما كانوا حتى ولو وجدوا حيث ولدوا لأن اوطانهم قد دفنت ولم تبعث بعد .

وما كان فوزي الا إحدى هذه الضحايا في الشرق يريد من الحياة اماناً تنكرها بلاده على نفسها وتنكرها الدنيا عليها ، امتنع عليه ان يستجلى نفسه في من وما حوله فخرم من التمتع بذاته ، وليس من ألم اشد نفوذاً في قلب الالمعي من هذا الحرمان ...

فزع شاعر الجبل الأشم من ألمه الى اقصى المعمور فاذا ألمه يتبعه مع شخصيته نازع شخصيته حياته فتغلبت شخصيته عليه فاذا بالأمة منتصبه امامه على قدر ما في نفسه من مرتفعات واعماق .

وانحنى الشاعر على قيثارته يتامس شعور الهمّة الحكمة والحب وقد كان يستنطقها اوتاراً ، فاذا الابراج مشوشة والاوتار مقطعة واذا وحيه صامت على انامله . ولكن ما عتم حتى بدأت الانعام تتعالى من القيثاره المصدوعة اناشيد مقاطعها نبرات لا يعلم أ كانت السحب منازلها أم القبور مصاعدها

تلك انفاس لم يكن من هذه الارض مهيبها وافكار لم تكن من هذه الحياة معانيها وما كانت انعام قيثاره الوادي في انامل شاعر الوادي الخالد سوى صدى

توح بعيد لروح امتنع عليها ان تتكامل في الحياة فترامت الى الضفة الثانية من عالم الموت .

وسادت انغام فوزي العالم الجديد وهبت تملأ افاق البلاد العربية من وراء بحر الظلمات وكنت احد المصغين الى صوت رفيق القديم ، فجذعت اشاعر الحب والجمال ، لشاعر اللذة والآلام ينقلب شاعراً الهياً دافعا بنبرات ما اختلج بها صدر دون ان يتمزق وما اختلجت بها شفة دون ان تحترق

اية اوتار هي تلك التي شدها الشاعر علي قيثارته بعد ان حطمتها في يده الايام انها لاوتار منتزعة من سرايين قلبه ، وكل نقرة تستنطقها انامله انما هي نقطة مستنزفة من دمه .

هذه قصائد فوزي تملأ الاقطار العربية روعة فكانها صوت موحد الله يمتد بيت خيوط الظلمات والانوار مهيباً بالقوم الي الفلاح وهو يبكيه داعياً الي الصلاح وهو يأس من ايجاده بين شعبه ...

تلك هي النزعات المكبوتة في روح الشاعر تستحيل تشاؤماً في كل ما يرى على عالم المظهر وقد ادار ظهره اليه متجهاً الى عالم المصدر بعيون قلبه ، يرى فوزي الارض كلها غارقة في البحر الظلام لانه فتش عبثاً في اجاجها على وطنه المائل في فطرته ذلك هو سرّ الأسي والتفجع في ذلك الكائن الجبار بفكره وقوته وجماله وومن كان اجدر من فوزي بحق الحياة تضع عند قدميه لذاتها وتعلق على صدره امانها ويتوج مفرقه ما فيها من مجد وبهاء

فوزي !! يا شاعر الامّة المشرّدة ، ومهبط وحي الشرق في الهامك ، لقد تبعتك بكل ما عهدت في روعي من العطف عليك والاحلال لالميتك ، فكنت كما دوى صوت انشادك عالياً ، اتملك تعلي نحو ذروة الجلجلة حتي باغت القمه فانطلقت

بطيارة خيالك الى السحاب الاعلى . رأيتك على بساط الريح ، سابحة الافاق ، تلتفت
الى الارض فتبكي وترفع رأسك الى العلياء فتبتسم ، وهذه انشودة ساجتتك كلها
ابتسامات ودموع وما كان احد من سامعيك ليدرك اكثر منى سرّ البلبل في اجفانك
ووميض الرجاء على شفقتك

أتملك وانت مكب على طرسك في الليل تطرح الى العالم في سكرة اشعارك
أجنة تمخضت شخصيتك بها في آلامها طوال السنين ، فارى في احشائك ذلك
الانتلام الخفي يتسع وقد ردعت عنه سوائل المناعة كبد حررى تمشت فيها الامانى
المكبوته سوما ... وارك تهوي الى الحضيض كالنسر لا يسفّ داوياً قوادمه الا
في احتضاره . هكذا تهاوي كواكب الشرق بعد لمعانها اجراً منطفيئته وكم تحت
التراب منها رماد وكم فوق التراب منها رجوم ، جبايرة صمت شاخصة كابي الهول
لا تنكشف للحياة ولا تسترها القبور .

هكذا يموت من تقضي عليهم ادواء أمهم لا ادواؤهم ، وهكذا متّ أنت ،
يا شاعر الوادى ، بلبلًا يتغنى باناشيده لبنانياً عربياً رجعت بلابل البرازيل الحانه
فوسم شعرها بشعره والتي على آدابها طابع أدبه بينما يتسقط الكثيرون من ادعياء
الادب في بلاد العرب الهام سائر الامم فيوردونه مسخاتنكره الاذواق ويستنكر نفسه
والجعة ادب الدنيا عليك ، وانت تتملص من هذه الارض التي حرمت فيها
من وطن لبيانك ففزعت منها الى موطن الالهام الاعلى حيث تتجلي نزعاتك
شخصية محررة من قيود الازمان والناس ...

* * *

الى هنا ينتهي من الصفحة التي كتبتها عن فوزى ماوصفت به الامة المشردة.
وما قلته عن شاعرها وقد كان يجب علي ان اقف عند هذا الحد من الاقتباس لولا

اننى ارى فى كلمة التعزية التى احقمتها بالمقال ما يجدر تدوينه وان انحرف عن موضوعنا فى الظاهر غير انه متصل به من حيث شعورنا بفقد زعيم للنهضة بيننا وفى هذه الكلمة ايضا ما يتوق الفكر الى استجلائه فى كل زمن ومقام لتناوله موضوع الحياة والموت .

قلت ، موجها الخطاب الى عيسى افندى المألوف العلامة المؤرخ وهو والد شاعر الامة المشرّدة

* * *

اين اجد الكلمات اتوسل بها اليك مواسيا يا ابا فوزى وانا المنفجوع به فى وطنيتي وادبي واخائى .

ان التعزية لا تستخرج الا من النسيان ، ومثل فوزى لا ينسأه ابعد الناس عنه فكيف يكاف نسيانه اياه وامه . . وهما الذات الموحدة التى تحدر هو عنها .

ومن يدرى سرّ هذا التحدر ، أمن حلول هوام من انبثاق

اين كانت تلك الروح قبل انجلأها بين شفق السرير وغسق القبر؟

امن حياة الاباء حياة الابناء جوهرها واعراضا؟

ايكون المولود عدماً قبل ان يولد أم هو كائن جوهرأ فى المصدر وجراثومته

كامنة فى المظهر منذ بدء الروح وبدء المادة ..؟

من هو فوزي منك يا ابا فوزي؟

اذا كان هذا الشاعر الخالد فاذة من كبديك ، فما كانت يا تري روحه من روحك؟

من يجسر على استكناه هذه الظلمات ... ؟

من يقدر ان يعاين وجه الله ويحيا؟

نحن فى هذه الحياة قفلة خيالات تنسحب من المعكس الى المصدر عند غروب شمس الحياة

كياننا ليس منا ووجودنا ليس فينا .

فاذا كانت حياتنا ليست لنا ، فأية حياة يمكننا ان ندعى بحق لنا فيها .
ان المحتضر وهو يصارع آلامه لا يبكي على ابناء الحياة ولا على نفسه ، لانه
يشعر بانعدام وهم التملك امام الحق وهو الملك المطلق لامالك سواه . وآخر ما يعرف
الانسان من هذه الدنيا ان لا شيء فيها لذاته لان ذاته ليست له .
لماذا اذن يبكي الاحياء على الراحلين ، وما هو تفجع الاسير على رفيق له
تخطمت قيوده فافلت من اسره ؟

لماذا تتعالى اصوات الاشباح البشرية وراء النعوش ، ولماذا تنسكب دموع
الحس المادي فوق اللحد ؟ ذلك لان قوة الزمان والمكان قد عودت الحى على
التمتع بمن حوله وبما حوله من الزائلات فاذا ما هو بقى بعدها شعر بانسلاخ شيء
من حقه وانسلاخ شيء عن شخصيته .

ذلك هو سر تفجع الاحياء على الاموات ...

على ان هذا التفجع باستقراره على مكان من الحس من الاحياء لا يلبث حتى
يعفور مع مرور الايام الى الشخصية الثابتة المتعالية فوق لذات العالم وآلامه ، وهناك
تستحيل الاحزان والآلام الى اسي ساكن عميق لا حرقه فيه ولا عويل حوله ،
وهناك تبقى الشخصيات المشعة بصفاتها العليا مثلاً من الذكر الروحي لا يعتريه
تغير ولا يبلغه سلوان ، اما الاموات الذين كانت حياتهم انكماشاً على ذاتهم
وانكبأباً على انانيتهم فكانوا افواهاً اكلة ومعداً هاضمة فانهم يحجون حتى من
ذكر اقرب الناس اليهم عند ما تجف الدموع ويخفت النجيب

وما يحتاج فوزي الى مرور الايام لتغور شخصيته من مستقر الالم السطحي
الى أعماق النفوس ، فان ذكره متجدد في قلوب الناس حتى تفتى تلك القلوب

ان في موت الزعيم في روحه ومباده رهبه اسمى من الالم وروعة اجل من الاسى ، فالعزاء كانوا قد ماتوا قبل ان يموتوا ، وسر مجدم كامن في انسلاخ ذاتهم عن الحياة فما كانوا في الارض الا اشباحا تتلفت من وراء الحجاب وترسل اصواتها من العالم الاعلى . وشاعر الوادى الخالد منذرنت قيثارته بانغام الخلود كان قد تعالى فوق شببته وفوق سحره وفوق جماله ، فهو فقيده عالم الفكر والمباديء ، وما يرى هذا العالم بمن يفقد شباباً وشيوخاً ولا ضعفاء واقوياء ، ان الفكر في الدنيا هو اله الافاق المحدودة أشعة من اله الكون الغير المتناهي ، وما جنود الفكر الا أجناد الحق في العالمين يسرون فيالق متتابعة لا انقطاع بينها جيشاً جباً يلوح من أبعاد ظلمات التاريخ في كل امة منحدرأ نحو القبور صاعداً من ورائها نحو سدره المنتهى ذلك جيش الحق علمه الواحد الجرأة والاخلاص ، وقد توّهج كوكب التضحية على صدر كل جندي فيه محترقاً بما في ذلك الصدر متوهجاً قبس هداية الناس . ذلك الجيش يمتد عقداً منضداً على سلك من اشعة روح الله ، قواده الرسل والانبياء وزعماءه رجال المنابر والاقلام وجنوده الصامتون كل من تخير الآلام صديقاً على المذات مراوغاً زنديقاً ...

ما كان فوزي الازعيماً كبيراً من زعماء هذا الجيش المقدس ، عاش مجاهداً ومات شهيداً ، قصرت مرحلته في مقياس الزمان ولكنها بلغت منتهىها في مقياس الحياة الفكرية ، فراحل الاجساد خطوات ومراحل النفوس مراتب ، وصرعى جهاد الفكر شهداء في سبيل الحق سواء ارفعوا على اعواد المشانق أم هوت رؤوسهم تحت منصل المقصلة ، أماتوا في سجون الظالمين أم استجالت اجسادهم من التجرد سجوناً خائفة قاتلة ...

ان امثال هؤلاء الشهداء المرتفعين فوق الحياة لا يبكي عليهم كما موت الحياة

هذه كباتي في شاعر خفق قلب الشرق القديم في قلبه ، ورجعت اصداء ضلوعه
ما قرع اجواءه من دوى النبوات وهو اتف العبقريات ، وما كنت حين استذرف
تذكري هذه الدموع الصارخات متذكراً فوزي المعلوف وحده ، ان شاعر الامة
المشردة كان يتمثل لعياني بهذا المثل الكامل لكل شاعر مشى قبله على طريق
الأم ولكل شاعر لم يزل يمشي بلهامه غريباً بين قومه وعلى جبينه نجمة الثقافة
الشرقية العربية ..

وانني وانا اعلم ان اشعار فوزي المعلوف قد تسلمت الى قلوب الابداء كلهم ،
لا املك النفس من ايراد بعض ابياته لا لآستعرض عبقريته بل لادعم نظريتي في
العقل الباطن الشرقي . أما عبقرية الشاعر فن الظلم ان نستعرضها في ابيات مقتضبة
من بعض اشعاره ،

قال في قبر توت عنخ آمون

أيهان فرعون الكبير بقبره	وهو العزيز بملكه وجنابه
أفأ رأيت امامه وحياله	حرس البلاط مدججا بحرايه
ورأيت «انويس» في ناووسه	متحفزاً وأمون في محرايه
هو صامت لكننه في صمته	أقوي وابلغ منه في إعرابه
أعيا الفناء فلم يذاه ولم يزل	متألق للمعان نور اهابه
الروح حائمة على تابوته	والجسم رطب العود في جلبابه
فتري اللظى متنفساً بطعامه	وتري الحباب مشعشعا بشرايه

أيصف هذا الوصف الرائع لاجداد مصر القديمة من بعدها غريبة عن وطنه
ينتسب اليها قوم غير قومه ؟ ان الشاعر العربي اللبناني يعتز بأجداد اخوانه في ثقافته
اعتزازه باجداد تسرى دماؤهم في دمائه ، ولعل في مثل هذه العواطف درساً لمن

يحبسون مجد الفراغة حائلاً يقف بين واجبه وبين ما انطوت ارواحهم عليه من
ثقافة عربية أصبحت منذ اجيال شخصيتهم الراسخة التي بها يحسون ويدركون الحياة
وهذا شاعر لبنان يصف اثار بعلبك ، اثار اجداده الاقدمين قبل تكون
الثقافة العربية فلا يعتلى الهامه طبقة اسمى من الطبقة التي بلغها امام آثار مزمع الخالدة قال

وأعمدة ملء الفضاء كأنها	باعناقها تبغي معانقة الزهر
جبابرة تنو بكبر الى الثرى	وترمق وجه الافق بالنظر الشدر
وضخم حجار كالجبال اذا هوت	على جبل شقت روايته بالوقر
على حلق منصوبة عزّ خفضها	تخير في كيفية الرفع والجر
وأسد من الصخر الأصم تخالها	تهمّ بوشب ثم تربض عن كبر
اذا فاتها من ليث غاب زيره	فما فاتها ان تملأ القلب بالذعر

هذه بعض نظرات الشاعر الى الماضي واليكم قطرات اجفانه عند تحديقه الي ما حوله
أرى أمتي تمشي بكل غباوة الى حيث لا تلقى سوى البؤس والسحق
لقد قيل ان الشرق أتعس موطن ونحن اسوء الحظ أشقى بني الشرق
وهذه دمعة محرقة القاها على شاطئ لبنان يوم وداعه

مهما يجر وطني علىّ واهله	فالاهل أهلى والبلاد بلادى
أرثي لبؤسهم فاندب حالهم	بفمي وأرثي حظهم بمداى
هم ضيعوا ارث الجدود فناهم	غضب الجدود واعنة الاولاد
قسماً باهلى لم افارق عن رضى	اهلى وهم ذخري وركن عمادي
لكن أنفت بان أعيش بموطني	عبداً وكنت به من الأسياد

وهذه صرخة من قلبه في غربته

انا الغريب فلا اهل ولا وطن اذا التسبت امام الناس وانتسبوا

ولا لواء اذا دق النفير مشى
يحميه من صيد قومي العسكر الجب
ومن يكون غريباً في موطنه
لا بدع ان انكرته الارض والشهب

وهذه ايضا صرخة بكاء على غرناطة الاندلسية استوحاها فوزى من ملحمة
لصديقه الشاعر الكبير فيلاسبازا فانكم لتسمعون فيها الثقافة العربية نأحة في
اعماق روح الاسباني وبين شفقي العربي في اعجاز بيانه ،

غرناطة ، اواد غرناطة
هل نهرك الجاري سوى أدمع
والنسمة الغادية الراحه
ماعدت في النهر كسلطانه
للقبة الحمراء في تاجها
آه على امجادك الضائعه
مررت مرور النهر من جسره
غرناطة ، اواد غرناطة
لم يبق شيء لك من صوتك
تجري على ما دال من دولتك
هل هي الا زفرة نأحة
جبينها في مائه ساطعه
وهج والمأذنة اللامعه
شيعها بالنظرة الدامعه
واورثتك النوح في عزلتك
لم يبق شيء لك من صوتك

*
*
*

لله حمراؤك تحسو الاسبى
لم يبق لا زهوة ندمانها
ولم يعد للحب فيها انين
بين يجيل البدر الحاظه
بين اريج الزهر المنتشى
وقصرها الخاوي بارجائه
اذا الجواري خاطرات على
وحيدة في الروضة الخاليه
ولا صدى اعيادها الماضيه
ينقله العود الى العاشقين
باهتة في المرمر اللامع
وبين شدو البلبل الساجع
كم غمر الليل بضوضائه
سجادة جارية جارية

اروع ما في الشرق من رقصه تنسجه اقدمها العاربه

* *

غرناطة ، آواه غرناطة ما انت الاّ خرب قابعه
تحمل اسراب السنونو الى افريقيا انبائك الفاجعه
هناك ابناؤك من بأسمهم باكون لا باكون من يأسمهم
عروا من الانماد بيض الظبي ووشحو الخيل بييض السروج
ويمموا البحر فلما بدت منك على الافق جبال الثلوج
خروا على أوجههم راكعين وزفروا من قهرهم صارخين
غرناطة ، اواد غرناطة ضعت فيا للعظم الضاعه
فيزفر الموج ويبكي لهم حين يرى أعينهم دامعه

* *

ان فيلا سبازا الذي يمت باصله الى بني أميّه يجيش صدره بالعواطف العربية
القديمة فيرسلها اسانه بلغة الكاسحين لغة ابائه منذ اجيال ولكنه يشد على هذه
اللغة فيلويها حتى يسحقها بسحقاً تحت بياحه العربي الخفي ،
ولو ان هذه الشعوب العربية المنتشرة على وجه الشرق ضائعة مفككة العرى
تأهية بين تعصبها وجهلها يمكنها اليوم ان تستجلي كوامن ثقافتها كما استجلاها
ادباؤها المشرّ دون حتى بين اقوامهم لكانت هذه القصيدة وحدها اذا انشدتها
الاصوات العربية على اعالي الجبال وفي مفاوز الصحراء كافية لبعث المجد القديم واقامة
المدنية التي يتنصت علماء الدنيا الى وقع اقدمها من بعيد متوقعين طلوعها بغصن
السلام على الانسانية الباكية ...

قال الاستاذ كعفاير المستشرق الالماني في مجلته « معرض الافكار الشرقية »
« تتمشي النهضة الادبية في الاقطار العربية الثلاثة مصر والشام والعراق
بخطى متساوية متوازنة كأنما هي قلب خفاق يهتز تحت عاطفة واحدة ويتنفس
عن شعور واحد »

انهم في الغرب يشعرون بوحدة قلبنا ووحدة انفاسنا ، لانهم يعاينون هذا
الخفوق في قصائد شعرائنا وفي فصول كتبنا وما هوؤلاء الشعراء والكتاب الا
أمة واحدة تدين بدين وحى الشرق الواحد وتطرب لتغيات الحجاز والعراق ومصر
وسوريا وتتكلم بلغة الضاد صافية رائعة ، ولكنها أمة تجلت كوامنها الموروثة بين
فئات متعددة من الناس لم تزل هذه الكوامن راقدة فيها تغط في نوم عميق ، فاذا
ما اجتمع حجازي بعراقي من الفئة المستنيرة في مصر مثلاً كان احدهما اقرب الى
الآخر نسباً من المثقف المصري بين قوم لم تزل فطرتهم مضللة من بني امه في عقرداره
سأعود بعد فترة الى رأي المستشرق الالماني فينا ولكن اسمحوالي قبل ذلك
ان اسمعكم بعض ابيات فوزى وان اسرد لكم عنه ما اراه نازلاً في صلب موضوعنا
هذا المساء ، انى اكلكم عن شاعر الامة المشرّدة فاناً اذاً اتامس معكم جراح هذه
الامة وما كان فوزى العلوفاً ليستوقفكم معى عند ذكره لو لم يكن كسائر اعلامنا
ومزاً لما كمن من العظمة في مجموعنا المبدد الهائم .

اسمعوا شاعر الامة المشرّدة يخاطب قلبه ،

معرض للرسوم فيه غموض	ووضوح وفيه حسن وقبح
إنما تلمح الصفاء عليه	لمحة والصفاء في العيش لمح
وتجس العذاب بالنار محفو	راخاذر ما زال للجمر لفح
طويت بسمة لينشر دمع	وخبت بهجة ليامع جرح

يا فؤادى وأنت منى كلى ليت حكى يوماً عليك يصح
انت مهد ائنى وهذي بقايا هاءً كبت عليك تغفوا وتصحو
خفة الحب أنت كل خفوق فيك حب وكل بغضك صفح

واسمعه في قصيدته بساط الريح يقول

نجمة الليل رحمة فضلوعى

من شجونى تتمزق

كفكى السيل انه فى دموعى

من عيونى يتدفق

واذكرينى بين الكواكب وادعي لي عسى يهتدى الى السلام
عشت بين المنى يراود نفسى خلب من طيوفها وعقام
اقتفيها وفي يدى فؤادى ثم ألوى وفي يدي حطام
أى حلم سكبته ذهبيا لم تذب به بنارها الايام
ورجاء حبكته من خيوط الـ نوز لم ينسدل عليه ظلام
أى عود حملته للتلمي لم تقطع اوتاره الايام
ونشيد وقعته للتأسى لم يعكره بالآنين الغرام
أى كأس قربته من شفاهى لم تحل حنظلا عليه المسام
وفؤاد ذوبت فيه فؤادى لم يضع عنده لعهدى زمام
أى طيف عانقته فى منامى لم يكاله دمع عينى السجام
وهناء زرعته فى ضلوعى لم يكن منه للذبول طعام
ليت شعرى والليل يعقبه الـ فجر متى يعقب البكاء ابتسام
ضاع عمرى سعياً وراء رسوم خططها فى الشاطيء الاقدام

عشت أبنى على الرمال وهل يثبت ركن له الرمال دعام ...

...

قلت انى سأعود الى رأى المستشرق الالماني فينا وها انا استعيد قول
فيلا سبازا متمها لهذا الرأى اذ قال —

« ليس اجدر من امم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة الشرقية والقائمة على
اذاعتها من وضع حد نهائى لتدهور الغرب المشؤوم الى هوة التوحش الاقتصادى
ان العالم البجامة والشاعر الحساس متفقان اذاً على ان الثقافة الشرقية المنطبعة
على ما خلقه الوحي القديم من الغرائز سيكون لها شأنها في مستقبل المدنيات
المتقلقلة ، فالفكرة الانسانية التي تصلح الحياة انما هي اذاً روح الشرق التي حررت
الغرب من قيوده واخرجته من ظلماته بينما كان الشرق نفسه يتدهور من ذروة
الانوار الى مهاوي التعصب والجهل والانقسام

على ان المدينة الغربية التي احتضنت روح الشرق القديمة ونشرتها حاملة عنوان
حقوق الانسان قد انشأت في مراحلها فكرة اخرى تلازمها وهي فكرة الحياة
المادية الآلية فكانت هذه الفكرة الاخيرة كغلاف لا بدله ان ينتفخ وينفجر
يوماً ليقوم مقامه غلاف آخر اصلح منه تبعاً لنظام النشوء في المظاهر المتحولة .

إن من الفلاسفة من يعتقد بتقمص الروح الانسانية في الفرد على مر الاجيال
لبلوغ محور الدائرة ، وما انا بالباحث هذا الموضوع في نفس الفرد ولكن ما اراه
هو ان هذا التقمص انما هو حقيقة يؤيدها التاريخ في فكرة الانسانية العامة أو
الروح البشرية في مجموع الامم ويمكن اعتبار المدنيات على اختلاف اشكالها من ابعدها
ظلمات التاريخ كأنها اجسام تحل فيها فكرة خير فتعذى تلك الفكرة منها الى
ان يدب الهرم في الجسم فتتملص الروح منه اذ ذاك لتحل في جسم مدنية ناشئة

أخرى والروح سائرة الى التكامل على اشلاء هذه المدنيات المتوالية، وقد احتضنت مدينة الغرب هذه الروح العامة اجيالاً فكانت هناك نهضة في سبيل الحق تجلي في رحلها من ابناء الحياة من دعائم التاريخ بحق أنصاف آلهة ، وهذه ارض الغرب كلها لم تبق فيها بقعة الا انارت أفقها فكرة حر وخضيب أرضها دم شهيد، ولكن جسم هذه المدنية قد تصلبت شرايينه فدب الهرم فيه بعد ان ارتوت الروح العامة من دمه ومن دماغه . .

وما كانت الحرب العامة الأخيرة الا أعراض الحمى في جسد نهكته السموم وما تلك السموم الا العراك المادي العنيف بين رأس المال والعمال ، بين العيلة التي تريد الاحتفاظ بنفسها والحرية المتطرفة التي تنازع الأطفال حقهم في سرير طاهر لا تدور حوله الا هواء الجامعات

إن مدينة يستلهم عباقرتها الروح العليا ما يرفع العناء عن الانسان بكل اكتشاف واخترع مفيد فتُمسح هذه القوات النافعة فيها نقبات على الناس لهي مدينة يشوش غلافها على ما كمن فيها من حق وجمال ، فهي الجسد المتعب الهرم يحول الى ألم ما يرهقه من حوافز ونزعات ، ان هذه المدنية يتصدع شكلها مما كمن فيها من قوة مضللة فهي الآن في ليالي احتضارها وسوف تنعق الروح العامة منها لتتقمص جسماً آخر من مدنيات التاريخ .

إنني أصغي بحشوع لهتاف فيلاسبازا إذ يقول —

« إذن فنسيم البحر المتوسط العليل هو القادر على تبريد هذه النشوة، نشوة الجُر والذهب ، وحسب الغرب المسوس ما يتخبط فيه من نوب يستسلم بها الى أحط ملاذ المادة ضارباً عرض الحائط بأجل ما في الحياة من أماني وأحلام . . »
انها لصرخة مروعة صرخة هذا المفكر الشاعر الكبير الذي يولي وجهه شطر بلاد

الانبياء ومنشأ الفلاسفة الأحرار الأقدمين منتظرًا منها انبثاق أنوار الهداية للعالمين
هل نحن ، ياترى ، ذلك الجنين الذي تحوم روح الانسانية حوله لتحلّ فيه
وتقيمه جسداً جديداً للحياة الجديدة ؟

ان هذا التقمص المنتظر لن يكون بقيام أمة على انقراض أمم ، بل بهبوب
فكرة حية من مشوى الوحي القديم تسود المدنيات الهرمة فتبدل ما طرأ عليها
من اطوار لم تبقَ تصلح لها ولا تصلح لاية أمة من أمم الارض

تلك عودة لا بد منها الى ما أنزل على موسى وعيسى ومحمد وإلى ما هتف به
الحكماء الأقدمين في الشرق فأغلقت دونه القلوب حتى في الشرق نفسه

إن المدنية المنتظرة انما تقوم على إحياء الأسرة ورفعها الى عرش قدسيّتها من
مهاوي الاغراق في الاستبداد بالمرأة ومن مزلق إطلاقها المتطرف الشائئ .
انها مدنية تقضي على تناكر المذاهب والجنسيات لأسعاد الانسان بالتعاون في كل
أمة وفي كل بلاد ، انها مدنية تحتفظ بالعلم الذي قبض الغرب على ناصيته في جهاده
لادغامه بالنظم الاجتماعية الصحيحة المستلزمة في الشرق لأصلاح الحياه . ولكنني
لا أدري كيف تتمكن نحن أمم البحر المتوسط من وضع الحد الاخير لتدهور
الغرب بقوة ثقافتنا الشرقية اذا كانت هذه الثقافة مثقلة من نعاس الاجيال نائمة بن
خرائب هياكلنا وآثار مدينتنا الباقية ؟ . . .

ان هذه الثقافة لم يجهلها عظماء نوابغ الغرب وقد ملأت مؤلفات شكسبير
وهوجو ودانتي فقامت في الغرب كل ما هو جميل ونبيل حتى جاءت المدنية الآتية
تكافح ذلك النبل وتشوّه ذلك الجمال . وهذه الثقافة نفسها هي المهمة لأكبر
شعرائنا وكتابتنا وخطبائنا هي النسمة الخالدة التي أحيت كلمات مصطفى كامل وسعد
وشوقى ومطران وطه حسين وهيكمل والمازني والمعلوف وحافظ ومي وجبران

والريحاني وخير الله والملاط ومجاصص ومردم والزركلي واسطفان وبشاره الخوري
والياس أبو شبكة والزهاوى والرصافي ورشيد الخوري والمكرزل وأبي ماضي و...
من هذه السلسلة الطويلة التي تماسكت حلقاتها فوق التراب وتحت التراب وعلى
أرض الشرق وكل أرض نُثرت تلك الحلقات عليها.

ولكن أين من هذه الثقافة هؤلاء الاقوام المحيطون بالبحر المتوسط وهم
طليعة ما في الشرق العربي من أقوام؟ ان بين هذه الشعوب وبين النابغين منها
لجبالا بعيداً، فان الروح الشرقية الهابة فوق الالهرام والأرز وقاعة بعلبك وهياكل
اورشليم وقباب بغداد وماذن دمشق قد قبضت على مشاعر العباقرة منا ولكنها
بقيت تنزلق انزلاقاً على هذه الكتلة المبددة التي تتلوى كالمقاصب الضعيفة وقد
ساورتها هوج الرياح من كل جانب

أين الثقافة الشرقية الرائعة التي تتجلى في اقوال عباقرتنا مشبعة بروح الصيانة
والتساهل والعطف والاخاء من هذه الشعوب المقلدة التي تناست غريزتها ولم تقتبس
من مدينت الغرب الا ما يبكي له عطاء الغرب أنفسهم.

لقد جمحت، ايها الاخوان، عن المركز الذي يستقر موضوعي فيه، ولكنني
إن خطت دائرة بعيدة عن هذا المركز بطرف البركار فان طرفه الآخر لم يزل
يدور في صميم هذه الدائرة، ان ما أردت اثباته هو ان للشرق ثقافة خاصة فيه
مقدورة عليه مما تشربت الاجيال الماضية من الهام أنبيائه وجمال ارضه وصفاء سمائه
وان هذه الثقافة واحدة في جوهرها متغلغلة في ارواح كل الأقوام الشرقية العربية
يرغم ما يتجلى في كل قوم منها من نزعات طارئات مختلفات، هذا ما أردت اثباته
وقد أكون توصلت الى اقناعكم به، على اني لا أرى بدأً من السير في الموضوع الى
أقصاء فأضع حداً بين الثقافة الشرقية الروحية التي اجتاحت الغرب والعالم الجديد

فاتخذها العالم بأسره أساساً لعقائده الدينية وبين الثقافة الكامنة في الفطرة والتي تميز الشرق عن سائر الامم في نزعاته وشعوره بالحياة .

ان الثقافة الدينية مشاع بين البشر كلهم فهي دعوة في صحراء التيه وعظة على جبل فلسطين وهداية في الحجاز لكل انسان أينما ولد وأينما يعيش ، وهذا الوحي الواحد في أصله المنزل لاصلاح الحياة في ثلاثة أزمنة مختلفة لاينجلي للغريزة الشرقية المستنيرة بما كمن فيها من حق الاّ صوتاً واحداً تعالى ثلاث مرات داعياً الى المعروف ناهياً عن المنكر ، وما كان عيسى ناقضاً لموسى ولا كان محمد ناقضاً لعيسى ، ولولا ان الشعوب البعيدة عن مصدر هذا الوحي المثلث لم تضيف الى كل من هذه الثقافات الروحية الثلاث الواحدة في جوهرها طفيليات من عنديتها وذيوها من ثقافتها المادية الخاصة لكان يصعب على الفكر المجرد أن يجد بين هذه العقائد الروحية فرقا يصح أن يقسم جوهرها الى جواهر مختلفة .

اننا لو عرّينا حياة المسيحي مما علق بها من عادات الغرب وعرّينا حياة المسلم مما علق بها من عادات الفرس ورجعنا بالرجلين الى الانجيل والقرآن فانه ليصعب علينا أن نعيّن موضع الفرق بينهما .

ويقيني انه لو تنبّهت الغرائز الشرقية الكامنة في النفوس ووقفت عند فطرتها الاصلية لما كان ابناء الشرق يجدون في كتبهم المنزلة الاّ دستوراً واحداً يجمع بينهم ليس في كيفية عباداتهم فحسب بل في طرق حياتهم كلها

واست بالسابر هذا الموضوع الآن وهو يحتاج الى بحث طويل مستقل ، فاكتفي بأن أبحث معكم الثقافة الشرقية في مصادرها الادبية وفي نزعاتها للشعور بالحياة ، وهذه الثقافة تتجلى بمعزل عن المؤثرات الدينية في كل الشعوب ، إذ لو كان للمعتقدات الدينية قوة تسطو بها على الغرائز القومية واستعداد السلالات

لوجب ان تتوحد ثقافات العالم الاسلامي وثقافات العالم المسيحي وثقافات العالم الاسرائيلي ، والحال ان مميزات الامم ونزعاتها الفطرية لم تزل تتجلى على ما فيها من طواع خاصة برغم المؤثرات الدينية الواحدة ، وما نال الدين المسيحي من غرائز اوروبا بل هي نالت منه بوجه عام ولا هو وحدها بوجه خاص إذ بقي الافرنسي افرنسياً والانكازي انكازياً والالمانى المانياً وكل من هذه الاجناس بقي محتفظاً بما أورثه الاجداد من خلال وبما كمن فيه من حوافز للتمتع بالحياة .

إن من درس آداب أمم أوروبا يتجلى لديه ما بين شعوبها من وهاد بالعاطفة والتصوّر فاذا ما اتفق العلماء فيها من كل أمة على الاستقراء والاستنتاج فانهم يختلفون اختلافاً بيناً في كل ما يتعلق بالعاطفة ومبادئ الحياة الاجتماعية . والستار الفضي «السينما» هو خير كتاب يدرس فيه المفكر أحوال الامم إذ يدون نبرات الصوت ودقائق الحركة والشعور بالحياة بصورة جامعة يمكنك ان تستجلي فيها بساعة ما لا تستجليه بتمضية الشهور بين هذه الامم .

انني أيها السادة ، وقد قدر لي ان اجيء الحياة من أب لبناني عربي ومن أم سويسرية بأبها هو اندية بأبيها ، أرجع الى كوامن الغريزة في فاشعر بالفطرة العربية متغلبة على سائر ما ورثت من نزعات أوروبية ، ولكنني استبقي على هذه النزعات الاخيرة واستجليها أحياناً لآسخرها جميعها لسلطان الفكر باحثاً منقياً ، وليس بالسهل على الحي ان يعمل مبضع الجراح في صميمه سابراً متحريراً قاطعاً واصلًا ، ولكن الاستطلاع استهواء والسير وراء الحقيقة جذبة لا يقاومها المتطلع الى أصول الاشياء .

ان لكل انسان من كيانه نافذة يتطلع منها الى الحياة ، هي نافذة فطرته الموروثة فمنها يستقبل النور ومنها يستقبل النسمات لأنفاسه ، فان قضى على هذه

النافذة بالاقفالُ خنقت الشخصية الماثلة وراءها وسادها الانكماش على نفسها في ظلمة حالكة ، وإذا ما أنت نظرت الى مدنيات الاقوام في سائر مراحلها ، فانك لتتبين فيها نزعة خاصة مميزة لكل منها في حبها وبغضها وسكونها وثورتها وحربتها وسلامها ، وحتى في تصور العدل والظلم فيها. ومما يسهل عليك الاستقراء ويغنيك عن مشقة التفتيش في التاريخ ان تقابل بين ما يعرض في دور الستائر الفضية «السينما» من الروايات ، إذ يستحيل عليك أن تخطيء في التمييز بين مصادرها ، لان من الممتنع على الامريكى مثلاً ان يأتيك بحركة وتصور الافرنسي أو الالماني كما يمتنع على هذين ان يظهر ا عقلية الامريكى والحال على هذا المنوال بين كل الشعوب على اختلافها .

هذا وانك لتشاهد ارتياح الجرمني مثلاً الى تمثيل ابدعه ابناء قومه بأكثر من ارتياحه الى أي تمثيل آخر حتى ولو قصر ما يرتاح اليه في مجال الفن اخراجاً وتصوراً إن ما يراه الأفرنسي على الستار الفضي من الحركة العنيفة بالقفز والكسر والتحطيم وهي ما يرتاح اليها الذوق الامريكى لما يجرح ذوقه الخاص ، وكم على الستائر الفضية من مشاهد يرى بعض الاقوام فيها كل الظرافة وكل الابداع في حين ان اقواماً آخرين يرون فيها نهاية البلاهة وقلة الذوق .

قال الحكماء في كل الامم كلمة ذهبت مثلاً على ممر الاجيال وهي « لاجدال في الذوق وتميز الالوان » ذلك لانه كما لا يمكنك ان تثبت ان اللون الاحمر هو احمر لمن لا تربه حدقة عينه الأحمر الا اصفر ، كذلك لا يمكنك ان تحول الفطرة في التلذذ من موقفها المقدور دليها الى موقف آخر .

على انني ، أنا ، وقد فتح المقدور فيما ورثت من ثقافات امام شعوري نوافذة عديدة الى جانب النافذة العربية الشرقية ، فانه ليتسنى لي ان الملح الشعور بالحياة

لحماً من نوافذ الثقافات الغربية عندما اشاء ان اقبل النافذة الكبرى الى حين، فان
تنصت الى موسيقى بيتوفن وموزار وصلت الى شعوري الباطن الخفي اهتزازات
هذه الموسيقى كأنها صدى خفت لصوت بعيد أقف عنده محولاً كل ما في من عزم
اللاعتلاء مع هذه النغمات فاستغرق في بحر ان المبهوت أمام جمال رائع في وجه أسدل
القناع عليه ، و اشعر ان لاختياري سهماً وافرأ في ما تتمتع به من لذة ، غير اني إذا
كنت لا أدرك اللذة الكاملة من هذه النغمات فلا يفوتني ان استجلي الآفاق التي
تجذب اليها عواطف الغربيين أنفسهم فيحلقون فيها بقوة ما في فطرتهم من
الاستهواء الكامن ، و اني لأشعر بمثل هذا الشعور امام كل ثقافة غربية سواء
تجلت في الانشاء أو الشعر أو العادات والتقاليد، فاني وأنا المدرك بشيء من الفطرة
ما لا يدركه ابناء قومي من الغرائز الاجنبية ، متيقن من امتناع دخول انوار الحياة
الي الا « من النافذة العربية الشرقية الكبرى التي تطلع اجدادي قبلي منها الى
أشباح الحياة مستجلين منها جميلها وقبيحها ...

و اني لأعجب لفئة كثير عديدها من ابناء هذا الشرق العربي تنفرط من عقد
قوميتها ويتظاهر افرادها بتفهم الثقافات الغربية تفهماً تاماً فهم يفتخرون بابتعادهم
عن لغة قومهم وغرائزهم ، و لكن رأيت في هذه البلدان العربية اناساً يمدعون
أنفسهم ليقال عنهم انهم متمدينون راقون متعالون الى أسمی درجات المدنية، فهناك
شاب يقلد الغربيين في كل ما لا قبل له فيه فيتشاعر بما لا يشعر به ويتلاذذ بما
لا ينشد الى حسه فهو يرى عينه ما لا ترى ويسمع أذنه ما لا تسمع عاملاً على قتل
القوة العريقة فيه بسد ما لها من منافذ الشعور الصحيح نحو الحياة

خرجت مرة من احدى الحفلات الخيرية في بيروت وفي روعي ثورة ممارأيت
من الرقص الخلاعي ومن موسيقى العبيد التي تخدش الآذان وتورث الدوار

يكتسحان ابناء الأمة العربية لالعلة الا لاكتساحها أوروبا المحمومة من صدمة الحرب ، فشيت أنخطى ساحة الشهداء حتى وصلت الى منعطف ضيق من الطريق فسمعت نغمت هادئة شجية ترتفع متغلغلة في أنفاس الليل بمقاطع كأنها عبارات تبللها العبرات ينطق بها عاشق مروّع على قبر حبيب ؛ تقدمت الى مصدر النغمت فاذا صديقي مصطفى الاعمى جالس القرفصاء بأطواره الباليات والى جانبه الفتاة الصغيرة التي تقود خطواته في ظمتي الليل والنهار تقلهى باللعب بالحصى ، ومصطفى مكب على القصبه التي فتحت النار خروقه السبع الباكيات يرسل فيها انفاسه الحررى تنبه بين الجدران المهتدمة في ذلك الحيز الضيق ما توى من نبرات الشرق القديم في فسيح أجوائه وكان حول الاعمى عدد من فقراء الباعة والعمال واقفين ينتصتون الى أصوات غرائزهم المتعالية مع هتاف الناي الى أوج احلامهم الخفية وكلهم واجهم متخشع ، فوقفت بين هؤلاء القوم وقد قبض على مشاعري ما قبض على مشاعرهم فعطفتم على مصطفى أستزیده من العراق بعد الحجاز بعد النوى ، حتى شعرت أنني استعدت الى أذني ما شوشت من صفائها ألحان الصخب والضجيج في موسيقى العبيد ، وإذ أنا تهيأ لمتابعة السير نحو مسكني وجدت امامي أحد الشبان من معارفي وكان حاضراً الحفلة التي حضرتها فلم يفلت من شر ساعديه خصر من خصور مأسات المرقص ولم تقف رجلي لحظة عن الارتجاج مع نقرات الطبول وصرخات الزمور ، فاستقبلني بضحكة وقحة عالية لم أجد ما أقبلها به الا نظرة أسى واشفاق

مسكين هذا الفتى وما أكثر هؤلاء المساكين في الشرق ينجلون مما قتلوا من عبقرية في غرائزهم ويتباهون بفراغ مروّع في شخصيتهم ، وما شخصيتهم الا رداء وسيع منشور على هيكل من عظام ...

أيها السادة ، ان للامم شخصية لا تموت ، شخصية تحياء على ممر القرون ، في

غراؤز تتجلى في افرادها على قدر انتباه الحياة وخمولها فيهم ، فما الغريزة في المجموع
الآب بمثابة العقل الباطن في الافراد ، وما قدر للأمم في حياتها انما هو كامن في هذه
الغراؤز نفسها ، لأن الفطرة في أمة انما هي الروح التي تحيا بها تلك الامة .

ونوافذ الغريزة على الحياة عديدة أهمها اللغة ، اداة الفكر ، والموسيقى اداة
الشعور ، ونظام الاسرة وهو اساس أنظمة المجتمع .

فلنقف قليلا عند كل دائرة من هذه الدوائر الاوليّة لغراؤز الشرق العربي
اللغة - ان اللغة هي الشكل المحسوس للفكر والعاطفة ، وإذا كانت اللغة
في الاصل مظهراً للاتجاه الكامن في النفس فانها قد أصبحت بناموس التوارث
مؤثرة على الاتجاه نفسه بقوة التفاعل المشترك بين العلة ومعلولها . ولقد يخيل للبعض
ان الفكر حر طليق في دواؤه يتسنى له بلوغ أوج الافصاح باية لغة يستخدمها
على ان القائلين بهذا الرأي يحلون تأثير التعبير على الفكر نفسه . ان البيان
ممتزج بالاتجاه الداخلي امتزاجاً لم يسع علماء احوال النفس انكاره ، فهو يدوى ابداً
في آذان الاحياء بصوتين صوت الأم فوق المهدي وهاتف الجدود من القبور .

ولقد يولد العربي في محيط غريب ولا يتعلم كلمة من لغة اجداده ويكون فيه
عبقرية فكرية تتجلى في اللغة الاجنبية التي تعلمها ولكن مثل هذا الالمعي يستبقي
ابداً دون أن يشعر على صور لغة اجداده فيبقى الغموض سائداً على انشائه فاذا ما
قرأه ابناء تلك اللغة الاجنبية يتلمسون العبودية تتمشى في سطورهم . وهذا غونجروا
الكاتب الأشهر الاسباني تمدني لغته عن مرتبة فكره الأسير وفكره العربي كما
شهد الاسبانيون انفسهم تتململ صورهم في تعابيرهم فكأن جناحه لا ينطلق الا
على الصور الكامنة في غريزته منذ اجيال

ان عدداً كبيراً من ناشئتنا الحديثة يفتخرون بجهلهم اللغة العربية ويدعون

التفوق بالفرنسية أو الانكليزية أو سواهما، وانا اؤكد لكم ان أمثال هؤلاء
المنشئين يبقون أبداً في مرتبة وضيعة بين أرباب البيان من الكتاتين باغة جدودهم
وانني اعرف من رفاق الشباب جبران خليل جبران والريحاني من العرب الذين
كتبوا بالانكليزية واعرف شكري غانم وخير الله خير الله من الذين كتبوا
بالفرنسية فاجادوا وصفق لهم الغرب والعالم الجديد، ولكن مثل هؤلاء العباقرة
الذين قاما بوجود مثلهم الزمان لم يشتهروا بصفاء لغتهم وفصاحة تعبيرهم قدر اشتهارهم
بروح من الشرق هبت بين سطورهم فاعجب بها العالمان . فما كان جبران والريحاني
الآن رسولي الادب الشرقي الصحيح كلا منهما على طريقته لدى ابناء المدينة الالية
الجبارة، وما اشتهر غانم الآن برواية عنتره كما ان خير الله لم يشتهر الا برواية
مجنون ليلي وبما عقد عن الشرق من فصول .

ان حياة اللغة في أمة هي أول مظاهر الحياة في مجموعها .

ولا يمكن الوطني في أية بلاد كانت ان يبلغ في المصالح الاجنبية مرتبة عليا
مهما بلغ تضلعه من لغة تلك المصاححة ولا يمكننا ان ندعي ، بصرف النظر عن
مسألة الترجيح للجنسية ، امكان تفوق الدخيل على الاصيل في دوائر تتأثر فيها
قوة العمل نفسه بملكة التعبير

لذلك نرى ابناء البلاد التي تستغلها المصالح الاجنبية مستعبدين بفكرهم وعلمهم
لأنهم قد استعبدوا بلسانهم اولاً

منذ سنوات استفتت مجلة الهلال المستشرقين والادباء في مستقبل اللغة
العربية فوردتها اجوبة عديدة نشرتها تباعاً وفي جلّها تفاعل ودعوة الى أحياء هذه
اللغة الخالدة وفتح روح التجدد فيها وكان من جملة من ادلوا برأيهم في هذا المطلب
حضرة المستشرق الفاضل الاب لامانس ، وهذا اباب ما قال

« ويجب أن يعني اهل البلاد العربية بلغتهم باعتبار انها لغة وطنية ، على انهم ينبغي لهم أن يشاروا على تعلم اللغات الاوروبية التي مكنت السوريين بوجه خاص ان يلبوا دورهم التاريخي وليس عندي ادنى شك في انه إذا جعل التعليم العالي باللغة العربية تنعزل البلاد شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة إذ تصبح اللغة الوطنية حاجزاً منيعاً دون مواصلة التقدم »

وقفت امام هذا الرأي في ذلك الزمان وعارضته بمقال مطوّل نشرته الجرائد البيروتية، وهانذا أورد لديكم بعض ماورد فيه مما يتعلق بموضوع الثقافة الشرقية قلت : اذا كان لا يحق لنا انتقاد عواطف حضرة الاب لامنس لانها منحرفة عن قبله عواطفنا ولانه يرمى الى تعزيز لغته اولا ، فلا يمكننا موافقته على تصوّر ترده حقيقة الواقع

ليس للعلم لغة خاصة به والارتقاء العامي لم ينحصر بلغة دون سواها ، واللغة العربية من أغنى لغات العالم بل هي أرقى من لغات أوروبا لتضمنها كل ادوات التعبير في اصولها في حين ان الأفرانسية والأنكليزية والأيطالية وسواها قد تحدت من لغات ميتة ولا تزال حتى الآن تعالج رمم تلك اللغات لتأخذ من رمادها ما تحتاج اليه ليس من الغريب ان يقول مستشرق بوقوف اللغة الوطنية حاجزاً دون تقدمنا

إذا كانت هذه النظرية صحيحة فاماذا تتمسك الامم الناهضة بلغاتها ، لماذا عكفت أوروبا على اقتباس علوم العرب دون القضاء على لغة أوطانها عندما كانت اللغة العربية خزانة العلم بل الحلقة الوحيدة التي ربطت الرقى المنقرض بالرقى المنتظر لقد كانت لغات أوروبا في تلك الحقبة من الزمان تتولد من اليونانية واللاتينية تولد الطفل المريض من أم تجود بأخر انفاسها فاماذا تمسك الغرب بهذا الطفل الضعيف ولم يتخذ لغة العرب مع علومهم اساساً للتعليم في مدارسها وجامعاتها ؟ . .

لا أرى حضرة المستشرق الا عاجزاً عن الجواب على هذا السؤال ، وهو
يرى تمسكنا بلغة اجدادنا انغز الا لأوطاننا عن الحركة العالمية العالمية، وهل انزلت
المانيا مثلاً عن العالم عندما تتبعت علوم فرنسا وآدابها بعد ان سبقتها فرنسا في مضمار الرقي
ليس من أمة في الارض لم تقتبس العلم عن تقدمها ولم يزل مشعل العلم ارث
الانسانية يتهادى فوق الامم كلها في مراحل التاريخ ، وقد محقت الاجيال لغات
قدالت والفكر باق جوهرأ مضيئاً يستشفه الناس من وراء مقاطع واصوات تتلبس
العلم وماهي في نفسها لا فكراً لا علماً . و

يمكن حضرة الاب لامنس أن يقول بأن حركة العلم منعزلة في بريطانيا عن
حركة العلم في المانيا أو فرنسا لعلة اختلاف اللغات ؟

اننا لا نجد برهاناً على صحة نظرية الأب لامنس وما نحن ممن يتعصبون
للمقاطع والحروف وليكننا نعلم ان في حياة الشعوب ناموساً يسمى ناموس التوارث
أو الرجعة وهو قوة تجعل أدمغة الاحفاد أشد انفعالا لما جال في ادمغة الأجداد
فان الطالب الذي كانت اللغة العربية آلة لتفكير اجداده منذ الف سنة لا تخضع
لفكره لغات الاجانب بمثل خضوع لغة اجداده .

إذا كان المقصود من التعليم ترقية الشعوب ودفع العقول الى ارفع ما يمكنها الوصول
اليه فيجب أن نجارى القوى الكامنة في استعداد الامم لا أن نضع الحواجز في
سبيلها ، ولا خلاف في ان الطالب الذي يتلقن علماً بلغة اجداده الطائفة لجارى
أفكاره يسبق الطالب الذي يجبر دماغه على الاذعان لصور في التعبير لم يرثها فطرة
فتصبح قيدياً لا فكارة لا جناحاً لها .

ان المستشرقين من كبار علماء الافرنج يعرفون هذه الحقيقة من أنفسهم ،
فانهم بالرغم من انقطاعهم لدرس لغات الشرق والتعمق في اساليبها لا تخلو صفحة

من كتاباتهم من آثار العجمة والقصور في الفهم والتعبير ومن ورث اللغة عن اجداده
يחס بهذا النقص حتى في حال تدنى مرتبته العامية عن مرتبة هؤلاء المستشرقين
وما حال الناطقين بالضاد تجاه اللغات الاجنبية بأحسن من حال علماء الافرنج تجاه
اللغة العربية ولولا ذكاء مفرط في الشرقي وصبر عجيب على موقفه لكان مقامه من
العلم دون ما هو الآن لتسليم قياد افكاره الى غير قائدها الفطري

ان الذين حولوا كل قوائم الى التعلم باللغات الاجنبية جاعلين لغة اجدادهم في
المنزلة الثانية أو في طي الاهمال قد سُدَّت دون مواهبهم منازل الالمية فاكتفوا
بالسير وراء قادتهم معجبين مقلدين ، ونظر اليهم اساتذتهم نظرة المصطفى من
الطبيعة الى من هو دونه في مراتب الفكر والحياة .

ان اللغة القومية هي اللغة التي يصفو بها الذهن ويسمو بها القلب فاذا حكم على
الانسان ان يتخذ سواها قائداً لفكره ومضرباً لاوتار قلبه فكأنما قد حكم عليه
بفقدان حقه من الاعتلاء والتفوق في الحياة .

ان ما نتمناه قبل أي شيء آخر لهذا الوطن انما هو سيادة لغته فيه لتقوم على
سطحه جامعة تقدر أن ترتقي بميزاتها الخاصة ، أما لغات اوروبا فيجب ان تكون
لنا البحر الذي نستخرج من قعره درر اجدادنا بل الدرر المشاعة لكل مستخرج
لانها ملك الناس أجمعين ، وليس المترجمون قلائل في البلاد العربية . ان بين الوف
الالوف من كتاب الاجانب كاتب واحد يقدر على ترجمة ما في لغتنا أما نحن فقلينا
من المئة خمسون كاتباً يقدرون على نقل أرق ما في لغات الأ جانب من الادب والعلم
فالحاجز الذي تصوّره حضرة المستشرق انما هو محض توهم قام في خياله لاغراقه في
حب لغته وما لغتنا بأضيق منها مجالا اذا أعطي لها ان تحيا بحياة أبنائها»
ذلك ما صرّحت به منذ سنوات طويلة وما زادني الايام الا رسوخاً بملء

اعتقدت، فان الألفاظ الفنيّة التي يستعملها الافرنج للدلالة على المسميات المستحدثة لم تكن موجودة في الأصل واذا انت رددتها الى مصادر الكلام عندهم فان اوferها يحىء مغلوطاً ولكن الاستعمال جعلها صحيحة في مواضعها، خذ لك مثلاً تسميتهم الطيّاره « ايروبلان » وهي مركبة من جذرى الحومان والهواء على شكل مقلوب لا يتفق والتركيب اللغوى بشيء ومع ذلك فان بعض كتابنا لا يروقه استعمال اللفظة العربية التي تؤدى المعنى بصورة أصح من التركيب الافرنجى نفسه فيفضلون كلمة ايروبلان على طيّارة أو طائرة، وقل مثل ذلك على الشمندير، السكة الحديدية وعن التلفون - المهتف - وعن الراديو - وهذه اللفظة مأخوذة عن جذر الاشعاع توسعاً من النور الى اهتزازات الصوت، فاذا ما نحن اسميناه المندى كنا أكثر توفيقاً من الافرنج أنفسهم في ايجاد اللفظ الأتبق لان المندى يفيد الالة المبعدة الصوت من مصدره، ولك ايضاً ان تقف عند مثل هذا التخبط في الألفاظ الطبية التي اتخذها الافرنج بتركيبها اليوناني اللاتيني فيقولون مثلاً « ادهيرانس بيليرو باريكارديت » ومعناها التصاقات غشاء الرئة بالشغاف، ومعظم الاطباء العرب في هذا العصر يستسهلون كتابة هذه الالفاظ على ما وردت دون ان يعتنوا بالبحث عما يقابلها في اللغة العربية، على ان هذا القصور لا يطالب به الاطباء ولا سائر رجال العلوم والفنون ما دامت الامم العربية لا تمثل بجامعة تقر من الالفاظ ما تنوسى وما يجب استجداته اشتقاقاً للمسميات العصرية.

هذا وانى لأعجب لبعض رجال اللغة يتوهمون ضيق الاصول العربية عن الاتيان بالتعابير على اختلاف مراميها، ولو انهم دققوا في الصيغ الافرنجية التي بنيت عليها الفاظ الاوروبيين للدلالة على المعاني، لاتضح لهم ان هذه الصيغ أضيق بما لا يقاس مما يتوهمونه من ضيق في الاصول العربية، فان كلمة « سرفيس » مثلاً

في اللغة الفرنسية تعني « الخدمة » اسماً للفعل ولكن اهل تلك اللغة يضمونها
معنى الادارة التي تقوم بهذه الخدمة ومعنى المكان ايضاً ، وقس على هذه الكلمة
الوفاء من الكلمات التي قاد الافرنج انغمهم فيها الى مرونة أقرها التساهل وأخذها الاجماع
كلهم يعلم ، ايها الاخوان ، أهمية المصالح المرتبطة بادارة بلدية الاسكندرية
فان هذه الادارة العامة التي تشرف على أعمال تتناول كل الفنون والصنائع وتمشى
فيها العربية الى جنب الفرنسية في كل مناقشة ومعاملة قلمية ، هي أوفر احتياجاً
من أية مصلحة كانت في الشرق الى المفردات والتعابير العربية ويمكنني أنؤكد
لعم وانارئيس قلم الترجمة في هذه الادارة ان لغتنا لا تضيق بنا عن وجود كل
ما نحتاج اليه لمجارات اللغة الفرنسية في كل مجال وفي كل مقال

ولا بد لي من التنوية في هذا المقام بما لصاحب العزة احمد بك صديق المدير العام
لهذه البلدية من فضل عميم في سبيل احياء اللغة العربية في ادارته وفي سبيل تسديد
مراعى الالفاظ والقضاء على التعقيد في كل التعابير ، فان هذا الرجل الفذ الذي
قبض على زمام الفصاحة باللغات الاجنبية لا يقصر عن الازهرين في إعرابه وتمسكه
بلغة أوطانه وأجداده .

ومن واجبي ايضاً ان انوه بفضل صاحب العزة ابراهيم بك سيد احمد السكرتير
العام للبلدية ورئيس نقابة موظفي الحكومة التي شرفني بدعوتها إياي لالقاء هذه
المحاضرة ، فان اقتداره بلغة بلاده وتدقيقه الصارم في صحة كل ما يكتب بها لما
يشير الاعجاب ويدعو الى الاجلال .

ويقيني ايها الاخوان ان الفكرة التي تتمخض بها مصر وهي دماغ الشرق
بانشاء المجمع اللغوي لوضع الموسوعة الكبرى ستضع في التاريخ مبدأ خلود اللغة
العربية في الحياة العملية كما وضع القرآن الكريم مبدأ خلودها في عالم العمالة واقامة

العدل بين الناس .

ان كل شرقي عربي يتطلع اليوم من كل الاقطار الى عرش المليك فؤاد الاول
متوقفاً بزوغ هذا النور الوهاج بين صولجانه وعلمه .
الموسيقى .

الموسيقى الغربية هي وليدة الاجتماع والتنظيم فهي اصوات متعددة يخضعها
الطباق فيوحدها بالايقاع ، ولكنها إذا رُدت الى ما يمكن فيها من الانشاد الروحي
الحر المطلق بانفراده فانها لتتجلى كهيكل من عظام . . .
انني اتخيل ابناء الغرب في اجتماعاتهم القديمة في بلدانهم الباردة يحيطون بالموقد
وقد دارت بالمسكن عاصفات تتراقص في أعاصيرها ذرات الثلوج ، تخيلهم هارين
من وجه السماء المتجهّم وقد تلبّدت دون شمسها وقرها ونجومها حالكات الغيوم
لاجئين الى التعاون والتفاهم بحكم الطبيعة نفسها ، فأراهم وقد تنهّت في كل منهم
عاطفة الانشاد يذكرّون من جمال الطبيعة ما رسمته في تخيلتهم أيام الصفاء القليلة
ويهتفون جميعاً بالصوت الملحن الكامن في اعماق الحياة نفسها .

في هذه الاجتماعات تكونت موسيقى الغرب فرست على المطاوعة والتنظيم
وكان الايقاع مجلي لكل ما فيها من وحي للتعبير عن كامنات الجمال والحب ، فالموسيقى
الغربية ، في رأينا ، إلهام نزل على جماعة لهم الأتفاق فساقهم الاضطرار الى إيجاد
الايقاع والطباق ، ولكن هذه المطاوعة قد استوجبت حتماً انشلال الحوافز
الدقيقة وكبت التبرات الناعمة المتمردة وهكذا ذهب ضحية الطباق ما في الصوت
الطبيعي المنفرد من دقائق الدرجات وأجزاء الاهتزازات .

اما الموسيقى الشرقية العربية فقد أنزتها السماء الصافية بشمسها وقرها ونجومها
على حادي العيس في البيداء ، وراعي القطعان في الأودية ، والعاشق الشارد فوق

التلال الخضراء ، فالموسيقى العربية كشرها هتف بها الانسان منفرداً وحيداً
أمام وحدة ربّه الذي يعبد ، فكان الشعر مشتقاً عن الموسيقى والموسيقى نفسها
مرتفعة من صوت الطبيعة الحرة المطلقة في نواميسها المتعالية عن كل إكراه .

إنّ الغربي يقيس شعره على مقاطع الكلمات شاذاً عن النظام الطبيعي في
إنتساق التفاعيل المبنية على السواكن والمتحركات فهو يعدّ المقاطع عدداً بمعزل عما
في بعضها من القصر وفي بعضها الآخر من الامتداد فاذا ما أراد تلحينها برز النقص
في وضعها وتنافر قياسها وقياس اللحن الافرنجي على ما في هذا اللحن نفسه من فقدان
الاجزاء الدقيقة والوزن الصارم .

خذ لك بيتاً من أي بحر في العربية واعرضه على القياس الافرنجي تجد المقاطع
فيه منطبقة على مقاطع الوزن ، ولكنك إذا عرضت بيتاً من هذا الوزن نفسه
بالافرنجية على تفاعيل البيت العربي ذاته يتجلى لديك اختلال البيت الافرنجي
إختلالاً بيناً في نبراته المتحركة والساكنة على السواء .

ان الموسيقى الشرقية هتاف عميق من النفس منفردة تجاه الوحدة المتجلية في
مستلهمات الشرق ديناً وفناً ، فهي ان نقصها الايقاع ، لا تزال حتى في دور انحطاطها
اليوم أغنى من الموسيقى الغربية بأوزانها ونغماتها ، وقد بدأ الغربيون أنفسهم
بالالتجاء اليها مقتبسين منها ما يسدون به فقر موسيقاهم التي ذهبت شوطاً بعيداً
في التفتن وهي محصورة ضمن نطاق ضيق في أنغامها .

ومع هذا ، فان التقليد الاعمى للغرب قد دفع ببعض من يدعون التجديد في
الموسيقى بيننا الى تقييد الغناء العربي بالطريقة الافرنجية متوهمين ان في هذه
الطريقة انهاضاً للفن .

ولا بد لي هنا من ايراد مقال كتبته منذ سنوات عن منشد عربي ربي صغيراً

في الولايات المتحدة وتلقن الموسيقى الافرنجية في المعاهد الكبرى فاكسب شهرة واسعة بين أبناء العالم الجديد . المنشد هو مدحت افندي السرجي من طرابلس الشام وكان قدم إلى بيروت بعد طول غيابه فأسمع مواطنيه من انشاده ما أثار كل اعجابهم ، وهذا بعض ما نشرته عنه في ذلك الزمن .

* * *

«عرفت مدحت افندي السرجي في مدينة فول ريفر في اثناء رحلتي الخطائية في الولايات المتحدة منذ سنة ونصف سنة، إذ وقف في إحدى الحفلات بدعوة الحضور من المهاجرين واطلق صوته بأبيات من أطيب الشعر العربي فكان كل مقطع من أبياته غصة قلب مشتاق إلى سوريا ولبنان وبلاد العرب .

لاول مرة سمعت مدحت فيها، سمعته يحن إلى الاوطان بين قوم كل مافي قلوبهم متكون من خيالات جبالنا وسهولنا ، فكان صوته يرتفع من أصداء تلك القلوب كأنه أنين ريح وهينمة نسائم تهب من روابي البلاد ووهاد البلاد ومدحت هناك عزيز على مواطنيه يعشقون فيه صوت بلادهم ويباهون به أمام الاميركيين إذ يجاري كبار منشديهم في فهم الخاص .

مدحت شاب إذا وقف على المسرح وهو حليق وعلى عينيه نظارتاد المستديرتان ينشد أرقى ما جادت به قرائح رجال الموسيقى في الغرب تحسبه أمريكياً بلهجته وحركاته فيطربك ويشجيك إذا كنت مطلعاً على ما في موسيقى الغرب من الفن ويدهشك بقوة صوته وتلاعبه بطبقاته إذا كنت لم تألف غير ما في الابراج الشرقية من الحان . ولكن هذا المنشد الذي لا يطرب أبناء العالم الجديد إلا بما في صوته من سحر الشرق لا يلبث أن تهب من أقصى روحه نغمات كامنات إن لم يكن فيها أنين عبده الحمولي ونبرات الشيخ سلامه فان فيها من القوة والصفاء ما لم يسمعه

عربي في الاجيال المتأخرة

ينتقل مدحت في إنشاده من الغناء الافرنجي الذي سبر غور أصوله وتلقنه

عن أشهر الاساتذة الى الغناء العربي الذي لم يلقنه اياه غير شوقه إلى بلاده في ديار غربته وفي أيام محنته فيسطو عيك بشيء هو أعلى من الفن ويصل إلى روحك بقوة سرية هي أنين الصوت العربي أخضعته أنظمة من غير أوضاعه وآيات من غير وحيه ، وكم من عبودية تورث ثورة ومن تحكم يولد تمرداً وانك لتستجلي في ذلك التمرد كل مافي ناموس الغريزة الموروثة من كامن القوات

أصغيت لمدحت يتغنى بالافرنجية فالفيتها بجاري أشهر من سمعت من ارباب الفن في اوربا والعالم الجديد فحنيت الرأس خشعاً أمام نبوغ بلادي يزاحم بالمناكب كل نبوغ في أي بلاد وبين أي شعب ، ولكنني عند ما أصغيت اليه يستعير الألحان الافرنجية للأشاد العربي ، تلمست ما يلاقى هذا المنشد من عناء في تطبيق الفاظنا على هذه الألحان ، وانني لا أرى هذه الطريقة في الغناء مما يصح ان يتخذ مثالا لان الالفاظ العربية تنمرد على الوزن الافرنجي فتلمحها تطفر طفرأ وتنمرد على محاولة إخضاعها اسلم لم يوجد لها . وقد كان مدحت من رأينا عندما أعلنه له فهو ما قصد وان يقصد التفرنج في الأشاد العربي لانه ينفركما ينفركل ذي ذوق سليم من سماع الالفاظ العربية تتلوى على السلم الافرنجي صارخة المدد . ولدينا مثال على هذه الطريقة الشاذة الاناشيد الكنائسية التي أدخلها المرسلون على اللغة في الصلاة ، وهي تخدش الاسماع وتستنفر المشاعر ، فان واضع كتاب الأشاد قد نظموا بالعربية مقاطع لا بأس بها لغة ومعنى ولكنهم ارادوا إخضاع ما نظموا للانغام الانكليزية ، وهكذا اذا تنصت العربي الي إنشاد الانجيليين في معابد البلاد العربية يخيّل له لاول وهلة ان المنشدين يتغنون بالانكليزية ولكنه لا يلبث ان

يسمع الكلمات العربية مدقوقة مقطعة بلهجات ومخارج تظهر فيها اللغة كأنها رهط من ممثلي المسأخر ، وتصل الى الاسماع كأنها لغة الزولو أو قبيلة نيام
ليس هذا ما يرمى اليه منشدنا الوطني وليس هذا ما نشجعه عليه .

نريد ان تسلم اغتنا من كل تشويه ينخله الانشاد الغربي الى لهجتها الفصحى العالية ، ولا نعرض على اقتباس الانغام أيان وجدت بشرط اخضاعها للسلم الشرقي المرن الذي يتدرج على دقائق الصوت بكل ما في هذه الاجزاء من الثبرات الطبيعية دون الوقوف عند انصاف الابراج كما هو الحال في موسيقى الغربيين .
ان السير على السلم الافرنجي في الانشاد العربي يستلزم حتماً تفخيم الالف حتى تصبح كأنها الالف الفارسية الخارجة من تجايف الانف وتقود الزاماً الى مضغ العين فتصبح الفاً والى دق الضاد فتغدو دالاً ، فضلاً عن تقطيع العبارات والكلمات نفسها تقطيعاً يضع كل ما في اللغة من فصاحة وعدوبة »

تلك خطرات افكار دو نها منذ سنوات عديدة ولم تزل حقيقتها ماثلة امامي في مراحل التطور الذي اجتازته الموسيقى العربية الى اليوم . وما انشاد الامة الا صوت ثقافتها المعتلي مجارياً لغتها وما كمن فيها من أخلاق فان ذهب هذا الانشاد مع التقليد خارجاً عن مصدره الطبيعي فانه ليعلو شاذاً عن نفسه كاذباً مكذوباً .
إن لكل معدن رنة لو أنت طمعت باستنطاقه غيرها لما أستطعت ، فالموسيقى العربية على إقتباسها الشيء الكثير من اليونان والفرس ، لم تزل منفردة في جوهرها ، لانها قد هضمت ما اقتبست فاصبح منها تسلط وحيها الخاص عليه ، وما للموسيقى العربية الا أخت شعرها وقد نشأ كلاهما من وقوف الانسان منفرداً وحيداً امام وحدة ربه الذي يعبد فكان وحي الشعر مشتقاً من الموسيقى نفسها والموسيقى مرتفعة من أحشاء الطبيعة المتمردة بنظامها على كل نظام موضوع

فاذا كانت الموسيقى الغربية قد ذهبت شوطاً بعيداً على أساس نغمات معدودات فان الموسيقى الشرقية ، على ما هي عليه الان من الانحطاط ، لا تزال أغنى من الموسيقى الغربية بوفرة مقاماتها وأوزانها وتنوع نغماتها وقد تنبه الغربيون أنفسهم إلى سد عوز نغماتهم بما يقتبسونه من نغماتنا

على أنه مهما كان مقام موسيقانا من الضعة والاعتلاء، فانها تبقى أبداً الصوت الذي يهيب علينا من مرقد الأجداد ومهود الأطفل ، ونحن في هذه الايام المتأخرة تملأ أجواءنا نغمات الجاز بند ، ويتطارب أبناء الشرق من موسيقى الغرب بما لا يهز من قلوبهم وترأ ولا ينبه من خفايا أرواحهم صدى . . . لا لأمر إلا ليقال عنهم أنهم متمدون يتظاهرون بالنشوة كأنها تملأ نفوسهم من إيقاعات بتوفن وموزار وروسيني حتى ومن نغمات باخ ، ويتظاهرون بالنفور من بقايا موسيقانا القديمة المتغلغلة أصواتها في أرواحنا .

أما أنا فاني أعترف جهاراً اني برغم إمكاني تفهم روح الموسيقى الغربية لأن أمي أنشدتها فوق سريري وأنا طفل وأمي من وطن جان جاك روسو مستلهم الشرق في ثورته ، انني برغم ذلك ، لا أفهم الموسيقى الغربية إلا بدماعي ، أمّا أصداء روعي فانها لا تتجاوب إلا إذا سمعت في السحر أصوات الأجيال القديمة في أمتي تهتف من أعلى المآذن (حي على الفلاح، حي على الصلاح، أشهد أن لا إله إلا الله) لا تهتز أوتار قلبي الخفي في وجداني الباطن إلا إذا سمعت نغمات الحجاز والعراق ترتفع إلى الأعلى كالصلاة ، سواء أنشدتها أم كاثوم أم أنشدها بدوي يحدو اعيسه في الوديان ومفاوز الصحراء .

ان أرواح أبناء الشرق كلهم تنطوي على مثل هذا الشعور ، فقد رأيت في المهاجر حيث جلت في بيوت الشرقيين المغترين كثيراً من اخواننا حتى المتفرنجين

منهم يستنطقون الحماكي أغاني الشرق فتهدج أنفاسهم وتبلل أجفانهم الدموع ؛
فكنت أرى في تلك القطرات دموع الرماد الثاوي في القبور ...

بعد أن تكلمت ، أيها الساده ، عن اللغة والموسيقى ، بقي علي أن أتناول
بالبحث النظم الاجتماعية والعادات وهي المنفذ الثالث للفطرة في الامم .

اننا تجاه مطلب متشعب المناحي وأهم هذه المناحي ما يتعلق بأحوال منابت
الأطفال ولست بالسائر في هذا المبحث هذا المساء ولعاني أخصص له محاضرة
مستقلة غير انني استكمل كلامي هذه عن الثقافة الشرقية العربية بكلمة موجزة عن
مناهجنا الاجتماعية وعاداتنا

ان أبناء الشرق يتبعون اليوم في حياتهم نظماً لا تتفق وما في فطرتهم من ميول
فالحياة المادية الصرفة تلبس الشرق وجهاً خشناً مستعاراً تنقبض عليه أساريره تقليداً
وتصنيعاً . . . فنحن أبناء العاطفة نكذب نفسنا إذ نجعل لكل شيء ثمناً يتمثل
بالارقام لدينا . . .

وان هذا التفكك باسم الاستقلال الفردي بين أبناء الأسرة الواحدة
والجامعات في الأسر الكبرى لما يؤلم قلب الشرقي في صميمه ، وليست تلك الظاهرة
المتجلية في الغرب في تراخي الاواصر الطبيعية الا ظاهرة مرضية تدل على ضعف
الحيوية في شعوبه .

ان علماء الحيوان يستدلون على قرب انقراض بعض فصائله مما يشاهدونه
فيها من ضعف الشعور بين أفرادها ، فالكوئنجورو الاثي الحاملة صغارها في
كيسها اللحمي لا تتردد في القاء هؤلاء الصغار فريسة لوحش مفترس يلاحقها
إذا شعرت بقرب لحاقه بها فهي تعمد إلى تخفيف وقرها تنقذ نفسها بالقاء من
تحمل ، ويستدل علماء الحيوان من هذه الظاهرة الحديثة في هذا النوع من أن

انقراضه قد أصبح قريباً .

ان انكماش الأحياء على أنفسهم وظهور الانانية فيهم دليل على ضعف القوة الحيوية ، فالرجل أو المرأة إذ يضعف شعور أحدهما بالعطف والتضحية تجاه الآباء أو البنين لا يكون هذا الضعف إلاّ دليلاً على التواء الحياة على نفسها فيه فما انسلاخ الانسان عن حوله من أهل وأقرب إلاّ نتيجة التنظيم المدني الذي أضعف فطرة العطف بصلة الدم والارحام على كل نسيب ، وما هذا شأن الشرقى في غريزته التي لم تخدّرهما المدنية بعد واكثنا نأخذ بهذا الضعف تقليداً وتكلف تكلفاً الظهور بمظهر الانانية التي تكذبها شخصياتنا الكامنة

والمرأة الشرقية ، المرأة الحرة التي ضربت بعفاها ووفائها الامثال يصونها النقاب الدخيل المتطرف والسجون الجائرة من جهة ومن جهة أخرى تنطلق مهتوكة الستر ضاحكة لاعبة مراقصة من يشاء . ان الفطرة الشرقية لا تحتاج إلى الاكراه للصيانة كما ان هذه الفطرة تتمرد في الرجل على ترك زوجته وأخته وابنته آلة لتسليّة الفاحشين بعواطفهم في المراقص والمجتمعات

وما أنا أوجه الانتقاد الى سائر الشعوب في عاداتهم فان لكل شعب تقاليده وغرائزه وله أن يسير بجوافزها ومقتضياتها ولكن ما يتألم الفكر له هو أن تختار أمة نظماً لحياتها لا تتفق وفطرتها فتسير في طريق تدمى أرجلها ومع ذلك فهي تداوم الذهاب على تلك الطريق .

لقد وقفت ملياً أمام هؤلاء الشرقيين الذين يذهبون بنسائهم إلى المراقص ليقال انهم أخذوا بحاسن التمدين ، وقفت أمامهم ملياً وتأملتهم وأوكد لكم اني ما رأيت رجلاً كان يبتسم لامرأته أو لابنته أو لأخته تعصرها سواعد الغرباء عمراً إلاّ تجلّى لي وراء ابتسامته المصنعة المكذوبة الصفراء عبوس أجداده

التأثرين في أعصابه ومجاري دمه . . .

كل انسان يجبن أمام الحوادث في حياته فيلين لها حوافزه وفطرتة، إنما هو للشخصية المفقودة التأهية، فهو الشبح الباكي والحى المستحجر، ولقد تلمع أحداق مثل هذا الانسان بالظفر والمجد والسكن أنوار السعادة تبقى منطفئة في عينيه .

ونحن كأمة لا نقدر أن نعلو فوق هذا الناموس الثابت، ان فطرتنا مقدورة علينا كامنة فينا وكل أمة تحيا على غير ما تسوقها اليه فطرتها فهي أمة باكية بدموع صامتة، هي أمة مستضعفة مستعبدة لا معنى لحياتها ولا سعادة لها فيها .



« ٣ »

جبران خليل جبران

(فلسفته وحياته)

أدب جبران وفتنه - عبقرية الشرق بين قومه وبين الأجنبي - تطوّر
فلسفة جبران - إصلاح الشرق بعلوم الغرب وإصلاح الغرب بألهام الشرق -
كتاب النبيّ جبران وشرحه - أعضل القضايا الاجتماعية في صفحات موجزة -
الحياة والموت - الحب - الأبناء - الاجرام - الصلاة - التجارة - العمل الخ...
مقام جبران بين الادباء العالمين - موقفه بين الاستقراء والاستلهام - جبران
وحيّ تكارات شخصية عن جبران - قصيدة تراب الجدود وترجمتها شعراً إلى الانكليزية
بخط جبران - قصيدة ابنة النور - فلسفة جبران والمدنية الشرقية المنشودة

انا مسيحي ولى الفخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي واحب
مجد الاسلام وأخشى زواله . اني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي
ومحمداً الشطر الآخر .

أنا شرقى ، ولى الفخر بذلك ، ومهما أقصتني الأيام عن بلادي ، أظل
شرقى الاخلاق سوري الأُميال ، لبناني العواطف .

فى تلك البلاد الممتدة من قلب الهند إلى جزائر الغرب ، المنبسطة من
الخليج الفارسي إلى جبال القوقاز ، فى تلك البلاد التى أنبتت الملوك والأُنبياء
والابطال والشعراء ، فى تلك البلاد المقدسة ، تترأض روحى شرقاً وغرباً
وتتسارع قبلةً وشمالاً ، مرودة أغانى المجد القديم محدقة بالافق لترى طلائع
المجد الجديد .

(جبران)

أيها السادة ،

هذه الكتابات الخالدات هى صورة جبران رسمها بقلمه وما كان قلم هذا
العبقري الكبير إلا ريشة رسامة كما كانت ريشته قلماً كاتباً . . .

قال عطاء الغرب عن جبران أنه نابغة عالمي في القرن العشرين ، ولكنه
منارة عالية من منائر الشرق توهجت على ذروتها أنوار أجياله كلها . ويتراى لى

ان جبران كان إحدى الارواح الخالصة المنتهية إلى صلاة ابراهيم وموسى وعيسى
وأحمد على أطلال هيكل سليمان فى ليلة الاسراء ، فأعطي لها أن تتشرب من
مناجاة موحده الله وكليمه وكتبته ورسوله مارده لله للأُنسانية المشتتة فى القرن العشرين
إن أنا أحدثكم عن جبران هذا المساء ، فأنا أحدثكم إلا عن شخصية تجسّمت

حكمة الشرق فيها وتمثلت فى حياتها حياة الشرق بكل حوافزه ومطامحه وآماله .

ولد جبران في بلدة بشرّاي من أعمال جبل لبنان في الشهر الاخير من سنة ١٨٨٣ وما بلغ الثانية عشرة من عمره حتى هاجر إلى الولايات المتحدة حيث تلقى العلم سنوات قليلة باللغة الانكليزية ورجع إلى بيروت لدرس اللغة العربية في مدرسة الحكمة ، وفي سنة ١٩٠٣ رجع إلى الولايات المتحدة فأقام في مدينة بوسطن خمس سنوات ثم قدم باريس سنة ١٩٠٨ يستكمل فيها نبوغه في الرسم الرمزي ودرس متاحف أوروبا ومدنيتها ، وفي سنة ١٩١٢ عاد إلى نيويورك حيث أقام إلى أن أدركته الوفاة في منتصف شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٢

هذه هي حياة جبران تمتد في نصف قرن هادئة مطمئنة في عالم الحس المنظور ، فما كان هذا القائد الكبير مرتبياً بفيالق أفكاره على الأعراض الحوالة لأدواء الانسانية لتصدمه ويصدمها في عراقٍ عمليّ يملأ حياته صخباً ويثير حوله الحادثات الجسام ، وقد كان للعمل في ميادين الجهاد الأصغر زمانه فر به موسى بتمرده واجتازه عيسى بحواريه واتباعه الذين قرضوا قاعدة عظمت الرومان الملتطخة وساده محمد بجهاده بالقوتين لتحطيم الاصنام والقضاء على الشرك والضلال ، ولكنها أزمنة توارت مختلفة لنا عصرّاً لا تكسح ضلالتة الا بالجهاد الاكبر الذي يقيم في كل نفس فاتحاً خيراتها وغازياً كاسحاً امورها .

لم يكن جبران زعيماً يقيم فئة على فئة ويشير أمة على أمة بل كان جندياً يأتمر بهواتف ابراهيم وموسى وعيسى وأحمد فتشّد به كلها إلى هدف واحد في حين ان هذه الهواتف نفسها تدوى في أذان الناس كأنها من آفاق مختلفة فتشتت رحلهم فاذا هم أصبحوا متباعدين متناكرين .

ان جبران نائر لا تنال منه سلطات السياسة ولا سلطات المذاهب ولا سلطات المال ، انه خارج على نظم الناس في أفق لا تناله فيه السجون والسيوف ، لأنه لا

يهيب بالمحكوم عليه للانتفاض على حاكمه ولا يدعو المستعبَد لقتل سيده، بل هو يخلق في نفس المتغلب نائراً منها وفيها يزجرها عن غيرها ويردّها الى سعادتها بردها عن الاعتداء على سعادة الآخرين .

فاذا ما كان تاريخ جبران تدونه خمسة سطور في عالم المظهر فهو في عالم المصادر الخفية سفر طويل لا ينتهي آخر سطر منه الا عند اسمى دائرة يمكن النفس أن تبلغها في اعتلائها ، فتاريخ جبران إذاً إنما هو تاريخ فكرة نيرة انتهت في أمة وتجلّت في فرد متطورة على مدارجها من إصلاح فئة من الناس الى إصلاح الناس أجمعين
درج جبران طفلاً تحت ظلال الأرز الخالد يستقبل الشمس شارقة على أنجاد لبنان العالية ويودعها منسجبة بأشعاعها الدموي على أغوار (قاديشا) الوادي المقدس العميق ، فانحنى صامتاً على نفسه الجبارة المنكشة على ذاتها كأنها من روح ذلك الأرز ومن روح ذلك الوادي ، وما كانت تلك الروح لتأخذ بدخيلات الانحطاط الطارئ على قومه وبانكماش محيطه الضيق على عادات يستسلم الفكر العادي فيها الى الوقوف عند حدود ضيقة من السياسة والدين والتقاليد، فقد عرفت روح جبران المعدة بحوافرها لبلوغ الدوائر العليا أن تجد من المعبد الصغير في بلده الصغيرة المنفذ الذي يقود الى معبد الانسانية جمعاء وجدرانها الأفق وسقفه ما وراء الجبيرة في السدم الخفية ... وقد عرفت روح جبران أن تتمرد على انطباعات الأتقياء للسيادتين الدينية والأقطاعية وقد كانت في عهد طفولته تذهبان في روع من حوله مذهباً قصبياً .

ما كان جبران في الثانية عشرة من عمره الا العبقري الصغير تمتنع عيناه وأذناه أن تنظرا وأن تسمعا بعيون الناس وآذان الناس ، فقد كان انجذابه بروح الماضي الحيد يقيه صدمات الحاضر ويمنع ضلالاته أن تنفذ الى دماغه وقلبه، وهكذا

ينشأ العباقرة في كل أمة وفي كل شعب ، أطفالاً يكونون شخصيتهم مما يشعرون لا مما يرون ويسمعون .

واقترنت أعاصير المهاجرة ، في ما اقتلعت من أشجار لبنان ثمرها على مشارق الارض ومغاربها ، تلك الغرسة الغضة الضعيفة في جذعها القوية بعودها الصليب لتلقيها على تربة الأسمنت والحديد في بلاد الجهود والمادية الساحقة .

وهناك أيضاً كما في لبنان لم تنفذ الى روح العبقري الصغير انطباعات الحياة الدائرة على دوليب ، ولكنه رأى فيها ما يجارى شعوره بالثورة على ما في بلاده من استكانة وانقياد ، فاحتفظ من تلك المدنية بصالحها دون أن تأخذ به ضلالاتها درس جبران لغة شكسبير فأخضعها لالهامه الشرقي وقفل الى لبنان ليستولى على بيان لغة العرب حُلّة لفكرته العربية السائدة في أعماق نفسه ، وفي تلك الفترة التي انقضت عليه الى سن العشرين أي الى سنة ١٩٠٣ تاريخ عودته الى الولايات المتحدة حفر شعوره المتألم على صفحات خاطره كتبه الاولى التي نشرها عن بوسطن طوال الخمس السنوات التي قضاها فيها ، وهي دمعة وابتسامة والموسيقى وعرائس المروج والاجنحة المتكسرة والارواح المتمردة ، وكلها مشاهد مفعجة للقروح الدامية في مجتمع بلاده استجلاها كأنه وهو يجرّك القلم ييمناه يرفع يسراه على جبال بلاد العرب مشعل نصب الحرية الذي أرسلته فرنسا الى نيويورك فوقف كالجبار الثائر على مدخل العالم الجديد .

وجاء جبران باريس سنة ١٩٠٨ ، فقضى فيها أربع سنوات يستكمل نبوغه في الرسم الرمزي ودرس متاحف أوروبا ومدنيتها ، وفي خلال هذه السنوات كان جبران وهو يقبض على ناصية الفن يتأمس قروح الغرب ويشاهد عن كثب ما يفعله التنظيم المادي بالفرد وبالجمتمع ، وعندما عاد الى نيويورك ليتخذها مقراً له

سنة ١٩١٢، أشهر ثورته على الغرب بروح الشرق كما اشهرها من قبل على تقهقر الشرق
مستلهاً ما صفا من روح النهضة الغربية .

ان مؤلفات جبران الأولى كانت متجهة الى إصلاح مجتمع بلاده ولكنّه
وقف قلمه بعد ذلك على إذاعة روح الشرق وجلاؤها للغرب فكتب العواصف
والبدائع والطرائف ورسم رسوم فلاسفة العرب ونظم المواكب بالعربية شعراً
ونشر بالانكليزية المجنون والسابق والنبى ورمل وزبد وآلهة الارض وكثيراً من
المقالات والفصول المستقلة .

فرسالة جبران قد كانت إذاً رسالتين الأولى محاربة التعصب والجهل
والاستبداد المعنوى فى بلاده والثانية إصلاح المدنية الحديثة بروح الشرق القديمة
تلك هما مرحلتا جبران فى حياته لا ترجع إحداها الاخرى نصباً وجهاداً
ومجداً فى عين المنصف المتعالي فوق النتائج لتقدير الامور بذاتها منسلخة عن
تنويعات الأمكنه والأزمان ، غير أن جبران لم يمجن فى مرحلته الأولى الا ما
جنه جميع رفاقه العاملين على هداية أقوامهم فى الشرق ، فنُعت بالكاتب المتوسّس
المسوس بعقله وسخر منه الزعماء أو من يدعوهم اشياعهم عطاء والقيت عليه
اللعنات باسم الدين فاصبح مشهوراً بكفره وزندقته وإلحاده

على أن جبران لم يكديدخل فى مرحلته الثانية ويبداء رسالته فى إصلاح
مدنية الغرب بروح بلاده الشرقيه ، حتى تعالى نجمه فى الآفاق لامعاً متوهجاً ،
إن أمم العالم الجديد وشعوب الغرب تفتح اذنيها للاصوات العالية أما الشرق
فيتصامم جاحداً أقدار ابنائه . عندما يعلو هناك صوت مصلح يتفلسف القوم
ويخشعون حتى ولو كان المسلم غريباً عنهم يكافح معتقداتهم ويصد حوافزهم ، اما
نحن ، هنا ، فاننا مستغرقون فى ما فسد من فطرتنا حتى أصبحت هواتف قبور

الاجداد نفسها نبرات شاذة مؤلمة لاذآتنا .

ألحق أقول لكم أن الشرق لن ينصقه العالم ما لم يبداء هو بأنصاف نفسه
إن جبران بقي الرجل للمسوس بعقله ، المتهوس الخيالي بين ابناء أمته الى ان
خشع العالم الغربي والعالم الجديد أمام روحه فأكرهت بلاده إكرهاً الى الخشوع
أمام عبقريته .

إن الصوت الذي خدش الأذان وأضحك الاقوام في هذا الشرق العربي ، هو
نفسه ذلك الصوت الذي تباهي به اليوم بلاد لبنان وسوريا ومصر والعراق
والشرق العربي بأسره .

لو لم يكتب جبران سفر النبي الخالد بالانكليزية ، ولو لم يقل عنه روزفلت
وبرزبان وطاغور ورود ان ودهاقنة الغرب ما قالوا ، ولو لم يترجم كتاب النبي الى
عشرين لغة من اللغات الحية ، بل لو لم يترك جبران بعد موته ثروة مالية طائلة
لبلاده ، لكان امتنع على نعش جبران أن يأويه معبد وان يواكبه واحد من
رجال السلطتين في وطنه . . .

تلك كانت حياة جبران ، فما هي فلسفته التي رفعته الى مصاف عباقرة
الدنيا في هذا الجليل ؟

ان فلسفة جبران منشأؤها الألم من إنحطاط الشرق وضلال الغرب في نفس
سبرت غور المديتين وأحست بالآلم الانسانية في كليتها . وما تجلت عبقرية
جبران في ما كتب وما رسم طوال حياته كتجليتها في كتاب النبي وهو تلخيص
للتوارة وللأنجيل وللقرآن في مائة وعشرين صفحة صغيرة تمشي فيها العقلية
الصفافية والعاطفة الطاهرة جنباً الى جنب وقد أصبح هذا السفر انجيلاً ثانياً لكبار
المفكرين في العالم الجديد وأوربا يتلى في المجتمعات تجويداً رافعاً بالأرواح

الراقية الى دوائر انبياء الشرق الخالدين .

روى جبران في كتاب النبي ان رجلاً متاراً دعاه بالمصطفى نزل اثنتي عشرة سنة في مدينة كان فيها الغريب المجهول بين أهلها فسبر أقصى أرواحهم ووقف على كل خافية وبادية في اخلاقهم الى ان قدمت سفينة لتقله الى وطنه فوقف في اليوم الأخير بينهم يخاطب فيهم كاشفاً لهم عما خفي عنهم في أعماق نفوسهم من الحقائق العليا . إن خير طريقة أتبعها لتحديد فلسفة جبران انما هي ايراد فقرات من كل قسم من خطاب النبي شافعاً مواضعها العديدة بما أراه لها من بيان .

قال المصطفى

عن فراق المدينة

« كيف أنصرف في البحر دون كآبه ، وكلا إنني لن أبرح هذه الارض حتى تسيل الدماء من جراح روحي ، فليس ما أفارقه بالثوب الذي أنزعه عني اليوم ثم أرتدى به غداً ، بل بشرة أمزقها بيدي . إن الصوت لا يستطيع حمل اللسان والشفقين معه ، فهو يخترق الجو وحده ، كما ان النسر لا يحمل عشه معه عند ما يخلق في الجو »

* * *

إنّ ما انفارقه بالموت إنما هو شخصيتنا التي نعرفها وما يجتاز البرزخ منها الى الخلود إلاّ الذات المطلقة التي نشعر بها ونجهلها ، ففي الموت ألم عميق هو تراكم الألام كلها التي تحمّلناها طوال الحياة ، فلا بد أن نشعر بها دفعة واحدة عند اطرأها لها للاعتاق منها .

قال اسماعيل صبري

لا تحف فالمات ليس بمباح منك إلاّ ماتتسكى من عذاب

ولكن سليمان الحكيم قد شمر كما شعر جبران بزوال الشخصية التي تكوّن

أنانية الإنسان فقال عنه أمام الموت « حينئذ تضحلّ جميع أفكاره »
واعلنا نجد نقطة الاتفاق بين التقديرين إذا نظرنا الى ان أفكار الإنسان
ليست إلا مجموعة عذابه وآلامه تطرحها الروح الخفية مرّعة برّوعها حتى تنطلق
منها نسرّاً بلا عيش وصوتاً بلا لسان .

• • •

وقال عن المحبة

« كما أن المحبة تكللكم فهي تصلبكم، وكما تعمل على نحوكم ، هكذا هي تعاملكم وتستاصل
الفساد منكم ، ان المحبة تضمكم إلى قلبها كأغمار الجنوب وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر
عريكم وتغربلكم كي تحرركم من قشوركم وتطحنكم لتجعلكم أنقياء كالثلج وتعجنكم
بدموعها لتلينوا ثم تعدكم لنارها المقدسة لكي تصيروا خبزاً مقدساً يقرب على مائدة
الرب المقدسة . »

• • •

قال فيكتور هيكو في إحدى قصائده ، إن الروح تأتي الحياة منفردة لتفتش
عن أختها فتندغم إحداها في الأخرى لتكوين الملاك الخالد في الملائكة الأعلى ، وما
هذا العذاب الذي يشير إليه جبران إلاّ الجهاد في سبيل الاندغام ، فهناك الانطباع
المتبادل بين شخصيتين تجد كل منهما حريتها في استعباد الأخرى ، ذلك عذاب
لا يشعر به إلاّ أبناء الحب الحقيقي الذين يعتلون بقوة حبهم الى مرتبة التفاهم بالاستعباد
المتساوي المحبة نفسها مندغمين بالروح الأعلى ، أما أبناء الشهوات المدنسون الحب
فلا يمكنهم إدراك هذا الجهاد لان الحب قد استحبال فيهم الى لذات متقطعة يتدنّون
بالهبوط على دركاتها الى حلقة الحيوانات الدنيا ، ومثل هؤلاء الناس يفتشون عن
الأُنوثة في أية امرأة كانت ، فيقضون عمرهم في المسير وراءها ولا يقدرّون على
إدراكها ، فهم كخدوع سراب تشدّهم الواحات القائمة في صحراء شهواتهم فينتقلون

من عاهرة الى عاهرة أو من ضحية خدوعة الى أخرى حتى يقتلهم الظأ بين صحراء
السماء وصحراء الارض .

أما المحبة التي تحرر وتنقي ، المحبة التي يشير جبران الى جهادها السامى بالأمها
فهي استقرار رجل وامرأة على بداية مصعد الشوق شخصيتين تسير كل منهما
الى نفوذ أختها وبلوغ أقصى سرائرها حتى إذا تكشفت قروح الواحدة لعين
الأخرى اتحدت الشخصيتان بالحنان لشفاء تلك القروح على أشعة المحبة المستمدة
من شمس الله .

الحق أقول لكم ، إن الانسان لا يزال بين ديدان الارض يزحف زحفاً على
التراب حتى يستنبت مثل هذا الحب في جهاده وألامه للصدرين المتحدنين الجناحين
النيرين يرفعان بهما الى دوائر الحق الأعلى .

وقال عن الزواج

« لقد ولدتم معاً وستظنون معاً إلى الابد ، وستكونون معاً عندما تبدد أيامكم أجنحة
الموت البيضاء ، أجل وستكونون معاً في سكون تذكارات الله . »

•••

إن جبران يعتقد كما اعتقد قبله سويدنبرج الفيلسوف الاسوجي العظيم
برجولية الروح ونسويتها في العاطفة المجردة عن الأجسام ، فهو يقول ببقاء المحبة
بعد فناء الجسوم وبالاندغام الروحي فليس الزواج إذأ في عرف جبران شركة تمتع
واستغلال شهوات واستمبات أطفال لا يطول أمدها إلا الى آخر الحياة المنظورة
عند مفترق الطريقين وكيف تفرق روحان استكملت الواحدة منهما الأخرى
وتجلى كل كمال في إحداها منبثقاً من عذاب الأخرى وجاهداها في سبيلها .
ولكن كم هو عدد الرجال والنساء الذين يدركون هذا من أبناء الحياة ، وكم

من زوجين سيستمران معاً عندما تبدد أيامها أجنحة الموت البيضاء؟ ...

وقال عن الاولاد

« إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم ، إنهم أبناء الحياة المشتاقة إلى نفسها بكم يأتون إلى العالم ولكنهم لا يأتون منكم فهم ليسوا ملكاً لكم . في طاقتكم أن تبثوا المساكن لأجسادهم ، ولكن نفوسهم لا تقطن مساكنكم ، فهي تقطن مساكن الغد الذي تقصر أحلامكم دون الوصول إليها . إن الحياة لا ترجع إلى الوراء ولا تلذها الاقامة في منزل الامس »

•••

وما يريد جبران بهذا أن ينسخ حكمة الأجيال وهو الشيع روحه منها، ولكنه يرى الإنسانية مندفعة في طريقها نحو التكامل مسيرة قسراً الى التلبس بأشكال لا بد لها من تلبسها ، فن العبت أن نخط للآتين طريقاً لا نعلم كيف يكون اتجاهه نحو القمة في مسالك الانجاد والافوار . علينا أن نسلم لأبنائنا مشعل الحكمة الذي ورثناه عن آباءنا ليستتروا به في طريقهم المجهول ، ولكن ليس لنا أن نرسم لهم الطريق .

•••

وقال عن العطاء

« إنك إذا أعطيت فإتما تعطى القليل من ثروتك ولكن لا قيمة لما تعطيه إن لم يكن جزءاً من ذاتك لأنه أي شيء هي ثروتك . »

•••

إنّ العطاء من الثروة قد يفيد المعطى له فهو إحسان له بعض الثواب ولا ريب ولكن العطاء الذي يرفع بروح المعطى الى دوائر الروح الاعلى إنما هو البذل من الذات نفسها عطفاً وجهوداً ، وما إحسان المثري العقيم بنفسه الا تبرع للمجد الباطل بأتعاب الآخرين من الاحياء والاموات .

وقال عن الطعام

« وإذا ذبحت حيواناً فقل له في قلبك ان القوة التي أمرت بذبحك ستدبجني نظيرك لأن التي أسامتك إلى يدي ستسامني إلى يدي من هو أقوى مني ، وليس دمك ودمي سوى عصارة قد أعدت منذ الازل غذاءً لشجرة السماء . »

•••

إن جبران يرى الحياة في مظهرها الحيواني والأنساني معدة لغاية مستورة وراء الحجاب ، فزوالها إذاً محتوم ولا قيمة لها بنفسها ، ولكنني لا أدري كيف يصح للإنسان أن يضع للحياة حداً في الحيوان كما يضع الموت الطبيعي حداً لحياة .

وقال عن العمل

« إن العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة، فإذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجرًا ملولًا ، فالأجدرك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة ، لأنك إذا خبزت خبزاً وأنت لا تجد لك لذة في عملك فانما أنت تخبز خبزاً علقماً لا يشبع سوى نصف مجاعة الألسان وإن أنت أنشدت أناشيد الملائكة ولم تحب أن تكون منشداً فانما أنت تصم آذان الناس عن الاصغاء إلى أناشيد الليل وأناشيد النهار . »

•••

إن أشقى الناس من يعمل بلا لذة ولا رغبة لان المتألم في واجب يؤديه لا يستحق أن يتمتع بهذا الواجب . العمل مقدس وهو مصعد النفس إلى دائرة إدراك ذاتها فالعامل بأبسط الصناعات يمكنه أن يطبع مصنوعه بطابع شخصيته المسعدة بالعمل ، في حين ان الفني الملول المرغم يحطم جناحي نفسه ويحني على المجتمع بجنايته على ألوهيه الحب الكامنة في الفنون

إن رغبةً تحزبه لك أمك أو زوجتك بأصابع تقطر حباً وحناناً لأفضل بكثير من الرغيف الذي يشبع مجاعة جسدك ولا يشبع مجاعة روحك الخفية .

وإن حقلاً صغيراً ينصب على ترابه عرق الفلاح الحر من جبين تكمن وراءه
رسوم الزوجة والأطفال لأجل من أوسع السهول تحفر فيه السواعد المقيدة بالأغلال
وقال عن التجارة .

« إن الأرض تقدم لكم ثمارها ، ولو عرفتم كيف تملأون أيديكم من خيراتها لما خبرتم
طعم الحاجة في حياتكم . لأنكم بغير مبادلة عطايا الأرض لن تجدوا وفراً من الرزق ولن
يشبع جشعكم . لا تأذنوا لذوي الأيدي العقيمة من ذوي البطالة أن يشركوا في معاملاتكم
لأنه لا شيء لهم يتاجرون به سوى أقوالهم التي يبيعونها لكم بأعمالكم .. »

.. .

إن جبران يرى نصف الناس مصاباً بالثخمة والنصف الآخر مصاباً بالجوع
وقد قال الامام علي « ما جاع فقير إلا بما تمتع به غني »

ان الطفيليات الأنسانية تنمو وتمتص من دماء العاملين في الأرض ، لذلك
أشار جبران بلسان نبيه باطراح التعامل على أساس القيم الاعتبارية والمعاملات
اللفظية والرجوع الى القيمة الحقيقية التي لا تنيل متمتعاً من الغلال إلا على قدر جهده
ان العالم المتمدن اليوم يهدده الفقر لزيادة انتاجه ، فخيرات الأرض وثمرات
جهود العاملين تغرق وتحرق وتسد دونها منافذ التصريف لأن بين الأرض والعمل
يقوم العراك الهائل بين الذهب وهو ثروة الانسان الاعتبارية قبل الحرب وبين
الورق وهو ثروة الحكومات الاجبارية بعد هذه الكارثة الطاحنة ، والعالم بأسره
يتطلع إلى ما سيكون ومن يدري ما سيجده المفكرون للرجوع إلى الحقيقة التي
تحجبها غيوم الاوهام ؟

وقال عن الجرائم

« إن الذات الآلهية لا تقطن وحيدة في كيانكم ، لأن كثيراً منكم لا يزال بشراً
وكثيراً غيره لم يصير بشراً بعد ، بل هو مسخ لا صورة له يسير غافلاً في السباب وهو
يشد زمان يقظته ، الحق أقول لكم إن القديس والبار لا يستطيعان أن يتساميا فوق

الذات الرفيعة التي في كل منكم وهكذا الشرير والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا إلى أدنى من الذات الدينية الكامنة في كل واحد منكم
« إن فاعل السوء بينكم لا يستطيع أن يقترف إثماً دون إرادتكم الخفية ومعرفتكم الخفية التي في قلوبكم فانكم تسيرون معاً في موكب واحد متجهين نحو ذاتكم الالهية . . . فاذا عبر واحد منكم فأثماً تكون عثرته عبرة للقادمين وتكون أيضاً توبيخاً للذين ساروا أمامه بأقدام سريعة وثابتة لانهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقه
« إن القتل ليس بريئاً من جريمة القتل ، وكثيراً ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه ، إذا جاء أحد منكم بالزوجة الخائنة إلى المحاكمة فليزن أولاً قلب زوجها ، وليقس نفسه أيضاً بالمقاييس .
« أنظروا إلى الاعمال بعين اليقظة في النور الكامل فانكم تحت هذا النور تعرفون أن الرجل المنتصب والرجل الساقط على الارض هما بالحقيقة رجل واحد واقف في الشفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الالهية . »

•••

قضيت شطراً كبيراً من الحياة محامياً فسبرت أرواح المجرمين ودرست القضاء والقدر فيهم مستقصياً ما ينزع بهم إلى الأعلي وما يشد بهم إلى الأعماق .
وقفت كثيراً أمام أعواد المشانق وخاطبت مراراً من قضت واجبات مهنتي أن أرافقتهم في خطواتهم الاخيرة نحو اللجة البعيدة الغور ، فكنت أرى في هؤلاء البائسين تلك الذات الخفية خالعة حظها معرفة عنه كأن ذلك الحظ شخصية أخرى تشخص هي اليها وتتفرس فيها كما ينظر المتشعح البياض إلى خياله الأسود على الأرض وهو مدبر عن النور

وما كانت تتجلى لي تلك الذات الخفية في المجرمين بأسوأ من ذاتي ولا خيراً منها . . . بل كنت أرى الحظ العاثر منبثقاً عن الذات الظاهرة تحف بها أغلال الأمكنة وأصفاد الأزمان .

بن من دافعت عنهم من رجال الثورة السورية الاخيرة أمام محكمة العدل

العليا في بيروت ، كان رجل طيب العنصر كريم الاخلاق ولكن القضاء أدانه ففضى المجلس العالى عليه بالاعدام ، وعندما لفظ الرئيس حكمه الرهيب وقفت واجماً لانني ما كنت أتوقع لموكلتي هذه النهاية وقد دهشت عندما شعرت بيد هذا الرجل تمتد الى كتفي وهو على مقعد المجرمين ليدفع اليّ بلفافة تبغ قائلاً : - أشعلها يا أستاذ فقد تعبت كثيراً اليوم ، فلندخن . . . ذلك هو قضاء الله .

وبقيت مشنقة هذا الرجل معلقة ثلاثة أيام تمكنت في خلالها من إقناع السلطة العليا بوجوب استبدال الحكم فاستبدلت به الاشغال الشاقة .
إنى وأنا أقرأ كلمات جبران أتذكر الشيء الكثير مما كنت أقرأه في عيني هذا الرجل من إنطباعات حياته المقدورة وذاته الخفية . . .

وأذكر أيضاً شاباً في مستقبل عمره في الثامنة عشرة من حياته الشقية كان محكوماً عليه بالاعدام لاقدامه على قتل أمه في ساعة جنون لا سبب إلا لانها تأخرت في إعداد غذائه ، توصلت إلى نقض الحكم في محكمة النقض والابرام وفي المحاكمة الثانية أثبتت للقضاء فناً أن هذا الشقي قد قتل أمه محتلاً من تسمم بداء الزهري الذى ورثه عنها

ويل للإنسان مما وراءه ومما حوله من حوافز ، وويل له مما يلقيه متقدموه من صخور العثار في سبيله

إن العدل يقوم بواجبه اصد الشر في مسيره ولكن سيادة روح الخير في العالم هى وحدها قادرة على شفاء الانسان من جرائم الشخصيات المنحطة وهى وحدها يمكنها أن تحول دون الاستفزاز إلى ارتكاب الآثام . . .

وقل عن الحرية

« إنكم لا تبلغون الحرية مالم تصبح أيامكم بلا عمل تعملونه وليالكم بلا حاجة تفكرون بها أو كتابة تتألمون لذكراها ، لانكم كيف تستطيعون أن ترتفعوا إلى ما فوق آياكم

ولياليتكم إذا لم تحطموا السلاسل التي قيدتم أنتم أنفسكم بها في فجر إدراككم فامتنت الحرية عليكم في ظهيراتكم .

« إذا كان ما تريدون الانعتاق منه همًّا فإن هذا الهم إنما أنتم اخترتموه ولم يضعه أحد عليكم ، وإن كان خوفاً تريدون طرده عنكم فإن جرثومة هذا الخوف مغروسة في صميم قلوبكم وليست هي في أيدي من تخافون . . . »

♦♦♦

متى كان فجر الإدراك الذي قيّدت النفس فيها آتى حياتها في ظهيراتها ؟
لقد ورد في الأسفار الهندية القديمة « إن الأبناء الخزي المتصلب في النار له شكله الذي لا يتغير ولكنه كان من قبل طينة ليّنة بين أصابع الخراف
فالفلسفة الهندية لا ترى للإرادة حرية إلا في مرحلة سابقة ، أي أن النفس تختار طريقها ما وراء الزمان والمكان ، على أن هذه النفس ، بعد أن تدفع بخطواتها على سبيلها المختارة تصبح أسيرة لقضائها وقدرها السكامن في ذاتها .
فهل يرى جبران مآرأته الفلسفة الهندية من أن الفجر الحر هو ما وراء الحياة ، أم هو يقول بالانطباع على غرائز الجدود والتأثر من حوادث الطفولة ؟ ولكن ما يقوله جبران من أن الناس قد قيّدوا نفوسهم لدليل جليّ على أنه لا يعني الغرائز الموروثة ولا الثقافة المنطبعة أيام الطفولة هنا بل يتكلم عن القيود التي حبكها أشوق النفس قبل حلولها في المنظور ، فهو إذاً يضع قضاء الأنا في كل مرحلة مسطوراً على الشوق السكامن المختار في مرحلة سابقة .

وقال عن العقل والهوى

« وليكن لك من عقلك دليل وقائد لأهوائك لكي تعيش أهواؤك في كل يوم بعد موتها وتنهض متسامية فوق رمادها »

♦♦♦

حسب فريق من علماء التجرد أن السعادة تقوم بقتل الأهواء وشايتها ، فهم

برأيهم هذا كمن يشير بقطع الرجل اذا ضايقها حذاء يشد عليها .
لقد عزز الخالق الانسان بالاهواء فان هو كتبها تحولت الى سموم يتحجر
الانسان بها وتتلشى إنسانيته فيها ، وأبلغ ما قل الناس عن الهوى قول السيدة
عائشة . - « ماتت مع الاشرار بسبي الأتتبع الأختيار بمثل و زادوا على ذلك رضى الله »
فالخير اذاً في تنظيم التمتع بالهوى لا بكبته والقضاء عليه والحكمة في السير
بالهوى على صراطه السوي ، خطوة واحدة تقود الى الهدى وخطوة واحدة تقود
الى الضلال ، وما هي إلا غفلة ساعة فاذا الحب شهوة والحق باطل والغيرة أنانية ،
والسعادة الأام وشقاء .
وقال عن الألم .

« إن ما تشعرون به من ألم إنما هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم ، أتم
مخبرون في كثير من الآمكم وهذا الكثير من الآمكم هو الجرعة المرة التي يجرعكم
أيها الطبيب الساهر في أعماق نفوسكم ليشفى أسقامها . »

...

إنّ الجسد المادّي ليس إلاّ غلافاً للجسم الأثيري أو الروحاني وليس ما يظهر
في الأول من علل وأسقام إلاّ انعكاس ما يكن في الآخر من إحتلال
وإنني لأرى العلل في الناس حاجة من حاجات نفوسهم ، والذات الخفية
قادرة على شفاء أمراض الجسوم ولكنّ اختيارها مكتوم فيها غائر في أعماقها .
رأيت رجلاً في الحياة يتألم ويشتهي الموت لانه كان يملك مليون دينار فأصبح
لا يملك إلا نصف مليون لا غير . . . فخيّل إليّ أن هذا الرجل يبكي لاحتياجه
الى رغيف وأنه هو وأطفاله يتضورون جوعاً . . .
ورأيت رجلاً آخر يملأ الآفاق صراخاً ويعول ابثرة صغيرة ظهرت في ساعده
فحسبتهني أمام رجل مصاب بالسرطان في دور نزعته ، ورأيت امرأة تجش في

البكاء لحرمانها من عقد ثمين كأنها أم جفت ضرعها في صحراء قاحلة ووحيدها يموت على صدرها المتحجر . . .

ليست اللذة إلا ألماً في أصلها سلطت الإرادة عليه الايقاع والتوازن فاختفى الألم وراءها ، فما وراء التنفس إلا الاختناق وما وراء الحركة إلا السكون وما وراء الحياة إلا الموت ، فالألم إذاً ناشئ من تشوش في الإرادة الخفيفة تختاره اختياراً لتجرع منه ما تحتاج إليه فأشد الناس ألماً أشدهم حاجة للارتقاء على مدارجه . إننا نستقي الأوجاع حساً وشعوراً باقدر المحتوم علينا باختيارنا الكامن في عقلنا الباطن ومن لم تبق له حاجة للآلام يبتسم لها كما يبتسم الأبطال والشهداء ليس في طاقة أحد أن ينزل بنا الآلام إذا كنا نحن قد كررنا كآسنا حتى الثمالة ، وإذا ما فرغت كأس الألم في يد من ارتوى منها فإنه ليحطمها على شفتيه فيسمعك من رنين إنكسارها عليها أشيد اندحار الأرض وانتصار السماء .

وقل عن المعرفة

« إن قلوبكم تعرف في السكينة أسرار الأيام والليالي ، ولكن أذانكم تتشوق إلى سماع صوت هذه المعرفة الهابطة على قلوبكم . »

•••

لقد أدبني لأرباب البيان أن يندغموا بأرواح الناس بآب مجرد الموقت فينطلقوا متكلمين بما يجول في فكرة المجموع فلا تكون كلماتهم إذ ذاك إلا لمعات من أنوار العالم الخفي ففاهم يسجرون بحكمة فيهم ، بل بالقوى الكامنة التي يصلون بينها وهي مبدده منكمشة على ذاتها في كل فرد من الناس .

وقال عن الخير والشر

« إن الشر هو الخير المتألم من تعطشه ومجاعته ، والخير هو حنين الإنسان إلى ذاته الجبارة ، وهذا الحنين يشد بكم جميعاً . »

إن الشرّ في عرف جبران قوة منفية لا وجود لها بنفسها فالشرّ الأشوق
ضلّ السبيل وفقد إلى حين السلك الموصل إلى الذات الجبّارة الكامنة في كل إنسان
ولكم رأيت السفهاء معجبين بالحكماء وأهل الدعارة أنفسهم يصفقون للصيانة
والعفاف ، فالمرأة الفاسقة تباهى بالفتاة التي تموت ولا تأكل بشديها كما أن الرجل
الخائن ينحني بأجلال أمام الرجل المستشهد في سبيل عهده ، وما تلك المباهاة وهذا
الاعجاب إلا الحنين الذي يقول جبران أنه يشد بالناس أجمعين إلى الذات الجبّارة
الكامنة في أغوارهم .

وقال عن الصلاة

« إن الصلاة هي اتساع الذات في الاثير الحي »

... ..

إنني أرى مع جبران أن امتداد الروح في الاثير الحي لا يشعر به الانسان
إلا مصلياً ويخيل اليّ ان الانسان لا يتعالى فوق حياته وإرادته المقيدتين بالزمان
والمكان الا عندما يكون جاثياً أمام ربه ، متصلاً بمرجه الأعلى ، فأن العبودية
لتتراجع حينئذ منكسرة أمام الروح المطلق الذي يرفع الانسان نفسه إليه بالصلاة .
وما مرا كع المصلين إلا الواحات المخضلة يستريح المجهد فيها فترة مستمداً منها الجلد
على متابعة السير في الصحراء القاحلة ، فويل لمن لا واحة في صحراءه . . .

وقل عن اللذة

« إن جسدك قيثاره نفسك ، وأنت وحدك تستطيع أن تخرج منها أنغاماً رائعة أو
أصواتاً مشوشة مضطربة . »

... ..

واني لا أضيف إلى قول جبران أنه قد تكون الاصوات المشوشة في القيثاره
أنين الاوتار تضرب شاذة اولاً تهزج اخيراً موقعة مترنة .

وقال عن الجمال

« هو صورة تبصرونها ولو أغمضتم عيونكم ، وأنشودة تسمعونها ولو أغلقتكم أذانكم »

♦♦♦

إن نفس الانسان مرآة الكون كله فان صقلت بشوقها استقر الجمال فيها
وإن غشاها ضلالها قبحت النعكسات عليها ، فالجمال مستقر ما وراء المنظر فهو
استعداد في الناظر نفسه .

وقال عن الموت

« إذا رغبت أن تنظروا إلى روح الموت فافتحوا أبواب قلوبكم على مصراعها للحياة ،
لأن الحياة والموت واحد كما أن النهر والبحر واحد ، وهل موت الانسان هو أكثر من
وقوفه عارياً في الريح وذوبانه في حرارة الشمس ، إنكم لا تستطيعون أن تنتموا بالأناشيد
حتى تشربوا من نهر الصمت ولن تقدرُوا أن ترقصوا حتى تتسلم الارض جميع اعضاءكم »

♦♦♦

وتنتهي رواية النبي بهذه الكلمات التي ينطق بها المصطفى والسفينة تهتز
لتمخر عباب البحر

إن الحجاب المسدل فوق عيونكم سترفعه اليد التي أسدته ، والطين الذي
يسد آذانكم سترفعه الأصابع التي جبلمته وحينئذ تبصرون ، وحينئذ تسمعون ،
ولكنكم لن تتحسروا على أنكم كنتم عمياناً وصماً لأنكم في ذلك اليوم ستعرفون
المقاصد الخفية في كل شيء .

وستباركون الظلمة كما تباركون النور

♦♦♦

إن فلسفة جبران كلها تتمشى على مثل هذا الأسلوب الوجداني العميق ، فهو
وإن كان عالماً واسع الأطلاع كما عرفته شخصياً ، لا يلجأ الى التوسع بالحجة

العامية ولا يتناول درس المظاهر بالاستقراء الوضعي جرياً على طريقة أوغست كونت أو سبينوزا أو شوبنهاور، لأنه يعلم أن المظاهر الكونية لم تستجلى بعد بصورة تتفق كلها والحس الباطن في أصحاب العقيدة الروحية، فهو يتسامى بنفسه عن أن يجعل إيمانها عرضة لمظاهر الماء والهواء والتراب فلا يفتش عن روحه في الكهارب والذرات بعد أن انكشفت له هذه الروح أصلاً مستقلاً كان منذ الأزل ولن يفنى الى الأبد.

إن جبران رأى مظاهر المادة خيالا منبسطاً على معكس ورأى الانسان الخفي حقيقة ذلك الخيال مولياً وجهه شطر هذا المعكس ووراء رأسه تشع أنوار الحق، فأدرك أن هذا الشبح المتحرك ليس له حياة في ذاته وأن من العيب أن يستطلع خفايا الانسان بالاعتكاف على درس خياله، فأدار ظهره للخيال مستقبلاً مطلع النور! فأقول جبران تبقى غامضة لدي الواقفين بين العلم والجهل على نصف الطريق، ولا يدرك فلسفة جبران الا أحد رجلين عالم سبر أغوار المادة فأفلتت من يده فوقف مشككاً في حواسه وفي أصل المادة نفسها وانحنى بين المنظور والخفي يفتش عن ذاته، ورجل يؤمن بالخير وينفر من الشر مستنيراً بالوجدان آخذاً بعبير الحياة شاعراً بالحق إنصباباً داخلياً، فالطبقة العليا من رجال العلم والطبقة الساذجة الطيبة في المجتمع هما وحدهما يدركان فلسفة جبران، وهو لدى ما سواهما من الناس مخدوع كوسى أمام النار الملتبها في العليقة دون أن تحررها، ممسوس كعيسى الداعي الناس الى محبة أعدائهم ومباركة مبغضهم، متهوس كمحمد يصدع العالم المشرك بآيات ربه.

خذ كتاب النبي واتل على أبناء الأديان المختلفة آياته الباهرات بعد خروج كل فئة منهم من معبدها فأنهم على اختلاف مذاهبهم ليحسبونها استمراراً لما

بدأوا به صلاة ..

أما كبار العلماء والشعراء والفنسين في الدنيا فقد قالوا كلماتهم في جبران
وسأكتفي هنا بأيراد ما قاله برازبين أكبر كتاب الامريكان .

« لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح الى الارض مرة أخرى لا يقنت أنه

عاد بشخص جبران خليل جبران »

وما قاله رودان أعظم نحاتي هذا الزمان

« يجب أن يتوقع العالم شيئاً كبيراً من جبران شاعر لبنان ونابعته فهو وليم

بلايك القرن العشرين »

وما قالتها مجلة كرشسن ساينس مونيتور عن رسومه :

« لم يبق من التأثيرات العديدة المترجمة في ذهننا في اثناء زيارتنا لمعرض

الرسم في كوندلر ما يفوق التأثير الذي أبقته رسوم جبران خليل جبران ، فان

التخيلات الشرقية بما تبطن من أسرار ثابتة تتجلى في فنه بالرغم عن اشتغاله طويلا

بالرسم في نيويورك وفي باريس »

وما قالتها مجلة الفنون السبعة

« فن جبران رمزي سامي المعاني لأن أصوله لا تتركز على الخطوط فحسب

بل على الحقائق الجوهرية التي تظل ثابتة في كل العصور متعاية فوق تجارب

الاجيال . فان جبران يرسم تاريخ الحياة ويقسم معها عرا كماها الدائم فهو في فنه

عصري ولكنه قديم كقدم الزمان »

وهذه أيضاً فقرة من محاضرة القاها رئيس ديني كبير هو الاستاذ فرنكل

رئيس الطائفة الاسرائيلية في دترويت ميتشغن عن كتاب النبي ، قال :

« أعترف أنه لم يسبق لي قط إن تحركت نفسي من أعماقها كما تحركت بعد

أن تلوت هذا الكتاب ، كتاب النبي ، مرات عديدة

« ليس جبران يهودياً بطائفته ولكن يهودي بروحه . »

ان خطبة الاستاذ فرنكل قد نشرت برمتها في آخر كتاب النبي الذي عربه الكاتب البليغ حضرة الارشيميئندريت انطونيوس بشير ، وقد استوقفتني كلمة أوردها هذا الكاتب في مقدمته عند ذكره محاضرة الأستاذ فرنكل إذ قال « ونحن مع الخطيب في كل ملاحظاته ما عدا رغبته في ضم جبران الى اليهودية »

إن جبران لاسرائيلي وعيسوي وأحمدي بروح موسى وعيسى وأحمد ، بل هو هندوسي وبوذي وبرهمني ، وكل من قرأ آيات جبران من أي دين كان تتجلى له فيها روح شريعته وكتابه ، لان الدين في كل أشكاله السابقة واللاحقة إنما هو صرخة الضعف موجهة الى القوة وهتفة المشعر بالزوال نحو العلة الأولى الخالدة . إن دين جبران هو ما دان به المتصوف الأَكْبَر نحي الدين العربي إذ قال .

وقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني الى دينه داني
فأصبح قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان ودير لرهبان
وهيكل أصنام وكعبة طائف والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجّهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ذلك هو دين جبران تجاه المذاهب ، أما دينه الخفي المستقر في أعماق نفسه ، ذلك الدين الذي استوحاه كل حكمته فهو مقنع بسطر واحد من كل ما كتب في حياته ، سطر قد يمرّ به الكثيرون دون أن يستوقفهم مغزاه وقد يستوقف البعض وعلى شفاههم ابتسامة الشك أو تبرم اللعنة .

إن دين جبران يتجلى في صلواته بهذه الكامة ، موجهة الى ربه الذي يشعر به في أعماق ضميره

« إلهي ومقصدي وكلي ، أنا أمسك وأنت غدي ، أنا عروق لك في التراب
وأنت أزاهري في السماء ، ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس . »
تلك صلاة الكفر والجحود لمن لا يدرك معنى قول عيسى ها إن ملكوت
الله في نفوسكم ، إن جبران يوجهه توصلاته الى ما فيه من نسمة الله الكامنة في
كل انسان فهو يتجه الى سبيل الله فيه لا الى الواحد الا حد الكامل المستغني عن
النمو مع مخلوقاته أمام وجه الشمس .

أما وطنية جبران فقد وصفها هو بكل ما أبقى من آثار في الفن والشعر والحكمة
فما أرز لبنان يظلم جدران بيت طفولته المهتمة ومعابداً جداده ، وما الهرم والنيل
وما قبة عرفات وركن البيت الحرام ، وما المسجد الأقصى ، وما باب الكعبة على
ضفاف بردي ، وما الدجلة والفرات ، في عينيه ، وهو الشريد الغريب ، الألوطن
الواحد ، وكيف لا تكون هذه الأماكن وطناً له وقد تكوّنت عبقريته من
عبقرية رجال كل هذه البلاد وملوكها وأبطالها وروح أنبيائها وشعرائها .

في العاشر من نيسان (ابريل) من سنة ١٩٣٦ ، مات جبران في الولايات
المتحدة وقد تمّشت في كبده العلة التي أودت بسماعيل صبري وكان يقول فيها .

يا آسي الحبي هل فتّشت في كبدي وهل تبيّنت داءً في زواياها
أواه من حرق أودت يعظمها ولم تزل تمشي في بتاياها

تلك كانت علة جبران الأخيرة وقد سبقها اعتلال القلب فوقفت الجراحة
عاجزة عن إقتطاع مكن داءه ،

مات جبران ، فوا حنين الدنيا الى شدوه وأيننه . . .

انكسر القلم الذي ملأ العالمين بخيالات الكامة الحية المجنّحة وبأصداء صوتها .

هو ذلك القلم الوثاب وهو يطاول الأفق الأعلى ليكبّل بسلاسل البيان
الإنساني تلك الكلمة ويستنزل لآبناء الحياة إلهاً . .

مرت عشرات السنين وتلك الكف المشتعلة التي اتخذها جبران رمزاً لحياته
ترسم بريشتها ما اجتازت تلك الحياة من دوائر المحور وتسمع بأقلامها دوي الاغوار
التي أجهت من أعماقها متسامية الي سدرة المنتهى

هنالك مستقرّ الكلمة المجنّحة الحية معبودة جبران وكل من تقدمه على
سبيل التجرد والالهام ، وهذه الكلمة نفسها قد جذبت رجل العبقرية اليها وهو
يحاول هتك حجابها ليراها الناس ويسمعوها بعد ان أرأع رسمها وأسمهم صدى صوتها
وقد كان نزع جبران طويلاً امتد مدى السنين ، وعندما قدّر لي أن القاه
لأول مره في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٢٢ ، في نيويورك
شهدت اوائل اعراض فنائه يجسده وأوائل دلائل خلوده بفكرته .

في مساء ذلك اليوم كنت مدعوأ مع جان والياس الدبس رفيقيّ في رحلتي
الخطائية الى العالم الجديد لوليمة في منزل السيدة الفاضلة ماري خوري في الشارع
الرابع والاربعين في مدينة ناطحات السحاب ، وهنالك صافحت يدي لأول مرة
يد جبران ، يد العبقرية والفن وغارت نظراتي في أغوار نظراته .

وكان جبران ، قبل اجتماعي به بعشر سنين ، قد وضع لي رسماً على طريقته
التي ابتدعها بتجسيم فكرة الكتاب وخلق ملامحهم مما يتفرس في أقوالهم فقال لي
لقد كنت أنت أول من جرّبت عليهم طريقتي ويسرني الاّ تكون فراستي
المعنوية قد اخطأت فيك .

ودام حديثي مع جبران الى الساعة الثالثة بعد نصف الليل .
والآن ، وقد أصبح ذلك الطيف النّير مندثراً وراء الحجر البارد ، فاني

أطلع ما نشرته ميّ زياده ، أخته في العبقرية من رسائله في الاهرام فتستوقفني من أقواله عبارات أحلّ بها الرمز الخفي الذي وقفت طويلاً أستجليه كل مرة كنت أجلس اليه .

أنا ، يا ميّ ، بركان صغير سدّت فوهته ، فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تماماً . . . لقد ولدت وعشت لأضع كتاباً ، كتاباً واحداً صغيراً ، لقد ولدت وعشت وتألّمت وأحببت لأقول كلمة واحدة حية مجنّحة ، ولكنني لم أصبر ، لم أبقى صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي لم أفعل ذلك ، بل كنت ثرثاراً وبقيت ثرثاراً حتى انتهكت قواي ، وعندما صرت قادراً على لفظ أول حرف من كلمتي وجدتي ملقى على ظهري وفي فمي حجر صلد . . .

لا لم أقل كلمتي بعد ، أقول لك ، يا ميّ ، ولا أقول أسواك ، انني إذا انصرفت قبل تهجئة كلمتي ولفظها ، فاني سأعود ثانية لتحقيق امنيتي
عرفت الآن سر خشوعي أمام جبران وانجذاب عيني الي ما في احداقه من إشعاع . . . ، عرفت سر زعامته وأجلال كل من حوله له على ما كان في شخصه من بساطة وفي حركاته وسكناته من دعة وهدو . . .

لقد كانت الكلمة الحية المجنّحة في قلبه فيبدو كالجبار الهازي ، بالحياة وبالموت وقد كان يحاول تجسيدها للناس بخطوطهم وبيانهم فتجهد تلك المحاولة ذلك الجسم النحيل وتفقدته ثقته بنفسه فيبدو كاطفل في ابتساماته ودموعه .
جبران ، لقد عرفت اليوم دألك التي أودى بك واختطفك من أواسط طريق الحياة .

لقد تجلّدت لك الكلمة الحية ووصلت الى محور الدائرة فانهتكت أمامك أستار الحق ، فأردت أن تقول ذلك الحق كلمة حية للناس . . .

أفما علمت ، أيها المتفاني بحبك لهذه الانسانية المتألمة التائهة وراء ضلالاتها
وملذآتها ، أفما علمت وأنت المتسئم ذروة العلم ، ان الحق ليس كلمة تقال بل كلمة
تحل حولا في الروح التي جاهدت وصبرت واضطهدت وظلمت فصفحت ، وان
الحق يؤخذ ولا يوهب .

لقد عاينت الله بما سكبت من دموع وبما كبحت من شهوات التراب في
حياتك ، لقد عاينت الحق بشعورك بالآم ابناء الحياة ، وابناء الحياة لم يشعروا
بما في نفسك

لقد استقرت الكلمة الحية فيك لانك استلهمتها بافتكارك وانحنائك المستمر
على ما فيك وفي كل انسان من أغوار ، وبشخصك الدائم الى ما فيك وفي كل
انسان من ذرى وافاق ، فأردت أن يعرف معنى تلك الكلمة كل انسان دون أن
يشقى كما شقيت أنت وشقي من قبلك الانبياء والعباقرة فاستنبتت هذه الكلمة
لنفسها في أفاقك جناحين ، ولهذا رأيتها متطيرة في محاولتك القبض عليها الاستنزالها
الى افاق بيانك ورسومك ..

أقلب الآن المفكرات التي كتبتها في نيويورك وفي بوسطن حين جالست
جبران ساعات طويلة تركت في نفسي أثراً لم تترك فيها مثله أية شخصية كبيرة
عرفتها في حياتي ، أقلب هذه الاوراق فأجد فيها الشيء الكثير مما لا يجوز أن
أبقيه لنفسي لا أنني أعدّه الآن ملكاً لكل من أحب جبران ورأى في حياته
النور الذي يصبو اليه

أمي كتابان أحدهما أرسلته الى جبران من نيويورك في ٢٢ نيسان (ابريل)
١٩٢٢ والآخر جواب منه عليه وقد نشر كلاهما في جريدة السائح النيويوركية

في ذلك الحين .

أخي جبران ،

انتظرت ليصفو صوتي من غصّة الدموع ، فما جفّت مناهلها ، أردت أن
أكتب اليك مغرداً لا نأحماً فرأيت القلم يعصيني فأطعته .
كدت أسلم نفسي لمبضع الجراح لو لم أجد علاجاً أوقف به الآسى التي حملتها
ستين يوماً فما أبقّت لي غير عظام تسيرها الارادة على الارض فتمشي
جبران ، ان رؤيتي اياك عليلاً كانت أشد عليّ من علتى ، تعال لنذهب الى
وطن الجسد نحيبه هناك ، إن للجسم نزعات الى ترابه كما ان للروح نزعات الى جوهرها
عندما تتورعاصفة الالام ..

تعال ، يا أخي ، إن لكينا في المصدر وفي المظهر جنحاً سليماً وجنحاً مكسوراً
فلنرم المكسورين ولنظر بالسليمين الى مستقر السكون ..
إن في روعي اليك شوقاً يشبه الشوق الى المقر الذي تركت قلبي فيه ، هنالك
على مرفأ بيروت تتطلع عيوني الى جنان أرزي وجنّات بلادي ، وقربك يا جبران
تتطلع روعي الى أرزها الخالد كأنها على شاطئ الكون الحق ..
تعال لنظفر بالوطنين ونداوى العلتين ، إن هذه المدينة التي نالت منك تبريحاً
بعد سنين قد نادت عليّ بشهور ، فتعال نستثمر الامنا منها تحت ظلال الأرز
والصنوبر إذ نكون هنالك أقرب الى الارض وأصق بالسماء

أتيت اخواني المهاجرين شاعراً ، فأراد بعض التسييسين أن يمسخوني نفعياً
وما كانت استفادتي من هذه الرحلة غير غصّة في الروح وقرحة في الحشاشة ،
ولكنني أتعزّى بقطرات دموع أسالتها كلماتي على المنبر من جفون المهاجرين
أخوتي . تلك القطرات هي كل غنيمتي : لقد أيقظت شوقاً كاد يموت في رقدته

ونبئت ألدًا كاد في هجعتة يجعل الداء مزمنًا عقامًا . وما من داء اقتل للافراد
والأمم من علة لا تؤلم ضحيتها . .

كل ما أطلب من القوة المسيرة العليا ، هو أن تقدر الوصول لي معك الى
بلادنا فاستند الى ذراعك وتستند الى ذراعي فتمشي على مهل بين وديانها وجبالها
وعلى ضفاف انهارها ونسمع زقزقة عصافيرها ، فنفهم ما تسر الانهار وما تقول
الاطيار وما تعلن الانجاد والاعوار .

لقد اشتاقت عيناى الى مرأى تراب الارض وما فيه من تجليات العالم الخفى
صدق ، يا جبران ، انى ما رأيت زهرة ناضرة ، ولا نشقت عرفًا ذكيًا ، ولا سمعت
تعريد شحرور ولا مر بي نسيم ليل منذ توارت آخر أشعة رمقتها عيناى على آخر
مشهد من أرض الشرق بلادك وبلادى . .

دع هذه البلاد العظيمة الغنية ، وتعال معى الى بلادنا الصغيرة الفقيرة حيث
لا تتكسر الزنايق ولا تذبل الازهار . .

تعال ، لقد عرف العالم الجديد فيك ما يتاح للعالم القديم أن يخاق من قوة فى
ضعفه ، وقد حان الزمن الذى يجب فيه ان تعمل هنالك مع اخوانك ، قرب
مقابر الاجداد على أحياء المبادئ ، السامية التى تمخض الشرق بها قديمًا وهى تنتفض
اليوم لتسود مدينة العالمين فى آتى الزمان .

تعال ، انبئه الالام الساكنة ، تعال اتسمع سماءك الصافية كل ما فى أناشيدك
من الصفاء ، واترسم ريشتك عن الاصل ما ترسمه الآن عن انطباعات الخيال فى قلبك
سلام اليك من اخيك : فليكس قارس

وهذه فقرات جبران :

اخى فليكس ،

لا ، ليس من الغرائب ان يريشنا جبار من جبابرة المظهر بسهم واحد في آن واحد فيصيب منك جناحاً ويصيب مني جناحاً . لا بأس ، يا أخي ، فالالم يد تكسر قشرة النواة لتستنبت لبابها . .

لم أزل رهن الأطباء الأخصائيين وسأبقى رهن مقاييسهم وموازينهم حتى يتمرد جسدي عليهم أو يتمرد روحي على جسدي ، وقد يجيء التمرد بشكل الامتثال والامتثال بشكل التمرد ، ولكن تمردت أو لم أتمرد فلا بد من الرجوع الى لبنان لا بد من التلمص من هذه المدينة السائرة على دواليب ومعانقة تلك المدينة المستسامة لنور الشمس ، على أنني أرى من الحكمة ألا اترك هذه البلاد حتى أقطع الخيوط والسلاسل التي تربطني بها ، وما أكثر تلك السلاسل والخيوط . وأنت لا تريد أن أذهب الى لبنان واتكئ في ظلاله عاماً أو عامين ثم أراني مضطراً للرجوع الى الولايات المتحدة لقضاء مهمة فنيّة أو للنظر في مسألة كتيبية .

إنني أريد أن أذهب الى لبنان وأبقى ذاهباً . .

لقد تركت عندنا ذكراً عاطراً . . الخ . .

أما غطيظ بعض المتسيسين فلا يضر ولا ينفع بل يستدعي الشفقة ، وانت من المشفقين . . والله يحفظك أخاً عزيزاً للأخيك

جبران

... .

إن داء جبران في خفقان قلبه قد بدأ سنة ١٩٢٢ ، وعندما اجتمعت به المرة الأولى لمحت فيه ذلك التجلد المعلن في الأحشاء تمرداً على الحياة .

رأيته يغالب أنفاسه مغالبة ، فتنفرج شفثاه عن ابتسامته كلها مرارة وحلاوة ووقف بعد ذلك معي على منبر « الاكاديمي اوف ميوزيك » في نيويورك ليقدمني

لمواطنينا المهاجرين فقال كلماته بخفقان قلبه لا بنبرات أنفاسه فسادت تلك الكلمات جو القاعة كأنها همس أرواح تحوم فوق كل جوانبها .

ورأيته في قاعته الواسعة التي يملكها في بناية رجال الفن يحيط به اعضاء الرابطة القلمية بعد ان خرجنا من المجمع العلمى الاميركى فى الشارع الخامس حيث كنت ألقيت محاضرة بالفرنسية عن سوريا ولبنان ، وكنا كلنا ضيوف جبران ذلك المساء نحى ليلة من ليالى جبلنا الأشم فى تلك القاعة الواسعة حيث كان فراش عبقرى الشرق ومكتبة ومعدات عمله فى الرسم ، وهنالك ، فى متحف الفن ومستلهم الفلسفة والشعر ، كان جبران ، كاهن هذا المعبد يقوم بنفسه بخدمة ضيوفه على رنين أوتار العود وصوت الاستاذ كاستفليس .

وكان جبران يعجب بقصيدتين لى احدهما بعنوان « مناجاة النفس » قدمها له وتوجتها برسمه والأخرى بعنوان « تربة الجدود » وهى أبيات كنت نظمها على أثر وصولى الى الولايات المتحدة واصابى بالالتهاب الرئوى بعد خروجى من معتقل « جزيرة أليس » حيث بقيت ١٦ يوماً مع رفيقى اسعائيات سياسية لا محل لذكرها الآن ، والابيات الأخيرة ترجمها جبران الى الانكليزية شعراً ونشرت فى مجلة أدبية ولم تزل الترجمة بخط جبران لى بين ما أحفظ من اثاره

وقد رغب جبران ذلك المساء الى الأستاذ كاستفليس أن ينشدهاتين القصيدتين بصوته الرائع فضيننا بسماع الانشاد ساعة كان أجمل الشعر فيها يتدفق من عيني جبران ، وانى لا أورد هاتين القصيدتين وأحسبهما من وحي الفقيده الخالد نفسه وقد أراد أن يربط فيهما روحه بروحى .

إبنة النور

يا ابنة النور رحمةً بالجريح قد كفى ما لقي من التبريح

أنت روحٌ لعالم الروح روحى
تتجلين في الضلال الصريح
لمحة الحسن في المحيا القبيح
كل وجه لولاك غيرٌ مليح
المعاني واللفظ غيرٌ فصيح
قبل ما جئتُ عالم التاميح
عُ كجبل الجوانب عند السفوح
دينٍ لعيني في كل شكل صبيح
اغرامى الى شفير النمرح
فغراماً بمهجة المقروح
ت فكان التخمين غيرٌ صحيح
عن خيال في ذا البقاء جموح
ثم يمضى بزفرة المذبوح
ألهات الهوى بشكل فضيح
ويح نفسى من ذا الوجود القبيح

أسدى الستر فوق وجهك وامضى
أنت رمز الكمال حق خفي
صورة الصدق في فؤاد كذوب
كل قلب لولاك يبدو كذوباً
أنت معنى الاكوان والكون لفظ
قد تجليت لي بشكل صريح
وبروحى من نور وجهك إشعا
يا أبنة النور قد حسبتك تب
من سريرى لملمعي لعلومى
كنتِ أمماً فمترت لهواً فعلماً
كل شىء قد كنت أحسبه أذ
هتك الستر في كرور الليالى
يتولى زمام شوقى فيهنفو
فضح العلم فهو جهل ولاحت
كل شىء بدا قبيحاً لعينى

...

غادة تروى من دمعها المسفوح
يتجلى من ناظرى المفتوح
طرأ مامى في ذا الفضاء الفسيح
كل شىء قد كان قبضة ريح
كظلام على الهواء سبوح

إيه نفسى ؟ أراك تبكين كما
قد عشقت الحياة ترجين نوراً
صرت أعمى وإبنة النور لم تخ
خدعتني الاشياء دوراً فدوراً
يتجلى حيناً كنور ويمضى

إليه نفسي أتعتني فإلى ما ذا التفاني على السبيل الطموح
إبنةُ النور جوهر فيك مكتو م توارى عن نظرةِ المستببح
ذاك سرُّ الحياة يـكمن في المو ت فكفى عن البكا لا تنوحى
إبنةُ النور أنت ذاتُ لذاتي تتوارين في مجاهل روحى
سوف يجلوك لي انعتاقك منى في ربى النور فاصبرى واستريحي

♦♦♦

أما الأبيات التي ترجمها جبران الى الانكليزية شعراً فهي

تربة الجـدود

من لوعةِ التوديع للبحرِ للباسم المـمـوء بانـقدر
لرحمةِ الانواءِ والذعرِ لمعقلِ التعذيبِ والاسرِ
لعلةِ الصدرِ

إلى هنا قد صرتُ ياسلوى لما تركتُ النورَ والمآوى
وها أنا في الليلِ لا شكوى تفيدنى ودمعتى نجوى
تسرُّ للفجرِ

أنى لهـذا الفجرِ أن يطلع ونجمتي في موطنى تلمع
وويننا الأبعادُ لا تقطع ما ينفعُ المحكومَ ما تنفع
تعلّةُ الذكرِ

يا فكرُ لا تذهب إلي وطنى لا تدخلِ البلوى إلى سكنى
لا تزعبِ الاجفانَ في الوسنِ لا تقلقنِ بخيالِ ذا الكفنِ
شريكةَ العمرِ

هل نسمةٌ من ذلك الوادي ونهالةٌ تطفي لظى الصادي
 أوقبضةٌ من ترب أجدادي حتى إذا ما حان إلحادي
 تذرني قبرى

وهذه ترجمة القصيدة بالانكليزية والكتاب الذي أرفق بها وكلا الترجمة
 والكتاب بخط يد جبران

افني فيبيكس

سلام عن روحك اللمية وفبك البعيد
 لقد سررت جداً بزوال ألم غمك ورجوع العافية إليك
 نحن يا بني بحاجة ماسة الى مواهبك فندع العدة
 ان تقف حاضراً بين مواهبك وحاجتنا
 لهدية تحم ترجمه قصيدتك الجمدة الى الانكليزية . لقد
 تعزيت بها بعض القلوب فهدوت كما يريدنا الشكر
 كما يريدنا اللغوي المدقق . ابعد الله عن جميع المدققين !
 انت بالجميع تعرف حجم وشكل فرجى نجاع مشردكم في صحتنا
 ابود . ولكنني ارجو يا فيبيكس ان لا نجرده فنك
 ولو تمس فواك فوق طاقتنا
 جمع سوري الى جان والياك عشقياً محمودي اوقسن
 تمنياتي وامه يحفظك اماً عزيزاً
 بكبهك

سأدائنين

From the pain of bitter parting
To the laughing faithless sea:
From the merciless waves to fear,
And then to prison and despair!
O! This what I sought, my Salwa,
When I left you and my home?

And behold me now, in a night
Whose ears are deaf to my cries,
Whose eyes are blind unto my grief.

But what if my morn should come?
And the star of my morn should rise?
What would they bring save a memory
To a heart over-burdened with memories?

O my thoughts, my stricken thoughts,
Fly not towards my homeland,
And enter not into my house,
Lest you touch with your dark wings
The sleep-veiled eyelids of my mate.

Oh for a breath from that fragrant vale,
Oh for a draught from that singing stream,
And for a handful from my forefathers' ashes
To be strown, as they lay me low,
Into my lonely grave.

ويعد انقضاء تلك السهرة في ساعة متأخرة من الليل ، سار جبران معي الى محطة النفق ، (سكة تحت الارض) ليشيخني الي طريق منزلي ، وكنت إذ ذاك في دائي أقرب الى القبر من جبران في دائه ، وكان متأبطاً ذراعني نسير كلانا تحت ناطحات السحاب شاعرين بالقوة المادية الساحقة تحيط بنا وتعلو رؤوسنا وكلانا محتلج القلب ناحل ضعيف . .
أعود الى مفكراتي لاأخذ منها ما دونته ذلك المساء فيها عند وصولي الى غرفتي في أمتي ستريت :

في ٢١ اذار (مارس) سنة ١٩٢٢ .

وإذ نحن متجهان الى باب النفق ، وقف جبران بغتة في مسيره وقبض على يدي الناحلة بكفتي يديه وصوب نظره الى احدائي وقال بصوته الصافي العميق .
- إنك متألم ، يا أخي ، وفيك قرحة في الروح وقرحة في الأحشاء ، أما روحك فلن يشفيها سوى بلوغها مدى الألم وأنت تدفعها الى ما قدّر لها بجلدك وجهادك وصبرك ، أما جسدك وفي أحشائه قرحة فليس من حقدك أن ترهقه بالمكابرة ، دعني أذهب بك الى أكبر جراح في الولايات المتحدة ، إن صندوق أخيك جبران لك ، كما ان لك عطفه وكل حنانه . دعني أمثل لبنان فاسعى الى شفائك وتكون يدي رابطة على يدك فلا تشعر بأوجاع جراحك .
تهدج صوتي في صدري فاختنق ، وعانقت جبران ، فاذا بقطرات دمعه تبلّ خدي ، وقطرات دموعي تبلّ خديه . .

...

وما مرت ايام حتى اشتدت العلة على جبران فذهب الى بيت شقيقته في بوسطن حيث أرسلت له كتابي بعد اجتماعي الاخير به بشهر أي في ٢٢ اذار (مارس) سنة ١٩٢٢

من مفكراتي في الباخرة باريس، عرض الاوقيانوس بتاريخ ٥ اب (اغسطس)

سنة ١٩٢٢

أحاذر أن يقف هذا القلب على حين غفلة، فأريد أن أدون كلمة تكون وصيتي الاخيرة في آخر الصفحة: «أوصي بقلمي الذي أكتب به الى جبران خليل جبران»

...

تسع سنوات مرت على جبران منذ ذلك العهد وقلبه نائر على جسده يتوقع الاطباء شفاؤه أو موته، وهو لا يشفي لانه واله بما كمن في نفسه فلا يحول ارادته الى وقاية جسده ولا يموت لأن رسالته كانت لم تتم بعد.

في هذه السنوات الطويلة التي كانت نزاعاً طويلاً وفترات بين نزعين، وضع جبران أجمل رسومه وكتب أبلغ حكمته وأنشد أشجى أشعاره.

لقد حاولت عبثاً، وحاول الكثيرون من أصحاب جبران انتزاعه من الولايات المتحدة واستقدمه الى لبنان. ومن يدري ما كان سيؤثر هذا الانتقال على جبران لو أنه رضي به؟

أ كانت سكينه جباننا وهوؤها الليل وماؤها السلسبيل قادرة على انتزاع العبقري من هيامه بأصول الأشياء فترده عن المضي بنفسه الى قبة نفسه؟ ..

ما كان جبران عليلاً بجسده، وقد خفيت على الاطباء علة خفقان قلبه، ذلك لأن ذلك القلب كان قد أصبح هو بنفسه تلك الكامة المجنحة التي أراد جبران أن يهجنها حروفاً ..

...

والآن، لا أوردن في هذا الحديث، بعض عبارات من كتاب طويل أرسلته

الى صديقة جبران العبقرية ميّ زياده بعد وفاته بأيام.

عندما سرت في رحلتى منذ عشر سنوات الى العالم الجديد لأعمل على لم هذا الشعب المبدد من اخواننا ، وقفت اكثر من خمسين مرة على منابر أمهات المدن في الولايات المتحدة ، أهيب بأبناء السبي للرجوع الى بلادهم التي شردهم اختلالها آملا ان ينظموها ليحيوا بحياتها . فأطلقت في هذا السبيل كل ما في صدرى من أنفاس وفي صوتي من نبرات ، وهنالك عرفت جبران الذي عرفته أنت كثيراً ، يا ممي ، ومفكراتي التي دوّنت فيها ما شاهدت من حوادث وما جال بي من خواطر فيها الشيء الكثير عن جبران .

إن جبران ، يا ممي ، كان فيه البهاء المجهول الذي عرفته فيك (ثقي يا أختي من ترفع هذه الكرامة عن كل تزاف ومحابة) فان من المفكرين من تتجلى القوة الخفية في مظهر واحد من مظاهرهم فهنالك من رقت عواطفهم فلا يخلبون إلا إذا ابتسموا ، ومن عمق افتكارهم فلا يسطون إلا إذا حدّقوا ، ومن صفت نواياهم فلا يؤثرون إلا إذا لمسوا ، ومن تألموا بالآم الانسانية فلا يربطون على القلوب إلا إذا أطلقوا صوتهم ، ولكن جبران ما كان ليحتاج لا لعينيه ولا لشفتيه ولا لصوته ، لأن في جوه الهاديء الرائع كانت كل النظرات والابتسامات والاصوات التي تشدّ بالحس التائه في الحياة الى المستقر الأعلى .

ذلك لأن الفكرة النيرة في جبران كانت قد خلعت عليه من إشعاعها وشاحاً يحمله من رأسه الى أخمص قدميه ، وقد كان في حياته منقطعاً الى اكتشاف خفايا العالم الأكبر متوغلاً في ما وراء الأُسرة وفي ما وراء القبور . إن جبران كان قد مات قبل أن يموت فلم يلمس الحياة إلا برأس ريشته وبرأس قامه .
إنني لأستعرض اليوم كل ما ينشر لشخصه من صور فلا أري واحدة منها تمثل لي جبران كما رأيتُه .

وقد كان هذا الرجل الذي أصبحت الانسانية كلها أسرة له والارض كلها وطنه
يحن دائماً الى لبنان وما فيه من أغوار وأنجاد ، وما أرى انه كان يفهم الوطنية كما
يفهمها أنصارها العاديون في الحياة ، ولو أن جبران ولد في أية بقعة من الارض لما
كان يرى وطنه إلا تحت ظلال الأرز حيث يجثم تاريخ الأجداد القديمة وتطوي
روح الالهام جناحها الداميين لتنشرها على الدنيا في آتى الزمان .

إن تلك الذكريات النائمة هنالك ، وتلك الاماني المائلة للأنبعاث فوق تلك
الجبال وفي تلك الاغوار البعيدة القرار هي موطن كل مفكر متجرد يفهم حقيقة
الحياة في مراحلها الظاهرة والخفية .

أفلا تذكرين ، يأمي ، وقفاتك فوق تلك الارض المملوءة بالأسرار تحت
تلك السماء الشفافة المترامية على رؤوس الجبال كأنها انعطاف ما لا يرى على ما يرى
واحتضان الثابت الدائم المتقلب الزائل ؟ وهلا تعجبين كما أعجب من أن يكون
منا من يقدر على كسر عزته وإذلال ضميره بعد ان عامه شروق الشمس الذهبي على
قم لبنان وعامه غروبها الدامي على آفاق بحره ما هي الحياة وما هو الموت ؟ .

لقد كان جبران يحب لبنان ، كما تحبينه أنت يأمي ، لان الأءنفس الحساسة
تهتك في هيكل جماله أستار المادة فتعرف ان الانسانية اءاء وتعان وجه الله . .

أتريدين ان تعرفي كيف كان يتشوق جبران الي لبنان ؟ إذاً فاقرئي كلماته
التي نشرها في جريدة السائح بعد ان سمع اول خطاب الفقيه في نيويورك سنة ١٩٢٢ قال
« لقد كان لخطاب فليكس فارس ولتأميل التي صنعها جان دبس وللصور
المتحركة التي شاهدها يوم الاحد تأثير عميق ثابت في نفسي ، اما الخطاب فلا أنه
أبان لي شاعراً ذهبي القلب يرى لباب الحياة دون قشورها ويحب أمته حتى العبادة
ولا يمزج حبه بمعصور سياسة الاحزاب أو بمسحوق المنازع الذاتية ، وأما التأميل

فلأنها عواطف فتى حساس رأى النكبة شبيحاً هائلاً فاستوقفه ورسم معالمه ثم أقامه نصباً بين الجلملة واورشليم الجديدة، وأما الصوالمتهركة فلا أنها أبانت لي وطني وابتناء وطني في حالات البؤس والامل وأعادتني الى تلك الجبال والودية التي ما فكرت مرة فيها الا شعرت بشعلة في قلبي وبأكليل الزنايق في يدي، هذه يثيرها الحنين وذلك يضفره الرجاء»
إن جبران، يأمي، قد تراءت له اورشليم الجديدة بين ما حبكت نبرات صوتي من رسوم الامال في الاثير.. كنت مؤمناً بالمستقبل فجعلت الالوف يؤمنون به لانني كنت أعتقد إسترح في قبرك قليلاً، يا جبران، على ضفاف المهدسن، ودع روح هذه المدنية الآلية الخشنة تتشرب من حول قبرك ما تدفعه بقاياك من إلهام الشرق الذي ستتجه اليه الانسانية كلها في حضارتها المستقبلية

كما انتهت روحك الى مصدرها، هكذا سيعود ترابك الى ترابه... لقد قلت أنك تريد أن تذهب الى لبنان وتبقى ذاهباً... فسيكون لك ما تريد..

ستدخل أرض آبائك وأجدادك، ستعود الى مسرح خيالك السامي، وقد انسدت أجنالك على أحداق كانت تريك لبنان على ما سيكون عند ما تتغلغل مبادئك في نفوس كل ابنائه، وخير لهذه الاحداق الا تكون مفتوحة اليوم، خير لك أن تأتي الى لبنان اليوم ميتاً من أن تأتيه حياً فينكسر خيالك فيه..

لترقد عظامك تحت ظلال الأرز، وليقف تمثالك مشرفاً على وادي قاديشيا المقدس فترفع الصخرة البنانية التي ستمثل جبينك عالية هازئة بصدمات العواصف والسيول الى أن تثمر البذور الحية التي أقيمتها الى شعبك والى كل الشعوب.

في ذلك الحين عندما يعود اللبنانيون المشردون في أقطار المعمور من سببهم سيأتي الابناء والأحفاد بشعورهم البيضاء: أمة حية متحدة تضع إكليل الغار على مثال الجبين الخالد الذي كللته الدنيا بالاشواق في حياته..

هاتف الخلود

جبران خليل جبران

يوم وصول رفاته الى لبنان في ٢١ آب اغسطس ١٩٣١

لمن الألوْفُ تموج في لبنانِ
وتسير حاملةً البنودِ تمايلت
فترى بها الرمزين رمزاً واحداً
لمن الجوعُ تهبُّ في قلب الدجى
يتشاكل الاضدادُ فيها فالنهي
فهناك مظلومٌ بجانب ظالماً
وهناك أنصارُ التقاليد التي
وهناك أجنادُ الحقيقة أجم

وترود لفحةً ثغره الحِرانِ
فيها أهلتها الى الصليبانِ
وهما بقلب القوم مفترقانِ
وتجوس أجفان الضحى الوسنانِ
والجهل كالصنوين يزدهمانِ
وهناك أسيادٌ إلى عبدانِ
ضربت على الامصار كلَّ هوانِ
شردت بليلٍ مدلهم جانِ

...

فارقتُ يا لبنانُ أرضك ثائراً
أوحيت لي سرّ الحياة ومجدها
فلأت من أشباح ذلك مقلتي
ولكم وقفتُ بظلّ أرك اجتلي
ولكم طوت روعي جناحيها على
وتنصتت لمواكب تمضي بها

لما عصيتُ بك الشقا وعصائي
وعرضت أروع بؤسها لعياني
وملأت من باهي سنائك جناني
سرّ الخلود بكل ظلّ فانِ
قم الربى ومغاور القيعانِ
فوق المكان وفوق كل زمانِ

تمشي فتمكر كل ما يبدو لها
ولقد مشيت مع المواكب مصغياً
ساد الهوان قوية وضعيفه
ولعل أشق الناس من مستعبد

في موطن الاجداد من حدثان
لأنين شعب عاثر حيران
وأضلّ بالاحكام والايمان
فيه رجال الحكيم والأديان

♦♦♦

لبنان مدرستي وصوت سكونه
خنقت به زفراته فأعرته
فلئن تنصت الشعوب لآية
وتلفت لرسوم أشباح مشى
فلرهبة المجد القديم بموطن
ولروعة قدسية نزلت من ال
أعليها قبساً توّجج هادياً

استأذ تفكيرى ورب بياني
صدرى وجدت لنوحه بلساني
نطقت بها الاقلام تحت بناني
فيها البيان بريشة الفنّان
طمست مفاخره بكل هوان
توراة والانجيل والقرآن
للمشركين بوحدة الانسان

♦♦♦

دمع الضعيف مداد أقلامي وما
كتبي وألواحي روايات الورى
أنا نائر الشرق القوي بأدمعي
نوري الضئيل مجوس طيات الدجى
فضّاح أهل الغي ظلام الورى
صوتي أنين المطرقات بذلة
أنا كلسر القيدين جبار الشقا

سفك العتاة من الدما ألوانى
وقعت بأشقى مسرح الاكوان
المستبد بلهفتى وحنانى
لمعات أحداق الظلم العانى
الثاملين بسلطة ودنان
الباقيات بدمع هتان
عند اشتداد النقمتين تراني

♦♦♦

أشربتُ رُوحى من مفاخر أمتى
وفزعتُ للحق المبين أرى به
قضيت عمري لا الشقاء أذلني
ومررت في ذا الحلم أعرف انه
هذى البرايا أحرف منشورة
حتى إذا ساد النظام ونضدت
عبثاً نفتش عن حقيقة نفسنا
فالقلب في خفقانه سر البقا
هذي القلوب هي الحروف تشردت
كلُّ يرى اللذات في أم السوى
إن السما في الارض في أمم ترى
إن السما في الارض في روحين في
حرفان إن وُصلا تجلت فيهما
حبٌ، هو اللفظ الذي هجئته
أتممت ما كتب القضاء عليّ في
وبقيتُ أنتهج السراط موجهاً

وشقاًها فأعَلني الضدّان
حريةً السليط والمتوانى
فيه ولا حبّ العلى أغراني
حلم حقيقته بدورٍ ثانٍ
إن أهملت بقيت بدون معانٍ
ظهر الخلود على الجماد الفاني
في ما انطوى في الهيكل الانساني
والمراء يجهل علة الخفقان
ترتاد أفق منى وبجر أمانى
فيعاقب المجموع بالحمران
أم الضعيف تألم العمران
قلبين بالاخلاص يمتلجان
والله في هذا البقا حرفان
ببقية الأنفاس في بحراني
هذا البقا وطويت في أكفاني
للقطب نوراً غار في أجفاني

♦♦♦

هذا ترابي أرجعوه لتربة الـ
أتبعته فكري وقد وسع الفضاء
لمن الجموع وفي طلائعها الأولى
ما كنت أحسب أن جئاني يرى

جبل الأشم الى ربي لبنان
فانا من الدنيا القصي الداني
أدمام في مرقي برهاني
شبحاً لغير الحق في وجداني

أترام ، وأنا بعينهم الذي
أم أمهم سدلوا عليّ تساهلاً
هني أمير الناشزين فأني
ماذا يرى جبران في تكريمهم
وأنا أهان بكل فذِّ نابه

انتهج الضلالَ تخيروا بهتاني
ضنوا به قبلي على أقراني
لأحقُّ بالنقات من فرساني
ما أبقت الآلام من جبرانِ
ضربوا عليه الذلَّ من اخواني

♦♦♦

طلبوا لي الغفرانَ من رب السما
يستغفرون عن الجهاد بدرهم
وأنا جهادي والحياة صرفتها
قلت دهاقنةُ الزمان بأني
فاذا بنعشى وهو يطلب أرزه
مستسماً بأسم البلاد لمقدر

متزلفين اليه من إحساني
ما كان يوماً مبلغاً لجنانِ
فيه أعوذ به الى الرحمن
جبت الذرى بمدارج العرفان
ليقرَّ تحت ظلاله بأمانِ
ألقى على صدري الوسام ... الثاني ...

♦♦♦

في ذمّة الرحمان أعمالي فما
وبذمّة الأجيال لاني ذمّة الـ

لسواه وضع الروح في الميزان
أفراد ما أبقيت للأزمانِ

♦♦♦

« جبرانُ هذي صرخة علوية^ة »
« نزلت على قلبي الكسير وقد رنا »
« فتنظمت بدمي وصوتك هاتفاً »

أرسلتها من عالم الفيضانِ
متلفتاً يبكي على الأوطانِ
عقدين ، عقد دمٍ وعقد جبرانِ

الهام شوقي

ألقى حضرة الخطيب الكبير الأستاذ فليكس فارس من ندي (راديو)
فريد في الاسكندرية بلسان المغفور له أمير الشعراء القصيدة الآتية بعد مقدمة
وجيزة وأهداها الى الأستاذ انطون الجميل بك بمناسبة رسالته عن شوقي
(الاهرام) ٢٣ يناير سنة ١٩٣٣ .

•••

قال

« ما هو صوت من عام الغيب هذا الهتاف الذي تحمله اليكم الان تموجات
الأثير . ان القسم المادي من صوت أمير الشعراء قد طواه الزمان ببلاء الصورة
التي كان متجلياً فيها ولكن القسم الروحي من هذا الصوت أو الهتاف الخفي
العالق بأهداب فكره فانه لم يزل خالداً يسمعه المتنصتون الى الاجواء الخفية في
عالم ما وراء القبور . »

« إن القصيدة التي ستسمعونها الان هي رسالة فكرية أنزلتها روح أمير
الشعراء على جندي من فيلقه الكبير المنتشر في كل بلاد تنطق بلغة إلهامه وتتغنى
بأناشيده وما كان لهذا الجندي أن يقف موقف أميره ويرفع بيده لحظة ذلك
العلم المعقود عليه والمنكس مبالا بدموع مبايعيه على قبره ، لو لم يكن في ساعة
استلهامه رأى القلم مسيراً في كفه يخط الرثاء بلسان من أراد أن يرثيه . »
« وما كان للشاعر أن يقاوم ما قدره العالم الخفي على قلمه فتركه يجري متنصتاً
في صريه الى همسات كأنها أناشيد أطيّار الجنان . »

« وكانت ساعة حلم ذهبي سمع فيها جندي الأمير صوت أميره وهو بما نظم
تحت استهوائه يصور لكم مشاهد حمله ، وأي بيان يمكنه أن يتحكم في عالم الرؤى
فيورد رسومه بيئنة جلية للناس ؟

ليصغ جنود شوقي الى نشيد من أناشيد الان كما تعودوا الاصغاء من الندى
الى أروع الأصوات تقطع صفاءها طفيليات الأجواء المعتكرة ، إن ما صفا
وراق في ما ستسمعون إنما هو من همس الالهام الأعلى وما كدر وتشوش فيها
إنما هو طفيليات قصور الشاعر وعجزه في أجواء نفسه

إلهام شوقي

ما توارى غير الضنى من وجودي	حين أدرجت في ظلام اللجود
أناحي بما كسبت من الدنيا	يا نزوعاً لعالم التجريد
أشربت روعي الخلود فأفنا	ها التسامى في ذات هذا الخلود
كان عيشي في كل يوم مماتاً	وانطلاقاً في أفق نفسي البعيد
فتجلت لي القلوب كأسرا	ب طيور في غورها والنجود
تتسامى للنور فوق الروابي	تترامى الى المهوي السود
فخفوق يشدها بقيود	وخفوق يحملها من قيود
وسمعت الحياة منها أناشيد	د تعالت بالنوح والتغريد
فحنين الى أمان كذاب	وأنين من كاذبات الوعود
كلها تنهى بزفرة نزع	كقرار لشهقة المولود

ففتحَ اللهُ المَناجاةَ نَفسي
وَعَدتُ (كَالنَدِيِّ) يَهزجُ فِيه
تلكَ اجواؤنا الخَفِيَّةَ مَلأى
إِنما القابِلُ المَحولُ لِلاصـ
فجَنوحٌ إلى مَذيعِ ضَلولِ
ذاك سرِّ الالهامِ صَبوةٌ قَلبِ

أَيها الطائِفونَ ما حَولَ قَبري
وتَناجونَ في الترابِ رَمادى
أنا مَصغِعُ لَصوتِكُم يَتعالى
أنا ما زَلتُ حَيْثُ أنتمُ وأنتمُ
كُنْتُمُ فِيكُم كَمَا أَرَدْتُمُ أميراً
ما تَوانَيْتُمُ في جِهادي حَتى
فانهِيارى المَوتِ كُلِّ عِشارى
ما انْتَهتُ بِيَعْتى بِمَوْتى فَكُنِي

قَ لِأَحياءِ مَجْدِهِ المَنشودِ
يَنظُمُ العَرَبَ نَظْمَ عَقْدِ نَضِيدِ
وَدَموعُ اللَيفِ دَمعُ الأَسودِ
في أَهازيجِهِ هَتافُ الجَدودِ
يَشهَدُ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ شَهِيدِ
أَيها الفَلِيقُ المَسيرُ في الشَرِ
أرسلَ الدَمعَ فَوَقَّ قَبري عَقْداً
إِنَّ دَمعَ الشَتِيتِ في الأَرْضِ ذُلُّ
زَفرةِ الشَعرِ صرخةُ الشَعبِ يعلو
يا جُنْدى وَفِيَّتُ قَسطِ جِهادى

إني ما ونيت يوماً لضعف
حسبي الله ما طرقت بكفي
فلئن سخر القضاء لشعري
ودعيت العميد للشعر أبي
إنما كان ذا المقدر إحيه
ما تباهيت بل تهيبت تاجاً
إن تلاشت قواي في المرتقى الـ
حافزاً للسماك شوقي فأقضي
ملهباً بالأسي بقية أنفا
صولجاني ما صانه اسم أمير الـ
صنته بالقديم من حلل الأعـ
صنته حرمةً لماضٍ مجيدٍ

...

أى شيء أنا في ذلك الشعـ
قل لمن يحسب القرائح رهن الـ
قد جهلت الفيض المجرد في الرو
نقده العيش كل شيء فضول
قل لمن دار حول قصرى وشعري
أى وصل ما بين ذلك وهذا
يعصر الشاعر الحقيقة راحاً
ويسيل العطور من قائم السر

ر وما نيل دون ذا المجهود
دهر من راحة ومن تنكيد
ح تعالى عن سيدٍ ومسود
بعدها للمجنح الغريد
من جهول ومفتر وحسود
بين خلد وبين وهم مشيد
من جنى حنظل ومن عنقود
و كما يستشفها من ورود

لم يكُ الشعرُ مسعداً لثقي ولم كان مشقياً لسعيد
ليس تسكاب مهجة في قواف حرفة للمفكر المعمود
إن من يبذل الحياة على الشع ويضني العيون بالتسفيد
ويعاني بنفسه ما تعانى أمم روعت بكل وعيد
وبعينيهِ أدمعُ الشيخِ فيها جاريات على دموع المهود
وجنبية ما بها من جراح ودماها في قلبه والوريد
أحقر الزائلات في ناظريه تيه قصرٍ ورافلات برود

♦♦♦

قلمي إن رويته من رشاشِ الحج يد يروي عن طارف وتليد
فلكم سال من دموع ظليم ولكم سال من دماء شهيد
دنت بالحب للبرايا جميعاً ذاك دينُ المهيمنِ المعبود
كلُّ شركٍ بالناسِ شركٌ بربِّ ال ناسِ فالله رب كل العبيد
يتساوى الجميعُ في غمرات ال موتِ فالموت مطلعُ الموجود
مغرسُ الروحِ هذه الارضُ تس تنبتُ فيها جناحها للصعود
أطلقَ اللهُ في الحياة جناحى فبلغتُ الخلود قبلِ خلودي
كلُّ حىٍ يضل فيها فقيد ليس من يبلغ الهدى بفقيد

♦♦♦

نصفَ قرنٍ مشيت في رحل هذا ال شرقِ أهفو الى سراب البيد
وعيونى تغور في الأفق الو هاج منبثةً على مفقود
يرجف النورُ في اختلاج ما قى طريداً يسعي وراءَ طريد
ما تحولت عن مراى الامانى باتباعي تحول المرصود

حيث لاح الهدى دفعتُ بياني
تحت شمس السلام بين مروج
في ظلال السيوف تحت مثار الند
في ركاب الأمير أو عند كهف ال
لم أكن راصداً غير المبادي
ماهم الحق فوق كل اغترارِ
طال سيرى فطال عمري حتى
ربّ عام مضى بخطرة فكر
وقضى الله أن يقر قراري
عند عرش (الفؤاد) باعث أجبا
عند عرش يلوح (فاروق) فيه
أمم الشرق شاخصات اليه

...

هذه واحة الرؤى ولحم حنّ اليـ
كان عهدي عهدَ التشوق حتى
ها قلبُ الشجي الموعودِ
جاء عصر (الفؤاد) بالتشييد

...

هدأت رجفة المآقي وقد حا
بسط الموتُ ظله فترامى
نَ رقادى بعد انتباهِ الرقود
جنحُ روحى جناحه الممدود
وتواريتُ داعياً مملوكي
وبلادى بالنعم والتأييد

—•••—

جان دبس

وأثره الخالد - تماثيل هياكل بعلبك

بم تماثيل جماعة لبنان

جان دبس الفنان العبقرى، صانع تماثيل الجماعة التي لوت لبنان أيام روع الحرب العظمى تحت اعصارها، وصانع مثال هياكل بعلبك مصغراً مستعيداً فيه لها شكها القديم الرائع قبل ان دمرها الازمان، جمعتهى واياه روابط عطف متبادل نشأ مما تخيل فى بيانى من شعور وما رأيت من عظمة نفسه ورقة عواطفه فى ما تبعد أنامله، وقد كانت تلك الانامل مهبط الهام يقصر بيان الخطيب وقلم الكاتب عن استنزاله كما أنزله جليلاً باهراً للناس .

مات رفيق جان دبس فى باريس فى صيف سنة ١٩٣١ فجأة حين كانت تحفته التي بعثت هياكل بعلبك تعرض فى باريس وتصدو فى أذنيه اصوات الثناء على جهوده والاعجاب بعبقريته .

وقد قدمت أرملته الفاضلة السيدة ماييل دبس قبلان الى الاسكندرية لتعرض فيها أثر زوجها الخالد فافتتح المعرض فى ٢٢ ابريل (نيسان) تحت رعاية حضرة صاحب السعادة حسين صبرى باشا محافظ المدينة وبحضور حضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون وحضرة صاحب العزة احمد بك صديق المدير العام للبلدية ، فى مقدمة عدد غفير من رجال الفضل من أجنب ووطنيين ، فألقيت

بالفرنسية كلمات عن التحفة وعن مبدعها وقد رأيت ان أضف تعريها الى هذه الرسالة لأن موضوعها يندمج في ما تناولت من اجاث فيها تنجه الى احياء ما في ابناء البلاد العربية من حوافز مجيدة وعبقريات سامية ، وقد كان جان دبس من خيرة ابناء البلاد الذين تجلت فيهم هذه القوى الكامنة في الشعوب العربية فتبدو طلابهم كالأزهار التي تنور زهرة فزهرة بعد الشتاء مبشرة بحلول الربيع

•••

هياكل بعلمك

هاهي بكل روعتها التحفة الفنية التي انتزعت أشد الاعجاب انتزاعاً من أساتذة الفن وأرباب القلم

ان هياكل « بعلم » الضخمة الهائلة التي مرت أمامها الأجيال المتوالية مدى أربعين قرناً خضعة حائرة تحت أعمدتها وأروقها المتعالية في الفضاء كتعاليمها عن الادراك تنطوي أمامكم الآن في هذا المثال المصغر الذي بعث أعجب عظام التاريخ فكان هو أيضاً مثلها موضوعاً للاعجاب والخشوع

ان رؤساء الحكومات والشعراء والعلماء والمهندسين والأثريين قد مروا خاشعين بهذا المثال الصغير الذي يلوح العوبة اطفال للجاهلين ولا يفهمه ويعجب به الا رجال العلم و ابناء الشعور .

لن أجزى لنفسي ان أخوض في مباحث علم الاثار لأكرر لديكم أقوال المهندسين والمؤرخين المتناقضة عن زمن تشييد هذه الهياكل حيث انطبعت آثار كل الشعوب القديمة . فان كل محاولة في هذا السبيل تنجه الى استقرار هذه الازمان لا بد لها ان تصطدم ككل محاولة سابقة بذلك السر الدفين الذي ينقلب امامه كل حكم افتراضاً وكل رأي توهماً واغتراراً .

ما أنا بالطامع في هتك أستار الزمان لا نبيكم بما يستوقفكم عند هذه التحفة الفنية الماثلة أمامكم وهي تبعث معابد الشمس كما كانت عليه أيام غزوات اليونان والرومان . فاكثني بأن الفتكم الى ثلاثة أحجار هائلة مرتكزة فوق قاعدة بناء هيكل (جويبتير) وطول كل منها ٢٠ متراً باربعة فأربعة عرضاً وعلواً ويبلغ حجمها ٣٥٧ متراً مكعباً . فاذا ما كسرت احدى هذه القطع وأريد نقلها فانها تملأ ثمانين عجلة من عجلات السكة الحديدية، وهناك قطعة من الصخر أضخم من هذه معروفة باسم (حجر القبلة) طولها ٢١ متراً و٣٦ سنتيمتراً بأربعة أمتار و٣٦ س عرضاً وأربعة أمتار و٣٣ س . علواً . ويقدر ثقل هذه القطعة بـ مليون كيلو غرام

ان مثل هذه الضخامة تفوق كل افتراض يتجه الى تعيين كيفية نقلها وتحريكها ورفعها للبناء . وقد خيل للبعض ان العماقة الذين تحجبهم ظلمات التاريخ قاموا ببناء الهيكل بواسطة الردم على طريقة السطح المائل غير ان هذا الافتراض يدحضه ما شوهد من ربائط البرونز الضخمة التي شد بها البناء فهناك فتحات تغلغت الربائط فيها بصورة لا تدع مجالاً للريب في أن هذه القطع الهائلة قد رفعت عامودياً على الجدران

ذلك سر عجز الفكر عن كشفه فلن يدعي الانسان في القرن العشرين انه هاتك الاستار وهو عاجز حتى عن ادراك اعمال مادية قام بها من تقدموه في مراحل هذه الحياة.

بعد هذه المقدمة الوجيزة عن ضخامة البناء وهي مما يستحيل تمثيله بغير الأرقام أجدد بي ان أوجه البيان الى وصف ما في هذه الهياكل من آيات الفن وروائع الصناعة وما في تفاصيلها ومجموعها من دقة وانتظام؟

لقد كان يسهل على أن أقتبس من فولتاير ولامارتين وفولبير وبارس أبلغ

تعايرهم وان أورد اجمل اشعار فوزى المعلوف و خليل مطران لأصف لكم ما يتناوله البيان من هذه الاثار الساحقة ولكننى أرى كل الصفحات التي كتبها أساتذة الأدب عن جمال هياكل بعلبك و بديع نظامها وروعة مشاهداتها ترواها ترواها ترواها صفراء أمام هذه الصفحة المجسمة التي رسمتها أنامل مثال ملهم كتب أسفارها قاعدة فقاعدة ، وأعمدة تتلوها أعمدة وأروقة تتبعها أروقة باذلا عليها نور آماقه اياماً وليالي ، لا يرفع التماثيل للآثار المهتمة حيث مرت قوافل التاريخ فحسب بل لبيعت أيضاً الى عالم الحس من عالم الرؤى ما لم يحلم به ولم يطمع بتصويره أى شاعر أو أي كاتب

وقد نشرت جريدة اللوستراسيون المشهورة ما ياتي في عددها بتاريخ ٦ يناير سنة ١٩٣١ « بعد سنتين مرتا بجهود الصابرين وبالدروس المرهقة والابحاث العلمية الدقيقة والتأملات الطويلة في الهياكل ومواقعها وتنظيمها ، رفع جان دبس مثاله الذي بعث من العدم مجموعة الهياكل الرائعة بكل أوضاعها الخارجية والداخلية فأبدعها بكل حقيقتها وكل جمالها ان ما قام المسيو دبس بصنعه انما هو انموذج تكامل فيه أسلوب الفن المعاري اليوناني الروماني وله قيمته العظمى في عالم الآثار والبناء »

اطرحوا بخيالكم ، أيها السادة ، على هذا المثال المصغر بدقته وجماله ، الجسامة التي عينتها الأرقام ، يتمصب أمامكم مجموع الهياكل الهائلة كما كانت قبل ان اصبحت اثاراً عافية خيال توارى وراء حجب الدهور

والآن ، اسمحوا لي ، أيها السادة ، ان أخاطبكم عن الفنان بعد ان تكلمت عن تحفته أستمحيكم لقاء كلة عن هذا الرجل الذي صيرته مصائب أوطانه مثالا شاعراً ، ورفعته تذكارات أمجادها الى مصاف المهندسين الخالدين

في سنة ١٩٢١ ، ما كنت اجتمعت بعد بصديقي جان دبس وقد كانت بدأت

شهرته بين مواطنيه تماثيل صنعها وهو لم يتعلم شيئاً من فن النحت ، ان فن جان دبس نشأ فيه من وقوفه بكل رقة شعوره في العاصفة الهوجاء التي اكتسحت بلاده أيام الحرب العظمى إذ رأى المجاعة الهائلة تطرح بضحاياها على الطرق هياكل عظام تجر اشلاًها جراً على ارض لبنان وقد أصبح بأسره مقبرة كبرى لأحيائه وامواته في ذلك الزمن قبض الروع والاشفاق على قلب ابن لبنان البار الحساس جان دبس فمشت أنامله في الصلصال تطبع عليه أشباح الشهداء

وانني لاستمحيكم وصف هذه التحفة الاولى التي صنعها جان دبس بما كتبت به سنة ١٩٢١ في بيروت عند مشاهدتي هذه التماثيل في معرض أقيم في تلك المدينة في ذلك الزمان

(في القاعة البيروتية في المعرض رسوم شمسية طبعت مشاهد المجاعة الهائلة التي اجتاحت البلاد ، فهناك ما يقارب الخمسين رسماً اختطفها العدسة في ظلمات الروع تستعيد للتذكار المشاهد التي أزهدت النفوس طوال اربع سنوات ومحتها تقلبات الايام

لقد كانت عدسة التصوير أنفذ من عيون الشاهدين المروعين وكانت الصفحات الزجاجية أقوى على الذكرى ممن كتبت لهم الحياة بعد ان دارت بهم الالهوال فاحتفظت برسوم هياكل العظام الساحبة الاطوار زاحفة تطلب من الارض قبراً بعد ان عجزت الارض عن امدادها بالقوت . .

ان مواطننا جان دبس الذي أخذ هذه الرسوم قد أقدم بفنه بل أقدم بجرأته وقد هزته روح الآلام والاشفاق على نحت سبعة تماثيل من هذه المشاهد عرضت في القاعة فرأيت الناس يقفون حاسرين خاشعين أمامها وعلى شفاههم رجفة صفراء وفي أمقهم دموع

فهنالك متسولون ينازعون الكلاب في الازقة ما طرح عليها من أقذار
وهناك أم جثمت فوق جسد ابنها البارد وقد خانها القوى فلا تقدر على
جره الى حفرة تواريه فيها
وهناك أم منكبة على الارض تحفر بأظافرها مكاناً لتواري فيه جثة ولدها
المددة عظاماً قربها

انه لمشهد هائل هذا المشهد تتقابل فيه أمان، المرأة التي انتزعت الحياة بالحلب
من العالم الخفي، والارض المستعيدة ابنها ساكنة هادئة من يد ضررتها المقهورة الباكية
وهناك أيضاً يتيهان مات أحدهما جوعاً ووقف الآخر أمامه يتفرس بالموت
على وجه أخيه متحفزاً للانطباع على وجهه .

وهناك أم استحالت الى هيكل من عظام يدب على ركبتيها طفلان يتلمسان
الحياة من ثدين لا حياة فيهما بعد .

وهناك أيضاً أم وطفلتها تسيران حاملتين حزمتي حطب لا يتجاوز حجمهما
ما أمكن وجوده وما يمكن لهيكلي عظام ان يحملا ، متجهتان نحو المدينة لبيع حليبهما
وللجهاد الى آخر رمق في سبيل الحياة . وقعت الأم وقد خانها القوى وخانها
الحياة نفسها فهي جثة تشدها الطفلة بأظفارها لتقبلها من موت حسبتة الطفلة في
جهد عثرة تقال

ذلك مشهد من أروع مشاهد هذه المحنة بل ذلك الدليل على ما يمكن في هذه
السلالة اللبنانية من همة لا تني عن العمل والمجادة حتى تجود بأخر الأنفاس
لا ، ان ماتحمله الشعب اللبناني من فقر وشقاء لم ينزل به من تواكل أوخمول
ان الشعب الذي عرف ان ينشئ الحداثة على أعلى الجبال فوق الصخور الشعب
الذي قدر ان يحمل على اكتافه التراب ليمده على الصخور ارضاً تغذي أطفاله ويواري

فيها أمواته ، الشعب الذي نثره الشقاء وليد المظالم في أربعة أقطار العالم ، إنما هو
شعب كبير في محنته وآلامه

سلام على آخر جهودك وانت تجودين بأفاسك ، أيتها اللبنانية المتهدّمة تحت
وقرها ، سلام يا ابنة السلالة الشرقية التي تواجه الموت وهي رافعة أثقالها .

وهناك تمثال أخير يريك متطوعاً لبنانياً عاد الى وطنه بعد ان ألتقت الحرب
أوزارها فقاده كاهن قرينته الى البقعة التي انتثرت عليها عظام أهله الشهداء .

يصعب على البيان بل يمتنع عليه أن يأتي بما تشعر به النفس أمام هذا الشهيد
فانك لترى في الخرقين المنفرجين في الصلصال عن عيني الكاهن الشيخ عالمًا من
الأشباح المتحجرة بالآلام .

ولو أن ميماً يُبعث بين الاحياء لما شهدت في أغوار أحداقه نظرة أروع من
هذه النظرة الهادئة المستقرّة .

هنالك أعظم تملأ الربح بينها جاجم كأنّ محاجرها تخرج من أعماقها المظلمة
هذا الفتى اللبناني الجميل العائد بعد فوات الحين الى من توقّعوا قدومه طوال
السنين وهم معلقون أبصارهم المحمومة المرّوعة على آفاق البحر البعيد .

* * *

وما كان جان دبس يعرف من النحت الا ما اوحاه اليه استغراقه في المطالعة
والتفكير ، فاعلنته هذه التماثيل نحّاتاً لا يقف فنه عند حدود القواعد والاصول
بل عبقرها ينزل في الصلصال الجامد روعة الفكر وقوة الحياة .

أطاعت انامله نبضات قلبه الدامى فاذا هي ملهمة تسير فترسم في تاريخ أوطانه
أبلغ صفحاته .

في ذلك الزمن التقينا أنا وجان دبس لنسير في رحلتنا الى بلاد المهاجر ، هو

بتأيمه وانا بعقيدتي واختباري لنحاول إعادة اخواننا الى اوطانهم آمليين ان تقوم
بقسط ولو يسير من الجهود المبذولة لحياتها .

بلغنا نيويورك في اواخر سنة ١٩٢١ وكانت المفاصد التي لاتي تقطع السبيل
على كل مقصد جليل قد سبقتنا اليها فاعتقلتنا ادارة المهاجرة ستة عشر يوماً في جزيرة
(الليس) وعند ما أفرج عنا سُمِّتَ اليها الاربعة عشر تمثالا محطمة في صناديقها .
ليس هنا مقام سرد ما لقيناه سوية من محن . ما كانت هذه الايام
إلا الحجر البصاب شحذت عليه في نفس جان الهمة لمتابعة حلمه في الاحياء والبعث
والتجديد فذهب مفتشاً عن عناصرها في الامجاد العافية على ارض اوطانه . فاذا
ما كانت الدموع التي ذرفها جان ايام محن الحرب العظمى قد اوجدت فيه المثال الشاعر
اولاً ، فان ما شدَّ به الى الفن ثانياً قد كان ظمأ الى النهوض وطموح متغلغل في
الفطرة الموروثة الى الاحياء والتجديد وبهذه العواطف التي تملكَّت الفنان تملك
العقيدة المؤمنين ظهر جان دبس في هندسته خارقاً حجب الغيب فأبدع هذه التحفة
التي استحق من اجلها بكل جدارة إعجاب امرء الفن في العالم .



الكاظمي

شاعر العرب

القيت في الحفلة الكبرى التي اقامتها لذكر الرابطة العربية
في دار الأوبرا الملكية في ١٠ ابريل سنة ١٩٣٦ .

أشيدوا بذكر الكاظمي وعددوا
فكم بيننا في شرقنا من مغرب
يصدع اجواء النفوس بقابل
وما يهتدى الاقوام من رجعة الصدى
فان لم تكن كالكاظمي وصحبه
ويلهمك الشرق الشيخ بقلبه
فلا تدع الاعراب عن روح أمة
غرائزها الوسنى تحف بها رؤى
وما مات من في حلمه وجه ربه
أما كان حول الطور شعب مبدد
فحررهم ، حتى تحررت الدنيا

وسيروا على آثاره لتجدوا
بدا يدعي التجديد وهو مقلد
لكل مذيع معجم يتصد
إذا م تكن من روحهم تتردد
يناشدك المجد القديم فتشدد
الى الملاء الأعلى ينار ويرشد
بلاها فما أختى عليها التبدد
منارها في الطور والبيت توقد
وإن لاح في الأطلال ينفو ويرقد
وفي البيد أقوام تذل وأعبد
بأنوارهم ، موسى وعيسى وأحمد

* * *

منار هذا الشرق ذروا شعاعكم
بعثتم من الشرق القديم بيانه
شهدتم بأن الشرق أدرك نفسه
وأن إله الانبياء جميعهم

فقد طال ليل بالجهالة أريد
وأحييتم أمساً فكان لنا غد
وأن ليس فيه مشرك وموحد
هو الحق روح الكون لا يتعد

لك العلم الخلفاق في الشرق يعقد
سوى طلل يهوي وبرج يهدد
معارض أرواح الى الله تصعد
تبدد أوهام الحياة وتسعد
ومن قم الأهرام للنجم تهد
منزلها في صفحة الدهر جلد
وحشد تناديه السياط فيسجد
فقد ماتت الأرباب تطغي ونحقد
الا أعجب لمعبود يواريه معبد
حضارات أقوام خلوا وتبددوا
نفاها فريق كان لله يجد

* * *

مأذن تدعو للصلاح وترشد
يهيب بانتهاء الحياة ليعبدوا
وصاحت به أحياها ليس يهدد
فما كل محبوب عن العين يفقد
لشارفنا الروح الخفي الخلد
خيال خيل للردى يتوسد
لبحر من الانوار يرغي ويزبد
ووهم يبطن الارض ميت ممدد
ولا الطفل موجود البقا حين يولد

ألا أيها النشء الجديد لي عرب
وما الشرق لولا ما ورثنا ثقافة
ثقافتنا من عهد موسى لأحمد
الا أن سطرأ أنزلت فيه آية
لخير لنا من بعلبك وتدمر
وما هي إلا آي ظلم وذلة
وهل كان قبل الوحي الا غطارس
ليركع لآمون وباعال من يشا
هيا كلها كانت أشد على البقا
فما زهو فرعون وفينيقيا ولا
لتسطو بتفريق على وحدة إذا

بني العرب مات الكاظمي وكم هوت
فما أسكت الصوت المديد على الضحي
فأعان نداء جاش في صدر أمة
قضى شاعر العليا وما ناله الفنا
ولو أن ستر الغيب يهتك لحظة
ولاح لنا الجسم المسجى على الثرى
وما ظاهرات الكون الا تموج
فوهم بصدر المهدي طفل مداعب
فلا الميت مفقود البقاء بموته

* * *

يطوف بها هذا الرعيلُ المبددُ
فأيقظت روح العرب أيَّان توجدُ
تردَّد في أعشاره فتجددُ
قريضك عن زهر به تتوقدُ
إلى كلِّ شطر في قصيدك سيدُ
يباغت منها الفكرَ منا يتصيدُ
وأنت أمام الحقِّ للحقِّ تشهدُ
تعاين فيها الشعرَ أيَّان ترصدُ
لما خطه في أصفريك التجردُ
وأنت بأغلال الحياة مصفدُ
وقد شدَّ فيها كاشحون وحسدُ
بجنيك روح للعلا تتمرّدُ
فما نالها إلا الرداء المقتدُ

سلامٌ على مثواك كعبة وحدة
تخيَّرت مصرًا مفرق الشرق منبرًا
وما مصر إلا قلبهم ودمائهم
لقد كنت تستوحى السماء فينجلي
أنتك القوافي صاغرات يقودها
إلا أن حور الشعر نشوى نوافر
ولمكَّنها دانت لديك فرضتها
فأصبحت الدنيا لديك قصيدة
وتشده به عفواً كأنك قارئ
تعاليت في جوِّ الحقيقة مطلقاً
فما أوقفت مجراك في فلك العلي
وكم راودتك الزائلات فأفلتت
زليخةً دنياك ابتغمتك على الخنا

* * *

يمرّ فيدنو منهم وهو أبعدُ
وليس له في ما أتى جهلهم يدُ
فيضحكهم منه الأبيُّ المجرّدُ
ومجدهم في أن يضحوا ويشردوا
وما الحب إلا الدائم المتجددُ
يسير به لله أيَّان يقصدُ
له الصبح في قلب الدجى فيغرّدُ

ليعجبُ أبناء الزوال بجنالده
يحمّل من دنياه الآم من جنوا
وبيكيه أن الناس في الجهل أغمدوا
يرى مجده في أن يضحّي ويهتدي
يعيش بنور الحب للحب وحده
إذا حلَّ قلباً ساد فيه تشوق
فيما جلال الشاعر الفذ ينجلي

أينَ ذاك الطودُ العزيزُ وهذا
نشر الدهرُ فيه بدعته الكبرى
فاذا النورُ في العقولِ ظلامٌ
أنكر الحاضرُ المفضلُ ماضينا
نحنُ منه كالذوحِ صوحه الر
تسقط الناضجاتُ منه على الار

* * *

جنتُ يا موحشَ القبورِ أناجيك
فكلانا ميتٌ وسيانِ في الدنيا
أدمعي من دموعِ كلِّ شريدٍ
وزفيري زفيرُ كلِّ مقيمٍ
نحنُ من أمةٍ تسود بنيتها
فزوالٌ قبلَ الزوالِ وموتٌ
كنتَ ميتاً عن أرضِ لبنانِ ياعمُ
غبتَ عنه فلاحَ فيك عزيزاً
حملتك الامواجُ غصناً من الأر
فتعاليتَ في الجلالِ صبوراً
وتراميتَ من سما المجدِ صقراً

ونجوى أدمعُ وزفيرُ
شريدٌ وراحلٌ مقبورُ
حملته الى السحيقِ البحورُ
هجرت روحه المنى والحبورُ
غيبه الهجرِ والغيابُ الأخرُ
يسبقُ الموتَ إنَّ ذا لميرُ
وقد دام فيه منك الضميرُ
رُبَّ طيٍّ للمجدِ فيه نشورُ
زكسيراً يفوح منه العبيرُ
علمَ الناسَ كيف يحيا الصبورُ
علمَ الدهرَ كيف تقضي الصقورُ

« ٤ »

جبران

بَحْثٌ فِي كِتَابِ نَعِيمِهِ عَنْهُ

رجال التاريخ وأجناد الفكر - ماهي شخصية جبران - الألهام ومنمكسات
الصور - خطاء نعيمه في استكمال فكرة جبران من وقائع حياته - شكري غانم
في عنقرة - شوقي في قيس - لسان نعيمه في فم جبران - زلات فنية وأخطاء
خطيرة - ماري وميشلين في حياة جبران - الصداقة الزائفة والحب المجرم -
بين تواستوى ونعيمه - تأثير احتضار جبران في نعيمه - بين الاستنتاج الفاسد
والاغتياب - جبران وجميل المملوف - أخادعاً كان جبران أم مخدوعاً - حفظ
العباقره من الحطب - إكليل الورود وإكليل الاشواك - رأى العقاد في جبران -
هل كان نبيته استاذاً لجبران - المدينة السامية والمدينة الآرية - كلمة امير
الريحاني في المدينة العظمى - صوفية جبران وصلاته - جبران النذير وجبران البشير -
الارادة الكلية والارادة الجزئية - نعيمه يحكم بنفسه على ما أورد في رواياته

عرفتُ جبران سنة ١٩٢١ ، أثناء وجودي لمدة سبعة أشهر في الولايات المتحدة ، فالتقينا كأننا على عهد قديم . تعانقنا أخوين ، وتحادثنا ببيان التلميح ، فكانت كل إشارة منه تصريحاً وكان كل إبهام مني لديه قولاً فصيحاً .

وما كنت أعرف من جبران إلا ما مرّ من حياته على بناه إنشأً وتصويراً ، كما أنه جهل مني كل ما لمسني من الحياة في غير رسائله وخطبي .

كنت أعرف أن جبران مهاجر من بشرى إلى بابل القرن العشرين ، التقيته على المنبر ، والتقيته في قاعة عمله الواسعة ، ولولا أنني رأيته مرة في بوسطن إبان مرضه لما عرفت أن له أختاً .

وقد يستغرب البعض إذا قلت إن مقابلاتي العديدة لجبران كانت تمر وكلانا يسبر اقاصي فكر الآخر وأعماق شعوره ، دون أن يخطر لأحدنا أن يتفهّم شيئاً عن حياة رفيقه ومركزه وعلاقاته .

ما كان جبران أممي سوى تتمّة لم تكتب بعد للأجزاء التي كتبت من سفره الملهم . وإنني لا أذكر بين أجمل أيام حياتي وأشدّها إشراقاً ، على ما فيها من حالكات ، تلك الفترات التي قرأت فيها في عيني جبران وعلى شفّيته الباسميتين ما كان سيكتبه في ما بعد من الحكمة والحب في رسالة النبي الخالدة .

رجعت الى لبنان فبارحت جبران وأنا لم أزل معه كما كنت قبل أن التقينته.
ومرّت السنون ، فاذا بجبران يعود الي وطنه مطبق الاجفان محمولا على
الأكف مرفوعاً على زفرات القلوب الي حيث يستقر عزيزاً تحت ظلال أرزه
المشرف على أغوار وادي . ومن يدرى ، لو أن جبران عاد الى لبنان مفتوح
الأحداق ، يمدج من حوله بنظراته الوقادة تستبيح الخفايا في القلوب وتهتك أستار
الرياء والفسائس والمصانعة ، من يدرى ما كان سيلاقي هنالك من السائدين
الذين ثار عليهم ومن المستعبدين الذين الذين بكى بدموعهم وجاع معهم وعمّ جأعون ؟ !
قضى الله للبقية الهامدة أن تكرّم هذا التكريم المكذوب الذي لن ينقلب
الى إجلال صادق إلا بعد مرور الأجيال ، فلندع تلك البقية الساكنة في قبرها الي
أن يصبح هذا القبر مزاراً للابناء والأحفاد . . .

لا أتناول الآن ببحثي الرسالة الأدبية الفنية التي قام بها جبران وقدقت
بهذا الواجب بمحاضرة طويلة أقيمتها في الاسكندرية إثر وفاته وبقصيدة طويلة
استوحيتها روحه عند ما حمل الى بلاده ، فقمالي اليوم إنما هو بحث في حياة هذا
العبقري وقد كنت أجهلها فعرفتها الي كتاب ميخائيل نعيمة .

إن حياة بعض الأشخاص كائنة كلها في حركاتهم وسكناتهم ، فاذا أنت لم
تقرأ ما فعلوا ، كانوا في حكم المعدم لديك وأمام التاريخ . غير أن رجال الفكر ،
وقد أذابوا شخصياتهم على أناملهم وسكبوها نوراً للعقول ورحيقاً للقلوب إنما
يخلدون بهذه الشخصية القائمة على عالم المباديء المجردة عن كل عمل له آثاره في
الوقائع . وما كانت حياة جبران للعالم إلا في الساعات التي أكتب فيها على صفحات
كعبه وألواح رسومه ، وليس ما تبقى إلا أيام رجل هاجر وأحب وتأم ومات غريباً
ككل مهاجر سلخ عن أوطانه فمات مرتين . . .

إنَّ حياة جبران الأدبية والروحية قد كتبها هو ... كتبها كاملة متناسقة ، فاذا هي فصلٌ رائع في سفر الانسانية الحائرة البائكة ، المتألمة الآملة . وليس لأحد أن يضيف الى هذا الفصل سطرأً او يحذف منه سطرأً دون أن يجني على مؤلفه فيشوه الصورة التي أراد الله أن يظهر هذا المؤلف فيها ، أما حياة جبران الشخصية ، حياته كجهاد تقاذه الآلام واللذات ، كرجل له علاقاته بأهله وأصحابه وأحبابه ، فانَّ جبران لم يكتبها ، فهو لم يضع مفكرات عن أيامه ، لأنَّه عاش وراء ما تحدَّ الأيام وما كان رجل كجبران بلغ عالم ما وراء الموت فجألاً في الآباد قبل أن يموت ليقف أمام الحوادث العاذية التي مرَّ بها ومرَّت به مستقيماً منها ما يضيفه الى أوقيانس اللامكان واللازمان الذي كان . دماغه وقلبه يخوضان عبا به ..

إنَّ حياة جبران ، سواءً منها ما قضاه في بشرِّي او في بيروت او في باريس او في العالم الجديد ليست هي التي أوجدت جبران المتجلى لذاته ولنا سطوراً ملؤها الحكمة ورسوماً ملؤها الفن والجلال .

لقد ولد الألو في لبنان وهاجروا وأصيب الألو منهم بالسل الخفي الكامن ، وقراء الألو من الناس حياة وليم بلايك ، واتصلوا برودان ، وتصفحوا الكتب التي قراءها جبران من التوراة والانجيل والقرآن حتى مؤلفات عباقرة الشرق والغرب فما أوجد كل هذا من أحدهم شخصية جبران نفسها .

وليس لنا أن نتساءل ما اذا كان جبران سيتجلى كما تجلينا ولنفسه ، لو ان حياته اتخذت وجهة أخرى من شعاب الحياة ، ليس لنا أن نفترض أن جبران ما كان سيصبح الرسام العبقرى لو لم يتصل برودان وما كان ليكتب النبي لو لم يقراء نييتشه لأنَّ انتهاج مثل هذا السبيل لتحليل القوى الكامنة لضرب من التحرش بالغيب المستور وتخبُّط في دياجر لاسبيل للاسترشاد فيها .

إذا نحن افترضنا أن الحوادث هي التي تسوق العبقرية الكامنة في الذات الى الاتجاه نحو الاعتلاء أو الاسفاف ، فهل للمفكر أن يتصور إمكان تحويل هذه الحوادث ليستنتج تعديلاً مفترضاً للعبقرية نفسها ؟

أين تبتدىء العواهل المهيئة في الذات وأين تنتهى لتبداء منها الاسباب الباعثة لها على الظهور ؟ .. إن العبقرية قوة كاملة بنفسها لا يقدر صاحبها نفسه أن يحللها ، فكيف يتسنى لمن يريد سبر أغوارها أن يشطرها شطرين ليعرف الجزء الذى استصعبه العبقرى من الأزل والجزء الذى طرأ عليها من الحوادث ومن شخصيات الآخرين ليعثها على الظهور ؟

من له أن يضع الحد الفاصل بين الألهام الداخلى وبين منعكسات الصور من الآفاق ؟ ..

من العبث أن نفتش في حياة أبطال الفكر عن منشاء عبقرتهم وعمما نظن أنه كان الباعث على ظهورها ملقياً عليها تعديلاً خاصاً من طبيعته من درس بامعان حياة افذاذ الدنيا إنما يقف مندهشاً من التناقض الذى يتجلى غالباً بين بيناتهم وبين نتاج افكارهم . فكم من باك يضحكك وكم ضاحكك يبكيك .

كم من شاعر تشعُّ قصائده بالأ نوار وقد ألهمها وهو في غياهب السجون !
وكم كاتب سكن القصور وجرَّ برود العز يربط على قلبك بانشائه فيزج بك في سراديب البؤس ويذيقك من خياله أمر ما يتجرع الاشقياء في الحياة ! ..

ما كان نعيمه إذاً ليقصد بالاستعراض ما يقول إنه عن حياة جبران أن يحلل مذاهب هذا العبقرى او أن يأتينا بتفسير لتأليفه ورسومه . ومن قراء كتاب نعيمه لا يجد فيه ما يزيد عاملاً بشخصية جبران الروحية والأدبية التى تتجلى واضحة في آثارة . فها هذا الكتاب الأ قصة حياة جبران المادية او بتعبير أوفى رسوم

لجانبي الطريق التي قطعها جبران من سريره الى قبره. ومثل هذه القصة لها شأنها في نظر اصدقاء الفقيده بل في نظر الأُنسال الأتية التي ستصل آثاره اليها. ولو أن نعيمه وقف عند حد تصوير هذه المشاهد دون أن يحاول إدغام أكثر خطوطها في الخطوط الروحية الأدبية التي رسم جبران نفسه من إشرافها وقتامها، اذن لكان آمن العثار في تحفته الأدبية التي تعد بحق من روائع الانشاء العربي في هذا العصر.

ولسكن نعيمه أراد أن يستعير من جبران الرجل ما يكمل به جبران المفكر فلم يوفق الى قصده، وليس لأحد ان يبلغ مثل هذا القصد حتى في درس نفسه فكيف به وهو يرسل مجسسه الى أقصى سريرة غيره.

قال نعيمه في مقدمته إنه أراد أن يصور من جبران صراعه المستتب مع نفسه لينقيها من كل شائبه ويجعلها جميلة كالجمال الذي لمح به بخياله وبثه بسخاء في رسومه وسطوره.

إن الصراع مع النفس إنما هو العمل السكامن في السريرة، وقد عرفه النبي الكريم بأنه الجهاد الاكبر تقوم به الأُنفس في سبيلها نحو ربها. ومن من أبناء هذه الحياة يمكنه أن يهتك الأستار عن موضع السر في أخيه ليرى هذا الصراع الخفي الذي لا يعلمه غير الله؟ ...

قرأت كتاب نعيمه معجباً بأسلوبه الرائع في إيراد الحوادث التي مرّ بها جبران منذ ولادته حتى موته فأن القاريء ليجد نفسه وهو يطالع هذه الصفحات أمام مشاهد لا يقدر على رسمها بمثل هذا الجلاء وهذه الألوان الأ قلم العبقرى الوثاب المتدفق حكمة وفناً.

ولاكني ، كما صدمني من هذه الصفحات كلام يعزى له المؤلف الى جبران في مخاطبته الناس أو متاجاته ضميره ، كنت أشعر بشورة في نفسي فأمد أناملني لأقبض على السطور والحروف أقتلعها كأنها اعشاب غريبة القت بذورها الرياح الهوجاء في هذه الحقول الزاهية بالازهار الأصيلة فيها .

إن ما قد يكون جبران فكّر فيه ، وما يفترض افتراضاً أنه قاله للآخرين لا يمكن للمطالع أن يقبل به كما أنه حق ، إذا لم يكن مكتوباً بقلم جبران نفسه . فإن الطريقة الروائية اذا صحت في الاساطير والأقاصيص عن أشخاص مجهولين او مختلقين اختلاقاً ، فأنها لا تصح مطلقاً في سرد الوقائع عن رجل معروف ملك البيان بأطرافه وليس لسواه أن يتوّلّى الكلام عنه في أي موقف من مواقفه تجاه ربّه او تجاه نفسه او تجاه أي كان .

اهل العسديق نعيمه وهو يريد تخليد صورة حية كاملة لجبران ، تخير هذه الطريقة مأخوذاً بأسلوب كبار الروائيين فأتانا بالكثير ممّا أتى به فيكتور هوغو في فصل عاصفة في جمجمة من كتاب البائسين ... غير أن المؤلف فاته أن جان فالجان إنما هو خليفة واضع الرواية ، فكان له أن يبدع ضميره كما أبداع شخصه ، في حين أن جبران خليفة الله وليس لأحد أن يتصرف بضميره ويضع في سراره الروح التي يختارها له .

منذ خمس عشرة سنة ، مررت بباريس وتسنّى لي أن أقابل فيها صديقي ونسيدي المرحوم شكري غانم ، الشاعر اللبناني العبقري المشهور ، فدعاني لشرفته الخاصة في الأوبرا لحضور تمثيل روايته (عنزة بن شداد) .

شهدت الرواية وأنا الى قرب مؤلفها وكنت استصحبت معي نسخة منها لاتلوها بينما يتغنّى الممثلون بأشعارها فما فاتني معنى من معانيها . ومضت السهرة

وعليّة القوم من الفرنسيس يصفّقون للأشعار الرائعة التي كان ينشدها عنتره العبسي بلغتهم وبنبرات ألحانهم، وقد أكرهت لأشارك القوم بأعجابهم على أن أحمو من حافظتي كل ما أعرفه عن عنتره وكل ما احفظ من أشعاره. ولكن عند نهاية التمثيل لم أملك نفسي من مصارحة شكري غانم فقلت له.

إن ما استحقه عنتره من إعجاب القوم إنما حقّ لك جلاله إن لم أقلّ كله .
فاستغرب الشاعر وطلب الايضاح فقلت .

— إنك نفخت روح شكري غانم في هيكل عنتره ، بل انتزعت العبقرية العربية منه لتحشوه بعبقرية الفرنسيس . ولو أن عنتره لم يكن الشاعر الذي نعلم ولو أنه لم يترك للأدب العالمي من إلهام الصحراء ما صورّ فيه جميع وقائمه ، لكان هنالك ما يبرر إمداده بروائع خيالك . ولكن عنتره ملاء التاريخ شعراً وانت لم تأخذ بيتاً من أبيانه أو معنى من معانيه ...

أبتسم شكري ابتسامة لم يكن فيها شيء من المكابرة وسكت ...

ومرت الايام والسنون ، فاذا بشوقي يجود على الأدب العربي الحديث برواية «مجنون ليلى» وإذا به يرتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبه غانم في رواية عنتره . بعث شوقي مجنون ليلى الخالد بأشعاره المتدفقة روعة في سداجتها وأنفاسها الحرّى ، فاذا المجنون بأطواره ولفتاته المشتعلة بمجنون الحب العذريّ يحمل في صدره قلب شوقي وعلى لسانه بيان شوقي ...

خطر مجنون بني عامر على المسرح في القرن العشرين ، فلم نسمع منه سوى أربعة أبيات من الاشعار التي كوّنّت شخصيته الفتانة في الادب العالمي فكانت هذه الابيات الزفرة الوحيدة التي أجاز أمير الشعراء لأمير العاشقين أن يزفر

بها من صميم جنونه ، وقد يكون جنون أمير العاشقين أسنى وأروع من أن يطاوله تجن أمير الشعراء

* * *

وهذا كتاب نعيمه في جبران ، أقلب صفحاته فيذكرني بغانم المتعتر وشوقى المتقيس ، .

إننا ، معاشر الكتاب والشعراء ، كثيراً ما تطغو علينا موجات الإلهام عندما نتصل بمستودع الفكر العام ما وراء الحس الواعي ، فيخيل لنا أن كل ما نشاهده منعكساً على صرايانا من أصول الأشياء إنما يتجلى بالصورة نفسها على صرايا الآخرين . وهكذا نستبيح لنفسنا أن نعير سوانا معاكس استعدادنا وفطرتنا فنشعرهم شعورنا وننطقهم ببياننا .

وما أرى ميخائيل نعيمه إلا مأخوذاً بهذه القوة في إلهامه عندما اراد ان يبعث جبران من قبره لينشره كاملاً بما ظهر منه وما اختفى على صفحات كتابه .

ويقيني ان المؤلف ، بعد ان طرح قلمه ، قاطعاً اتصاله بعالم الإلهام الخفي وقف أمام ما كتب وقفة الحائر المتردد ، وهذه خواطره في مقدمته تلوح لنا كوميض تتلاعب غيوم الشك فيه . فهو يقف بين الاحجام والاقدام متردداً في نشر ما كتب عن عبقرى كان من أقرب الناس اليه .

ولو أن ميخائيل لم يدون عن صديقه إلا ما رأى وما سمع ، ولو أنه لم يجربك حول ما يعلم مطارف واسعة من خياله ، لما كان من موجب لهذه الحيرة وهذا التردد إن ميخائيل ، وهو القائل في مقدمته «ان في حياة كل انسان أسراراً يكتمها عن الناس ، وانا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتني منها الكثير » قد أقدم كما يتضح لنا من قصته التي لا تترك للقاريء زاوية مظلمة يرتد عنها ، على

تكميل ما وقف عليه مستقيماً ما فاته من تقديره واستنتاجه ، وهذا هو سرّ تردد
الكاتب وحيرته ، ولعل ما سنبعث فيه من هذه المكملات يؤيد اعتقادنا امام القراء
بل وامام المؤلف نفسه .

* * *

يأخذ ميخائيل بيد جبران ليمشي معه في كتابه منذ كان جبران في الخامسة
والاربعة أشهر من عمره ، فاذا امامنا صورة عن حلم رآه الولد الصغير جبران
(تنتصب فيه أكمة الصليب وكرسى الرب بلحيته العظيمة البيضاء والنار التي
ينفخها هذا الرب ليصبها على اليهود) الى آخر ما هنالك من أضغاث أحلام
لو فرضنا أن جبران كان رهاً لما كان سيذكرها ليقصها على صديقه بعد
كرور السنين .

ولو كان المؤلف اكتفى بسرد حكاية هرب جبران الى الحقول ليقتطف الازهار
ويعود بها مفتشاً بين القبور على قبر المسيح ليضعها عليه لكان يقال ان المؤلف
يقصّ حادثاً واقعياً نقله عن تذكارات جبران من حديث أمه ، ولكن المؤلف
ذكر الحلم مقدمة للرواية فأتى بما لا يقره عليه النظر النقّاد وجاء مشوهاً لما أمكن
وقوعه من هرب جبران الى الحقول يوم الجمعة العظيمة ولهذا الهرب معناه العميق
في درس نفسية العبقري وهي تتأثر في طفولته للحق والجمال وتقتحم الصعاب في
سبيل تمجيدهما .

أوردنا هذا المثل من أول واقعة بدأ المؤلف بتدوين حياة جبران بها لأنها
الخطوة الاولى التي ذهب منها قلم ميخائيل على سبيل الایجاد آخذاً بالساليب
الاساطير في حين أنه يعلن في مقدمته « إنه اندفع الى تدوين حياة جبران على

حقيقتها لانه عندما عاد الى الشرق بعد عام لوفاة جبران وجد صديقه يكاد يكون
أسطورة من الأساطير فليس هو جبران الذي رافقه ١٥ سنة وخبره الخ «
ولو أن المؤلف وقف في اسلوبه الروائي عند الأمور التي تخرج على الفن كما
فعل في اختلاق حلم جبران ، لما كان هنالك ما يستوجب النقد الا من الوجهة
الفنية ؛ ولكن ميخائيل بعد أن خطا هذه الخطوة العاترة في ميدان لا خطر فيه ،
سار الى المرتفعات والمهاوى في حياة صديقه فلم يأمن الاتزلاق على منحدر الجروف
والاصطدام بقاسيات الصخور وهو يتأبط ذراع جبران فيُدمي يديه ورجليه
ويحطم أضلاعه ...

وها نحن نمرُّ على المآذق التي سار بها المؤلف بمن أراد تدوين حياته .
(صفحة ٣٠) يقول جبران لأمه . — مالك ولأبي وأخوتي عندك
جبران وكفى)

ما كان جبران ليقول هذا ، بل إنه كان ليدافع عن أبيه واخوته ، ولا يتحفظ
ليحتلّ مكانهم من قلب أمه .
(صفحة ٣١) يقول نعيمه بلسان جبران الولد . — ومع من أعب ؟ مع أولاد
الصينيين أم الارلنديين أم السوريين ؟ ... ما أكثر السفهاء بينهم ؛ يا أمي
حتى بين البنات ...)

أنفس هذا الطفل الذي يحتقر أبناء جنسه هي نفس العبقري التي اشتملت
بجهم فارتفعت نوراً لهدايتهم ؟

(صفحة ٣٣) يقول جبران وهو ابن ١٤ سنة للسيدة التي كانت تراوده ، وهو
يتكلم عن الفن . — لا تكتمل الصورة حتى بعد أن يتركها المصور ، نحن لانصور
الا بدايات او مقدمات ، اما الصورة الكاملة فلا يُبدعها الا الله .)

لقد يكون جبران قال هذا بعد سنوات من ذلك الزمن ، فإن الفتى العاشق
الفنّ الطامح الى تصوير الكمال لا يبداء بأدراك مثل هذه الحكمة اليأسية وهي دليل
النضوج وأدراك القصور ، ومن علم أنه لا يعلم فهو في آخر شوط الفن
لا في أوله .

(صفحة ٤٠ وما يليها .) في هذه الصفحات حكاية الأمر بكيفية الحسنة التي
أغوت جبران فغوى ، وليت الكاتب لم يوردها بهذا الأسلوب القصصي ، بل
ليته ، وهو يقصّ وقف على الأقل عند حد ما يمكن أن يكون صديقه قصته عليه
منها ، وإن تكن مثل هذه الرواية التي تقع لكل شاب تقريباً مما لا يصح أن
يُنقل ، ولكن ميخائيل وقف يتكلم بصوت ضمير جبران فيقيس ويرجح
وينازع ، واليك مثالا من هذا التخبط في تقدير الأمور ومن التناقض في التصوير
اقراء في صفحة ٤٢ ما يأتي .

(مرّة عام مزدحم بالزيارات الى البيت السريّ ، بيت الأيركية التي يدعوها
الملاك الحارس ، فقد ظن جبران في بادئ الأمر عندما قطف الثمرة المحرّمة
أن بإمكانه أن يأكل حلالها دون حرامها وان يتدّوق حلاوتها دون مراريتها ، ولعله
لم يفكر في حلاوتها وفي حرامها على الإطلاق)

قف هنا وارجع الى الصفحة ٤٠ حيث يصوّر المؤلف جبران خارجاً من
بيت ملاكه التي سلبت عفاة (وكان كل قطرة من دمه تحولت الى حجرة ملتبهة
وهو لا يدري كيف يهرب منها وبماذا يبرّدها . لكنه ما مشى بضع خطوات في
الشارع حتى تحوّل اللهب في داخله الى قشعريرة اشتمزاز وندم وراح يؤنّب نفسه
تأنيباً موجعاً وتذكّر كلمات أمه وقانا الله ساعة التجربة)

نسى المؤلف هذا بعد كتابة صفحتين فقط فقال ما قاله ، ثم زاد على ذلك

« فازداد جبران تعلقاً بالثمرة المحرّمة واعتقاداً بأن المرارة ليست فيها بل في الذين حرّموها »

وتمرّ الأيام فاذا نحن في سنة ١٩٠٢ واذا جبران في باريس عائداً من بيروت حيث درس أربع سنوات في مدرسة الحكمة ، فمن الصفحة ٤٦ الى الصفحة ٥٠ حديث طويل لجبران عن نفسه وعن وطنه وغرامه ، ولا أعلم لماذا يتمسك المؤلف بهذه الطريقة ، فهو لا ينفك عن إسماعنا صوت جبران ، فهلا كان اصلح له ولنا أن نسمعا صوته هو متكليماً عن صديقه فلا ينفحه بكل هذه الافكار التي قد لا تكون مرّت بخاطره !

اسمع بعد ذلك جبران يرثى أخته سلطانة ، بعد عودته الى بوسطن
صفحة ٥١

(لست أبكي سلطانة ، وإنما أبكي الله ، فقد مات الله إذ ماتت سلطانة ، وقد نهشت رثيته مكروبات السل مثماً نهشت رثيتها ، وما ذاك غير الحق لأن من يميت بالسل بالسل يمت كما يؤخذ بالسيف من أخذ بالسيف ، لقد كان لي رب وكان مصدوراً .. الخ ..)

وعلى هذا النمط يقبض ميخائيل على عنق جبران فيكرهه على إلقاء خطاب طويل عن مصائبه وعن الله وعن الحياة فيلوح لك أنك أمام رجل أصابه الخبل يورد لك الفلسفة والأيمان والجحود والحكمة والجنون متداخله متراكبة حتى يصل بك الى نتيجة غريبة وهو يسأل عن أسباب الداهية الدهماء التي حلت بأسرته ، داهية السل ، الداء القتال الذي لا يرحم .

اسمع جبران يقول مُكرهاً

(لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ..) ، لأنك دنت روك بالفسق وبالغش وبالكذب

يا جبران ، لانك أستدفتَ فراش الشهوات وهو بارد ... الخ ..
(لأنك خاطيء ، يا جبران ؛ وهل يحازي الله الأم بخطيئة ابنها ؟ ..
والأخ والأخت بذنب أخيهما ؟ .. وما هي الخطيئة ؟ .. الخ ..)
أليس هذا هو الكفر بعينه ؟ ...

وهل كان جبران لينطق بمثل هذا ؟ بل هل كان جبران لينظر الى القضاء
عابساً بوجهه منزلاً به وبأهل بيته النوازل لانه وقع في شرك امرأة كما يقع
ملايين المراهقين على وجه هذه الارض ؟
لقد أسرف المؤلف كثيراً بالشتائم يرسلها الى جبران من فم جبران : الدنس
الفسق ، الغش ، والكذب ..

جميعهم أخطأوا ، وأعوزتهم رحمة الله .

إن من يدين نفسه هذه الدينونة الصارمة ، لا يئمت ربه بالسل لان هذا
الرب قد أمات أخته مسلولة ..

ثم أفما كان السل مقدوراً كما مناً في صدر الأخت والأخ ، وحتى في رثتي
جبران نفسه ، فهل اعتقد هذا العبقرى ولو لحظة أن سقوطه في فخاخ الامركية
وهو يافع ضعيف قد أثار جرائم الداء الفتاك دافعاً به الى الماضى البعيد ليحتل
صدور أسرته جميعها ؟ ..

ان هذه الصورة لجبران يرى السماء تتفجّر انتقاماً عليه لجرد سقوطه
في فخ لم ينبج منه الا النذر اليسير من المراهقين لا تتفق بوجهه من الوجوه
والصورة التي رسمها له وهو يعبت دون مبالاة بعرض عذراء وحياة جنين كما سنراه
في حادثة ميشيلين ...

لنقلب الصفحات أيضاً ...

« صفحات ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ الخ . » جبران يتكلم ، يتكلم دائماً ، مع أخته ومع العالم المجهول ومع نفسه ومع فنّه ، حتى الحوادث والوقائع نفسها ترد بشكل مناجاة جبران لذاته ، بل أنك لتشهد جبران يتكلم في قلبه (صفحة ٦٤ ، هنا قال جبران في قلبه ، ما أكثرهم — عشاق الفن في هذه البلاد وما أكذبهم)
ومن هذه الصفحة تبدأ معرفة جبران بماري هاسكل التي لعبت في حياته دورها الكبير والتي تعرّف جبران في مدرستها وبواستطها الي ميشلين ، وميشلين هي بنت القصيد من حياة جبران الخصوصية .

أمام ميشلين ، يُنطق المؤلفُ جبران بأحكام تتناول أصول الأشياء بتعايير يقول هذا المؤلف نفسه عنها إنها بهيجة الالوان عذبة الرنين ولكنها ثقيلة الوزن شديدة الغموض . (صفحة ٧١) فكان المؤلف نسي أنه هو الذي يأتي من عنده بهذا الانشاء المقعر وهذه النظريات الغامضة وأكثرها متعاكس متناقض ليضعها بالرغم من جبران في فمه ويسحبها سحباً من دماغه وقلبه . وما رأيت من قبل مؤلفاً ينشئ الصفحات بقلمه ثم ينقلب عليها ليصفها بمثل هذا الوصف وينقدها مثل هذا النقد ...

إن المؤلف يعترف لجبران بالعبقرية ويخشع أمام بيانه وسمو أفكاره ؛ فكان من واجبه ، وقد رأى ان يتكلم بلسانه ، أن ينفحه على الاقل بخير ما عنده من فكر وتعبير ، لا ان يعزوا اليه مثل هذه الاقوال التي يعتمدها هو سخيفة غامضة .. وأنساء نعتقد أن ميخائيل ما كان ليقتصر في هذا المصمار ، وهو المنشئ الصفحات الرائعة في كتابه كالصفحات التي وصف فيها احتضار جبران والمدنيّة ومساوئها ، فجاءت من أبداع ما ينشئ كاتب وهي تتمشى بلا قصور الى جنب طرائف جبران وبدائعه .

لندع كل هذا جانباً الآن ، إن ما رأينا من الأخطاء فيما كتب نعيمه عن جبران حتى تناول قصة ميشلين ، إنما هي أخطاء الخيال الجامح وزلات الفن وقد ضلّ بالخطوة الاولى التي خرج منها ، ولنقف الآن أمام ميشلين ، تلك النعجة المسكينة التي يقف جبران منها في كتاب نعيمه وقفة الذئب المقترس . . .

وقبل أن نبدأ بتحليل هذه الواقعة نحيل من لديه كتاب نعيمه الى الصفحات ٧٣ وما يليها ليقراً بامعان وصف المؤلف لهذه الفتاة الحسنة ، ولمن ليس لديه الكتاب ننقل الفقرات التي يجب الا تفوت القارئ من هذا الوصف .

ميشلين . في شعرها الأسود لمعان يأسر العين ويكهرب اليدين الي حدّ ان الناظر ، لولا قوانين الحشمة واللباقة ، لما تمالك من لمسه وتمسيده . . . وفي عينيها العسليتين كذا . . . وفي ضحكها كذا . . .

ثم يصف المؤلف صوتها ، ثم مشيتها فيقول « كأن في رجليها أجنحة . . . » وبعد ذلك يدفع بقلمه التي تصوير صفاتها الادبية فاذا أنت من هذا الوصف أمام ملاك كريم ، كله لطف ورقة وجمال ودعة ، وكله بخاسة صيانة وأنفة وعفاف . . .

هذه هي ميشلين التي أغواها جبران ، هذه هي الغادة العذراء التي احترق بنار جمالها وكلها فاحرقها بنار شهواته وعيوبه . . .

واليك مثالا من الأشراك الروحية التي كان جبران ، على قول نعيمه وذمته ، يمدّها لعفاف ميشلين وطهرها ،

أنت لا تعرفين من أنت ، يا ميشلين ، أما أنا فأعرف ، لقد عرفتك قبل أن ولدتك أمك ، لقد كنت شوقاً هاجعاً في أعماق كياني قبل أن صرت كلمة مرتعشة بين شفطي الحياة ، وقد كنت حياة في عروقي قبل أن مشيت دماً سخيناً في مفاصل

الارض !! .. وهكذا» الى أنت بقول.

(منذ ولدت ، وأنا افتش عنك الخ ...

فتقول ميشلين ، لقد اقرنت برفيقتك أمام الله ، فنتى تقترن بها أمام الناس..؟
ويبدأ الحوار بين جبران والفتاة التي انتزع منها عفاها وصيرها امرأة
وصيرها أمماً ... فيثور الرجل الذي يقول نعيمه إنه جبران ثورة كلها كفر
وجنون ، فيقول إنه يكره الناس ويраهم « كالدجاج التي تفتش على الديدان
والاقدار ... ولا يتورع هذا الغاوى المعتدى على قدس اقداس الانسانية من
أن يقول لضحيته:

أنت منهم ... ، أنت كذلك أبنة الديدان والاكفان .. وأنا كالنسر لا
ارضى غير الفضاء ميداناً ولا أطيق ان أشرف على الحيادة إلا من القمم العالية
فسبحان من جمع بين النسر والدجاجة)

وأسمع الآن كيف يصف نعيمه صديقه جبران بلسان ميشلين .
(اذاً ، انا غداً لجسمك لا اكثر ولا أقل ، انا مطية لشهواتك ، انا العوبة
في يديك ، وحبنا ليس الا فرخ دجاجة ...

الى ان تقول (واقول لك انني اخشى شاهداً ما يزال « جنيننا » أن يفضح
أمرنا ، فتجيبني ... الناس ... ثم تأمرني ان اكتم السر عن كل الناس وبالاخص عن
رئيسة المدرسة . وان أقضي على الشاهد قبل ان يحسن الشهادة)

بعد هذا يعود جبران الى المراوغة ، ثم يكرر امره بقتل ابنه قائلاً .
أما المسألة الأخرى فتدبرها بحكمتك قبل فوات الاوان ، ثم يعود الى
التكلم عن فلسفة الحياة والتقمص ورواية يريد وضعها عن الحب الخالد ورماد
الاجيال والنار الخالدة .

وهنا ينزل المؤلف الستار ليرفعه على مشهد آخر يقف فيه جبران أمام ماري هاسكل فتري الرجل يتحدث الى هذه العانس فيمزج عاطفته نحوها بفلسفة التناسخ وتعارف الارواح فتذهب هي معه الى حيث يريد إيقافها من الرضوخ لتأثيره ليقول لها .

(ها انا اتحدث اليك في كل بارقة ألمحها بين روحى وكأني اتحدث الى نفسى .

انا غريب فى هذا العالم يا ماري لكننى لست غريباً عنك ولا أنت غريبة عنى .
وهكذا يقول لنا المؤلف إن جبران وجد شقيقة روحه فى روح ماري وهو يعلم انها أكبر منه بعشر سنوات ويعلم فوق هذا انها محرومة من الجمال ومن فتنة الجنس ، واذا نحن أخذنا بوصف المؤلف لماري لتمثلها امرأة مشوهة الخلق لا حواجب ولا أهداب لها مستطيلة الانف يبدأ فيها من متوسط خدها الأيمن لينتهى عند متوسط الخد الأيسر وهو منفرج عن لثمين تركبت فيها أسنان مترابكة فلجأ ، صدرها ضيق وكتفاها عاليتان تمتد منها زراعان طويلتان تنتهيان بكفين طولهما ضعف عرضها ، ركبت فيها أنامل عظمها أوفر من لحمها ، فهل يجد القارئ مناصباً بعد هذا الوصف من ان يقول - أعوذ بالله رب الفلق ..)

على أن نعيمه لم يفته وصف هذه المخلوقة العجيبة او المسخ المخوف بخير ما ما يتصف به انسان من الاخلاق العالية والمقدرة والذكاء .

لنقف عند هذا الحد الان من تحليل علاقة جبران بماري ولنقل فقط ان هذه المحادثة التى يرويها نعيمه انتهت بأن تعهدت ماري بجعل شهري لجبران قدره ٧٥ دولاراً وفوقها مصاريف السفر ليذهب الى باريس لتسابعة دروسه الفنية .

وقد ختم المؤلف هذا الفصل هكذا .

(ماري ... ماري ... ، وكاد لسان جبران يزلّ فيقول ميشلين . ميشلين . . .
لقد أتعت قلبي حتى الفيضان فلتكن دموعي جواباً لك)

وبكى جبران وكانت دموعه تقول يا ليت روح ماري في جسم ميشلين
مسكينة ميشلين وهل كانت روحها اقلّ جمالا من روح ماري . ؟
والمؤلف نفسه يصفها بأرقّ الأخلق وأرقاها ، واليك بعض ما قاله عنها .

(اذا عطفت على طفل فبكل ما في كيانها من عطف دون أن تسأل ماذا
كان يتيماً أو غير يتيم ، فقيراً أو غنياً . الواجب عندها مالا تطيق القعود عنه والحق
ما يستريح اليه قلبها بكليته ، والحرام ما أنفت عاطفتها التدنس به ، تكره الأم لها
ولسواها واذا امكتها أن تخفف من ألم جارتها او جارها لا تنهون لحظة ، وأن كلفها
ذلك ألماً .)

الى أن يقول .

لكنها ابدأ متحفظة حريصة لا كبرياء فيها ولا ادعاء ، والذي يحسبه
الناظر فيها كبرياء ليس الأدرعاً تصون به عفة جمالها من رجاسة الشنعاء
ووقاحة البلداء .

نحن لانعرف ماري ولا نعرف ميشلين ولكن اذا كانت ميشلين على ما
وصفها نعيمه خلقاً وخالقاً ، فاي عذر لجبران في طلبه استكمال الكامل في العادة
الحسنة من صفات يهفو اليها في العانس الشمطاء ؟ .

فهل يريد المؤلف أن نعتقد أن جبران كان فاسد الذوق الى هذا الحد أم
هو يريد إيقافه أمام الناس موقفاً يحكمون عليه فيه بأنه اسفنتل مال ماري

بتمجيد فكرها ودغدغة أميالها على ما فيها من كراهة، وأستغلَّ جمال ميشلين
لشهوته غير مشعر بالصفات الأديمة التي وصفها نعيمه بها، وتلك صفات لا ترى
بعدها زيادة لمستزيد من ساميات الأخلاق.

وصلنا الى الصفحة ٨٥، فاذا جبران في باريس، اقرأوا من هذه الصفحة الى
آخر الفصل، فهناك عشر صفحات يستعرض جبران فيها ماضيه، فيتكلم...
ثم يتكلم ولا ينقطع عن الكلام.

ليأخذ من يشاء ما يشاء من هذه الصفحات، اما نحن فأننا نراها تمرّ
أمامنا كأحدى ليالى العواصف في الربيع. نجوم وكواكب وظلام دامس
وعصف رياح وشميم رياحين وأزهار، ولفحات قرّ، وقد خر جنا منها بهذه
العبارة نقلها هنا لأن المؤلف يأتي فيها بتعيين صريح للحبين الذين اوقف
جبران بينهما ذلك الموقف المضطرب.

(عجباً تلمسني ميشلين فأتهب بنار لا أبلى من الجحيم هي أم من النعيم
والمسك، يامارى، فتهدأ كل لواعجي الارضية وتضطرم نيران أشواقى التي لا
تستوطن الارض.)

ليس فى الأرض حبُّ ناره من الجحيم، إلاّ الحب الذى يمسخه الانسان
بالخداع والرياء وما يمدح العاشقُ الفاسدُ الأ نفسه، لو يعلم العاشقون الفاسقون...

من الصفحة ٩٧ يتعرّف جبران الى جبار الفن رودان وذلك سنة ١٩٠٨
فيتعرّف الى وليم بلايك
وفى هذه المرحلة يصمّم جبران على اتخاذه ماري زوجة شرعية له وبينما هو

يفكر في حياته ، اذا بميشلين تدخل عليه فجاءة في غرفته فتقول له .
- لقد أمرتني فأطعت ناديتني من وراء المحيط فليت ، فأنت كما ترى لا
ترال صاحب سلطان على يا خليل .

وهنا يدور حديث خلاصته أن ميشلين تهرع الى حبيبها لتعيش واياه زوجين
تربطها رابطة الناموس فيتمرد جبران عليها مدعيًا أن رجل الفن لا يرضخ
لشرائع الناس ثم يداجي فيقول إن أقربه الذين ينفقون عليه يقطعون المدد اذا
هو تزوج ، واذا تلمح له ميشلين بأن من يعنى إنما هم عبارة عن ماري هاسكل
يعود جبران فيدعو ميشلين لتعيش معه خلية ، ولكن ميشلين تقول له
أنا قانعة بأن اكون الحصيد تحت رجلك ، والغبار على حذائك ، ...
ولكن لا تسلمني أن أكون خليلتك .

وعبثًا يحاول جبران أن يقنعها بنظريات يوردها المؤلف عن لسانه وهي
أفطع ما يتلفظ به رجل من المكابرة على الحق ومن احقار الله والناس ، فتقف
ميشلين قاذفة غاويها بأشدها تقذف به ابنة حواء ابن آدم ... وتولى الأدبار
لتذهب شاردة في فضاء الله .

جبران ! ، أخي ، استمعك ، وأنت المحرر من القيود التي لا تزال تقبل علينا ؟
أن أدعوك بما كنت تدعوني به في الحياة ، فإن الموت لا يحو الأخطاء من
الارواح بل يزيد جلاءً وجلالاً ، وان الموت يجعلك أقرب الى من أحبوك
أحب الجم لأنهم لم يحبوا فيك سوى اللمحات المنعكسة على مرآة عبقريتك من سناء
الحق الذي صدرت عنه ورجعت اليه .

جبران ، أخي ، أصحيح انك فعلت ما يرويه صديقك الحميم عنك . فتركت

مَنْ جَاءَ اليك لتدعوك الى إتمام واجبك تخرج من بابك هاربة فازعة الى الضلال منك ، حاملة في دمها قطرات دمك وفي أنفاسها لهات أنفاسك ؟ موسومة بميسمك الذي لا يمحو طابعه إلا الموت من جسمها ، تركتها هكذا تذهب بتوقيعك على صفحتها البيضاء ليكتب الغواة على هذه الصفحة ما يشاؤون تركتها لتحمل منك الشيء الكثير ، ومن يدرى الى أى ماخور ستحملة لتدنسك بتدنيس ذاتها . أصحيح انك تركتها ، وبدلاً من أن تلحق بها لتقف دونها ودون الاتحار ، وفي الحياة اتحارات أشد فظاعة من قتل الجسوم ، ارتميت على فراشك تنتحب كالأطفال يحطمون ألعابهم وهم عاجزون عن تصليحها فإرايت من وسيلة لإصلاح نفسك إلا بالانطراح على فراشك باكياً لتقول في زفرائك .
(هي النهاية ... هي النهاية ... لقد نحرت حبّك على مذبح شهوتك ،
يا جبران . أنك مصاب بداء الكلام ، يا جبران ، ولأنك نخجل من كل ما فيك من ضعف بشريّ تعكف عليه فتستره بحلة الكلام الجميل والألوان البهجة ، والكلام الجميل لا يرفع الشناعة الى مستوى الجمال ، والألوان الجميلة لاتصنغ الضعف قوة ، وقولك الحبّ هو الله لا يجعل الشهوة الجسدية إلهاً ولا اللذة الحيوانية ناموس حياة) .

أصحيح انك رأيت جرمك ماثلاً أمامك بهذه الصورة المخوفة ، ولم تتحرّك لرد ما سلبته الفتاة المسكينة ونفسك الأشد مسكنة ... ؟

لقد صورك صديقك وأنت خارج من بيت ملاكك الحارس ، أو ملاكك المضلل ، متعثراً بزنتك ، مردداً قول أمك (وقانا الله ساعة التجربة) يشور ضميرك عليك فتحسب أنك أتيت أعظم جرم ، في حين كنت ضحية لشهوة امرأة لا مضحياً لعفاف عذراء ، فإن مات هذا الضمير منذ كنت في الرابعة عشرة

من سنينك ،.... فهل كنت دفنته في الصفحات التي نشرتها بين الناس لتدعوهم
الى احترام الحق وتقديس الطهارة والعفاف .

ما هكذا يجبك الكتاب حوادث رواياتهم ، يا مدينا ؟
أما وأنت الكاتب العبقرى الذى نعرف ، أما وأنت المشبع من آداب الامم
وبخاصة من الادب الرومى القديم ، هلا كنت ذكرت رواية « البعث » لتولستوى
وأنت تضع روايتك عن جبران ...

أن تولستوى اعترف من قلب الحياة او من صميم خياله حادثة الضابط الذى
اغوى الفتاة الخادم ، القرويه الساذجة ، فعبث بعفافها وترك في احشائها جرثومة
الحياة ، ثم دعاه نفيير الحرب فسار ناسياً ما ارتكب غير عالم انه اخذ بكراً فصيرها
أماً ، حتى اذا مرت السنوت ، جلس الضابط يوماً رئيساً على منصة القضاء
ومثلت امام المحكمة بغنى أتهمت بجريمة فحكم المجلس عليها بالنفى الى سيبيريا وما
كانت تلك البغى الا تلك الفتاة المسكينة ضحية شهوة الضابط الشاب وهو رئيس
المجلس القاضي بالعقاب . على أن الشريف الرومى لم يجبن امام الحياة ولم يقتل
ضميره ليحفظ بمقامه ومجده ، عرف واجبه فودع الدنيا وسار الى سيبيريا جنباً الى
جنب مع التى نفاها هو من المجتمع فنفتها العدالة الانسانية الى بلاد الصقيع
والموت : ذهب الشريف الرومى قريناً للبغى الملوثة ليعت روحها من جسمها
الذى دسسه هو فجعله الباغون عليه من بعده مدفناً لروح الله المتجلية فى كل عذراء
وفى كل زوجة مصون .

وكان الجهاد الأكبر ، وكان النزاع العنيف بين الجاني المخلص والساقطة المضللة .
بمثل هذا الفن الرائع يصور تولستوى الضمير الحى وسواء أكانت هذه

الرواية بنت الحياة أم بنت الخيال ، فإن ربّ القلم الروسي قد رفع فيها مثالا للحق
وخلق قدوة للناس تشعّ نوراً على سبيل الفداء وإقالة عثرات النفوس

أما أنت، يا ميمشا جبران ، أيها الكاتب العبقري ، أيها المفكر اللبناني الذي
يجول في دمه شمم لبنان ، إنما كان يجدر بك ، وانت تكتب لنا حياة علم من أعلام
الادب في الشرق أن تستنير بما فيك من نور وبما فيك من كرامة ، إنما
خطر لك وأنت تورد لنا هذه العيوب بل هذه الجرائم سواء أكانت هذه
الوقائع حقيقية أم خيالية أنك تسيء الى الادب العربي وتسيء الى الناشئة
العربية التي تطلب من ارباب القلم أن يخلقوا لها المثل العليا لا تنهاج سبيل العدل
والكرامة والنخوة والمروءة في الحياة.

لماذا كتبت لنا قصة جبران .

ألتشرح لنا فلسفته ولتحلل لنا مبادئه ، ولتتمر على مؤلفاته ورسومه بنقد
منصف ، أم لتنشيء لنا رواية كهذه الرواية الطويلة وهي خالية من الحوادث
والمفاجآت والوقائع التي يصح أن تعقد عليها كل هذه الفصول .

إن رواية جبران التي استغرقت نيف وثلثمائة صفحة : اذا ما جردتها عما دس
فيها من المحادثات والمناجاة ، إنما هي عبارة عن قصة شاب مهاجر اشتغل بالفن
والادب فعاش عالة على إبرة اخته ، ثم على عاطفة عانس شمطاء أستغل الغزلة التي
قضى بها عليها قبضٌ وجهها وتكوينها ، وقد كان بالوقت نفسه يفترس قريبا فتاة
فيحرمها عفافها ويستطرحها جنينها منه الى التراب . يذهب هذا الفتى الى باريس
فيسبر اغوار الفن وينسى الفستاة التي اغواها حتى اذا لجأت اليه مدفوعة بحبها
وبالحالة التي اوصلها هو اليها ، يكلفها مقاسمته فراشه خلية ، ليعرّضها مرة أخرى
للحمل والاجهاض ، ويحاول إقناعها باتباعه على هذا السبيل الضلول بأسم الحق

والحب والمبادئ، العليا في الفلسفة والفن .

تذهب هذه الفتاة ضاربة في مجاهل الحياة حاملة عاره بعارها ، ويسدل المؤلف عليها الستار كأنها ليست شيأ في الرواية ، مع أنها هي العقدة الوحيدة التي تستحق الدرس والتحليل واستنتاج العبرة منها

أسدل الستار على الضحية حتى في ضمير بطل الرواية الذي يفكر بعد ذلك جدياً بعقد زواجه على العانس طمعا بما لها وتثبيتاً لمركزه في عالم الأدب والفن وطلباً للتنعم بالحياة ، فتجرح هذه العانس معزّة نفسه بطلبها التيقن من نظافته . . . من نظافة جسمه . . فيذهب حانقا عليها ولكنه مُرّ في قلبه اذ حال هذا السؤال دون ارتباطه بالانس المسنة القبيحة .

وتمرّ السنون فيصادف بطل الرواية بعض النجاح ، ولكنه بقي يتلقّى من العانس التي تزوجت بارادته وبركته . . . الجعل الذي خصصته به

وأخيرا ، وأخيرا . . . يقول المؤلف ان بطل روايته أحس بالعلل تمنحل جسمه ، وبعد ان كشفت الاشعة له دائه الكمين الذي لا شفاء منه ، شعر بحاجة الي فتاة يقترن بها ، فساق القدر اليه فتاة شغفت بالكمال الذي صوره البطل هذا في اجمل كتبه ، فاراد ان يقترن بها ، متناسيا انه المدنف المحكوم عليه بالفناء ، غير ملتفت الى ما سيجره على هذه المسكينة من الاضطراب والمشقات في سيرها معه على طريق يوصله الى القبر ويوصلها الى الترمّل والوشاح الاسود . . .

ولكن هذا البطل ، بالرغم مما كان يعرفه من دنو أجله ، لم يتورع وهو على عتبة القبر من محاولة تدنيس عروسته ، فنفرت منه ، غير انه استغفرها فعادت

ليه ، ولكن الداء كان قد استفحل في كبده فلم يمهله الا بضعة اشهر ...

هذه هي الرواية ، ولا أري من بطالها بأمعان كرواية الاً خارجاً منها
بنتيجة واحدة وهي ان رجلاً عبقرياً دعا الى الخير وناهض الشر طوال حياته
قضى ايامه باستغلال النساء فعاش عالة على الاخلاص ، والجمال وحتى القبح فيهن ..
وهناك الجريمة الكبرى في حياة هذا البطل جريمة اقتراس عذراء وإرغامها
بسلطان الأمل والاكرام الادبي على إسقاط الجنين . تلك فاجعة يمثلها كثيرون
من مسوخ الانسانية في هذا العصر ، ولو أن المؤلف وضع إسم (ميشلين)
عنواناً لكتابه بدل إسم جبران ، لكننا نذهب الى أن القصد من تأليف هذه
الرواية انما هو تحذير الأبنكار من غواية ذئاب الادب ووعاب الفنون ...

لكن المؤلف يعلم انه يكتب حياة رجل من عباقرة القرن العشرين ، يكتب
حياة صديق عزيز كان موضوع اكرامه ١٥ سنة ، يكتب لبيّن أجل ما في حياة
صديقه الميت (كذا) وهو صراعه المستتب مع نفسه لينقيها من كل شائبة
ويجعلها جميلة كالجمال الذي لمحّه بخياله وبثّه بسخاء في رسومه وسطوره .

أين هو هذا الصراع الجميل ، يا ميسا ، يا صديق جبران ، ويا صديق ...
إنك صوّرتَ هذا المتنقل الي عالم الحق رجلاً شديد الشكيمة على مصائب
الناس ، متساهلاً الى حد الأجرام تجاه نفسه ، صورته مغروراً متعجرفاً في أدبه
وفي فنه وأريتنا اياه في حياته طفيلياً يتمشى الخداع حتى في صداقته مع العانس
الجميلة الأخلاق ، اريتنا اياه يمشي على دماء عذراء ودماء طفل ، دون أن يلهمه
الادب الالهي الذي وقف الحياة عليه ما يلهمه الضمير في أي رجل عادي لم تتغلغل
جهنم في روحه ولم تتأكل للعصية جميع احشائه . بل أريتنا اياه وهو يتأهب

لمغادرة الدنيا مصاباً في كبده بالقرحة التي لا شفاء لها، يحاول أيضاً أن يضحّي بفتاة خشمت أمام عبقريته وجمال روحه دون أن يبدو في سريره أقل صراع لمقاومة هذه الجريمة التي لم ينفذها إلا لمعالجة الموت له.

هذا هو جبرائك، يا ميشا، فكذبني فيه أو امددني بما أ كذب به نفسي، والأ فقل لي أهذا هو الدين الذي كان في عنقك فوفيته

دعني، أيها المسجى تحت ظلال الارز أن أسألك ما اذا كنت وقفت في حياتك امام صديقك ميشا وفتك بعد موتك امام الدين الذي لا يدين الضامر الآه ... دعني أسألك ما اذا كنت بحث له بجميع وقائع حياتك حتى ما كنت تنكره منها على نفسك - على حد تعبير صديقك نفسه - او اذا كنت أقمته كاهناً لضميرك واعترفت له بزلاتك وجرأتك فهل انت جعلت، نشرها على ملاء الاشهاد أمانة في عنقه

إنك أدري وأنت في عالم الحق، بالعوامل التي دعت صديقك الى القيام تجاهك وتجاه التاريخ بمثل هذا الواجب. فاذا كانت هنالك ضغينة عليك، كما قال بعض الناقدين، فلست أنت تدينه ولا انا أدينه ايضاً....

الله وحده عليم بما تطوى السرائر في أغوارها، وانا تمشياً مع مذهبك، وأخذاً بمذهبي ايضاً، سأنظر دائماً الى الرسوم من أضواءها لا من ظلالها، وخير لنا ان نواجه الوقائع بخير الظنون.

ان ميخائيل قد طغت عليه موجة من موجات الهامه كما قلنا في بدايه رسالتنا هذه، فهنا كبيراً في هفوته كما هو كبير في اصابته. وميخائيل كاتب محلل قدير يعرف كيف يرصف المقدمات ويأخذ النتائج من قلبها، وقد امتزج الشاعر بالكاتب فيه امتزاجاً يخط بالشخصيتين احياناً الى المهاوى كما يرفعها معها الى مستوى

رفيع من آفاق التفكير.

ان هذا الكاتب لم يقدم على وضع تاريخ حياة صديقه الأ وهو مصمم على الارتفاع فوق نفسه وفوق صداقته وفوق الحوادث نفسها التي مشى جبران عليها نحو هدفه الأسمى . ويقيني ان نعيمه الذي شهد جبران يحترق وينسلخ عن المادة تاركاً للتراب جثة حطمتها الأ وصاب والعلل إنمّا وقف امام دنيا صُغرت في عينيه فمقطع إليها مزدرياً كبارها وصغارها ، غير ناظر الأ الى بحر الأ نوار الزاخر الذي تلوح المخلوقات عليه موجات تشع وشيكا وتحترق ، فشر هذا الكاتب الفذ انه قد دخل هو ايضاً عباب هذا العالم الخفي ، واليك الصورة التي رسمها ميخائيل عن هذا العالم وقد لاحت له على وجه جبران الممدد امامه على فراش موته .

(وانا بجانب السرير افكر في القلب المحترق امامي ودقاته من الاولى الى الاخيرة اين هي ؟ فيترآى لى ان فى الفضاء حافظه تعي كل دقة من كل قلب وكل شهوة وكل فكر وكل عمل وكل طرقة عين وكل حلم وكل نبرة وكل نفس . وان كل انسان ستمثل امامه سيئاته يوم تتمزق فيه اغشية الحس عن عينيه وتنفك عصاب الوهم عن اذنيه فيبصر ويسمع كل ما كان من امره منذ صدوره عن مصدر الحياة حتى عودته اليه ، بل يخيل الى ان تلك الحافظة كامنة فى اعماق الانسان من حيث لا يدري يحفر حياته فيها مثماً يحفر الصوت فى صفيحة الفونوغراف ، واذكر قول يسوع (لا خفي الأ سيظهر) فأحس برهبة الدينونة وعدلها وارى ان يوم الدين هو اليوم الذى نسمع فيه (فونوغراف) حياتنا يردد علينا كل ما كان منا على ممر الدهور .)

أفما ترى ميخائيل فى وصفه هذا يلمس عالم الاموات ثم يعود منه الى الحياة

وفي سريره الاذراء بالظواهر التي تخفي البواطن الى حين؟ افما تراه بعد هذه
الوقفة امام فراش الموت يكتب كتابه عن حياة جبران وهو يولي ظهره لكل
اعتبار يأخذ به الناس؟ افما تراه يهتك الاستار عن كل ما يمر بخاطره فيعتقده حقاً
فيتكلم عن الروح كأنه هو روح مجردة ايضاً حسباً نفسه في الدوائر العامّة
من الكون حيث تظهر الخفايا وحيث تُعلّل الاشياء على غير المقاييس التي تقبض
عليها انامل أبناء التراب؟

إن صراحة نعيمه المتخفية حدود المؤلف إنما تتجت عن زهده بهذه الحياة
بعد ان شهد فيها معنى الزوال في تفجّعه على صديقه المسجى امامه ، اما ما اورده
رافلاً بهذه الصراحة من وقائع فما تراه نحن إجاداً واختلاقاً ، بل تراه ناشئاً عن
خطأ في وضع المقدمات لاستنتاجه . واشد هذه الاخطاء هي اعتقاد ميخائيل
انه جدد مصيب في اتخاذه وصفه لمارى وميشلين قاعدة ثابتة فذهب من هذه
المقدمة الخيالية يزن علاقات جبران بالفتاتين فيراها مثقلة بالخداع والاكاذيب
والخيانة والاجرام . وهكذا نشر ميخائيل بين المعاصرين وللتاريخ استنتاجات
مغلوبة في اساسها وهو لا يعتقد انه يسيء الى صديقه وانه يلطّخ ذكره .

وهل كان ميخائيل ليولي اهمية للاعراض والحوادث الزائلة في حياة جبران ،
ما دام جبران ، في نظره ، لم يمرّ بها الا ليتّوصل الى القمة العالية حيث أشرف
على الحقائق وعرف الكمال وهو يكتب للناس كتاب (النبي)

وكيف يرتاع ميخائيل على صديقه جبران مما وصف من حياته ، وهو يقول
في كتابه الى صديقنا الكاتب العبقرى يوسف البعيني .

(اقرأ الكتاب فترى بلا شك اني نهجت فيه نهجاً جديداً ، وأنني قد تركت
حيي وصدافتي لجبران جانباً كما اتوصّل الى روح جبران العارياة وجوهرها

خالص وهذا الجوهر قد تجلّى لجبران في كتابه النبي ، وانا قد درجت معه في
منعرجات حياته الكثيرة وكهوف نفسه للمظلمة لأخرج به الى نور الحق الذي
أبصره في النبي)

فنعيمه ، اذاً لا يرى ضيراً في جميع ما أوردته عن صديقه من
الحوادث ، ما دامت هذه الحوادث كانت صراطه الضيق يجتازه ليقف أمام
الحق ويبصر نوره .

لم يكن نعيمه ، إذا ، جانياً على جبران ولا متحاملاً عليه تشفياً . . .
كان نعيمه مخلصاً في رسالته ولكنه أخطأ لارتكابه الى مقدمات اتخذها
كأمور مسلم بها دون بحثها والتدقيق فيها ، ولعلنا سنتوصل الى اثبات هذا
الخطأ اذا ما استعرضنا المواقف التي استعار فيها المؤلفُ لسان جبران ليُنزل به
أشدّ التقريع .

ففي موقف جبران تجاه ماري يثق المؤلفُ بصفاتنا الأدبية فيجود عليها
بالاخلاص والصراحة والعمق وجميع الفضائل التي يحرم صديقه جبران منها .
وهل كان للمؤلف أن يعرف نوع عطف ماري على صديقه ، وهل كان
متأكداً من أن هذه الفتاة كانت في عين جبران تلك الفتاة العانس الشمطاء
العوجاء الشوهاء . . .

فاذا ما امتنع على الانسان أن يسبر أقصى عواطف كلٍّ من الرجل والمرأة
في علاقتهما فمن العبث أن يقيم نفسه حكماً بينهما فيقضي لأحدهما على الآخر .
وعلى كل حال فإن سيدة مترجّلة كماري لا تسودها الأنوثة قد تكون
شخصاً مفكراً أعتلى قلبه الى دماغه فصح أن يكون صديقاً لامرأة كما يكون
صديقاً لرجل ، وأن يستند كلا الصديقين الى الآخر دون أن يكون للعاطفة

الجنسية أقل دخل في هذه العلاقة .

بماذا نلوم جبران اذا كانت ماري صديقة له ، وقد اتضح من ثباتها على الولاء وثباته هو عليه حتى بعد زواجها انه لم يكن هنالك عاطفة يصح ان يستمر جبران وراءها لخدع هذه الفتاة وأستغلالها .

وبعد فما حجّتنا على جبران ، في حين أن ماري نفسها باستمراؤها على ولائها له حتى آخر حياته تعلن لنا وهي المرأة الذكية الفؤاد الصريحة التي لا تخدع ولا تخدع ، على حد وصف المؤلف لها، أن جبران خير صديق لا تشوبه مؤاربة ولا يدنس خداع .

أنظر الصفحة ٢٦٤ حيث يقول ميخائيل في كتابه .

١ وهناك في تلك القاعة — حيث عرض جثمان جبران — تعرّفتُ بـماري هاسكل التي قدمت من سافانا البعيدة لتحضر الدفن فرأيت الرصانة والبساطة والدعة ورحابة الصدر في كل ملامحها حتى في ثيابها ولم اقرأ في وجهها حزناً ولا سمعت في صوتها غصّة بل حدثتني حينئذ ومراراً بعدئذ عن جبران كما لو كان لا يزال حياً ، وانا مدين لها بالكثير مما صورته في هذا الكتاب عن علائق جبران معها ومع ميشلين .

فاذا كانت ماري وهي الحكيمة الصارمة في مبادئها وأحكامها لم تزل ترى في جبران الرجل الذي يحق له الاحترام والاعجاب وهي تعرف علاقته بميشلين ، فما ذلك الا لأنها تعتقد أن ليس هنالك جناية ارتكبها جبران في هذه العلاقة ، فهل ان المؤلف عرف ما لم تعرفه هي ؟ أيكون جبران إذاً هو الذي اعترف لميخائيل بهذا الجرم فجاء هذا الصديق يعلنه للملأ بعد موته ؟ ..

اننا نرى على كل حال شيئاً كثيراً من التخبط في التحليل الذي يأخذ

به المؤلف حين يتكلم عن الأخلاق في أقاصيصه عن جبران ، فاسمع ما يقول
في الصفحة ١٥٩ .

(ومن حين الى حين كانت ماري تزور جبران في نيويورك فيجعل بيته يتما
وسريه سريرها) . . .

فهل كان جبران يتخذ سريرا له في فندق ، أم ماذا ؟ . .
إن من يقرأ حكاية ماري وميشلين لا بد له من ان يصل من وقائهما الى
نتائج تناقض تماما ما يريد المؤلف اثباته عن فضائل هاتين الفتاتين .
أفلا يتضح من هذه العلاقات المتداخلة المتراكبة أن ماري كانت عاشقة
لجبران تبذل كل شيء في سبيل استعباده لها فتجود بما لها ونجود حتى بأنفها
بالموافقة على علاقات معشوقها بفتاة جميلة تنسيه قبورها . . .

جبران بعد هذا لم يكن غير رجل يسير قبيحة لقاء مال ولقاء قيادة . .
إنني والله لأقف حاراً امام هذه المقدمات وهذه النتائج فلا أعلم كيف
أُعلل هذا الشطط . ويؤلني جدّ الام ان أرى ميزان الانصاف مختلفاً مثل هذا
الخلل في يد كاتب عرفته وقادّ الفكرة صائب التعليل .

أما ميشلين التي وصفها المؤلف كما رأيت والتي لا نعلم اذا كان عرفها شخصياً
فأنا ننظر اليها بغير العين التي رآها نعيمه بها . غير اننا تمحاشى الوقوف موقفه
من الجهة المقابلة ، فلا نحكم عليها لئبرر جبران كما حكم هو على جبران ليبررها ،
بل نستطيع القراء والمؤلف أن نتساءل في نفسنا عما اذا كانت هذه الحسنة
الغامضة الاصل والمنشأ لدينا كانت لم تنزل حتى عرفها جبران تلك الصفحة
البيضاء الناصعة البياض ، وهل لم يكن « شعرها الذي يكهرب اليدين الى حد أن
الناظر اليه ، لولا قوانين الحشمة واللياقة لما تملك نفسه من لمسه وتمسيده »

قد صادف مُقدراً حساساً كميخائيل ووقفاً كجبران فعميت على الأقل بهذا الشعر
الطافح بالشهوات ...

أفأ نَعذر إذا نحن ارتبنا ولو جديلاً بحشمة هذه الفتاة التي لم تكن قاصرة
وهي في العشرين (ويحق لنا ان نرتاب قليلاً بهذا التحديد لسنّها لأن من أغرق
هذا الاغراق في وصف صفات ميشلين لا بد له أن يكون اقتطع من عمرها
اربع او خمس سنوات على الأقل ، ليسمح لنا أن نرتاب ، ولربتنا تعليلها ، بهذه
البسكرة التي قاومت طوال السنين عبّاد الجمال في بابل القرن العشرين في بلاد
الحرية المضللة والنور الأقم لتحتفظ بوريقات زهرها ينثرها جبران في الحقول
التي لا مالك لها والتي يرتعي بها كل عابر ...

إن التي تصل الى العشرين وما بعدها وهي محتفظة بعفافها لا تبذل هذا
العفاف لقاء قصيدة او مقال ، ويعلم قدماء رجال القانون ، ونحن والحمد لله منهم ،
أن الاغتصاب حتى المعنوي منه انما هو في الاغلب ، اذا ادعته فتاة راشدة ، إيجاداً
وتدبيراً وأخلاقاً .

فاذا كانت حادثة جبران مع ميشلين واقعية ، فما هو المرجح الذي أخذ به
المؤلف ليقول بالاغواء ، ويوقف ميشلين في مطالباتها غاويها موقف العذراء المتهوكة
العرض تتقاضى حق حياتها سلطانة على عرش الزواج ؟

إننا نعتقد ، ولا موجب معقول لدينا يحوّلنا عن هذا الاعتقاد ، أن جبران
لو أنه كان أعوى ميشلين بل أية فتاة أخرى من أية طبقة من البشر وسلبها
عفافها لما كان تردّد لحظة في افتدائه زلّته بكل أيام حياته .

إن الكاتب المفكر الذي يدعو الناس الى الصلاح بمثل ما دعا جبران قد يتمرغ
في حمأة الشهوات ، وقد يسقط كثيراً ، قد يرفع كثيراً الى فه الثمرات المهترئة

التي تأكلها الدود او رمت الاغصيرُ بها الى الارض ، و لكننا لا نعتقد بأن رجلاً يصح أن يطلق عليه اسم رجل يمكنه أن يقتطف ثمرة لم تزل تعتقد على زهرتها ليطلع أنامله وأسنانه عليها ثم يطرحها على مزابل الانسانية طعمة للجائعين من ابناء الشهوات ...

أما الجنين ، فكنا نود لو يتسع او يلائم المقام لكلمة مطولة عن موضوعه ، ولكن يكفيننا أن نقول المؤلف انه « يبوح على ذمته » او يستنتج ضلالاً ، كما نريد أن نعتقد ، جرمًا له تحديده وعقابه في شرائع جميع الأمم والازمان ونحن نسأل هذا المؤلف ، وهو صديق المجرم المفترض ، هل كان يبوح بمثل هذا السرّ الذي يدعى معرفته في زمن وقوعه فيسلم للقضاء من أودعه هذا السر فيرسله للقضاء الى السجن ...

أن العدو فضلاً عن الصديق لا يفعل هذا ، فكيف يُقدم عليه نعيمه بعد موت جبران ، أيحسب محكمة الرأي العام والانسال الآتية أقلّ صرامة من المحاكم القانونية ؟ ...

لقد عرفنا نفس جبران جائمة الى الحب عطشى الى العاطفة الثابتة التي لا ترثوي بسواها نفس الاديب الحقيقي ، وعرفنا جبران ايضاً أشدّ الاصدقاء ثباتاً في صداقته ، فهل يُعقل أن يكون هذا العبقرى وجد في ميشلين أخت روحه المنشودة ولم يشبع عواطفه بأخاذها خديلة له ؟

إن جبران كان منذ اوائل شبابه يحنّ الى استكمال نفسه بما فرضه الله على عباده ، وهذه زفرة من زفرات قلبه كان أرسلها منذ نيف وربع قرن الى صديقه جميل بك المملوف تهنيئة له بزواجه ، وكنا نشرنا هذا الكتاب في جريدتنا لسان الاتحاد في شتاء سنة ١٩١٠

وهذه فقرات من الرسالة المذكورة ننقلها عن مجموعة الجريدة
(أنت يا جميل ، قد التقيت بالنصف الحقيقي ، وهذا أجمل وأشرف لقاء يحدث
امام وجه الشمس . أنا اعتقد أن فساد الجامعة البشريه قد نتج عن لقاء الرجل
بنصف غيره وبقاء المرأة مع نصف سواها ، وأعتقد أن ثمره الزواج الفاسد تكون
في أكبر المواطنين فاسدة ، فالجرمون والاشقياء والخاملون هم أبناء النفور الروحي
الكائن بين المتزوجين .)

الى أن قال

(والآن ، في سكينه هذا الليل ، اطلب منك أن تفعل امرأ صغيراً لتكريم
جبران ، وهو هذا ، عندما تعود في المساء من ادارة اشغالك الى منزلك وتجلس مع
قرينتك الى مائدة العشاء ، ارجوك أن تقول لها هذه الكلمات .

لنا ، يا عزيزي ، صديق وراء البحار يحبنا كثيراً لأننا أبناء المحبة ، وهذا
الصديق يطلب من السماء أن نكون اليوم وغداً وبعده وإلى الأبد مثل جناحين
مرفرفين على جانبي كرتة الشعاع العلوي ، ويرجو أن يكون المستقبل منبسطة
أمامنا كالحقل الجميل في أيام الربيع ، ويرجو ايضاً أن يلتقي بنا يوماً فيرى أولادنا
يجانبننا كالأغراس بجانب الجدول العذب ، أما اسم هذا الصديق العائش بعيداً
عن نصفه الحقيقي فهو جبران خليل جبران)

اليوم وغداً وبعده وإلى الأبد : . . .

هذا هو الحب الذي كان ينشده جبران مثلاً أعلى يصبو اليه ، وما هو معنى

الرقى في الروح اذا كان لا يوصل الانسان الى الظفر بلذة الكمال ؟

أحبُّ هو ، ذلك التمتع بشهوة أولها وهمُّ وآخرها ندمٌ ومرارة ؟

أحبُّ هو هذا الجمع بين اثنين يُشدان على قيثار الحياة وترين ينشد صوت كلٍّ منهما عن صوت الآخر؟ .

أحبُّ هو هذا الحب القائم على الشكوك والارتباب وعدم الثقة الكاملة من الجانبين؟

أحبُّ هو هذا الحب الي يحاذر الواحد فيه أن يرتبط بالأخر أمام الله والناس؟ إنَّ كتاب جبران صادرٌ عن باريس؟ بعد مضيِّ سنتين على قدومه إليها، فهل كان جبران يعني ميشلين بنصفه الحقيقي؟ وكان قد طردها من بيته أو هي طردت نفسها منه . ليست إذاً ميشلين من يعني وقد كان بإمكانه أن يقترن بها فلم يفعل، فالزفرة التي يصعدُها في كتابه جميل إنما يتجلى فيها بأس العبقري وعثرات أماله في سيره وراء مشلِّه الأعلى .

إنَّ نعيمة يورد لنا الكلمة الآتية عن حالة عواطف جبران (صفحة ١٥٨)
(وكاد ينسى كل ما كان يقدرسه في أول شبابه لا سيما الحب، حب المرأة، فقد صار يرضى بالمرأة شريكاً له في فراشه ولا يرضاها شريكاً في قلبه وفكره وروحه)

ولكنَّ نعيمه، لاعتباره ان جبران كان يخدع النساء ولا يخدعنه، ذهب في إسناد هذا التبدل الى ما أبقته مطالعة كتاب نيتشه من أثر في نفسه .

لا يا صديقي، إنَّ جبران لم يكن صبيحاً عند ما قرأ نيتشه ليسطو عليه بطل روايته باقواله، إنَّ اليأس لا يسطو على قلب المفكر من مطالعته كتاباً، فالعبقري لا يتأثر إلا مما يرميه كتاب الحياة بوجهه وهو يقبل صفحاته .

لماذا لا تقول أن حظَّ جبران من الحب كان كحظوظ العباقر الذين تقدّموه

في هذا السبيل أفما نقلت لنا ، يا ميثسا ، ما قاله جبران عن المرأة التي دعاها بالساحرة ؟
إسمع :

(ولكن قفي قبلاً ، أيتها الساحرة ، فها قد استرجعتُ قولي وكسرتُ
القيود التي برت قديميَّ وسحقت الكأس التي شربتُ منها السمَّ الذي استطيبتُه ،
فإذا تريدن أن نفعل ، وعلى أية طريق تريدن أن نسير) .

فهل هذا قول رجلٍ غيرت قلبه نظراتُ فليسوف ، أم هي صرخة
مُخلص تقيّد بسلاسل الحب ليتحرر في عبوديته فاذا هو في أغلالٍ تبري
قدميه ، وكرع الكأس يطلب فيها الكوثر فاذا هي تقطر الفسيلين في فمه .
أكان من السهل على جبران أن يجد المرأة التي تجسّم ما صورته ريشته ويتجلى
في أخلاقها ما خطه قلمه ؟

ما معنى هذا الهتاف يضعه المؤلف في فم جبران ؟ :

(يا ليت روح ماري في جسم ميشلين)

أفليس في هذه الكلمة التي يوردها المؤلف في معرض تقرير جبران ،
ولعلها من القليل الذي أصاب حدثه فيه ، الدليلُ الذي كان يجب على هذا المؤلف
أن يقف عنده ليشرف على أغوار بعيدة في روح جبران لو انه اكتشفها لقادته
حتماً الى تعديل حكمه فيه .

إن جسم ميشلين كان صورة من تلك الصور التي تدفقت جمالاً من خيال
جبران تحت ريشته ، ولكن روح ميشلين لم تكن فيها تلك الصفات العليا التي
أدركها جبران بروحه فانزلها سوراً على قلمه

أفلا يتجلى لنا ياس جبران من الحب في تصميمه على الاقتران بصديقته
ماري ؟ وهلا يرى المفكّر المنتصف في هذا الترار أن هذا الرجل الذي

رست عقبريته على عنصري الحكمة والجمال كان سيقضى بالطلاق بين هذين
العنصرين في كيانه بعد ان انحطم أمله أمام الجمال؟ وكان الجمال أحد ربييه في
اتجاهه نحو إلهه .

من يدري؟ .. من يدري ما انكشف لبصيرة جبران من ماضي ميشلين
ومن حاضرها ، ومن ماضي غيرها وحاضر غيرها ، وبلى ومن يمكنه أن
يعلم على اية طريق من الشوك مشى جبران متراجعا عن الهيكل الذي حمل اليه
روحه بكاتي يديه؟! !

أُلقى اللوم والتقريع جُزافاً على رجل كان كل همّه في الحياة ان
يظفر بالسعادة ، لا لسبب الا لأن هذه السعادة أفلتت منه وطفرت تهزأ
باخلاصه وجهوده ؟

إن جبايرة الفكر يعشقون الجمال على الارض وهم يتطلعون الى جمال السماء ،
فما ذنبهم اذا أفلت جمال الأرض منهم وهو في لمعانه الزائل يزحف على التراب
ويلتصق بالزئالات؟

إن التي تتعقد على مفرقها ضفائرُ الورود قلما يمكنها أن تُسائر الجبار المكلل
بالشوك المرتقي جلجة التضحية والفداء ...

لقد رأى نعيمه في جبران شخصين منفصلين ، أحدهما العبقريّ
القدّ في إلهامه وتفكيره ، وثانيهما رجل الدولار والشهوات ، فنعيمه يحشر
مبادئ المسيح ومحمد وفلسفة الشرق والغرب من جبران في جسد رجل أميركيّ
من الطراز الماديّ المحض ويسير به من أول حياته الى آخرها ملاكاً تقمّص
شيطانياً ، فلا الملاك رضي عن شيطانه ولا الشيطان اتعّظ بلاهوت ملاكه !!
أما نحن فانتا نرى جبران إنساناً بلغ مدرجاً عالياً من سلّم الارتقا ، فليس

هو بالنبي المعصوم ، وليس هو ايضاً بالتاجر المتأمرک ، فحياة جبران لم تكن الاً مراحل طال جهاده فيها طلباً للحق والجمال يهدي اليها نفسه ويهيب بالناس الى اتباع السبيل للوصول اليها

لقد جاء نعيمه بوصف لجبران اتخذه من تعبير رؤيا رآها ، فهو حتى من الرؤى يريد ان يثبت عليه ميولاً عالمية وشهوات مضللة ، قال .

(والأفمى الخارجة من النهر هي ميول جبران العالمية وتعطشه الى مجد العالم وملذاته وعظمته ، وهي التي أفسدت عليه طياء نيته ونشوته اخيالية وقضت على أمنيته الكبرى ، أمنية التوفيق بين أعماله وأقواله والتوحيد بين ذاته الظاهرة وذاته الخفية)

فكان نعيمه ، وهو نفسه الأديب الكبير الذي مضى حياته بالسعي وراء المال متاجراً ومضارباً في بلاد الجهاد المادي العنيف ، ما كان يرضى عن جبران الاً اذا تغذى بكسرة خبز وأرتدى السوح وجال في الازقة مستعظياً . ومع ذلك فما هو هذا التعطش الى أمجاد العالم وملذاته الذي أفسد على جبران حياته الروحية . أتريد أن تعرف ما كانت هذه المطامح والمطامع ؟ إذاً ، فاقراً في الصفحة ١٧٢ من كتاب نعيمه :

• (وعلاوة على ذلك فحجر الرحي ، رحي الفاقه ، الذي كان يحمله على عنقه منذ فقد أمه وأخاه وأخته ، أوشك أن يتحوّل الى قلادة من ذهب ، فقد صار جبران ينام من غير أن يفكر بحاجاته اليومية من أكل وشرب ولباس وماوى بل أصبح في كل شهر تقريباً يودع قيمة من المال في البنك ، و٧٥١ دولاراً من ماري ما فتئت تأتيه في مواعيدها فاستعاض عن نور الغاز في محترفة بنور

الكهرباء وعن وجاق الحطب بوجاق من الغاز ، وجاء بتلفون)

إذاً ، منذ قدم جبران الى نيويورك كان لم يزل يستنير بالغاز ويتدفأ بالحطب ولا يأمن الجوع والعري في غده

كانت صرت أجمل سني الشباب على هذا الرجل المعلق أبصاره على آفاق الفكر والفن فيما استهواه إله مانهاتن ولا استعبده عاهرات الحياة

بين تلك الملايين المصابة بحمي العجلة ويجنون الضخامة في الابنية والارقام والمشروعات ، حيث يتسورم كل بمجموع ويهزل كل فرد ، حيث ترى الابنية تنطح السحب وسيعة عالية كأنها مدائن معلقة بين السماء والغباء ، ومكان الفرد فيها يكاد لا يكفي لايواء طوله وعرضه فاءن وقف نطح السقف وأن تمدد احتمك رأسه ورجلاه بالجدارين في مانهاتن ، محشر شعوب الدنيا حيث يحيا ألوف الألوف باننصب والعياء ولا يموت واحد منهم حتى كناس الشوارع ومساح الأحذية الا وهو يحلم بامتلاك الملايين ويسعى لبنساء ناطحة سحاب يباهي بها شعوب الارض هنالك مشى جبران غير ناظر الا الى ريشته وقلمه ، وقد كان قلمه العربي وهو يكتب لأُمَّته وبلاده عالمة على ريشته التي قدرها الغرباء ولم يشعر الشرق بنبوغها حتي اليوم .

ولو أن جبران كان متعطشاً الى أمجاد العالم وملذاته ، لكان سعى كما سعى ميخائيل نعيمة على الأقل ضارباً في مناكب الصنائع والتجارات معرضاً لحظة لخطرات الحظوظ ، غير أن جبران بقي معانقاً ريشته وقابضاً على قلمه ، فهو لم يكسرها ، بل لم يحطم على الأقل هذا القلم العربي الذي كان شؤماً على جميع أجناده ، ذلك لأن جبران كان طامحاً الى ملذات وأمجاد لا تنال بالمال ولو أنه أراد

ثراء وطمح الى التنعم بملذّات الدنيا ، لكن حوّل عبقريته الى استغلال الحياة المادّية في بلاد يتوصل مخترع نجميد (الشوتولوتا) فيها الى ربح الملايين . .
على أن ميخائيل لم يكتف باتهام جبران بالمادّية في حياته بل ذهب الى أبعد من هذه التهمة إذ أدانهُ وشدّد النكير عليه لتألمه من إنكار الناس فضله ومباهاته بعد ذلك لتقديرهم نبوغه ، ونعيمه يعجب لرجل يعلم الناس ويحتقر معائبهم ثم يهتّم لما يقولونه عنه : إنه لغريبٌ هذا الرأي من كاتب كانت له رسالته في سبيل الحقيقة ، فهو يريد أن يكون المصلح مقرّعا للناس في ضلالهم وأن يضيف الى دعوته احتقار من يدعوهم الى سواء السبيل ، ولا ينتبه نعيمه الى التناقض الذي يبني عليه مبدأه الجديد ، فهو يريد أن يجعل الاصلاح للناس شتيمة واذراء فكأنه لا يعلم أن الشتم المحقر لا يهتّم للناس ولا يقول كلمة في سبيل إقامة حقهم ودحض باطلهم . إن الشائر على الفساد لا يبغض الفاسدين والداعية الى الخير لا يحتقر الاشرار ، وما أحب الانسانية مثل من أبغض شرّها . من لا يحزن لحبوط مساعيه ويفرح لتقدير الاشرار لها قبل الاخيرار لا يستحق أن يسير في فيالق المصلحين

إن ميشا يريد أن يحطّ بصديقه الى ما دون مرتبة الانسانية او هو يريد رفعه الى ما فوق مرتبة الرسل والانبياء وفوق مرتبة كلمة الله نفسها
اقلب صفحات الانجيل ، واذا ما وصلت الى (متى ص ١٦ عدد ٣) فاقراء .
(ولما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً ما يقول الناس عني ، أنا ابن الانسان ؟ فقالوا - قوم ، يوحنا المعمدان ، وآخرون ايليا وآخرون أرميا أو واحد من الانبياء .
(فقال لهم - وأنتم من تقولون إني أنا ؟

(فأجاب سمعان بطرس وقال — أنت هو المسيح ابن الله الحي .
(فأجاب يسوع وقال — طوبى لك يا سمعان بن يونا ، إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك ،
لكن أبي الذي في السموات) .

* * *

أرى القلم يسير ويسير ، وفي كل صفحة من كتاب نعيمه ما يستوقفه
ليدفعه الى ما تلاها ، لذلك أقف عن مجازاة هذا القلم في تحليله المفصل لوقائع
حياة جبران ولما دسّه المؤلف فيها من سرار أسندها اليه وفرضها عليه فرضاً لا أقول
ابن نعيمه أوقف صديقه أمام المفكرين وقفة الرجل الحائر الذي عزف عن
عالم الظاهر وما اهتدى من عالم الباطن الى شيء . ذلك لأن ما اورده عن
لسان جبران من التفلسف في أصول الاشياء في مختلف مواقفه يعرض للناس
من القلق الفكري ما يضلّل حكمهم في حقيقة مذهبه وهذا الاستاذ عباس العقاد
المفكر الواقف على فلسفة الشرق والغرب قديمها وحديثها يقول عن جبران على
أثر مطالعته كتاب نعيمه ، إنه نصف درويش . . .

بدأت رسالتي لأتكلّم عن حياة جبران ، أما وقد استخرج نعيمه من هذه
الحياة ما يمّس صميم فلسفته ، فأجدي مضطراً الى تناول هذا الموضوع بكل ايجاز .
قال العقاد :

(لا ريب أن المعجبين الكثيرين يجبران سيعرفونه في هذا الكتاب فوق
ما عرفوه ويسبرون من أغواره أعمق مما سبروا)

فلاريب إذاً في أن العقاد نظر الى جبران وهو يسبر الغور الأعمق الذي
وصله نعيمه اليه وهو يوقف جبران كقصبة تهب عليها الرياح من بلايك والعواصف

من زردشت نبيتشه ، والعقاد يرى جبران في هـ — هذا الموقف عند ما يحلل شخصيته قائلاً :

(وفي الحق إن القارىء لا يستطيع أن يضع جبران في وطنه الفكرى ما لم يعرف هذه الصلة بينه وبين بلايك و نبيتشه مجتمعين وكلاهما « درويش » فى عالم الفكر يرى بعين الباطن ما ليس ينكشف للعيان الظاهر) الى أن يقول .

(أمّا ملاحظاتي عن جبران الدرويش فى انه نصف درويش فى الحقيقة ولكنه يلبس مسوح الدراويش الكاملين ، فالدروشة الصوفية تستلزم فى صاحبها خصلتين متعاقبتين لا مناص للجمع بينهما للدرويش ، إحداهما العزوف عن عالم الظاهر ، أو عالم الشهادة أو عالم المادة أو عالم الاوضاع والا كاذيب ؛ والثانية الالفة والاستقرار فى عالم الباطن أو عالم الغيب أو عالم الارواح والحقائق والأسرار .

(وجبران عنده الخصلة الأولى وليس عنده الخصلة الثانية ، فهو عازفٌ عن عالم الظاهر ولكنه مستقرٌ فيه ، لا يرى العالم الباطن الا من بعيد ، وهو فى فنه صاحب خيال يفهم أن الخيال هو الانطلاق من الواقع الحق ولا يرى أن الخيال هو الواقع الحق مجلواً فى نور الفخامة والجلال .)

وقد أتى العقاد بإيضاح موجز لمذهب الصوفية على غاية من الدقة ليقول لنا أخيراً إن جبران فى نفوره من العالم الظاهر وقف عند حدّ الزهد به ولكنه لم يملك صورةً للعالم الباطن المحجوب ، ولذلك لم يكن له وسيلة لتصويره الا بإيراد نموذج الظاهر مقلوباً .

إذاً ، إن جبران فى نظر العقاد إنما هو هداهم للصروح الزائلة فى الظاهر

يأخذ من أنقاضها ما ينزمه لبناء صروح المحجوب معكوسةً في أوضاعها ، والعقّاد
يؤكد لنا أن الدرويش السكامل يقدر على رسم الباطن كما يدركه بوجدانه .
لا تقصد ولوج باب الصوفيّة في هذه الرسالة الموجزة للسير مع العقّاد في
مجاهلها فنحن إذًا لا نتناول الموضوع إلا من وجهته المتعلقة ببحرنا فقط .

إنّ العقّاد يرى بلایک ونييتشه درويشين في حين أنه لا يجود على جبران
الإبلقب نصف درويش ، أما بلایک ، فمؤلف كتاب جبران يقول عنه نقلاً عن
تأريخه انه ما جاء بمؤلفاته الأخيرة إلا بإنشاء مليء بالتشويش اللغوي يذهب
بالقارىء الى القول بجنونه . أما نييتشه ، أو زردشت الذى أبدعه فليس إلا جاحداً
يرى الظاهر مبتلعاً للباطن أو بتعبير آخر يرى ارادة المخلوق مرديّة للخالق ، فهو
يسقط الله عن عرشه ليرفع عليه الانسان الكامل . . .

فأية الصورتين ، ياترى ، رأها العقّاد أمامه جليّة عن عالم الباطن مما
كتب بلایک ونييتشه .

أغموض الاول وهدياته ؟ ، أم كفر الثانى ووقاحته ؟ ..
ثم أننى لا اري لماذا يجارى العقّاد نعيمه في جعل جبران تلميذاً لبلایک
و نييتشه ، لأن جبران تنازعتهم الشكوك في حياته ومرّ في ما ذق الحيرة ، يجب
أن يكون تابعاً لهذين الفيلسوفين ؟

أفليس في طبيعة كل انسان أن تتنازعه الارض والسماء ، أن تشدّه قوة
العالم اليها وترفعه أشواقه الروحية الى آفاق نفسه في العالم الباطن ؟

أنسى التوراة والانجيل والقرآن وقد أغرق جبران فيها روحه ، ونسى
الأمم الغزالي والقديس اوغسطينوس وسواهما لنذكر بلایک دون سواه معلماً
جبران في روحانيته . . .

أنسى ألف كاتب وكاتب من مشككي الشرق والغرب ، بل أنسى التراب نفسه في الانسان وعرا كة المستمر مع الآمة ووثبات أعصابه في كثير من أدوار حياته لنذكر فقط اقوال زردشت كأنها السبب في جنوح جبران أحياناً نحو للقوة التي يقول عنها بأنها قد تظفر يوماً ولكنها تتقهقر ابدأ في معترك الحق مع الباطل . أما ما قيل عن جبران بأنه نصف درويش لعدم أتيانه بصورة جلية عن عالم الغيب ، والارواح والاسرار ، فإنه ليدفع بنا الى القول بعدم وجود أى درويش بلغ السكالم على أساس هذا التعريف .

أين هو هذا الدرويش الكامل الذي يشير اليه العقاد ويحذده بأنه « من رأى الظاهر والباطن على السواء ، ومن قد يرى الغيب حاضرأ في العيان » فهل من علام للغيب الا الله ، يا ترى ؟ ..

* * *

إن كل ما أعطي للانسان أن يستشفه خلال إنسانيته ، إنما هو الشعور بحال زواله واليقين من أنه سيعود حتماً الى مصدره .

وحسب المؤمن في حياته أن يتوصل الى ما توصل اليه « مصطفى » جبران إذ قال (وليكن لا قبور ههنا ... لأن هذه الجبال والسهول إنما هي في الحقيقة سريرٌ ومرقاة)

وحسب الدرويش الكامل أن يبلغ هذه العقيدة التي يعلمها جبران بلسان مصطفاه ، وهي .

إن الحجاب المسدول على عيونكم سترفعه اليد التي حاكته والطين الذي يسد آذانكم ستنزعه اليد التي جبلته ، وحينئذ تبصرون ، وحينئذ تسمعون دون

أن تتحضروا على أنكم كنتم عمياناً أو صماً لأنكم في ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفية في كل شيء ، وستباركون الظلمة كما تباركون النور

* * *

لقد استدرجنا البحث الى صميم مذهب جبران فلا بد لنا اذاً من أن نورد ما قاله نعيمه عنه في الصفحة ١٤٥ .

(فأخذ جبران يقرأ لي أمثالا وقصائد دخلت كلها فيما بعد في كتاب المجنون ومنهم قصيدته المنشورة في « الله » وعند ما بلغ ختامها حيث يقول . (أنا جذورك في الارض وأنت زهرتي في السماء ، ومعاً تنمو أمام وجه الشمس) سألته وما هو هذا الاله الذي تنمو وياه امام وجه الشمس ، أو ينمو الله ، وكل ما ينمو يشيخ وينحل ، وكيف ينمو هو أمام وجه الشمس العلى الشمس أقدم منه أم انت تعنى أن ادراكك لله ينو بنموك . ؟)

فأجابني أن له رأياً خاصاً في الله سيشرحه لي في وقت آخر . لكن ذلك الوقت لم يأت لأن جبران عاد فوجد الهاً لا ينمو ولا يزيد ولا ينقص ولا يتغير ولا يتحول .

إن نعيمه قد أخطأ كثيراً في قوله تعميماً بأن كل ما ينمو يشيخ وينحل لأن هذا الحكم لا يتناول الروح وادراكها للحق وما تشيخ الروح ولا تنحل بنموها وتكاملها ، بل بهما تتغلب على الانحلال لتبلغ القوة والخلود .

هذا ما قاله نعيمه في كتابه الذى ألفه في لبنان سنة ١٩٣٤ ، واليك ما كنت القيمة في محاضرتي في النادي السورى في الاسكندرية عن الموضوع نفسه سنة ١٩٣١ . (أما دين جبران الخفى المستقر في أعماق نفسه ، ذلك الذي استوحاه كل حكيمته فهو مقنن في سطر واحد من كل ما كتب في حياته ، سطر قد يمر به

الكثيرون دون أن يستوقفهم مغزاه ، وقد يستوقف البعض وعلى شفاههم
ابتسامه الشك أو تبرّم العنة .

أن دين جبران يتجلى في صلاته بهذه الكلمة موجهة الى ربّه الذي يشعر به في
أعماق ضميره

(إلهي ومقصدي وكلامي انا أ مسك وأنت غدي ، أنا جذورٌ لك في التراب
وأنت أزاهر لي في السماء ونحن نندم معاً أمام وجه الشمس)

(تلك صلاة الكفر والجحود لمن لا يدرك قول عيسى ، ها أن ملكوت الله
في نفوسكم . فأن جبران يوجه توسلاته الى ما فيه من نسمة الله الكائنة في كل
انسان ، فهو يتجه الى سبيل الله فيه ، لا الى الواحد الاحد الكامل المستغني عن النمو
مع مخلوقاته أمام وجه الشمس)

وما خفي هذا التأويل عن بصيرة نعيمه اذ قال . (أم أنت تعني ان ادراكك الله
ينمو بنموك) فما معنى عدول نعيمه عن هذه الحقيقة التي نفذ اليها ليقول أن جبران
عاد فوجد الاله فيما بعد .

ما كان جبران فاقداً إلهه في أي دور من أدوار حياته ليعود فيجده ، أفليس
في قوله مقصدي وكلامي مقصده هو وجماله هو لا مقصد الله ، ولا مقصد ينتهي
تعالى اليه ، ولا جمال يتوجد نحوه بعد جماله . فروح الحق الأعلى لا حدّ فيه ينتهي
عنده ولا تكامل يتدرج عليه .

أفما ترى أن جبران عين بذاته المركبة نسمة الحياة التي نفخها الله فيه فرأى
ما به من زائل أمسأله وما فيه من نسمة الخلد غداً يتوقعه فلاحت ذرّات ترابه
جذوراً في التراب وانجلى ملكوت الله فيه ازهاراً في السماء ..

ذلك ما عاينه جبران ، وليس هذا ما يعاينه أنصاف الدراويش ، فإن الغارق

في موضع السر لا يعاين الا النسيمة التي خصها الله به من روحه ، ما هي الا (الباب)
الذي ينفذ منه الى السبيل المؤدي بعد الموت الى أول المرحلة الاخيرة الموصلة
لفناء بالله ، وليس هذا فناء بالانحلال بل فناء بالخلود .

حَسَبُ المرء من دهره أن يعرف نفسه ويعاينها ، أما معاينة (وجه) الله
المتعالى عن كل عيان فليست مما أعطي للبصيرة أن تناله ما دام البصر نفسه يحجب
عالم الوحدة المطلقة عنه .

فهل نكفر جبران بعقيدته كما كُفّر الصوفيُّ عندما قال (أنا الحق)
ففهم الناس منه أنه يدعي الألوهية سلطنة الازل والابد ، في حين أنه لم يكن
يتكلم الا عن حق نفسه ورب نفسه . . .

هذا واننا طلباً لاقتضاب البحث المطول في هذه المسالك الوعرة نلجاء الى
ايراد فقرتين من الانجيل .

الاولى — كان النور الحقيقي الذي يُتبر كل إنسان آتياً الى العالم ، كان في
العالم وكون العالم به ولم يعرفه العالم (يوحنا ص ١ عدد ٩ و ١٠)

الثانية — أجابه اليهود قائلين لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل
تجديف ، فأنت وانت انسان ، تجعل نفسك إلهاً ، إجابهم يسوع أليس مكتوباً
في ناموسكم أنا قلت أنكم آلهة . إن قال آلهة لاؤلائك الذين صارت اليهم كلمة الله
ولا يمكن أن يُنقض المكتوب ، فالذي قدّمه الآب وأرسله الى العالم ، أتقولون
له إنك تجدف لأنني قلت إني ابن الله ؟

فليتبصر المتبصرون ليفهموا من هذا معنى الألوهية في الانسان ومعنى
بنوة المسيح .

هذا ما توصلَّ جبران الى إدراكه ، ومن هذا الموقف تجاه نفسه ، طلب
الحقيقة وافقاً عليها ريشته وقلبه ، وأنا الذي تتبعت سير جبران في ارتقائه منذ
ربع قرن شهدتُه يعمالى سنة فسنة على مدارج الالهام فرأيتُه يتّجه نحو القمة ،
فيثب وثباً ثم تتشاكل خطاه ثم يحكمه العياء فيقف ثم يسوده النعاس فينام ليهبّ
مذعوراً من رقدته ، لا أذكر أنه كفر يوماً برّبه أو ضعف إيمانه به ، بل رأيتُه
في كل ما رسم من المثل العليا للفضائل الانسانية ، يستند دائماً الى العقيدة الألوهية
والى إيمانه المكين بالخلود

وإذا كان ذهب في بعض الفترات من حياته مذهب نبيته في تعجيد القوه
وحمله على الضعف ، فليس هنالك اي شبه بين القوه التي يرفعها نبيته إلهماً ليسحق
بها الضعفاء وبين القوه التي أرادها جبران للناس ليتغلبوا على ضعفهم وعلى قوى
الطبيعة متعاونين متساندين حيث لا ذل ولا جبروت . فقوة جبران إيمانٌ ورحمة
وقوه نبيته إلهادٌ ونقمة ، وهذا جبران يتوجّج صفات يسوع الانسان الالهي
بهذه القوه نفسها التي نشدها حق في مرحلة الآلام والدموع .

ما هي اذاً هذه التلمذة التي يريد ميخائيل ان يلصقها بجبران لتعاليم نبيته
ليقول إنه تخلص منها فيما بعد ؟

لا إن روح نبيته لم تنسرب الى روح جبران في أية مرحلة من مراحل الفكرية .
إنّ روح نبيته روح جبار ألمه ما رأى من ضلال في الحياة فوصف
معائب الناس وصفاً رائعاً قد يكون أعجب به جبران كما أعجب به المفكرون ،

ولكن نبيته لم يصف هذه المعائب إلا ليثب منها الى نتائج هي الضلال بعينه
فإن هذا الفيلسوف العربي الذي كانت شيبته اعتقلاً وضعفاً والذي سحقته
القوة في مدنية تحمل كتاب الله بحكم التقاليد لا بحكم الأيمان ، تيقن أن الله لم
يكن إلا وهماً من أوهام الشرق دان له أجداد الغرب عن ضعف فنبذه أحفاده
عن قوة ، فهب بدوره يعبد هذا القوة لأنها الآلهة الأحد الذي تجلى له بين
قومه . لقد كان نبيته ماحداً كبيراً ولكنه يفضل الكثيرين من صغار
الملاحدين بأنه لم يخدع نفسه في ضلاله ، رأى الله قدمات في مدنية مضللة فقام
يهتف منادياً بموت الله مهيباً بالناس ليخلقوا لهم من نفوسهم ألهة ...

هذا هو نبيته الفيلسوف العربي الذي يتهم على الله لأنه إله شرقي كما
يقول إذ يلصق به وبأقوام الشرق معه الضعف والتناقض والضلال ، فأين هذا
الرجل من جبران الفيلسوف الشرق العربي الروحي الذي يهيب بالضالين الى
استجلاء روح الله في نفوسهم والذي لا يحيا ولا يرى حياة للناس إلا بما أنزل الله
في الشرق من وحي على أنبيائه ومن إلهام على حكمائه وأبطاله وشعرائه ... ؟

وهذه شذرات من أقوال نبيته وتعاليمه .

يقول كتاب زردشت بلسان رئيس الأخبار .

(لقد كان هذا الاله مستتراً مفعماً بالاسرار ، حتى أن ابنه لم يأت له إلا عن
السبيل الملتوى ، فالزنا هو الخطوة الاولى في هذا الايمان وما يمجده هذا الآلهة
كأنه آله المحبة إلا من قصر عن إدراك المحبة الحقيقية ، أفأترى هذا الآله يطمح الى
إقامة نفسه رباً للدينونة ، إن من يجب يترفع بمحبته عن كل مجازاة وعقاب .

(لقد كان هذا الاله (الشرقي) قاسياً في أوائل حياته ، لقد كان متعطشاً الى

الاتتقام فأعدَّ ججياً لتسليمية أصحابه ، ولكنه انقلب الى الضعف في أيام شيخوخته
فأصبح شفيقاً رحيماً ، أصبح جنداً بعد أن كان أباً بل أصبح أشبه بجدة هرمة
متداعية الى الفناء ...)

وهذا ما يجيب زردشت به .

(إن هذا الاله كان مضطرب العقل مفعماً بالتناقض والغموض ، أبعدوا عن
هذا الاله ، إنما أجدر بنا أن لا يكون لنا مثل هذا الهأ ، أفما نفضل أن نقيم القضاء
على رأسه فنصاب بالجنون ويصبح الانسان نفسه إلهاً . . . ؟)
ويقول .

(الى الامام ايها المتفوقون ، لقد آن الاوان واقترب الميعاد فإن القمم
الانسانية تشعر بالخماض ، لقد مات الله وهانحن بارادتنا متمتعون ، ليحيى
الانسان المتفوق)
ويقول .

(ليست الرحمة الا مذلة سوا أصدرت عن إله أم صدرت عن إنسان ،
إن من يرفض المعونة لأشرف ممن يبادر الى النجدة .)
(إن من قال في تعاليمه أنا الحق إنما علم ضلالاً عظيماً .)

...

(إن المهمة العظمى التي تحتاج الى طبيعة الاسد إنما هي التردد وإنكار كل
شيء حتى الواجب)

...

(لقد تمجت العظام من الشجاعة والحروب لا من محبة القريب ، وما أنقذ
الضحايا حتى الان الاّ إقدامكم لا رحمتكم)

...

(لقدمات الله مقتولاً برحمته)

...

(عندما تشوّقون الى الاعتلاء ترفعون رأسكم الى ما فوق اما أنا الانسان
المتعالى فأنى أنظر الى المهاوى والاعماق .)

...

(ينبجون ورائى لا نى أقول لهم -- ليس للمساكين الاّ الفضائل المسكينة
مثلهم ، ولأن مداركى ترفض التسليم بضرورة الاستبقاء على المساكين)

...

(يتراى لى أن الخشونة تجاه المساكين إنجباهى فضيلة القنافذ . .)

...

(لا تسرق ، لا تقتل . . . ذلك تعليم كان مقدساً فى غابر الزمان ، فكان
الناس يسجدون لهذا التعليم مطاطين الرؤوس خالعين النعال . أفليست السرقة
والقتل من قوام الحياة نفسها ، أفما قتلت الحقيقة ذاتها بتقديس هذا التعليم ؟)

* * *

هذا هو نيمتسه ، هذه هى الفكرة التى نشأت من تمرّد الضعف الكافر
وتوارت وراء جدران مستشفى المجانين . فأين نيمتسه من جبران وأين جبران

من نبيته .. أين جحود الأول من إيمان الثاني وأين عجرفة زردشت وقساوته
من إيمان المصطفى (ورأفته ..)

أما وقد سمعت تجديف نبيته في كرهه لبني الانسان فاسمع الآن جبران
في برّه بالناس وعطفه عليهم .

(لقد أحببتُ الناس أحببتهم كثيراً ، والناس في شرعي ثلاثة ، واحد يلعن
الحياة وواحد يباركها وواحد يتأمل فيها ، فقد أحببت الاول لتعسه ، والثاني
لسماحته والثالث لمداركة .)

وهذا جبران يهتف أبان الحرب العامة وهو يصوم وراء الاوقيانوس
ليشارك لبنان في مجابهة .

(لو كنت سنبله من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني
ويزيل بحمائي يد الموت عن نفسه .)

واسمع جبران يقول متعظاً بما لقنته آياه نفسه .

(وعظمتني نفسي فعلمتني حب ما مقته الناس ومصافات ما يضاغنونه .

وعظمتني فعلمتني الاصغاء الى الاصوات التي لا تولد لها الالسنه ولا تضج
بها الحناجر .

وعظمتني فعلمتني لمس ما لم يتجسّد ولم يتبلور وافهمتني أن المحسوس هو
نصف المعقول وأن ما تقبض عليه هو بعض ما نرغب فيه .

وعظمتني فعلمتني وأثبتت لي أنني لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة .

وعظمتني فعلمتني أن السراج الذي أحمله ليس لي .

وقال (إجعلني يارب فريسة للأسد قبل أن تجعل الارنب فريسة لي)

وقال . (أجعل يارب قوة أعدائي مضارعة لقوتي كيلا تكون الغلبة
الآللحق)

* * *

أفما يتضح لنا بعد هذا أن جيران ما كان ليتخذ نييتشه له استاذاً بل ما كان
ليعجب الآ بالوجهة السلبية من فلسفته ؟ ولا عجب أن يتفق المؤمن والجاهد على
التبرم من مساوى الحياة ولكنها لن يتفقا في الوجهة الايجابية التي تنشئ عقيدتين
مختلفتين في نفس كل منها .

إن فلسفة نييتشه التي جاء بها أبناء قومه منذ نيف ونصف قرن مرتكزة
على فكرة العدا لل شعوب السامية ولوحيا وإلهامها قد فعلت فعلها في الفراز
الجرمانية الآرية ، وهؤلاء أشياع هتار يتبرمون من المسيحية لا الأمر الآ
لأنها نشأت في فلسطين وأوحيت مبادئها الالهية على وليد الناصرة تحت
سما الشرق ...

إن الانسانية بكل شعوبها تواجه الحياة وتسبر أسرارها مفتشة على خير
ما يصلح فاسدها ، وقد كان النظر في ترقية الفرد وترقية المجتمع شاغلا للافكار
في كل زمان وفي كل مكان على وجه هذه الغبراء غير أن شعوب الشرق التي تمت
كلها الى السامية بمبادئها إن لم تمت اليها بالسلالة الصافية لم تكن تواجه مشاكل الاجتماع
الآ تحت نور الوحي وباعتبار هذه الحياة مقدمة لحياة أخرى في حين ان شعوب
الغرب التي استنارت بوحي الشرق في أوائل نهضتها لم تلبث أن حشرت في
مآزق المدينة الآلية فتحو لت عن مبادئ التوحيد التي تستلزم حتما الاعتراف
بوحدانية الانسانية وتضامنها والسير على نظام يكفل سعادة الضعيف قبل القوى ،
فاجتاحت المادية العقول والقلوب وقام إله المال مسيطراً على علاقات الأفراد

في الأسر وفي المجتمع ، فانقلبت غيرية الايمان الى انانية الجحود ، .

ليس هنا محل البحث في دستور المدينة الغربية الحديثة ومقارنتها بدستور الوحي المصلح اضلال الانسان ، وقد أتينا بمثل هذا البحث مطولاً في رسالة أخري عنونها (منابت الأبطال) ونكتفي الآن ونحتم في معرض النظر في فلسفه نييتشه تجاه فلسفة الشرق بأن نقول إن هذا المفكر الأري الذي يحتقر الشرقيين ويحتقر الله لأنه شرقي مات مسموماً باشفاقه وضعفه ، قد خلق لقومه إلهاً من نفوسهم دعاه إله القوة والعنف ، فقال بوجوب الاجهاز على الضعفاء خلق الرجال المتفوقين وهم وحدهم يصلحون للحياة .

دعا نييتشه أبناء الغرب للتحرر من أوهام الشرق فجاء اليهم بخصم المسيح دعاه زاراتوسترا أو (زردشت) ليقم على الارض مملكة من هذا العالم ، رجالها متفوقون أقوياء غلاظ الرقبة قساة القلوب ، أول واجباتهم قتل الضعفاء ولعن مسكين نييتشه ، مسكين هذا الانسان الضال الذي تمرد على ربه على حد قول الكتاب المقدس (قال الجاهل في نفسه ليس إله) فغرب عنه أنه لا يزال يدور ضمن حلقة مفرغة من فلسفته المبنية على السفسطة .

ليتصور القارىء معي مجتمعاً أجهز الأقوياء فيه على المرضى والأطفال والفقراء وكل ما يطلق عليه اسم ضعيف في الحياة . وبقي هؤلاء المتفوقون الاقوياء ، فمن يمكنه أن يضع حداً فاصلاً للقوة والضعف بينهم أو بتعبير آخر من يضمن لكل منهم قوة توازي قوة الآخر ليسود بينهم الاتفاق ؟ إن هؤلاء الاقوياء الذين يكونون ورثوا الارض بعد تطهيرها من الضعفاء سيخلو لهم الجو لتصفية حساب القوة في ما بينهم . فالتقوى يجب أن يسحقه الأقوى ، ثم يسحق الأقوى الأشد

قوةً الى أن يبقى الجبَّار الأخير وحده فينتحر باكياً على الضعفاء قبل بكائه
على الاقوياء.....

والغريب في فلسفة نيتشه التي أحدثت ضجة في الغرب حتى بين كبار
مفكريها أنها تهدم ذاتها بذاتها ، لان هذا الفيلسوف الذي قتل الاله الشرقي برأفته
لا يتورع أيضاً من أن يقتل الاله الذي أبدعه هو ، لا بالاشفاق والرحمة ، بل
بالعنف والقوة والسقوة التي أقامه على قاعدتها . فسمع زردشت عنوان التفوق
يقول : لقد هلكت حين بلغت قمة الوجود ! ، ليس المتفوق الا مظهر الظفر
والاندثار العنيف للانسان بوقت واحد.....

الى مثل هذه النتائج المضحكة المبكية يصل دائماً الفيلسوف الذي يريد أن
يعالج قضايا المجتمع بروح المادية المحضة ناظراً الى الحياة كأنها مرحلة أولها المهد
وأخرها اللحد . أما المؤمن الآخذ بانوار الوحي فانه يعترف بقصوره عن حل
المشاكل التي تخرج عن حد الأعمال المادية لقيام الحياة فيلجأ في ذلك الى المبادئ
العلوية التي حملتها الى العالم آيات الكتب المقدسة وألهام الشرق المؤمن بوحدة الله
والانسانية وبالحق الطلق يتمجد بالقوة كما يتمجد بالضعف ويلوح في الابتسام كما
يلوح في الدموع ويشرق على الروح في ساعات ارتياحها كما يشرق عليها في ساعات
محنها وأوجاعها .

إن الحياة راسية في جوهرها على الألم ، فليس في العالم رجل واحد سلمت بنيه
من داء دفن ينمو معه ليرافقه حتى باب قبره ، ونيتشه يقول للمقاتلين .
(ضعوا حياتكم والأمم حداً وليكن دستوركم « الاتحار واجبٌ والهزيمة
الى الفناء واجبة »

إن مدينة الغرب تتجه على هذا السبيل الذي يرسمه نيتشه في كتابه والذي

نراه مرسوماً أمام هذه المدينة في عراكها العنيف في حين أن الشرق بقي حتى في أشد أدواره انحطاطاً وفي أطبق مراحلها ظلاماً يتطلع إلى الإصلاح على أساس إيمانه واعتقاده بالخلود بعد جهاد هذه الحياة .

وخير ما يمكنني أن أجابه به نظريات نييتشه نظرات لصنوجبران الاستاذ الفيلسوف الشرقي أمير الریحاني في إصلاح الانسانيه ، وهذه النظرات اقتطفها من خطاب القاه في بيروت في ربيع سنة ١٩٠٩ وكان موضوعه المدينة العظمى .

...

(ومن يتجاسر أن يتكهن في هذه الايام ؟ ، من يدري ما في المستقبل لشعوب آسيا الصغرى ؟ فقد ترهبو المدينة العظمى فوق أطلال بابل ، قد يشيدها الزمان على ضريح نينوى ، قد ترتفع صروحها وأعلامها وأبراجها وقبايعها تحت هذه السماء الجميلة على هذه الشواطى ، التاريخية المقدسة أمام هذه الأمواج التي شاهدت جنازة مجد آسيا وستشاهد إن شاء الله موكب بعثه .
الى أن يقول .

عبثاً تسن الحكومات الحرّة شرائع حرّة إن لم تطلق أنفس العلماء وأرباب الفنون من قيود المصلحة وهموم الارتزاق .

(قيل لبعض العرب ، ومن سيديكم ، فقالوا فلان فقيل بيم ، فقالوا احتجنا الى علمه واستغنى عن دينانا ، فثله تكون العلماء والأمرء وبمثله ستفاخر المدينة العظمى سائر مدن العالم . وقال اعرابي آخر ، إعلموا أنني حاسدت عليكم حتى صرت عبداً لكم أغدق على سائلكم وأصفح عن جاهلكم ، وأحوظ حريمكم وأدفع غريمكم فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي ومن فعل دون فعلي فهو دوني ، فهل ياتري يوجد بين

التمدين اليوم من تجتمع فيه هذه الخلال الشريفة كلها؟ أفلا يحق لمدينة المستقبل أن تفاخر سائر المدن بمثل هذا الأمير؟

وبين رجال العرب من كان أعظم منه ، دخل ابن العباس على علي بن أبي طالب خارج الكوفة وهو يقطب نعله فقال علي ما قيمة هذا الثعل فقال ابن العباس لاقية لها فقال علي لهي أحب الي من أمرتك إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلا . فلمدينة العظمى هي التي يكثر فيها مثل هؤلاء الرجال العظام الصالحين . هي التي يتعوّد كل امرئ فيها محاسبة نفسه فاذا كان ممن لهم شيء من الشهرة أو المجد أو القوة أو النفوذ أو السلطة أو المال يسأل نفسه كل يوم وما قيمة هذه الاشياء كلها إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلا .

ما الفائدة من الشهرة أو السيادة أو المال اذا كانت لا تساعدني على نصره الحقيقية وإقامة الحق ودفع الاباطيل والأضاليل ، ما الفائدة منها اذا كانت على الأقل لا تبعدني عن هذه الظلمات وسكانها ، عن أسيادها وعبيدها ؟ وقد قيل شر من الجهل نصره الجهال وأسوء من الضلالة الاحتجاج للضلال .

إن المدينة العظمى هي التي تُنصر فيها الحقيقة قولاً وفعلاً ، هي التي يروج فيها الصدق كما يروج الكذب في العالم اليوم ، هي التي يعيش فيها الادباء والعلماء لا للشهرة والمجد وكسب المال ، بل لخدمة الحقيقة فكراً وقولاً وفعلاً . إن النفس الراقية متى تعيش لهواها وشهواتها فقط لأشبهه بالكلب يقضى حياته عند أقدام سيده ، والعجب في أمر هذه النفس أنها كلما أمعنت في اللذات اكفهرت في وجهها آفاق الحياة . وقد قال أحد الصوفيين :

إِنَّ المَرَائِي لا تُرِيكَ مَ عيوبَ وَجْهِكَ في صِداها
وكذلكَ نَفْسُكَ لا تُرِيكَ مَ عيوبَ نَفْسِكَ في هَواها

وعلى هذا النمط الرائع يذهب الريحاني في تصوير أمنية الانسانية في يقينها بالله، سائراً مع إلهام الشرق على معارج الاعتلاء الروحي، في حين أن نيتشه ينحدر الى أعماق العدم في تصويره أمنية الأنسانية الجاحدة بصلفها وكبريائها.

والريحاني المشبع بروح الثقافة السامية التي بقيت أربعين جيلاً محور دوران الافكار في العالم والمطلع بعلمه الغزير على أغوار مدنية الغرب ومناهج نزعاتها، يرجع بك في آخر خطابه عن المدينة العظمى الى الزمن القديم الذي وقف الرعاة فيه بوجه الكاسحين العتاة فيصغى الى صوت النبوة لسمعك اياه معززاً باليقين برجوع البشرية الى وحي الشرق لتهدى الى حياة صالحة تقود الى الكمال في الخلود .
اسمع الريحاني يسرد لك رؤياه .

(وهناك أمنية أخرى ، نبوة لاحد الانبياء ترددت في ذكرها ، وليفة كنت أفكر في هذا الموضوع طرق بيتي طارق ففتحت فاذا بالباب شيخ جليل عارى الرأس حافي القدمين لابس فيصاً بيضاء فوقها رداء أسود مسدول على هراوته ولما فتحت، دخل دون استئذان وسار توا الى مكتبي وجلس هناك على كرسي أمامي ، فأخذني من أمره العجب ، ولكن قبل أن بادرت به بالحديث قال .

— جئت أحقق أمنيته وأمدك برأي آخر من آرائي ؛

فقلت والدهشة تملأ نفسي — ومن أنت ياسيدي ؟

فقال — أنا هو ؛

— هو من ؟

— هو الذي يخطر الآن ببالك وتحير نبوته قلبك .

— تالله ؛ ، أنت اشعيا بن أموص .

— نعم ، أنا اشعيا .

فنهضت فوراً وقبّلت يد النبي ، ولما رأته تبسّم تشجعت وقبّلت شفّتيه
ولما ترالا ملتبهتين بكلمات النبوة ، ثم تجاسرت فقلت

— ألم تتنبأ ، يا مولاي منذ الوف من السنين بجبل يرعى الذئب والحمل فيه
معا والأسد يأكل التبن كالبقرة والناس يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل؟
فأخنى النبي رأسه مجيباً بالإيجاب فقلت

— أو لم تقل في روساء أورشليم إنهم عصاة وشركاء اللصوص وإنهم يحبون
الرشوة وإن الرب سيقطعهم من اسرائيل؟
فأخنى النبي رأسه ثانية فقلت

— وها قد مضى على ذلك ، يا صاحب النبوة ، اوف من السنين ، والعالم لم
يزل كما كان يوم صببت عليه شأيب غضبك ! .

فاجاب اشعياً قائلاً — إن الوف السنين التي مرت على نبواتي هي كالدقائق
في عين الله . والاجيال بالنسبة الى الأبدية هي كالساعات بالنسبة الى الاجيال ،
فلا يريبك كلامي ، وردّد نبؤتي ولا تحف ، بشر بالمدينة العظمى في بلادتي وبلادك
ولا تيأس .

وقبل أن فتحت الباب استحال شعلة وتوارى عن الأبصار .

ليس ما أقوله مزاحاً ، فأن للانبياء المقام الرفيع في العالم الروحي وهم لا يزالون
يسيطرون على الأ نفس المتسامية ، واذا أنت حككت نفس اكبر نابغة في العالم
تجد في لها شيئاً من روح النبوة .

المدينة العظمى ، إذاً ، هي التي تم فيما نبوة اشعيا ، هي التي يسير فيها معاً
الذئب والحمل والنمر والجدى ، هي التي يرتاح فيها الناس من شرور المفترين على الله
وانبيائه ومن خرافات الجهل والتعصب والطغيان . بالمدينة العظمى هي التي

يكثُر فيها أمثال علي بن ابي طالب واشعيا بن آموص ، وذلك الأُمير العربي الذي ساد قومه لانهم احتاجوا الى علمه واستغنى عن دنياهم . »

أفليست هذه الروح ما تلمسه في مبادئ جبران ، بل ما تلمسه تحت كل قلم شرقيٍّ بأقدار مختلفة ؟ جبران لم يتخذ إذًا زردشت مثلاً يحتذيه في ما أراد نشره من مبادئ بينها وبين مبادئ نبيته مهاوٍ وأغوار ، كما أنه لم يلجأ الى اقتباس مبنى كتاب النبي عن القالب الذي وضعه نبيته لبطله كما أكد لنا نعيمه بقوله (صفحة ٢٠٦) هذا هو (القالب) الذي اختاره جبران ولكنه ويا للأسف لم يكن كله من صياغته فشكاه الاجمالي مستعار من نبيته وزردشته .

ويذهب ميخائيل بعد إيراده هذا الحكم المغلوط معدداً ما توهمه في كتاب النبي اختلاسا من زردشت ، على أن من يدقق في هذه المقارنة ويلقي نظرة على كتاب زردشت يتضح له أن المختلس المقلد إنما هو نبيته نفسه لا جبران لأن الاول أوجد بطلا لروايته عهد اليه برسالة الجحود والكفر والدعوة الى إنكار جميع الفضائل ، فدفع الى العالم بالمسيح المزيف ، يتبع طريق المسيح خطوة خطوة ليهدم بشارته الوقحة شريعة التضحية والرحمة ومقاومة الشر بالخير . فما زردشت ، إذًا ، إلا مجسم المباديء الآرية في شركها وإلحادها تنتفض من مكامن الغرائز الخفية متمردة على الروح السامية التي هيبت من الشرق على الغرب ، فلزردشت انقطاعه عن العالم مدة بهيئة فيها نفسه للقيام برسائله ، وله جبله يتجلى عليه ، وله خاصته وأتباعه ، فهو المعلم السائر بين الناس هادماً لكل ما يراه ضلالاً في إيمان البشر منادياً بالانسان المتفوق ، الانسان الذي يخلف إليه الشرق المتلاشي ، حتى أن نبيته لم يفض عن إقامة وليمة لمسيحه دعاها (العشاء السري) جمع فيها أتباعه

حواله وبعد أن أعلن أحدهم أنه استحضّر الخمر ولا ينقص العشاء غير الخبز
هتف زردشت . وهو يضحك .

(ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بلحم الخراف ايضا ولدي
هنا خروفان .)

وقال بعد ذلك .

(أنا الشريعة لا للعالم بل لأتباعي فقط وعلى أتباعي أن يكونوا قساة العظام
خفاف الأرجل . عليهم أن يفرحوا في الممارك فرحهم في الولايم ، فلا يهتّمون
ولا يبالون بل يستعدّون لعظامّ الامور . لي ولأتباعي خيرات الارض فاذا مُنعت
عنا أخذناها بالعنف ، لنا نحن الذّ طعام وأنقى سماء لنا أقوى الافكار وأصفاها ولنا
أيضا أجمل النساء)

بمثل هذا يتكلّم زردشت في وليته او عشائه السريّ وعلى هذه الوتيرة
ينسخ نيتشه الانجيل فيمسخه ليهدم مبادئه متكهّبا على الخبز والخمر رمز
التضحية لخلاص العالم .

بمثل هذا يتقدّم نيتشه الى قومه ليحجي من أذهانهم ذلك العشاء السري
الذي غسل فيه المسيح أرجل تلاميذه ليقول لهم إن كبيرهم خادمهم ويدعوهم الى
ان يحبّوا بعضهم بعضاً كما أحبهم هو . . .

لو أن جبران اقتبس من زردشت حياة مصطفىاه لكان أولى بنعيمه أن
يتهمّه باقتباس شكل الانجيل مباشرة إذ أن جبران لم يكن بحاجة الى مؤلف
الذي يهديه الى الانجيل المحفور على قلبه بمعانيه ومبانيه ، على أن جبران لم يقتبس

شكل كتابه الاّ من تصوّره الروح الراقية تلقي بخلصة اختباراتهما لانهاء الحياة عند مبارحتها الحياة ، فما شأن قلب زردشت في هذا الوضع ، واذا نحن ذهبنا مع نعيمه الى القول بأن جبران إنما اقتبس من حياته نفسها حياة مصطفى روايته ، فان نعيمه ليقع اذ ذلك في تناقض واضح لا مخرج له منه . وهذا ما يقوله نعيمه بهذا الموضوع (صفحة ٢٠٧) أما من عرف جبران كما عرفته فلا يصعب عليه أن يراه ويرى بعض ظروف حياته وكل أشواقه في المصطفى وظروفه وأشواقه فما أورفليس التي كان فيها غريباً يترقب رجوع سفينته الاّ نيويورك او امريكا وما (الميتر) التي اكتشفتها وآمنت به الا ماري هاسكل ولا الجزيرة التي كان يشقاق اليها الاّ لبنان .

كيف أمكن لنعيمه وهو يعتقد هذا الاعتقاد أن يتّهم جبران بالتقليد ، أيكون مقلداً من غمس قلمه في قلبه ومن ألقى بخطوط حياته نفسها على لوحة العبر لي رسم للناس عقيدته من ذوب دماغه وقطرات قلبه ؟ يتضح اذاً بعد كل هذا أن كتاب النبي برأ من معاني زردشت ومبانيه بل هو مناقض له بجملمته وكيف نجتمع بن مؤلفين وقف أحدهما على قمة الآرية وتسمم الآخر ذرى السامية ويدينها الأغوار السحيقة القرار .

* * *

لنتناول الآن تهمة أخرى ألصقها ميخائيل بصديقه اذ أرزه للناس مرأيا بيدي ما لا يضر وينصب نفسه داعية مبادي لا يعتقد بصحتها .

أرجع ، أيها القاريّ الكريم الى صفحة ١٩٠ من كتاب نعيمه اذ يقول إن جبران كان عائداً معه من نزهة فوقف فجأة وهتف .

— ميسا ، أنا نبيّ كاذب I'm a false alarm

ويذهب ميثا في تفسير هذا القول مذهباً غريباً يعبر عنه هكذا بالحرف .
(ولعل الطبيعة التي لا تعرف التكتم والتستر سطت على جبران بكل ما فيها
من سحر التعرّي والصدق والامتثال ، وبأسرع من لمح الطرف أنارت كل
زوايا قلبه وخزائن نفسه فجعلته ينجل من كل ما نجباً فيها من ضعف تردّي برداء
القوة . وتصنّع امتسح بمسحة الجمال وشهوة نهمه بدت كأنها العنفة الصائمة ،
فراى نفسه نبأ كاذباً ، وهاله أن يكون ذلك النبأ في حضرة الطبيعة التي لا تعرف
الكذب ولا الغش وهاله أكثر من ذلك أن يكون رفيقه الماشي بجانبه ممن
صدقوا النبأ ، فلم يتالك من الاعتراف له بل لم يجد كالأعراف اصديقه منتقياً
لقلبه ومطهراً لنفسه)

أحتى في ترجمة كلمة Alarm ترتكب الخطأ ، يا ميثا ، فيقودك هذا الخطأ
المادي الى هذا الحكم الصارم على أخيك ، أفليس معنى هذه الكلمة (النذير) الذي
ينبئه الى خطر يتوقعه ، فإن منها النبأ والنبأ ، ولولا انك تهيبت لقلت النبي
والنبوة ، وكلا المعنيين واحد .

إذا كان جبران قال لك هذه الكلمة فلا يمكن أن يكون ما دفعه الى الهتاف
بها ما توهمته فيه من ندم على كذب وتبكييت ضمير على خداع .
نستنتج ذلك اولاً من معنى الكلمة الصريح وثانياً من الظروف التي
لابست الحادث وثالثاً من تصريحك أنت عن الحادثة التي سبقت هتاف جبران .
ارجع الى ما مررت .

(وكان حديثنا في قطعة قرأها لي من أمد قريب عن المحبة وقال انها ستكون
الأولى من سلسلة قطع على شاكلتها ينوي تأليفها ونشرها في كتاب سيدعوه
(النبي) وكان سبق لي ان ابدت له إعجابي بتلك القطعة وأرتياحي لانتقاله

من التمرّد على الناس وحياتهم الى نفهم أسرار تلك الحياة وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكاسي ، وأنتهى من الكلام الى الصمت الذي هو أفصح من كل كلام . قطعنا مسافة ... واذا بجبران يقف فجأة ويضرب الطريق بعصاه وينادي بي . - ميشا انا نبا كاذب ...)

أذن لا يمكن هتاف جبران ناشئاً عن نوبة عصبية اجتاحت دماغه فجأة بعد أن وقف ملياً أمام جلاء الطبيعة فأخجله الخداع في نفسه ، وما دام هنالك علاقة بين هتاف جبران والحديث الذي تقدّمه ، فما معنى الذهاب الى سبب بعيد لا علاقة له بالموضوع . وفي الحادث نفسه تفسير يفرضه المنطق علينا فرضاً ، اذا ما فهمت كلمة النذير كما يجب أن نفهم .

إن جبران الذي كان حتى المرحلة الاخيرة من حياته يرى شرور العالم ومفاسده فينوح ويتموّد أنا فأنا ويقف نذيراً للناس منادياً بالويل والثبور كان قد اعتلى بلوجاهه وأسقامه نحو القمة العليا فانكشفت امامه آفاق جديدة في روح الانسانية السائرة نحو التكامل على سبيل الآلام ، وكانت أول زهرة من ازهار حديقة النبي تفتّحت في خياله وهو يتملّص رويداً من عواصف مرحلته الاولى فاحسّ بأن النذير فيه اصبح على وشك أن ينقلب بشيراً .

وكان النزهة التي قام بها جبران مع اصحابه ميخائيل ونسيب عريضة وعبدالمسيح الحداد ، وبقائه معهم مدة في أحضان الطبيعة يرتقون المرتفعات ويهبطون الى الاغوار ويقفون الى متراميات المياه من الشلال الصاحب ، كل هذه المشاهد الخلابّة التي وصفها نعيمه أنخم وصف قد أرسلت نسمة من صدر الطبيعة الى صدر جبران فتفتّحت فيه جميع الازهار التي ملأ منها صفحات كتابه النبي .

وتحت هذا التأثير تكلم جبران وتحدث الى صديقه ميخائيل عن هذا الكتاب ، وثلت هذه المحادثة فترة تفكير عميق في الصمت ، فما انقطع تسلسل التفكير في دماغ جبران بل كان ولا ريب يقابل بين مرحلته الاولى كندير وبين المرحلة التي كان يواجهها ليندفع اليها بشيراً ، فتميّز بهذه المقابلة أن مسالك الضلال ليست الا مآزق لا بد للروح من أن تجتازها للاشراف على آفاق التحرر في الحق والخير .

وقف جبران بين نعمته فيما مضى وبين آفاق الاشفاق والرحمة التي رآها تنفرج أمام بصيرته فلاح له أنه كان منخدعاً عندما كان نذيراً .

وهذا نعيمه نفسه يؤيد تحليلنا بما قاله في الموضوع صفحة ٢٢٠ .

و جبران قد أدى في النبي شهادة في نفسه تكاد تكون الكمال بعينه ، فمن يشهد تلك الشهادة عليه أن ينسى ذاته الفردية ليجدها في الذات العامة فلا يبغيض انساناً لأن كل الناس ولا يملك شيئاً لأن كل شيء له ولا يهرب من الألم لأنه الطريق الى الخلاص ولا يدين مجرمًا لأنه يدين نفسه ولا يطلب مجداً لأن كل مجد باطل وإن هو لم يفعل كل ذلك كانت شهادته كاذبة .

إن نعيمه يعرف اذاً تماماً ما وصل اليه جبران من مرتبة روحية عند ما كتب النبي ، ومع هذا فهو لم ينسك عن القول بأن جبران كان أنانياً وكان لم يؤدب نفسه بل أنه يذهب الى أبعد من هذا اذ يقول أن جبران بالرغم من وصوله الى هذا الاعتقاد الذي يداني الكمال كان مستمراً بالخضوع لعيوبه على السير وراء شهواته ، لذلك كان يعزّي نفسه بقوله إن روحه ستعود الى الارض لتتغلب على ما استعصى عليها في دورتها هذه .

غريب كيف يفلت نعيمه من المقدمات الصحيحة الى الاستنتاج المناقض لها ،
فهو يريد أن تبقى حياة صديقه مناقضة لمداركه الروحية حتى يجود بأخر أنفاسه .

أما وقد فرغنا من البحث في حياة جبران وأظهرنا الخداع نعيمه في تقدير
الضلال فيها ، فليس لنا الآن إلا أن ننظر في ما إذا كان جبران أخلص في رسالته
أم كان يخادع الناس فيها كما قرّر نعيمه ذلك من ترجمته وتفسيره لكلمة النذير .

إن جبران بدأ أن يكون نذيراً ثم أدرك الوحدة بشيراً وهل من تناقض بين
الانذار والتبشير . أمّا كان الوعيد في كل مذهب روحيّ مقدمة تنتهي دائماً بالتبشير
بعفو الله ورحمته ؟ لقد كان جبران في إنذاره وثورته يدور في دوائر الارادة الجزئية
واذ لاحظ له آفاق الارادة الكمية العليا ، ارادة الخالق في قضائه وقدره الخليل له
في ساعة من ساعات المجادلة النفسية أنه كان مخدوعاً عندما ثار بعنف على شرور
الناس وأهوائهم . وهذا ما أهاب به الى الهتاف فجأة بقوله .

انا نذير كاذب .

على أن الترجمة الحرفية للتعبير الانكليزي لا تفيد المقصود منه تماماً ، وسوف
يتضح من تحليل هذا التعبير انطباقه على ما نرى نحن لا على ما رأى نعيمه .

(أنا صرخة ضلولة بالويل والثبور) . هذا أقرب ما يمكن ان نعبر به
بلغتنا عما قد يكون جبران هتف به . فالمقصود هنا ليس الصارخ بل الصرخة

ولا مجال للقول بالكذب إذ ليس في النعت ما يفيد الكذب بمعنى التفضيل
والخداع بل عدم الاصابة في توقع الصارخ ويلا وثبوراً .

وعلى كل حال ، نرى أن جبران ما كان ليكتب هذه الكلمة اثناء تفكيره وبخثه ،

وهو في الواقع لم يكتبها ، بل قد يكون هتف بها في ساعة خشوع امام صفاء الطبيعة بعيداً عن الناس ، قد يكون قلها وهو عائد من ساعات قضائها في الحقول تحت السماء الصافية فأنساه جلال الطبيعة لحظة تلك العيوب التي ثار عليها بكل ما في نفسه من التشوّق الى الجمال ، وهي العيوب التي يجب على كل انسان أن يجاهد للتخلص منها بارادته الجزئية . . .

أجل إن جبران ما كان سيلقي هذه الكلمة اطلاقاً كما فعل لولا التأثير الموقّت الذي كان لم يزل مستولياً على نفسه ، وجبران يعرف جيداً أن كل رسول دعا الى الصلاح إنما كان نذيراً وبشيراً .

وما بدأ المسيح رسالته الاّ نائراً مؤنباً مقرّعاً أفما دخل الهيكل فقلب مواثد الصيارفة وكراسي باعة اللحم صارخاً (بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوف) أفما انتفض بوجه الاشرار نذيراً مهدداً ، اذ كان يقول لهم ويلٌ لكم ايها القضاة ، ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون إن هذا المسيح النائر المهّدّد المنذر بالويل للاشرار ، هو نفسه البشير الذي قال باركوا لاعنيكم واحسنوا الى من يسيء اليكم ، وهو نفسه أيضاً ذلك المصلوب الهائف في احتضاره (اغفر لهم يارب ، لأنهم لا يدرون ما يفعلون)

* * *

في العالم شرور وجب على رسل الفكر ، كما وجب على رسل السماء أن يثوروا عليها مهتدين منذرين ، وفي الحياة ايضاً سرّ القضاء المحتوم على الارواح في سبيلها نحو الاعتلاء ، وهناك سرّ الارادة السكّاية في محور الوحدة وسرّ النوايا في الاعمال ، وتلك أسرارٌ اذا ما تجلّت للمريد المتشوّق لا بد له من النظر بعين الرحمة والاشفاق الى هذه الفياق المندفعة من الأرحام الى القبور ولكل جندي فيها سواء

في خيره أو شره جلجلة وعرة يرتقيها حاملاً صليبه المرهق متوجّجاً
باء كليته الشائك

على المفكرين اذاً عند مقاومتهم ما يلوح لهم من الشرور في العالم أن
لا يسرفوا في تقدير قوتهم على نفوذ حقيقة الحوافز في الاعمال ، فالإنسان اضعف
من أن يدرك المقاصد الخفية في الارادة السكّية وقسط النية الفردية في الخطأ
والاجرام لأن مثل هذه الدينونة تفوت اقتدارهم واذا هم وضعوها في ميزان عدلهم
انحطم جسره بين كفتيه

ربّ كذبة أفضع من سرقة ، وربّ سرقة أفضع من قتل ، وربّ قبلة
أفضع من زنا في عين من بيده وحده ميزان المقاصد في الوحدة الشاملة وميزان
النوايا في الاعمال الانسانية .

انما الاعمال بالنيات ، ولكلّ امرئ ما نوى

* * *

هذا الخطأ في فهم الحكمة التي قالها جبران قادت نعيمه ايضاً الى إصدار أشد
الاحكام صرامة على صديقه ، لأنه يعلنه بشهادته على نفسه كاذباً في أقدس ما في
حياته : في رسالته :

ثم أتدرى بماذا ختم نعيمه خطائه هذا ، اسمع .

(صفحة ١٩٠) ومثلها هال جبران أن أكون مخدوعاً بظواهر حياته عن بواطنها،
هالني أن يمضي في اعترافه امانى فيجلو نفسه العاتية للمتمردّة امام عيني وينزع عنها
دروعها العديدة ويتركها عريانة وبلا سلاح . . . ومن ثمّ ، فمن انا لأقتبل اعتراف
نفس ، وأن تكن أختماً لنفسي وقد تكون نفسي أحوج الى الاعتراف منها . لذلك

عندما حاول جبران أن يتوغل في تشريح (النبأ الكاذب) غيّرت مجري الحديث ،
وأسرعتُ في السير ...

* * *

إذاً ، مَنْ اعترف لك يا ميخائيل ، بجميع أخطاء جبران وزلاته وجرائمه ؟
أ تلك النفس المتمردة ذات الدروع العديدة كانت تعرّت عن دروعها أمامك
لتكشف لك عن جراحها وقروحها ، بل عن الجراح والقروح التي انفتحت من
جرائمها في نفوس الآخرين أيضاً ؟ أجبران كان المعترف ، فأصغيت وتحريّت
وطلبت التفاصيل كلها منه ... أهو الذي قال لك إنه استغلّ ماري بمالها واستغلّ
ميشلين بمالها وأوجب قتل طفله ، ... فوقفت تستمع هذا الاعتراف الرهيب ،
ولم تغيّر مجري الحديث ، ولم تسرع بالسير ... ولم تتوار ، كيلا تسمع ما يهولك
وما لا تقبله نفسك ؟ ...

في أيّ الموقفين ، خدعت ، يا ميشيا ، أعند ما ألّفت رواية أخيك فأنتيت
بحوادث لا يمكن أن تصل اليك الا بطريق الاعتراف ، أم عند ما قلت لنا بكل تواضع
وقداسة : ومن ثمّ فنّ انا لا أقبل اعتراف نفس وأن تكن اخاً لنفسي

* * *

لنقف عند هذا الحد في تحليل الوقائع في حياة جبران وقد عرضناه على نور
المنطق فأمحت خطوطها السوداء وقد اعترف ميخائيل نفسه بالتأويل الصحيح الذي
لا تأويل سواه أنه هو موجود هذه الوقائع تحميلاً او استنتاجاً من مقدمات انجلت
ظواهرها الغرارة لدينا .

لقد شأت العناية ، يا صديقي ميشا ، أن يتصل قلمك رأساً بعقلك الباطن
فمحا بعبارة واحدة جميع ما حبك عقلك لأقامة هيكل روايتك وقد نشرت عليها ،
ولا نكر ، بروداً زاهية من روائع الحكمة وبدائع الفن .

لقد تداعى هيكل الرواية ، يا ميشا ، لأنه أسس على أخطاءٍ واوهام ،
غير أن البرود التي تجلله لا تزال خفافة في أجواء الادب العربي بل في أجواء
الادب العالمي .

وكيف يُقضى بالزوال على مثل هذا الانشاء المتدفق حكمةً وشعوراً في
وصفك احتضار جبران ، وفي فلسفتك العالية تجاه الحياة والموت ، وفي وصفك ،
من نفسك لا باسان جبران ، كل ما حاق به من نكبات وكل ما تحمّل من
أوصاب واوجاع ، بل كيف لا يُخلد بين طرائف الأدب وصفك لرسوم جبران
وما كتبتّه تحت عنوان سكرة ثم صحوة ثم سكرة وما وصفت به مدينة نيويورك
وأخيراً وبخاصة ما قلته عن جبران في حفلة الاربعين .

دعني ، يا ميشا ، بعد أن نقلتُ للنقد ما أخطأت فيه أن انقل لتمجيدك
الفقرات الآتية من وصفك لجبران ومن فلسفتك العميقة النافذة الى
قلب الحياة والموت .

(كلنا على الطريق ، ويا لها من طريق مفروشة بالاجوع ، مخددة بمعثر
المطامع مظلمة بخيالات الشهوات ، غير أن روح الله يرفّ فوقها ونور الله يتخلل
ظلماتها . وما الفرق بين السائرین عليها الا في أن البعض يتوانى في السير متلهياً
هنا وهناك بحلاوة لا تلبث أن تنقلب الى مرارة ، والبعض يجد في السير عالماً
أن كل ملذات الارض جذورها في تربة الألم . وأن الألم ابن الجهل ، وأن لا غلبة
على الجهل الا بالمعرفة وأن لا معرفة الا بالحق .

كلنا آنية للحق ، إننا لانسع منه الا بقدر ما نفسح له مجالاً في نفوسنا
فالجرّة التي ملأناها خلاً يستحيل عليك في الوقت ذاته أن تملأها خمرأ ، كذلك
القلب الذي أترعته بشهوات الارض أتى لك أن تملأه باشواق السماء .
وبالاحرى إننا نعكس الحق بقدر ما تكون صفيحة الروح فينا صافية
أو غير صافية . »

إن روح جبران خليل جبران من الارواح التي صفت للحق فاصطفاها
وفي ذلك مجدها ، وفي ذلك شقاؤها ، لأن الروح التي تعكس الحق صافياً ولو لحظةً
واحدة تتألم فيما بعد كلما انعكس عليها ما ليس حقاً . وأين الآم الارواح المعكرة
من الآمها . والعين التي تلمح وجه الجمال المطلق ولو لمحة واحدة تدمع دماً كلما
وقعت بعد ذلك على وجه ما ليس جميلاً . وأين من دموعها دموع العيون التي
لا تبصر الا جمال الارض .

(من ليس يعرف الآم جبران ليس يعرف أفراحه ، ومن ليس يعرف أفراحه
لا ولن يدرك تلك القدرة التي مكنته من أن يرسل الآمه وأفراحه موسيقى
تترقق في مقاطع من السكام والواناً تذوب وتجمد افكاراً واشواقاً حيية
وخطوطاً كأنها سلام تنحدر بك الى اقصى دركات الالم البشرى وتصد بك الى
عرش الاله الساكن في قلب كل انسان . وفي ذلك يدنينا جبران من أنفسنا
لانه يدنو من نفسه ويجلو صفائح ارواحنا بجلائه صفيحة روحه ويمجدنا بالحق
الذي يتمجد به . »

أما وقد انتهى بحجتي في كتابك ، وقد قمت به مجرداً نفسي عن كل اعتبار غير ما يدعو اليه الحق أو ما اعتقدته حقاً ، كما فعلت أنت عندما عقدت فصول هذا الكتاب ، فاني أعود لأرسل اليك ، الى الصديق الكريم الذي ظللني وأياه سقفت جبران ، هذه الكلمة التي لا يسمعك الاعراض عنها

أني اعتقد باخلاصك في ما أعلنته في مقدمتك وأرجو أن تعتقد أنت ايضاً باخلاصي في ما رأيت وما اعتقدت ، فأنا أعيذك من أن يتملكك غيظ صغار المفكرين تجاه ما يؤججه اليهم من انتقاد . لقد عززت كل رأي لي بأدلة قد أكون مخطئاً فيها أو في بعضها ولست أطلب غير الأدلة للعدول عنها ، ولا اراك ناقماً علي من أجل صراحة اضطرت اليها لبيان ما رأيت خطأ في كتابك ، فانك لو فعلت ، لتبرر نغمه الكثيرين عليك لما أبديت من صراحة في ايراد ما اعتقدته أنت ضلالاً لا في مبادئ أخيك جبران فحسب بل ايضاً وبخاصة في علاقاته وحياته . .

لقد رأيت في حياة أخيك جبران المراوغة والكذب والضلال ، بل رأيت فيها زلاتٍ وجرائمٍ لم تتردد اخيراً في نقلها للتاريخ قياماً بواجب رأيت الحقيقة تلقيه عليك ، فعلت هذا ولم يخطر لك أن روح جبران ستدينك وتنقم عليك في عالم الخلود ، فدعني أعتقد إذاً أن روحك المجردة في عالم الفكر والشوق الى الحق لن تحرم ذاتها من الحلم الذي نشدته في جبران وأهله وأصحابه

((٥))

منابت الأطفال

إصلاح الأسرة

الزواج في نظر العلم وفي نظر القانون - تكوّن الأجنّة ، والكرموسوم في الخلايا - الانتخاب الطبيعي والإختيار - الغيرة من الماضي والحذر من المستقبل - الافراط في التقيّد والتفريط في الانطلاق - رأيان للسيد قدور بن غبريط والدكتور عبد الرحمن شهبندر - سلطة الرجل على المرأة - القتلُ محافظةً على العُرض - الغلاميات في الحضارة الحديثة - الفريده موسىه يوضح أسباب تهديم الأسرة في بداية القرن التاسع عشر - المسيحية وموجة المادّية في الغرب - قوانين نابوليون والشرائع الموحى بها - المعضلات الاجتماعية في مدينة الغرب وعلاجها - المرأة التي لا قوامَ عليها - نظام الأسرة في المسيحية وفي الاسلام - التقيّد بالحب والانطلاق مع الشهوات - أبناءُ الحبّ وابتناء الكره - أثرُ عاطفة الأبوين في الأبناء - الزوجة المُختارة والزوجة المُغتصبة في أمومتها - تعدد الزوجات في صدر الاسلام وفي هذا الزمان - رأي الاستاذ عبد الله الزائد في تفسير العدل في التعدّد - ضلالة غربيّة ، الخليّة المشروعة والخليلُ المشروع - الطلاق في المسيحية وفي الإسلام - أطفالُ الشرق العربي في الأُسرتين المسلمة والمسيحية - إصلاح الأُمّة بأصلاح منابت أطفالها .

المجتمع بأفراده ، والأفراد بما أورثهم الآباء فطرة وبما أولوهم علماً وتهذيباً ،
فما الأمة إلاّ الطفل اذاً ، وانما تنشأ الامم من منابت أطفالها .
إنّ النبات ينمو على الأسمدة يمتصّها فيحوّلها نُسغاً صافياً ، وتلك ازاهر
الدم من تنوّراً باسمه فتّواحة فوق أقذارها . اما الحياة فأنّ نبتت في الأقدار فهي
أشدّ قذارة من منابتها .

نحن في الشرق ، وما أعني سوى الشرق العربي مجلي ثقافتنا ومدار قوميتنا ،
لا يهمنا سوى إيجاد الطفل ولم نزل مسيرين بعقلية القبائل الفازية ، نطمح الى
الكميّة لا الى الكيفية ، وكم على أرضنا من طفل كان خيراً له لو أنه لم يولد .
يقول لك علماء وظائف الاحياء — اجمع بين الأب المفتول الساعدين النقي
الدم والأم القوية البنية في مستقبل الحياة ، وخذ منهما الطفل سليماً صالحاً للحياة .
وتقول لك الشرائع على اختلاف نصوصها في مراحل الزمان بين كل الشعوب —
اجمع بين رجل وامرأة بعقد صحيح يتفق والنصوص المرعية ، يكن لك الطفل
الشرعي بصحة نسبه وحقه في ميراث أبويه ومقامه بين الناس .

إنَّ الانسان ليس قلباً ورئتين وكبداً وكليتين فحسب ، بل أن فيه فوق كل هذه الاعضاء قوة الحياة المجهولة ، ويعتقد العلماء ان تلك القوة أعصاب ولكنهم يعجزون عن إدراك التفاعل فيها ، ويعتقد الروحانيون أنها جسد روحي ، والجسد الروحاني في عرفهم هو الانسان النطوي تحت لباس المادة الخشنة فهو مبدأ الحياة تأسره المادة المرئية الى حين ، وفي ذلك المبدأ المحجوب تستقر العاطفة المتمردة على العنق التوافق ابدأ الى الحق المطلق والاستقلال بذاتها .

لست الآن في موقف المرجح بين القولين ، ولا فرق في مبحثنا أن تكون تلك القوة الداخلية مستقرة في المادة مقولدة عنها او أن تكون متجلية من الروح الخفية ، ويكفينا أن نرى في الانسان قوة أديمة عليا لا ينكرها أحد لنقول بخطأ علماء وظائف الاحياء ، فإنَّ الطفل الذي يستولده جبار من جسارة جسماً وفي كليهما أو في أحدهما نفور وكرد واشمئزاز لا يمكنه أن يأتي الحياة الاً معتلاً مشوش التركيب ، واذا ذهبنا جدلاً الى إمكان انتقال قوة الاعضاء الى الولد من الأبوين في مثل هذه الحال ، فما هي فائدة الحياة نفسها والمجتمع من مخلوق سلمت اعضاؤه وفسدت حوافزه ؟ على ان اقتباس المولود لصحة الجسم لا تتم بتفاعل مادي محض في خلايا الانسان كما هي الحال في النبات والحيوان ، وانني لاقف لحظة امام ما نعمه من أحدث الاكتشافات في علم التوارث إذ ليس من الحكمة في مطلب كهذا أن نعتمد النظريات دون الاستقراء وإن يكن هذا الاستقراء العالمي في مجاهل الحياة لم يزل متلمساً متردداً حائراً .

لقد توفق علماء وظائف الحياة الى اكتشاف ذرات مستقرها خلايا الجسم وهم يعرفونها باسم « الكروموسوم » وعددها في كل خلية انسانية ٤٨ نصفها تمثل الأب والنصف الاخر يمثل الأم ، فإنَّ الرجل الذي يستقر في خليته

٤٨ عاملاً لا تجد في خلية تطفه الأ نصف عددها وهكذا الحال في المرأة أيضاً .
ويتضح من هذا أن الطبيعة قد هيأت هذا الترتيب العجيب ليكون المولود
منبثقاً شخصاً واحداً من شخصين متحدين على تواز تام بين ما يندفع منها الى
الحياة الجديدة . وهذه الذرات منظمة في الخلية على شكل سلسلة متصلة الحلقات
وهي مزدوجة في سمطها وفي هذه الحلقات تستقر العوامل او القوات التي تنقل
الى البنين طواع الآباء والأمهات في القامة واللون وشكل الملامح وتكوين
الاعضاء ، ويقول العلماء إن فيها أيضاً مستقر التفوق العقلي والخوازف الأديبة ،
بانين حكمهم هذا على تجارب أجروها على ذباب الفواكه لسهولة تشريحها وسرعة
توالدها ، وقد عقدوا فصولاً مطوّلة بينوا فيها كيفية التغلب للقوة أو للضعف
والارتقاء أو للانحطاط في السلالات الناشئة ، فقررروا أن سلامة الطفل من علة
ما يتوقف على تغلب الحلقة القوية تجاه الحلقة الضعيفة في الأبوين ، وتعبير آخر
ذهبوا الى أن كل حلقة في العقد المزدوج تكمن فيها صحة عضو خاص فإن كانت هذه
الحلقة ضعيفة في الأب وقابلها في الأم حلقة في موقعها قوية تغلبت الصحة على
المرض فيجىء الطفل سليماً والا فالطفل ينشأ معتلاً لان الحلقة التي يرثها عن
أبويه لا مناعة فيها .

تلك هي النظرية المبينة على الاستقراء لا يزال العلماء يتيهون في مجاهلها غير
أنهم يقفون مترددين في نظريتهم عندما يرون أن الاولاد الناتجين من أم واحدة
وأب واحد تختلف احوالهم الجسمية والعقلية والادبية ، فيقولون لك في بعض
الاحوال إن الطفل قد اخذ من السلسلة الاولى من الأم ومن الثانية من الأب
وان اخاه قد اخذ على عكس ما اخذ هو ويعودون أخيراً فيعترفون بأن قاعدتهم
لا تنطبق الانطباق التام الا على احوال النبات .

مما لا ريب فيه ، أن ليس كل رجل يصلح ان يكون زوجاً لأية امرأة كما أنه ليست كل امرأة تصلح زوجة لأي رجل ، اما استقراء هذه الجواذب والدوافع بواسطة المجهر فما لا نعتقد بإمكان التوصل الى تحقيقه لأن في حياة الانسان ما ليس في حياة النبات فنظرية استيلاذ القوي من قويين والعقبري من عقبين إنما هي نظرية فاسدة لا يقرها علم وظائف الاحياء نفسه .

إن الحياة تغالب الموت في هذا الوجود مفتشة على أصلح المنافذ للنشوء والارتقاء وهذه الحياة التي خرجت وراءنا من ظلمة الازل متجهة في هذا الكون نفسه الى أبد تغمره الظلمات ايضاً إنما تسير كالعاصف الكاسح على الجنسين فتلويها لسلطانها معتلية بالنوع فوق رمم أفراده .

على أنه في حين ان هذه الحياة تختار سبيلها بالسائق الغريزي في النبات وفي الحيوان عاملة على تحسين مجالها بالقضاء على الضعف الطاريء والاستبقاء على القوة الصالحة لما يحيا بها من جسوم ، فانك لترى هذه الحياة في المملكة الانسانية وهي أرقى وأشرف مجالها تلوئى في مسالك الشهوات المضلة والعقليات السخيفة منزلة بالتأهين أوجع الزواجر وأبلغ العسبر وهو لا التأهون لا يرتجعون عن غيهم فلا يشفقون على أنفسهم ولا يبالون بأنسألمهم .

إن الانسان لا يريد الأتقياد للاتخاب الطبيعي فهو يطمح الى تحكيم اختياره في حوافز لا يعلم منشأها ، فيعمد الرجل الى استيلاذ المرأة أطفالاً لتجلى فيهم كوا من علله وعلل المرأة التي يرغبها إرغاماً بدلا من أن ينقاد الى الانتخاب الطبيعي الذي تتذرع به الطبيعة للغلبة على العاهات والامراض وللقضاء على حوافز الخبل والاجرام .

إن الولد المختل العليل إنما هو الضحية البريئة تصفع الطبيعة به أوجه الرجال الفاحشين والنسوة الطامعات المضللات ، ولكن الحياة لا تعنودانماً لتحكم الانسان ولا تهيب زجرة وإرغامه فتضرب عن الظهور وتمتنع عن إيجاد الضحية ، وآخر ما اكتشفه منذ أشهر علماء جامعة كولومبيا بالاستقراء بعد ان كان الفكر يفترضه افتراضاً هو التنافر بين عناصر الذكر وأنسجة الاثني في بعض الاحوال مما يقضى بالعقم التام مع أن كلا من الزوج والزوجة غير عقيم .

إن ما تحقق علم وظائف الاحياء وجوده في خلايا الجسم من الاستعداد المتقابل في الجنسين اتلافي الخلل او لزيادة تغلبه إنما هو البرهان الوضعي المحسوس على أن للحياة ناموساً مستقلاً هو فوق اعتبارات الناس وما يضعونه من التنظيم للمعاطفة الجنسية المولدة .

وما كان الانسان ليجتاج الى الاستقراء العلمي خلال دقائقه وذراته ليعلم أن الطباق والايقاع يؤديان الى الارتباط المكين وأن الشذوذ والتنافر يؤديان حتماً الى التدافع والافتراق وليس الرجل والمرأة وترين على آلة صماء يُشدُّ أحدهما جواباً على قرار الآخر لأنه إن لم يكن هنالك طباق في الطبيعة نفسها فان المرأة او الرجل المختارة او المختار للشدة على طبقة زوجه ليسمعك صوت انقصافه بدلا من الايقاع المنشود فان لم يكن هنالك ارادة بالطبع نفسه تجاري الارادة الاخرى دون تكلف او إكراه ، فمن العبث أن نحاول إيجاد الطباق الممتنع أصلاً ...

ليكن منشأ هذا الايقاع تناسباً بين ذرات الخلايا والعوامل كما يقول العلماء المستقرون ، او فليكن ضعف هذه الذرات وقوتها مسبباً عن عوامل الكهارب التي تسود الخلايا بتفاعل مجهول ، او فليكن هنالك ما يذهب اليه الروحانيون من أن الخلايا والكهارب وكل ما يحتموي هذا الجسم من مادة ليس الاً خيالاً لروح

كامنة هي الحقيقة المستترة وأن من العبث أن يستقري العلم منشأ التجاذب والتدافع بتشرح الخيال ، فاننا نجاه كل هذه الافتراضات نبقى دائماً أمام حقيقة لا ريب فيها وهي أن الانسان رجلاً أكان أم امرأة مدفوع فطرة الى تسليم مشعل الحياة الذي يتوهج فيه مأخوذاً عن أبيه وأمه الى حياة تنبثق عنه لاستبقاء الجنس .

ومما لا ريب فيه ايضاً ان الطبيعة في حرصها على طابع الابوين في الابناء تطمح دائماً الى الجمع بين رجل وامرأة يصلح أحدهما ما افسدت الحياة في الآخر ، ولا يقف طموح الطبيعة عند حد إصلاح الاعضاء بل هو يتجه خاصة في الانسان الى إصلاح ما تطرق من عيوب الى صفاته الأدبية العلية ، ولعل في هذا بعض التفسير لسيادة الايقاع بين رجل وامرأة تخالفت أشكالهما وأوضاع اعضائهما ومظاهر قواهما الادبية والعقلية ، فقد لا تجد مصارعاً قوي العضلات يعشق مصارعة مثله ولا فيلسوفاً يتوَلّه بفيلسوفة ، ولكم وقف المفكرون مندهشين أمام امرأة فاضلة تحسّ بالجذاب نحو رجل متلاعب محتمل او بارعة في الجمال تندفع الى الالتصاق برجل قبيح ، إن بعض العشق ينشأ من حنان خفي في الطبيعة يشبه عطف الطبيب المداوي على العليل المستجدي الشفاء

أقول هذا ولا أريد أن أتخذ هذه النظرية قاعدة بالرغم عن تجليها لدينا في عديد الحوادث ، لان النقائص التي تتجه في الازدواج الى الزوال والعلم الل التي تطلب الشفاء أبعد مستقراً من أن ينالها استقراراً او تحديداً ، والضعف الكامن في أحد الناس يبقى مستمراً فيه خفياً حتى عن شعوره ، فكيف تتمكن نحن من

كشفه وتحديدده ، لذلك ورد في الأمثال وهي حكمة الأمم « لا جدال في الذوق »
وما أرى المتعني إلا سابراً أقصي اسرار الحب إذ قال .

إلى م طاعةً لله — اذل
ولا رأي في الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم
وتأبى الطباع على الناقل

ليس للعلم اذاً ، بالرغم مما يكشف لنا من أسرار الخلايا وما فيها ومما يستجليه
من عجائب الخلق ، أن يضع قاعدة يستفاد منها لتحسين الأنسال الإنسانية ، ولا
يمكنه أن يعزل الحوافز السرية في الحب ليقم قاعدة مقامها ، وقد وقفت ملياً
أمام قول أحد العلماء المنقطعين لدرس وظائف الحياة إذ قال — ليس من
المتعنع أن يولد عبقرى من أبوين عاديين ، كما أنه يشاهد كثيراً ولادة
مخبول من عبقرين ..

هذا ما توصل اليه العلم في مجاهل الانسال ،

اما واضعو قوانين الزواج المدنية فانهم لم ينظروا اليه الا من
حيث هو عقد يؤمن الحق والواجب الماديين ، ولذلك اختلفت المبادئ
التي أخذوا بها لتأثرها بالزمان والمكان على أن الشرائع الدينية على اختلافها
في هذا العصر لا تتجه بروحها الا الى تعزيز الأسرة واصلاح الانسال ،
وما نراه من الاختلال في منابت الاطفال إنما نشأ من جهل الناس وجشعهم
واطماعهم لا من الشرائع نفسها .

إنَّ هنالك ناموساً للصالح هو بمنزل عن علم وظائف الحياة وعن القوانين
فاين هو ذلك الناموس ؟

ليرجع كلُّ منا الى نفسه وتذكراته وليبعث في خياله الفترة التي
شعر فيها لأول مرة في حياته بذلك السرِّ الخفي الذي يسود الأكوان منذ
الازل وسيسودها الى الأبد .

هنالك ، في الماضي أو في الحاضر لمن هم في أوائل الشباب مشهد يستجلى
المفكر سرَّ الله فيه .

إنَّ العيوب المتحفزة للظهور والكالات الطامحة الى الاصلاح انما تكمن في
كل فتى وفتاة يشعر كل منهما بانجذاب نحو الآخر تبعاً لقوة مجهولة خفية لا غاية
لها الا استنبات الحياة . لقد خلق الحب خائفاً مرتعشاً والى جنبه ناموسه الجبار ،
ناموسه الصامت الهامس في الروحين كتمين هما كل ما يفهم العاشقان : كبة الغيرة
من الماضي والحذر من المستقبل .

أحبك . تلك هي الكامة الأبدية يدفع بها الرجل سر الكون من فيه ، أما
جواب الفتاة عليها فلا يرد الا استفهاماً فهي تنظر الى المستقبل مرتجفة
حذرة فتسأل

— وهل ستحبني دائماً أبداً . . . ؟ .

إن الرجل لا يتوجه الى المستقبل بقلبه بل يتلفت الى الوراء ، الى الماضي
وهو يقسم بالوفاء والثبات ، ماداً بابصاره الى أعماق عيني الفتاة سابراً أقصاهما
ليتحقق ما اذا كان هذا الهيكل الذي يتخذة مقاماً لروحه لم ترتفع فيه صلاة غير
صلاته ولم يحرق عليه بخور غير بخوره .

هكذا تصطفي الطبيعة المحبين لاستنبات الطفل الصحيح ، وهكذا تقبض

الغريزة على القلبين لتسخرهما لبقاء النوع ورفعها على مدارج النشوء والارتقاء .
ولماذا خصت الطبيعة الرجل بالغيرة من الماضي والمرأة بالخذر من المستقبل ؟
لماذا وضعت الطبيعة دليل الطهر في عين العذراء ودليل العفاف في جسمها ؟ ولماذا
غرست فيها هذا الخوف من تقلب الرجل وانحرافه عنها ؟
لقد توصل العلماء بالاستقراء والتجارب العديدة في الحيوانات وفي الانسان
الى استجلاء حقيقة رائعة نستمدل منها على صحة ما نشعر به من دوافع وحوافز ،
وتلك الحقيقة هي أن الطبيعة تتجه دائماً الى الوحدة وتأنف من الشرك وتمرد
عليه ، وقد شوهدت حوادث كان فيها نتاج الزواج الثاني من المرأة أقرب الى
مشابهة أطفال النتاج الأول ، وبتعبير أوضح إن امرأة يستنبت تاجها الأول من
رجل تبقى معرضة للاستمرار على الانتاج طابعا على غرار ذلك الزوج . إن هذا
الاكتشاف يبرر لدى المفكر هذه الغيرة المقدسة التي تتجلى في الرجل الطبيعي
الغير المفسود بمبادئ الاطلاق وبضعف الحيوية فيه ، وهذه الحقيقة نفسها تفسر
لنا هذا الخذر الغريزي في المرأة من تخلي الحب الأول عنها لأن الطبيعة تمرد في
نفسها فهي تراء بشخصيتها أن تصبح مستقراً للشرك والكون بأسره يتجه
الى التوحيد في ارتقائه .

إن ناموس الحب والزواج في الاصل إنما هو اندغام بين روحين وجسدين
إندغاماً حراً تحت سيطرة التجاذب المطلق من كل تضليل ، واذا هو تم وفقاً لهذا
الناموس فيندر أن تنفصم عراه مدى الحياة .

على أننا في هذا العصر الذي سبقته أدوار عديدة استنبتت فيها النسل من
التزاوج المكذوب ، لا يمكننا ان نحتم باستمرار الاتفاق بين عاشقين ما لم نثق
اولاً من أنهما كليهما قد ولدا من زواجين ساد الحب الحقيقي فيهما ، وكثيراً ما نرى

امرأة جنّ جنونها بمن أصبحت له زوجة حتى اذا انقضت فترة من الزمان تراها
مضعفة تحلم بالشرك والضلال ، وكثيراً ما نرى رجلاً يهيم بفتاة حتى اذا أصبحت
زوجة له عاقبها نفسه فذهب تائهاً في المواخير يحمده ما جناه أبوه عليه .

من الصعب إن لم اقل من الممتع أن يعرف حقيقة الحب ووحدته من ولد من
زواج لا يقع فيه ، إن أبناء الكره لا يحبّون ، والطفل المولود من شهوة حيوانية
حوالة يمتزج كوتر حبه دائماً بفلسلين الفحشاء

إنّ الام التي تصلبت في المحافظة على وفاق الزواج تجلّي الوفاء بكل قوّة في
انسالها ، لانّ غرائز الأبناء لم تضلل بشرك الآباء والأمهات في هيكل
الحب الصحيح .

وإن ما نراه من تسيّب في أوروبا والعالم الجديد في احوال الزواج إنما نشأ من
خروج عدد قليل اولا على قاعدة الثبات فدفع الانفصال الى المدنية بنساء تشوشت
غريزة الوحدة فيهنّ فولدن هذا العدد الغفير من أبناء اليوم الذين ينفصلون عن
أزواجهم وازواجهن بسهولة انفصال المسافر عن رفيق طريق .

إنها حالة مشوشة نشأت عن الاخذ بصرامة غير مشروعة وهل التعارف
محذور الاهل والأولياء لاستجلاء الاخلاق والشعور بما في الشخصيتين من
مهيئات التلاؤم مما ينافي حكمه الشرع ؟

قلت اولا إن الأئم تتكوّن من منابت الاطفال ؛ فهل نحن ندفع الى الحياة
بأطفال يصلحون لتكوين الأمة القوية اجساماً والسليمة عقولاً ؟ اذا ما نحن
أردنا الجواب على هذا السؤال وجب علينا ان ننظر الى كيفية وقوع الزواج
في بلادنا .

المشهد الاول . شاب يفتش على فتاة لتكون أما لبنيه ، قيل له إن في احدى

الأسر الشريفة فتاة بيضاء اللون أو سمراء واسعة الأُحداق طويلة القامة فاتنة
ساحرة خلابة ، فسعى في أثرها متوسلا الى أهلها بسرد مألديه من عقار ومال
وبائبات الكفاءة فاصبح زوجاً للمجهولة نكرة ضمت الى نكرة لايجاد المعلوم . . .
وقد كان أساس هذا الارتباط وفقاً لحرفية القانون لا لروح الشرع مبلغاً تقرر
بالاتفاق نصفه معجل ونصفه مؤجل ، وما يكون معنى هذا المؤجل في هذه الحال
ان لم يكن التحول للفراق في يوم الاجتماع ، أفما هو مبدأ الحل في الربط ؟ أفما هو
الكفن المهيأ الى جنب وشاح العرس أفما هو اللحد منتصباً امام المهد ؟

وتلك العروسة تشد على صوت الطبيعة المختنق في صدرها ، فهي تجود بكل
حياتها بصياتها ، بعافها ، بالصفحة البيضاء التي تبسط امام طامع شخصية ستصبح
طامعها الدائم حتى الموت ، ومع هذا لا يخطر لها أن تطالب بما منحها الشرع السامى
من إيجاب الثبات والاخلاص كما تقبل بهما عليها وكل ما تطمح اليه هو ان تصبح
زوجة للرجل دون أن يصبح هذا الرجل زوجاً لها .

اذا هي شعرت بنفور ، وأذرتها الطبيعة بشذوذ هذا الوتر يشد على وترها
إكراهاً فالويل لها وقد تخلت عن عصمتها إن هي أبدت إشارة يستدل منها على
ما في أعماق روحها وأعماق خلاياها من ألم .

إن بقيت هذه المرأة حيث لا تربطها عاطفة ولا غريزة ، فإن العقم يهددها
وهو أهون ما يحوط بها من شرور ، وإن ولدت فانها لا تدفع الى الحياة الا بالطفل
المريض جسماً العليل روحاً تتجلى في حوافره الخفية سلطة الأب الجار وعبودية
الأم الضعيفة ، وقد يخطر للرجل في ساعة غضب يسطو عليه أو وساوس تخامرة
أن يطرد هذه المرأة من بيته ، فيطرد معها ابنائه منها ، فتذهب ، حامله طفلاً
أو اطفالاً لها أن تستبقهم تحت جناحي حنوها سنوات معدودة على شرط

أن تنقطع الى الحياة بتذكار طاردها ممنوعة عن التزوج برجل آخر ، وأن فعلت
سُنخ أطفالها عنها وسُلموا الى قريباتها إن كان لها قريبات والاّ فالى قريبات
زوجها ، وهكذا تدفع الأُسر الشرقية الى المجتمع بايتام آبائهم وأمهاتهم
لا يزالون في الحياة .

وأشدّ إيلاماً من هذا ان ياؤي الرجل بيتين أو ثلاثة أو اربعة بيوت له
في كل منها امرأة واطفال .

وما تلك الاسر المتعددة على غير العدل المشترط ودون أن يكون هنالك سبب
اجتماعي أو شخصي يبرر هذا التعدد الاّ منشاء الخصومات والكراهة والعداء ينتقل النفور
فيها من الأمهات الى الأبناء فيقوم في كل منها جيش محارب ، وهكذا تهدي
الأسر الشرقية الى المجتمع الاخوة الاعداء ، وما يبرّ بابيه ووطنه من كان
لاخيه عدوا .

لنتحول الآن الى مشاهد أخرى ،

هي بين الرابعة عشرة والعشرين ، مقبوضة الشعر غلامية ، تصادر وتباطن
أيّ رجل كان ، مهتوكة الستر ، محولة هيكل الالسانية الى مهبط غواية وطيش .
إن لم يتجاوز مراقصوها الميثاق فهي مقصرة في ميدان الثقافة ، متأخرة في حلبة
الحضارة والارتقاء ، لا يصل قلبها الى من تقف عنده وتختاره زوجاً لاله أو لجاهه
الاّ بعد أن يكون هذا القلب قد تقطعت اعشاره خفوقاً ، فهي كالنعجة التائهة
الراجعة الى حظيرتها تترك قطعاً من صوفها على أشواك الطريق وقد تترك عليها
قطرات من دمها .

هي في بيت الزوج لنفسها أولاً ، وكل غيرة تبدو منه تعدّها ككفراً بالمدن
وتقهقراً معيباً ، تعودت أوتار قلبها أن تُشدّ جواباً لكل قرار فهي تدفع

بالايقاع الموقت مرافقة رنين أي وتر تستعذب نغماته . ، روحها شاردة مضللة ،
فهي منبت لأطفال يأتون الحياة مروعين ، في أعصابهم تشوش وفي
ادمغتهم إختلال .

هذه خطوط كبرى لرسم تمر مشاهدتها أمامنا كل يوم في هذه البلاد
الشرقية وهي مركز العلة فينا ومصدر كل ما نشكو من تأخر وانحطاط .

نريد أمة حية ، ولكننا نعرض عن مكافحة أسباب انحطاطها ، والعدد الغفير
من أبناء الشرق في إفراطهم وتفريطهم يدافعون عما استحكمت فيهم من أهواء تقضي
عليهم مدعين انطباقها على ما أنزلت السماء على الناس لتنظيم الحياة ، في حين ان
الالهام الأعلى لم ينزل على الانبياء الا للقضاء على ما يفسد الحياة ولاقامة العدل
في الأسرة وإنصاف الأُنسال الآتية من ضلال الآباء والآمات .

من واجب المفكر في علل الاجتماع أن يسبر العلة التي اقصى مكانها ، وما
تستوقف الاطباء مظاهر المرضى عن السير باستقرارهم الى احشائه ،

إن العلل تتجلى في المجتمع الشرقي العربي بين الطوائف المسيحية كما تتجلى بين
طائفته الاسلامية الكبرى ، واذا كنت أعلم من مكان العلل في الفيئتين ما لا
يقول عما يعرفه مفكرو كل منها ، فاني الجأ الى اقتباس بعض ما قاله مفكر ان
من أفاضل المسلمين في هذا العصر تعزيزاً لعقيدتي في سمو الشرع الاسلامي
واتقافه مع مبادئ عيسى في إقامة الانصاف وتحكيم العدل في منابت الاطفال .

قال السيد قدور بن غبريط .

« لقد كانت الشعوب القديمة العريقة في المعرفة والحكمة تميز اتخاذ
عشرات النساء حتى جاء الاسلام فحد ذلك وجعل له ميزاناً وحصره في أربع مع
شروط مرهقة كالعـدل والمساواة بين النساء في الهناء مما يجعل هذا التعدد

اذا تمسكنا بروح القرآن ضرباً من التحريم لصعوبة تنفيذ تلك الشروط ، وان
الجدل بين المسلمين انفسهم قائم في هذا الصدد ، وبعض العائلات تشتترط تحريم
التعدد في العقد والا كانت المرأة طالقاً والزم الرجل بكذا وكذا
« وحالة القبول هذه التبرعية الصريحة هي على كل حال خير مما يعمل عند
غيرهم من تعدد الخليلات ، وكان تعدد الزوجات عند البدو ثروة للأسرة وزيادة
للنسل وتعاوناً في البيت وهو ما كانوا في حاجة اليه ولا غنى لهم عنه ، ولكن
الأحوال الاجتماعية تغيرت والتطور جعل هذا عسيراً غير يسير لما يتبعه من
التكاليف للمعيشة أيضاً ، فنحن متجهون في الواقع الى اتخاذ زوجة واحدة وهو
خير وأولى . »

وقال الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، في درس له تحت عنوان القضايا الاجتماعية
« حدث ان سيدة تزوجت برجل طاعن في السن فاقام معها على اتم وفاق
عشرين سنة كاملة كانت له في خلالها حارساً اميناً صادقاً الى ان أقعدته الشيخوخة
وأضعفت مداركه الايام ، فطمع أهله في إقصائها عنه ليستقبلوا بثروته دونها ، فما
كان من بناته من زوجته السابقة واولادهن لان تألبوا عليه فمقدوا حوله
مجلساً مصطنعاً من موظفين شرعيين وعلى رأسهم مفتي الديار الشامية ، وهناك
بشيء من الاستفزاز والاغواء حملوه على طلاقها ، فلا الزوج المتعد المسكين كان
راضياً بهذا الفراق وهو في شيخوخته ولا الزوجة التي كانت في زيارة أهلها حيث
فوجئت في مساء العيد بهذا النبأ المحرم . وغني عن البيان انه لو لا سهولة الطلاق
لما حدث مثل هذا الفعل المنكر . »

« وأعرف رجلاً من بيت مشهور في مدينة سورية كبيرة وهو الآن في
نحو العقد السادس من العمر قد تزوج باكثر من خمسين امرأة ثيبات وابكاراً

فكانت عادته ان يبث العيون والأرصاد لاستيكشاف زوجة من البيوت المتوسطة
الفقيرة ليصرف معها ربحاً من الزمن ، فاذا قضى منها لباتته طلقها ونقـد
متأخرها بعد ما نقدّها الصداق المقدم المتفق عليه ، وقد قصّ عليّ كيف كان
يحصل على التقارير التي تهّمه في هذا الشأن فانه كان يستأجر نساء اخصائيات في
فحص الابدان كما يفحص القصاب الغنم السمينة فينتشرن في الاحياء ويدخلن
البيوت خاطبات حتى اذا رأين من أعجبتهن بهيئتها وطولها وعرضها قمن اليها
فكشفن عن عنقها وصدرها وساقها الى أخص قدميها ثم رفعن التقرير عنها شفها ،
فاذا صادفت هذه الصورة هوى في نفسه عقد وبنى ثم طلق ليعقد من جديد من
غير توانٍ كأنه آلة ميكانيكية .

« ومما هو جدير بالالتفات ان تلك المدينة وقد أظهرت عناية كبيرة بالشؤون
الدينية وأقامت الارض وأقعدتها لكل حادثة لم تطمئن اليها نفسها لم نسمع لها
صوتاً واحداً بالاحتجاج على هذا الانحراف مما يدلّ على ان الذين يعنون بالشؤون
الشرعية في تلك الاصقاع لم يجدوا شيئاً من الشذوذ في عمل هذا الرجل المطلق
الزواج الذي سخر بنات الناس لأرادته واستثمر ماله فيهن برّاً فاحش جداً . . . »
على ان هذا المفكر الاجتماعي لم يرضن برأيه الصائب ايضاً فيما يقع من
المساوىء في جهة مقابلة فقال أما الحوادث التي تكون فيها المرأة هي المزخرفة
والمزوّقة الى أن يتمّ العرس وينتهي شهر العسل قبل أن تكسّر عن نابها فاكثر من
أن تحصى ، واحصاء سطحي في الحي وبين الاهل والعشيرة فيه المقنع الكافي ، ولا
يك في أن مثل هذا الزواج المتنافر حمل طائفة كبيرة من الدول المسيحية حتى

العريقة في البروستانتينية منها كالدولة الامريكية على اياحة الطلاق والخروج عن قاعدة « فالذى يجمعه الله لا يفرقه انسان »

* * *

تلك هي العقدة الكبرى التي تدور حولها افكار المصلحين وتكمن فيها عمل الأمم كافة وقد منينا في بلادنا منها بأوفى نصيب ، فان الغرب في نظمه الاجتماعية اليوم تحمل شعوبه مسؤولية ما ينشأ عنها من مفسد ، واكثر الامم فيه تسير على مذاهب وآراء اجتماعية تختلف باختلاف البلدان والاطراف والثقافة ، في حين أننا نحن نتبع ما التوى فينا من أهواء ونسير بأنساننا الى الانحطاط مدعين أن ما نفعه إنما هو خير ما يفعل لأنه ارادة الله المملنة لنا في وحي انبيائه المطهرين . . .

على ذمة عيسى روح الله ، تكشف الصدور والظهور حتى الخصور ، وتقوم المفاخذة والمباطنة على ملاء الاشهاد ، بعد احتساء الكؤوس وتدويخ الرؤوس ، وباسمه تتخذ المرأة من دون زوجها العشير والرفيق ، وتحت لواء شريعة يذهب الرجل في حدائق الأسر هاضراً الغصون مستنشقا الورود . .

وعلى ذمة المسيح ايضاً يستفنز الرجل الى حمل العار او تلطيف يديه بالدماء .

عرفت في سوريا رجلاً من أعرق الأسر غزير العلم عزيز النفس بلاه الله بفتاة كاللواتي أوردت عنهن مثل النعجة التائمه وقد تركت صوفها عالقاً على اشواك الطريق ، تعودت التنقل في اهوائها مشركة بروحها وقلبها ، تزوجت من هذا الرجل الكريم فما انقضى شهر العسل حتى كسرت عن نابها ، كما قال الدكتور شهبندر ، وجعلت بيتها حلقة لاجتماع عشاقها الأولين ، ولم تجد مقاومة الزوج شيئاً ، بل تمادت الزوجة في غيبها فوقف الزوج للمسكين متردداً بين الترصد والقتل وبين

طرده هذه المرأة فأثر الطريقة الثانية ولكنَّ الزوجة ذهبت وشكته الى المراجع
الروحية واستصدرت حكماً عليه بنفقة طائلة يلزم بتأديتها ما زال قيد الحياة، ذهبت
المرأة حرّة طليقة تعيش بمال الزوج على هواها وتحمل اسمه، وقد كان عليه ان
يثبت زناها ليتخلص من النفقة، ولكنَّ من يمكنه إثبات هذا الأمر، وليس
الظهور مع الشبان ومراقبتهم والسفر معهم مما يصح مستنداً للقضاء الروحي
ليحكم بالخيانة الزوجية . . .

ولو شئت إيراد ما رأيت من حوادث وعبر لطلال المقال أياماً دون استنفاد
جزء مما رأيت، ويكفي كلِّ مفكر أن ينظر الى ما حوله ليعلم ما جنت على المجتمع
كلمة « ما جمعه الله لا يفرقه انسان » مبتورة من قول المسيح هادمة لمبدأه المعلن
بكل صراحة اذ وضع القاعدة العليا للزواج الصحيح بهذا النص الرائع . « من
طلق امرأة لغير علة الزنا فقد جعلها تزني ومن تزوج مطلقة فقد زنى » .

لن أذهب في بحثي، الى التوغّل في مجاهل اللاهوت وأقوال المفسرين، فان كل
اجتهاد ضد هذه الصراحة بردها العقل وأعوذ بعيسى نفسه أن يكون قد أراد
إلزام أحد المتعاقدين بعهد في حين إخلال الطرف الآخر إخلالاً يقضي على
صحة العقد .

أمن الانصاف ان تلزم تاجراً بالاستمرار على شركة شريك سرق حصته من
رأس المال وبددها على شهواته؟ وهل أغرب من ان ينضمَّ جسدان فيصبحان
جسداً واحداً ثم يخطر لشق واحد من هذ الجسد ان يتمرغ بالاقذار وان يفترش
الدناءة ويلتحف العار فيصبح جثة يضطر الشق الحي الآخر الى حملها والمسير بها
قسماً منتناً لذاته تحت الشمس

إنَّ بعض الطوائف المسيحية تقضي بالطلاق ، فهي تأخذ بالشقِّ الأول من قاعدة عيسى ولكنها لا تعمل بالشقِّ الثاني فتزوج المرأة المطلقة ، فترتكب تناقضاً بيّناً في التطبيق ، لأن القضاء بالطلاق على شريعة عيسى لا يجوز إسناده إلا إلى الزنا فهو ممنوع في غير وقوعه ، فإذا كان الطلاق يقع لعلّة غير هذه العلّة فقد خالف المطلق الشقِّ الأول من القاعدة وإذا سار وفقاً لهذا الشقِّ الأول فإنه بتزويجه الزانية قد أنشأ أسرة من زانية ، وفتح باباً لكل امرأة أن ترتكب الجناية الكبرى ثم تعود مستظلةً بالشريعة التي داست عليها .

أما الطوائف التي لا تقضي بالطلاق حتى ولو لجأت الزوجة إلى مواخير الفحشاء العلنية ، فلا يمكننا إلا أن نعتبر إغراقها بهذا سبباً لما يتجلى في أوروبا وأمريكا اليوم من الضلال البيّن في مسائل الطلاق المستحدث على قواعد هي أقرب إلى المهازل منها إلى القوانين الاجتماعية .

أليس من الغريب أن نرى أوروبا وأمريكا بالرغم من تخوفها من المباديء البولشيفيكية في وسائل المال والعمال تنقاد ان لهذه المباديء في نظام الأسر على ما فيها من خطر على الانسانية وارتقاء النوع البشري .

أمّا هذا التسبب المتطرف بين العدد الاوفر من الأسر المسيحية فلا اراه ينطبق في شيء على قول المسيح « من نظر الى امرأة ليشتتها فقد ذنى بها في قلبه » أعود بالهسادي الممتليء من روح الله أن يكون قد أراد وضع أساس الأسرة على ما نرى من ضلال ، كما أعود بالرسول العربي الكريم أن يكون أراد ما نشاهده من خروج على حق الله بارهاق عبيد الله .

إنَّ ما أوردته من أقوال فاضلين من فضلاء المساهمين يغنيني عن المسير

الى أبعد ما ذهبت ، ولكن لا بد لي من أن أورد شيئاً عن غرائب سوء فهم
الشريعة الغراء وسوء استعمالها .

حكمت محكمة الجنايات في بيروت في شتاء سنة ١٩٣٢ على رجل بالسجن مع
الأشغال الشاقة ثلاث سنوات لاغتصابه كنيته زوجة إبنة .

وكان ابن هذا الرجل فتى في مستقبل العمر زوجه أبوه بفتاة جميلة اتخذها له
على الطريقة التي لم نزل متبعة بين عدد وفير من أبناء الشرق وهي استحسان
الأقرباء والاتفاق على المهر ، وما كان الابن بالرغب في الزواج ولكنه نزل عند
إرادة أبيه ، ومضت أيام على عقد الزواج فاتضح ان العريس الفتى محروم من
الرجولة . صعب الأمر على أهل الفتاة وأدركت هي نفسها أنها تجاه مستقبل مظلم
لا معنى فيه فتقرر بينها وبين أهلها أن يطالبوا بالطلاق ، وأدرك الأب المحترم أن
مادفعه من مهر سيذهب جزافاً فترصد لكنته حتى دخلت الحمام في بيته وأسرع
اليها يتقاضاها قيمة المهر الذي دفعه من كيسه ، وعلا الصراخ يملأ جوانب البيت
الخلي حتى بلغ مسامع الجيران فهرعوا يستطلعون الخبر مذعورين فاذا الشيخ قد
أم جريمته والفتاة المسكينة على بلاط الحمام باكية نائمة . . . وانحنى الجيران
باللائمة على الشيخ مقبحين عمله الهمجي فاستغرب هو هذا اللوم ووقف مدافعاً
عن نفسه قائلاً — اذا كان ولدي ليس بإمكانه ان يتصرف بما دفعت ثمنه ذهباً من
كيسي ، أفلا يحق لي أنا ان أستلم ما اشتريت

ولكن القضاء لم يأخذ بدفاع المجرم فقاده الجند الى السجن ثم الى المحاكمة
وهو الآن يؤدي ما رآه القضاء متبقياً عليه من ثمن العرض المهتوك . . .

إن مثل هذه الفظائع غير مختصة بشعب دون آخر ففي العالم المتمدن يرتكب
الجناة أفظع من هذه الفعلة ، ولكن في دفاع هذا الأب عن نفسه ما يستوقف

الفكر ويطرح أمام الانصاف سؤالاً قد يصعب الجواب عليه .
إنَّ المغتصب رجلٌ أميٌّ من الطبقة المستغرقة في الجهل وقد لا يعرف من دينه إلا ما يقوده واستنتاجه الخاص إليه ، فهو يرى ناهراً أساساً للعقد في الزواج بين من حوله ، فلا يقدر أن يفهم أن المال يدفع للعروسة مهراً لا ثمناً للعرض وأنه عبارة عن هدية لا يجوز أن تحلَّ محلَّ الرضى بمُقدِّم الهدية نفسه ، إن هذا الرجل المسكين بمقلته قد رأى أنه تمكن من أن يتخذ لابنه عروسة ما رأته ولا هو رأساً ، بعد أن وقع الاتفاق على مبلغ من المال ، فقال في نفسه — إن أممي الآن فتاة دفعت ثمنها ، وبما أن ولدي لا قبل له بالتصرف بالمشتري وبما ان الطلاق سيخرجها من هذا البيت الذي أخذت منه مالا ، فمن العدل أن أتقاضى بنفسى ما حق لهذا البيت . .

إن هذا القرويُّ الجاهل لم يكن له في فعلته الشنعاء من حيلة يلجأ إليها تلمصاً من العقاب ، ولكنني أعرف رجلاً من أكبر مدن سوريا ، غنياً يشبه الرجل الذي عرفه الدكتور شهبندر وقد يكون هو هو بعينه ، بدأ حياته الزوجية بأن اختارت له نساء الحي فتاة من أسرة بينها وبين أسرته نسب ، فدفع مقدماً خمسين ذهباً وتعين المؤجل خمسين ذهباً أخرى ، ولما خلا بها لم رق في عينه فتركها ثلاثة أيام في بيته وهو يهيم بتطبيقها ، ولكن الفكرة التي جالت بدماع غاصب كتمته بدأت تراود دماغه ، فلم يلبث حتى نفذها وهو مصمم على الطلاق ، بعد أن أكد له أحد أقاربه المتقدمين في السن أن لا حرج عليه بما يفعل ، وأن ليلة أولى لا يمكن أن ينتج عنها ما قد يجرُّ إلى نفقة يطول زمانها ، وهكذا خرجت الفتاة المسكينة ثيباً بعد إمرار أسبوع في بيت الغاوي الميكانيكي ، ولعلَّ هذا التجرؤ الأول على امتهان كرامة العرض والتجاوز الفظيع على حق الله في الضعيفة البائسة قد كان الباعث الأقوى

في هذه النفس الشريرة الى التماذي في ارتكاب هذه الجرائم التي لا عقاب عليها الا
يوم الحساب .

إن غاصب كسنته يفترش بلاط السجن اليوم ، اما هذا الوجيه الغني فهو بين
جدران بيته يستعرض الأشباح الباكية التي مرت على قراشه فلا ته بالأزهار الحمراء
ولعل هذا الشيخ ينحر الآن ذبيحة جديدة على هيكل شهواته !!!
إن انفتاح باب الوقائع في معرض البحث عن العلل والمعولات يوقف
التذكار تجاه ممر طويل حافل بحوادث قد تكون أبلغ من التحليل لتشخيص الداء
المريع الفاتك بمنابت اطفالنا فتكاً .

وبعض هذه المشاهد يستهويني لأعرضها بالرغم من أنني لا اجيد للقصص
مخلاف في كلام المفكر الباحث ، ولكن ما أوردته من حوادث التسيب في مواقف
المحافظة على منبت الطفل يجرني الى إيراد أمثلة من حوادث التعصب للعرض
والدفاع عنه ، وسوف يتضح أننا نحتاج الى كثير من الاصلاح في العقلية السائدة
على شعوبنا .

في مصر كما في سوريا ولبنان وسائر الاقطار العربية ، لا يمر شهر الا
وهناك زوج يطلق النار أو يغمد السكين قاتلاً لزوجته ، ولا تنحصر هذه
الحوادث في الأزواج ، فهناك أخوة وابناء عم حتى وأقارب أبعدون يقدمون على
القتل وحمل وزره في سبيل العرض .

حسن أن يكون في الأمة غضب للصيانة وحمية للمحافظة على الشرف ،
وأحسن من هذا ان يكون في هولاء الابطال الشرفاء شيء من الشعور بالواجب
نحو المرأة التي يريدون منها ان تكون ملاكاً وهم أنفسهم أوضع جداً من أن
يرفعوا بذاتهم الى مرتبة الانسان .

في قرية من لبنان كانت فتاة لها أخ في العشرين من عمره وهي في السابعة عشرة ، عشقت هذه الفتاة شاباً فردعها أخوها عنه ، فبكت وأعلنت له أنها تحب عاشقها وقد ارتبط معها بمهد الزواج . تصلب الأخ في إرادته فاضطرت الفتاة الى الهرب مع العاشق طلباً للملجأ أمين يتمكنان فيه من كتابة العقد بسنة الله ورسوله ، وكلاهما مسلم ، ولكن الأخ طارد الهاربين ، وأطلق عليها النار فوقعت الفتاة تحتبط بدمها . وتولت النيابة التحقيق فأسفر الكشف الطبي عن بقاء الفتاة نقيه طاهرة عذراء . . .

وفي قرية اخرى ، كانت الفتاة . . . في العاشرة من عمرها عندما طُلمت أمها فزوج أبوها ثم طلق ثم تزوج مراراً فأسلم إبنته من الأولى الى ثلاث زوجات كن جلاّات عملن على نكاتها واذلالها فهربت الفتاة في الثامنة عشرة الى بيروت واشتغلت بالخدمة في بيت أو بيوت ثم استعادها بعض اقربائها الى قريتها فأخذها أخوها الى مغارة في ضواحي القرية وهناك ذبحها وواراها تحت الصخور السماء ، ومرّت على الجناية عشر سنوات ، فاكتشفها القضاء صدفة ، فألقي القبض على الأخ فلم ينكر ما فعل بل أعلن افتخاره بالذفاع عن عرضه وذهب مع المحققين يدلّ بنفسه على مدفن أخته فأخرجت من تحت الصخور عظاماً باليه .

وفي بلد اخر ، كانت امرأة في العشرين من عمرها زوجها أبوها صغيرة ومات زوجها فبقيت ثيباً من بعده ، وعشق هذه المرأة ابن عم لايبها وكانت تقطن في إحدى غرف داره . وشاعت الشائعات عن هذه العلاقة فجاء أخوها فأخذها الى بيته وما مضت ايام حتى وجدت قتيلة في غرفة من بيت هذا الأخ وفي صدرها سكين مغمدة الى نصابه .

إن في هذه الحوادث الثلاث ما يبكي للتفكير .

فتيٌّ غرٌّ يقتل أخته العذراء لأنها اختارت لها من أحببها زوجاً . ورجل أحمق
يقتل أخته لأنها لم تجد في بيت أبيها المطلاق المزواج الأاضطهاد والشقاء ، وهل
كانت تلك الفتاة مسؤولة عن عفاف طُرد من الحصن الذي وجب عليه أن يقيه ؟ ..
واخيراً ، رجلٌ أنانيٌّ جاهلٌ يوجب العفاف الزجريّ على أرملة هي أخته وكان عليه
أن يأويها الى بيته أولاً لأن يتركها تسكن بيت الغريب ثم يقاضها ويحكم
عليها بالموت .

جميل أن تكون في القلوب نخوة ، ولكن هل في هذه الحوادث وامثالها
أكثر من أن يحصى ، ما يهر استبداد الرجل المستقوي بالمرأة الضعيفة ؟ .
يربونها بلا أم ، ويحكمون بها النساء الغريبات السليطات ، فان هي هوت على
مزايق اعدوها لها اتهموها وحكموا عليها وقتلوها ! ، تحب ويريد أن تروج مجيبة
هاتف الطبيعة باختيار أب لابناتها فيخضبون الارض بدمها ، تبقى وحيدة شريفة
لا سند لها وهي في شرح الشباب فان هي هوت ظهر سندها المتواري عن العيان
عند الواجب ليدعي بحقه ويغمد السكين باسم الشرف الى اقصاه في قلبها !!!
ويل للأسرة منبت الطفل من هذه المبادئ والعقليات المضللة ، إن المرأة
التي لا تستند الى ذراع أب أو أخ أو زوج يقبها تحكّم الناس فيها ومرادتهم
لأنوثة منها لمظلومة كالمرأة التي يدعي الرجل أنه قيم عليها وما هو الأقيم على
شهوته بجأها ...

هنالك في الغرب ، وفيه كبرة في الشرق بدأت تسير في إثره ، تهجر
المرأة حصنها الحصين الى ميدان الاعمال لكسب رزقها بعرق الجبين متجهة الى
الاستقلال بالعمل والخروج على سلطة الرجل كما تقول الكاتبات المترجلات ،
وهكذا نشأ على وجه الارض ذلك الجنس الجديد الذي لم يظهر في مراحل

تاريخ الاحياء الأ مؤخرا وهو جنس الغلاميات اللوانى هربن من سلطة رجل واحد فوقمن تحت سلطات متعدّدات، لقد تتحرر المرأة الغلامية من سلطة رجل ولكن أنى لها أن تتحرر من سلطة الرجل؟ ... وهب أنها توصلت الى إقصاء قوة الكون من ذاتها، فان الرجل لا يفقاء يرى فيها صفات جنسها، فان هي نسيت انوتها ذكرها الرجل بها في كل موقف وفي كل زمان .

إن ما نندفع لاستحسانه واتباعه من نظم الغرب الاجتماعية قد أنضح زيفه لعلماء الغرب أنفسهم لخروجه عن المحور الطبيعي للحياة، وهذا الذى يراه أنصار الطفرة خليقاً بالاعجاب من حرية متطرّقة للمرأة ليس في نظرى الأ عنوان عبوديتها وذل الرجل المتساهل فيها .

إن آدم وحواء أخرجا من الجنة وكل منها حامل ناموس حياته، (عليه أن يستنبت الأرض خبزه بعرق جبينه، وعليها أن تؤمن استبقاء النوع البشرى) وسواء أكان ما جاء فى القوراة عن آدم وحواء وخروجهما من الجنة تاريخاً حقيقياً للمؤمنين أم اسطورة خيالية لغيرهم، فإنّ المفكّر ليجد فيه النظام الطبيعي الذى لا مستقرّ للانسانية الأ باتباعه .

لقد تمرّدت المرأة فى العالم الحديث على وظيفتها الطبيعية وصاحت كثيرات من الكاتبات يوجه الدنيا قائلات . — لا يزيدان محسبنا الرجل آلة للاستيلاء، نحن مساويات له فى مجال التفكير والعمل .

وكهربت هذه الكلمات أعصاب العدد الأ وفر من النساء، فتمرّدن على الأمومة واندفعن مطالبات بالعمل الحر استناداً الى مبداء الشخصية قبل النوع وهكذا نشأ العراك بين الرجل والمرأة فى ميدان الاعمال وفى مجال الحقوق والواجبات إننى، وقد شاهدت عن كذب حياة المرأة المترجّلة فى أوروبا والعالم الجديد،

لاَ نُظِرَ اليها والاسى ملء القاب ، تحاول أن تكون قيِّمة على نفسها ، فلا تصل
الألى ارهاق قواها بواجبات ليست عليها دون ان تملص مما أوجبه الحق الألى
منها وجعل حوافزه كامنة في غريزتها .

ولكننى اذا نظرت آسفاً على مظاهر هذا الضلال فى العالم المتمدن ، فلا يسعنى
الأ أن أضحك ضحكاً كالبكاء على عدد غفير من قادة الافكار فى هذا الشرق
العربى يتخذون هذا الضلال مثلاً أعلى لرقى المرأة فينادون أمتهم للاخذ به
والعمل على نشره .

إن الطبيعة نفسها قد قسمت العمل للحياة بين الرجل والمرأة فالصقت كفه
بالمحراث وألصقت صدرها بالسريـر ، فحسبت المرأة أن فى موضعها كل العبودية
وخيل لها أن فى مركز جهوده كل الحرية ، فساخت صدرها عن مستقر
الطفل واندفعت الى المحراث فتعطل الحرت العميق فى الارض ، منابت القوت ،
وساد الظلام على البيت ، منابت الأطفل .

أسمع المعترضات يصرخن قائلات . إننا لا ننازع الفلاح محراثه بل ننازع
الرجل حقنا فى الاشتراك بالاعمال التى تقوم المدنية عليها ، نريد التغلغل فى دوائر
الحكم والادارات والمصالح فان الله لم يجرمنا القوة الفكرية التى جاد بها على الرجل ،
وانا أجيـب سيداتى بحقيقة إن أنكرتها العاملات منهن كن كاذبات مكابرات
فاقول — وهل كل هذه الاعمال كلها على اختلاف مظاهرها سوى محراث يحتمك
بالارض القاسية وينسكب فوقه عرق العبودية والشقاء ؟

أليس رجل الحكم والادارة والصناعات والتاجر — كلهم مرتبطون بمحراث
العبودية لهذا التراب يعالجونه لاستخراج هذا الخبز بعرق الجبين ؟ وهل الأم
تملاً للبيت نوراً وحكمة وشعراً مستندة الى ذراع زوجها أو منحنية فوق سرير

طفلها أقل مجدداً أمام الحياة من أكبر رئيس لأعظم مصلحة من مصالح الشعوب؟ ..
ليس في العالم رجل عمل ، أيّاً كان عمله ، لا يخضع إرادته لمن فوقه ولن
حواله بل ولن دونه في مراتب الهيآت العامة ، فليس ما تتوهمه المرأة حرية في
أعمال الرجال الا عبودية لهم على أنه إذا تسنى للرجل أن يحتفظ بشيء من
الكرامة لشخصيته في هذه العبودية نفسها فانه ليمتنع على المرأة الا تصطدم في
مواقفة باهانات أخف منها أثقل ما يمكن أن يلحقها من القيمين عليها آباءً او
اخوةً او أزواجاً ...

وليُسمح لي أن أورد كلمة أعربها من كتاب اعتراف فتى العصر للشاعر
العالمي الخالد الفرد دي موسه الفر نساوي ، وما أجد أفضل منه مرجعاً يدلنا على
منشاء قضية الرجل والمرأة في طورها الحالي وقد بدأ عند نهاية حروب نابوليون
يونابارت في أوئل القرن التاسع عشر .

قال الفرد دي موسه

أثناء الحروب الامبراطورية ، بينما كان الآباء والاخوة في بلاد الالمان ،
قذفت الأمهات المضطربات بسلالة شاحبه جاءت الوجود عنيقة مستعرة الأحشاء
تلك سلالة تمخضت بها الحياة بين حربيين ، وريت في المدارس على قرع
الطبول فكان اذ ذلك انوف من الاولاد يحدج بعضهم البعض الأخر شذراً وهم
يمرّنون للقوة عضلاتهم الضعيفه . وكان الآباء اللطخون بالدم يلوحون لأولادهم
من حين الى حين فيرفعونهم لحظة الي صدورهم المحلاة بالذهب ثم يتركونهم الى
الارض ويعودون ممتطين صهوات الجياد .

وما كان في فرنسا حينذاك الا رجلٌ واحد يتمتع بالحياة، اما الباقيون فكانوا
يجهدون لاملأء صدورهم من الهواء الذي كان ينشقه ذلك الرجل ثم يدفع به من

رثيته للناس . وكانت البلاد تقدم له كل سنة ثلاثمائة ألف رجل في شرح الشباب ،
تلك كانت الجزية الواجبة الاداء لقيصر لأن تضحية هذ القطيع كانت لازمة
لأ مجاده ... بل تلك كانت المواكب التي حشدها ذلك الرجل لاجتياز الدنيا
والسقوط اخيراً في وادٍ حقير على جزيرة قفراء تحت أغصان الصفصاف الباكي .
الي ان يقول .

« وكان الامبراطور وافقاً يوماً على قبة ينظر الى سبعة شعوب تقتتل ، وما
كان يعلم اذ ذاك أيمتلك نصف العالم أم يمتد حكمه الى العالم بأسره ، فرَّ به ملاك
القضاء والقدر وصدمه بجناحه فهوى الى أغوار الأوفيانس البعيد .

حينئذ وقف رجال الامبراطورية الذين جابوا الاقطار ولطَّخوها بالدم الى
نساءهم الشاحبات وقبلوهن متكلمين عن الغرام القديم . وتحولوا الى أمواه الغدير
ينظرون فيها وجوههم وقد خددها الهرم فتذكروا أبناءهم وهم مائلون الى الساعة
التي يتلمس الانسان فيها من يغمض له جفنيه .

وخرج الانساء من المدارس فما وجدوا سيموفاً ولا دروعاً ولا فرساناً سألوا
عن آبائهم فقيل لهم إن الحرب أوزارها لأن القيصر قد مات . وقيل لهم
ان رسمي ولينكتون وبلوخر معلقان على جدران السفارات وقد كتب
عليها « مخاصم العالم »

في ذلك الحين جلست على أطلال عالم قديم شيبية تتنازعها الهموم .

الي ان يقول .

« ومرت في مجتمعات باريس أمور مدهشة اذ انشق الرجال عن النساء ،
فلبست النساء البياض كالعرائس وانشح الرجال السواد كالآيتام . ووقفت الفيثتان
نحج احدهما الأخرى بلفقتات العداء

« ان هذا الثوب الأسود الذي يلبسه رجال عصرنا لهو دليل انقلاب هائل لانهم ما تشحوه الا بعد أن تساقطت شارات الشرف ، وتمزقت الأزياء وتناثرت أزهار الاثواب المزركشة على الحضيض ، وما كان ذلك الا انتصاراً للتعقل على الآمال العائرة ، ولكن التعقل في انتصاره تجلبب بالسواد حزناً كأنه ينشد العزاء والسلوان »

« وسادت مجتمعات طالبي العلم ورجال الفنون انقلابات عامة بعد ان كانت مجلى الحرية الحقة ومبعث المسرات البريئة النقية ، انفصل الرجال عن النساء فتولّد عن هذا الانفصال شيء أشبه بالنصل القاطع الذي لاشفاء لجرحه ، وما ذلك الشيء الا عاطفة الاحتقار

« فقد الرجل حب المرأة فاندفع الى الخمر والى الكؤوس ليستعويض عما فقد ، ونظر الناس الى الحب نظرهم الى الدين كأن كليهما توهم واغترار .

« وغصت المواخير بالرجال فاصبحت الفتاة مهملة بعد ان كانت تغذي الشيبية بحبها الطاهر السامي ، واذا احتاجت هذه الفتاة الى غذاء ورداء باعت نفسها وبذلت عرضها لتعديش . ياللعار . . . إن ذلك الشاب الذى ترك تلك الفتاة وكان يمكنه أن يبادلها الحب فيستنير ان كلاهما بانوار شمس الله ، ذلك الشاب الذى كان في وسعه أن يقتسم مع حبيبته لقمة الخبز مغموسة بعرق جبينه ويتمتع بحبها المجيد في فقره ، كان ينطرح على دمن الانسانية في مواخير الفسق فيلتقي هنالك الفتاة نفسها مثقلة بالأوصاب ، شاحبة مضئبة ، يجول على فيها الجوع ويرعى قلبها التبدل والفساد . . . »

* * *

هذه هي الحلقة الأولى لسلسلة المدنية الحديثة وما نجد لها أروع من هذه

الصورة يرسمها للتاريخ رجل مازال يغمس قلمه في قلبه حتى استنزف دماءه سطوراً
تشع من قطراتها الأنوار .

هذا رجلٌ من أعقل ما انبتت تربة الغرب من رجال وما أمجبت من قلوب ،
يكشف لنا عن تطوّر الحياة الانسانية في أوروبا كلّها في الربع الأول من القرن
التاسع عشر وقد كان معاصراً لهذا التطوّر يقيس مداه بمقاييسه الدامعتين ويزن
أثقاله بما ألقاه على قلبه الكبير من الآم . وهذا الشاعر الخالد هو القائل ، « وسمعت
الدينيا في ذلك الحين ضجيجاً هائلاً هو صوت صخرة القديسة هيلانة تسقط
على العالم القديم . »

إنّ مدينة أوروبا القديمة التي كانت مؤسسة على ما اقتبسته من الوحي المنزل على
الشرق كان قد دبّ الهرم فيها فهبت عليها زعازع الحروب ، وما كان بونابرت إلاّ
مجسم القضاء متشعراً الاثرة والنف مصلطاً سيف عزته قاطعاً به كل استبداد
سوى استبداده ، وما هوى الى القبر المفتوح في جزيرة القديسة هيلانة الاّ بعد
ان زعزع العقائد والتقاليد التي كان ارسلها عيسى روحاً محيية من الشرق فسخها
الغرب آلهة وأصناما .

ومنذ ذلك الحين ، منذ قرن كامل اجتاحت العقلية المادية الغرب بأسره
فشى العقل الانساني حاملاً مشعل دماغه المادي غير مؤمن بشيء الا بنفسه .

كتب موسسه صفحات طويلة عن حالة عصره الأدبية فرفعته هذه الصفحات
الطالفة بالشعور الصادق والاخلاص للإنسانية الى مصاف العباقرة الخالدين وانى
لا أملك نفسى وان طال البحث من أن أورد شيئاً من خطوط هذا الرسم
الكبير الذي يوضح لنا بكل جلاء اتجاه المدينة الحديثة في أوائل خطواتها .

قال موسسه .

« ولم يكن حينذاك من سيادة اغير الجحود ونكران كل ما في السماء وعلى الأرض ، فكانت شبيهة بذلك الجندی الذي سُئل بماذا تؤمن ؟ فأجاب أو من بذاتي . ولكن هذه الشبيبة كان تجيب من يورد عليها هذا السؤال - إني لا أو من بشيء .

« وانقسمت الأنسانية الى قسمين فلاحت من جهة نفوس مضطربة متوجعة تموق الى الاعتلاء ، وتحفز للوثوب يحنى رجالها الرؤوس وييكون احلامهم الزائلة وأمانيتهم العائرة كأنهم في الوجود مقصبة تتمايل على مستنقع من الشقاء . وكان من الجهة الأخرى رجال المادة والشهوة واقفين بلا مبالاة على ركام الملاذ المحسوسة ولا هم لهم غير احصاء الاموال التي يمتلكونها ولم يرتفع من هذا المجتمع المكون من الثرقتين سوى زفرة وضحكة تلك من الروح وهذه من الاجساد . وكانت الروح تقول في زفرتها .

« ويلاه ، لقد تلاشى الدين ، وغيوم السماء تساقطت أمطارا ، لم يبق لنا أمل ولا رجاء حتى ولا قطعة خشب سوداء ترفعها هيكلنا نركع امامه متوسلين ، لقد تلفعت نجمة الصبح بالغيوم الكثيفة على مطلع الفجر فهي ضئيلة مترججة على أفقها فكأنها شمس الشقاء وكأنها مبرقة بدماء الثورات .

ليس ثمت من حب ولا مجد ، فما أحلك الظلام في هذا الليل المترامي باطرافه على الارض ، سوف يدركنا الموت قبل أن ندرك الصباح .

أما الأجساد فكانت تقول في ضحكها . وجد الانسان على الارض للتمتع بجواسه ، ولديه من المعدن الأصفر والأبيض قطع يستمد منها العظمة على قدر ما يملك منها ، من أكل وشرب ونام ، فذلك هو الحى . أما ما بين الناس من علاقات ، فالموءة أساسها استقرار المال ، ولقد توجد مثل هذه الصداقة المندفعة الى هذا

الحد من التضحية أما علائق القرني ففائدتها نوال الأثر ، وما الحب الأريضة
جسدية ، وما من لذة عقلية في غير الكبرياء والخيلاء .

« وملاّت الاقطار نضات أدب لا شكل له كأنه مسخ تعلقت غيلان
العصر بأندائه يرضعون منها الدماء !

« لقد ساد الشك على الكهول أما الشبيبة فما سادها غير قطع الرجاء .
وكان الشبان يخرجون من مدارسهم الى العالم بوجوه ناضرة وجباه متألقة وعلى
شفاههم لعنة الجحود .

« وكان الاغنياء يقولون . « لا حقيقة الأ في الثروة وما سواها فأحلام ،
فلنتمتع بالثروة ولنمت » وكان متوسطو الحال يقولون — « لا حقيقة الأ في ،
السلوان ، فلنسل ولنمت » أما أبناء الفقر فكانوا يقولون . « لا حقيقة الأ في
العذاب وما سواه فأوهام وأحلام فلندفمن باللعنات ولنمت »

من هذا الموقف دفعت الأ نسانية في الغرب اوائل خطواتها على سبيل
المدنية الحديثة ، فكان التمرد على النظم القديمة البالية وكانت الثورات التي خضبت
الارض بدماء السيد والعبد ، بدماء الظالم والمظلوم ، بدماء البري ، والمجرم جميعاً
واحداً رقص الشعب فوقه صاحباً با كياً ضاحكاً في سكرة الأ ماني المحطمة
والآلام المخدرة

من مثل موقف الرومان ومن مثل موقف العرب حين سادت الفظائع
الأرض ، خرجت أوروبا الى عهدا الجديد ولكن عيسى لم يكن مُهدياً ولا محمد
ماشياً في طبيعتها . كان إنجيلها حقوق الانسان التي كتبها الثارون بالدم المتمرد
وكان قرآنها القوانين التي سنّها نابوليون لأقامة الموازنة بين الحقوق ، ولكن

هذا الإنجيل الحديث الذي استمدَّ من إنجيل عيسى المساواة والانصاف لم يتناول
سواهما من مبادئ الاحسان والعطف والمغفرة والرحمة وهذا القرآن الجديد ،
قوانين نابوليون المستمدة من مذاهب الأئمة في الشرع الاسلامي وقف عند حدِّ
التنظيم المادي المحض لحقوق الناس فقصر عن الأخذ بما في قرآن النبي الهادي
من الدعوة الى المعروف والبرِّ بالأدنين والأبعدين من بني الانسان .

رأت بلاد الغرب ان الدين أصبح سلطة تواطأت طويلا مع السلطان
المطلق وما حوله من سادات الأقطاع وامتنع عليها أن تسليخ إنجيل عيسى عن هذه
السلطة فأنكرتها وأنكرت عيسى وتعاليمه معها . . .

وسارت المدنية الحديثة في طريقها مستنيرة بالعلم الوضعي منكورة كل ما لا تقع
الحواس عليه ، فاصبحت القوة وحدها المسيطر الأعلى تنبسط قاعدة رهيبة للعجل
الذهبي تمدّه باعتلائها ويمدّها بمعانيه .

وبقيت المسيحية دين الغرب ، ولكنها حُصرت في كنائسه وانكسرت
مبادئها عن الحياة نفسها ، وبينما كانت تقلى في المعابد كل يوم الآيات التي هبطت
على جبل فلسطين فهزّت الدنيا وقلبت المدنيات القديمة وتلى بعدها رسالات
الحواريين التي كتبت في السجون لتحرير الانسان ، كانت مدنيّة روما الوثنية
تنبعث من كل جانب لتدور حول الكنائس متمهقة ساخرة .

كانت الفتيات العذارى يخرجن من الكنائس بعد سماعهن قول بولس الرسول
بالتستر وحجب الشعور والاحتشام والطاعة للقيمين ، ذاهبات الى المراقص نصف
عاريات كأنهن الدُمى الرومانية نفخ إبليس فيهن نسمة الحياة .

إن العالم المتمدن المسيحي قد خلع الصيانة الصارمه التي أوجبها المسيح على
المؤمنين بالحق .

قال المسيح — كلُّ من نظر الى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه ،
والنساء يكشفن الصدور والظهور وما دونها ويلتصقن بالغرباء في رقصهن
مدعيات ، ويدعي معهن الرجال أن ذلك إنما هو للفن لا للشهوة ...

قال المسيح . — من طلق امرأته لغير علة الزنا فقد جعلها تزني ومن تزوج
مطلقة فقد زنى ، وهناك في أوربا وفي أميركا يطلقون لأتفه الأسباب ، بل
تلجاء المرأة الى إشهار علاقتها بعشيق لها لتنال الطلاق وتزوج به .

إنهم يدعون المسيحية ويعيشون كعبدة الأوثان فيلصقون بالمسيحية
أوزارهم ، تعالی روح الله عما يرجفون وعما يفعلون .

ومن ظن المرأة هي السبب الأول في هذا الفساد الأجماعي فقد ظن إنما
وهذا الفردى موسى وهو الذي شاهد بعينه أوائل أعراض هذا الداء الويليل
يقول . — وفقد الرجل حب المرأة فاندفع الى الكؤوس ليستميض عما فقد ،
ونظر الناس الى الحب نظرهم الى الدين كأن كليهما توهم واغترار .

إن غريزة المرأة لا تطمح الا الى الطريق الذي اختطه لها الناموس الطبيعي
في تكوينها ، فهي قد وجدت وفي أقصى غريزتها مكافحة الموت بشمرة الحب ، فما
أحبت امرأة رجلاً الا وكانت محبتها خيلاً متقدماً لمحبة الطفل الكامنة فيها .

إن شعور العذراء بتسليمها حياتها كلها عندما تستسلم للرجل ، إنما هو الدليل
الطبيعي الذي لا يندحض على وحدة المرء في هيكل الانسانية الفازعة الى البقاء

واذ كانت الفتاة قد لجأت الى المواخير كما يقول موسى لتأكل بشديها
وتلتقي هنالك من منع على نفسه أن يكون قبيماً عليها فاصبح مستغلاً لشقاها ، فانها
لم تلبث حتى تمررت على إذلاله لها في عرضها فلجأت الى العمل لتأكل بعرق جبينها
احتفاظاً على الأقل بحق اختيارها للرفيق الموقت او بالمرء على أنوثتها الكاسرة

من عزّة نفسها ، وهكذا بعد إن كان الفتى يلقى الفتاة التي تحول عنها في مواخير
الفحشاء ليذلّها أصبحت تلاقيه هي في ميادين الأعمال لتزاحمه على العمل متملّصة
من إذلاله .

وعندما تغلغت الايدي الناعمة في مرافق الحياة العامّة ، نشاء في المجتمع حقّ
جديد غريب في عناصره ، هو حقّ المرأة مفصولا عن حقّ الأُسرة التي يرأسها
الرجل ، وهكذا شاهدت الشمس ما لم يتجلىّ تحتها في أي عصر من العصور الغابرة ،
شاهدت النوع البشرى منشقّا الي فريقين متناظرين يتطاحنان في الميادين العامّة
بعد أن كان هذا النوع البشرى انساناً واحداً من جسدين مندغمين ينبثق من
اندغامها فجر الحياة

ليتبعني سامعيّ قليلا في هذا الاستقراء .

إن الحالة المرضية التي طرأت في اوائل القرن الماضي على عاطفة الرجل نحو
المرأة فوّلت حبه وغيره المقدسة الى شهوة وتسيّب قد نشاء عنها تهرب من
المسؤولية التي ترافق الارتباط والعهد في الزواج ، وجاءت الحرية المتطرفة وليدة
الثورة والضغط وتُصب تمثالها بشكل امرأة عارية فساد الاستهواء الدافع الى
الانطلاق من كل قيد .

لقد علمتنا عبر التاريخ أن العدل يحلّ في كل اشكال الحكومات كما أن
الاستبداد يتطرق اليها كلها وليست الجمهورية المضللة خيرا من الملكية التي
يسودها الهدى وقد كانت نزعات الاثرة والاستبداد سائدة في القصور فتمرد
الشعب عليها وأرسل معاولة تهدم في أساسها ، وفي خلال هذه الثورة وبعد انتهائها
فسد قلب الرجل المتحرر فكان السيادة التي قضى عليها في حكامه تقمّصت في
قلبه فاحقر المرأة وأرادها له كما كان هو لاسياده من قبل . هدم الرجل الباستيل

لأنه أصبح معقلاً لمن اختلسوا حق الحرية والحياة، وجاءت المرأة بدورها تهديم جدران بيته لأنه كأسياد الباستيل أساء استعمال سلطته .

إن المرأة لم تتمرد في أوروبا على سيادة الرجل، كما أن الرجل لم يتمرد على العروش والتهيجان، وما تمرد كلا الرجل والمرأة إلا على ما تجلب من فساد وأثرة في السلطتين .

على هذه الركاب المتهدمة مشى العقل الانساني يفتش على القواعد التي يرفع عليها الحياة فلم يجد غير القوة يتلمسها محوراً لكل اعماله، فتجلت هذه القوة في العلم والفرن وفي الفياق وآلات الدمار، ولكن كل هذه القوات تحولت الى خدمة العجل الذهبي، وهكذا قام كهنة باعال عند أقدامه يستثمرون جهود الانسان وبقى الانسان عبداً لما أوجد من نظم بعد أن انعتق من عبودية النظم القديمة المفسودة .

وما كان للحب أن يفلت من هذا التيار العام الذي جعل لكل شيء ثمناً يتحكم في الجهود بين العرض والطلب وهكذا نشأ الزواج الذي يصفه رجال الأعمال في أوروبا بالزواج الحكيم للجمع بين ثروتين وللوصل بين قوتين، أما الفتاة التي لم يكن لديها ما تشتري به زوجها فقد نزلت الى ميدان العمل المرهق، وكانت هذه فرصة لارباب رؤوس المال فانهزوها، إن المرأة تقنع بالاجر الأقل فاستبدلوها بالرجل فغصت المتاجر والمعامل بالآنسات ونشأت المزاحمة فاستحكمت حلقات الضيق في الأعمال .

إن أعضل المشاكل التي تواجهها المدنية في كل مرحلة إنما هي معضلة العمل، ومن من المفكرين لم يقرأ الفصول الطوال والدروس العميقة لايجاد العمل للعاملين، تلك هي حوادث الاضراب وحوادث العطالة ومشاكل تصريف زائدات الانتاج

تصدم الاجتماع المتمدن في كل فترة بما تعزّ معالجته ويتمنع صدّ تياره ، وقد وقفت ملياً أمام هذه الدروس يتعمق فيها رجال العلوم الاجتماعية والمالية فأرأيت لاحدث نظرة صائبة في تلافي هذا الداء العقام الذي يهدّد المدينة بالفناء .

لا أدعي التفوق على هؤلاء الاخصائيين ، ولكنني أراهم متعامين عن مواطن العلة لأنهم يتلقّون الحالة المختلة كأنها حالة طبيعية لا مطمع لهم بازالتها ، فهم كالطبيب الذي يرى في العليل أوراها يحسبها عرضاً لداء مجهول في حين أنه لو تميّزها لراها هي نفسها السرطان الذي يجب قطعه قبل أن يتصل سمّه بالجسم كله . يرافقني المفكرون في رحلة استقراء قصيرة تنظر فيها الى أبسط المظاهر بأبسط وسائل البحث .

نحن في قرية عدد أهلها الف نسمة تساوي عدد ذكورها بأنثها ، تنبسط حولها الارض المخصبة وهي متمتعة بكل وسائل الرقي .

في القرية ٤٠٠ ولد و ٣٠٠ رجل و ٣٠٠ امرأة ولهذا القرية سلطاتها المدنيّة والروحيّة وفيها المستغلّون برؤوس الأموال والعاملون في الارض وفي المصانع . الرجال يشتغلون في الخارج والنساء يقمن بواجباتهن في البيوت من إعداد الغذاء وتربية الأولاد ، وما يحصل من الانتاج يُستهلك نصفه في القرية والنصف الباقي يباع في الخارج ويستورد بقيمته ما يفتقصر القرية من مواد أخرى لا تصنع فيها ولا تنبت أرضها .

وكان أرباب الأموال قانعين بريح معتدل والعمّال يشتغلون وقلبيهم مشدود الى مراتع النساء والاطفال ، وقام بين هؤلاء الناس من فكرّ بإيجاد الآت تستخدم فيها القووات الطبيعية لتوفير الجهود على سواعد العمّال فأوجدوا من الماء والنار حركة تُستخّر في هذا السبيل فتوقفوا الى ما ارادوا ولكن أرباب الاموال ، بعد

أن جهّزوا معاملهم بما استحدث رجال الاختراع من قوَّات وأرسلوا على الارض
المحارث الجديدة رأوا أن يستفيدوا هم أنفسهم من جهود المفكرين فابقوا العامل
يعمل النهار بطوله بالأجرة نفسها، فزاد الانتاج وتضخمت جيوب الذين لا
يعملون وأرهق الاستعباد للآلة العاملين، وتذمّر الرجال، وأخذ التطوّر يغيّر
من عقله أبناء القرية رجالا ونساء، وحدثت انقلابات اجتماعية واخلاقية أدت
بالرجال الى استئصال وقر الأسرة وبالنساء الى التطلع الى ما فوق اقتدار الأزواج
من بدخ وترف، فاحلّت الروابط المقدسة ونمت في عواطف النشء الجديد
أميال الانطلاق من العهود، وهكذا أخذت البنات منازل الاباء الى ميدان العمل
طلبا للتعيش من غير يد الرجل فسار عن الاستعباد خارج البيت لقاء أجر أدنى
من أجر الرجل، وخلت البيوت تدريجاً من النساء فقامت المطاعم في أنحاء القرية
وانشئت الملاهي العمومية وقام مقام النظم القديمة نظام جديد هدم الأسرة
وبنى على أنقاضها مجتمعاً انطلقت فيه المرأة تنزع اللقمة من الآلة ومن الارض
مدعيةً أنها أصبحت حرّة وأنها نالت حق المساواة . ولكن المرأة التي قلبت
النظام الطبيعي في المجتمع لم تتوقف الى التحرر من الطبيعة الكامنة في فطرتها فبقيت
امرأة خارج الأسرة يسودها الرجلُ بعبودية عبودية جهودها التي تطوعت لها
وعبودية انوثتها وقد انقلبت العوبة الفاحشين .

وتحوّل النسل من الاسرة الطاهرة الى أफीة المراحيض فأصبح سبأخاً مع
سبأخ الأرض فكان من ذلك تحوّل الحب الهاديء العذب في قلب الرجل الى
نوع من الكآب واستحجال استسلام المرأة المطمئن الثابت جنوناً عصبياً، وهكذا
لاحت الفرزة الجنسية بين القوم اقتراساً في الرجال وسكّرات جنون تعقبها
صخوات الندم في النساء .

وخلت البيوت من لقمة الأم والزوجة تمدّها للأسرة مشبعة من روح
عطفها واعتنائها فانقلب الغذاء في الجسوم كالحب في الأرواح سماً زعافاً،

كان الرجل وهو العامل الطبيعي يجد في كل ميدان متسعاً لجهوده فأصبح
أصعب ما يقوم به السعي لوجود عمل ، فاذا ما توفّق اليه ، أمضى نهاره بالأوصاب
متدبّراً لا عنفاً حتى إذا أمسى المساء هرع الى الكأس يراودها نشوتها الكاذبة ثم
تحوّل الى مطعم أعدت ما كله التجارة مواداً مكدوبة هبّت فوقها أنفاس
الاستغلال وأخيراً اندفع ثاملاً ملء روحه الأسي الى فراش ليلة وزوجة ساعات.

وان كان لهذا الرجل زوجة وأبناء فانه يلتقي أهله عائدين من العمل تدخل
البيت زوجته وبناته المستخدمات مثله مسترجلات خالعات نير الأسرة ، وما تحمل
الحياة نيرين في وقت واحد .

وما هي بأسرة تلك الكتلة من الذكور والأناث يجتمعون للمبيت تحت
سقف تكون السيدة فيه امرأة مأجورة ، وقد لا يلام الرجل في مثل هذه الأسرة
إذا انتهى أن يكون كزميله العازب ، فان هذا قد خرج من بيته تاهماً في غربة
العالم أما هو فانه قد أدخل العالم الغريب الي بيته والى فراشه .

وساد الخللُ النظم الاقتصادي ، زاد الانتاج عن الحاجة فسدت القرى
المجاورة منافذ التصريف اليها ، فحرق أرباب الأموال نصف المحصول استبقاء
للتوازن في الاسعار ، وساد الجوع والعري لوفرة ما انتجت السواعد
وأنبئت الأرض .

إن لم تكن هذه الرؤى صورة منطبقة على شكل المدينة الحالية فليكدبها
أنصارها ، وما هم بمكذبين .

وإن أنا وقفت عند هذا الحد من الأخذ بالرسوم، فما ذلك إلا لأنني لم افتح
حدقة التصوير إلا على قدر ما تتسع للمشاهد التي تقوم منابت الأطفال عليها.

إن مشكلة المشاكل في مدينة الغرب ناشئة كما رأينا من سوء استعمال الآلة
ومن سوء استعمال المرأة لوظيفتها، والمفكرون في أوروبا وأمريكا يكتبون المجلات
لأحياء هذه المدينة وإقالتها من عثارها باحثين في توازن الذهب والورق وفي
الحوازر الجركية وفي مواقف الدول بعضها تجاه البعض الآخر، إن هؤلاء
المفكرين يتلهون بمخلق علاج للاعراض مفضين عن معالجة العلة نفسها.

ولو قدر للمدينة المتداعية أن يقف على ذروة قواتها رجل يضع الإنجيل
والقرآن على قلبه مركزاً الآلة حيث ارادتها العبقريّة المخترعة في جنب الجهود
لا في جنب الاستغلال قابضاً بيده الحديدية على كل امرأة منطلقة في الحياة العامة
نحو الشقاء والهوان مرجعها إلى أحضان أبيها وأخيها وزوجها قاضياً باقصى عقاب
على كل رجل يقاوم حكم الله فيه متمرداً على تأديته واجبته المحفور بالغيرة
المقدسة والروءة على صفحات قلبه، لو قدر للمدينة أن تعجلى مثل هذه الرسالة
فيها لكانت تهدي في هذا العصر أيضاً بالهدى الذي أخذت به من الشرق ثلاث
مرات من عهد موسى إلى عهد محمد خاتم المرسلين.

عند ما قال نابوليون : فتشوا عن المرأة، أورد رأيي في منشأ المفسد وفي
ما يحفز بالرجل إلى الخروج على النظم والاخلاق طلباً لأرضاء حبيبة أو خضوعاً
لفاسقة متسلطة، وليكنني آخذ هذه الكلمة ميزاناً لقياس حالة الامم من الصحة
والاعتلال، فاذا ما نحن شئنا معرفة العلل التي تقضي على أي مجتمع فلنفتش عن
المرأة لأنها في النظام الاجتماعي بمقام المجموعة العصبية في الأحياء، فاذا هي انحرفت

عن مركزها أو سادها أى اضطراب كان تشنّجت أعضاء الجسم كله ومني بحياة الموت خيرٌ منها .

إنّ المرأة في مدينة الغرب التي تعزي مبادئها افتراء الى المسيح قد جنحت بضغط الرجل عن مركزها ؛ فهي عالمة ، وكاتبة وفيلسوفة وزارعة وصالعة ومستخدمة وموظفة حكومة ، ويمكنها أن تستغني عن الأب والأخ والزوج فهي ليست عالمة على أحد كما تقول ، أما أنا فأراها على ما هي عالمة على المجتمع ترهقه وتهتد من أركانه ، إن عضواً يتحوّل عن مركزه ليقوم مقام عضو موجود إنما يحول دون إتتمام العضو الطبيعي لوظيفته ويفقد هو وظيفته الخاصة فيدخل التشوش على الجسم ويجيء بالضرر الفادح .

أنا من أنصار تعليم المرأة وتهذيبها ، أريدها شاعرة كاتبة بل وفيلسوفة اذا أمكن ، لأن العلم والشعر والرقي الأدبي الزم للناس في بيوتهم منه في المجتمع ولكنني لا أريد المرأة عاملة خارج بيتها يتحكّم فيها الغرباء عنها فان لم تنزل الالهانة بها كمرأة نزلت بها إهانات التقريع كما مورة يجب عليها أن تمحي شخصيتها وتكيفها طبقاً لواجبات التنظيم .

إننا نحن أبناء الشرق نخذع كثيراً في معنى حرية المرأة الغربية وكثيرات من بنات بلادنا يضررن نصب أعينهن الفتاة الغلامية العاملة في أوروبا كمثال أعلى للرقي الصحيح ، ولكنني لا أملك النفس من أن اصرخ بهن لتكذيب هذا الوهم في خيالهن الجالح . فأقول لهنّ والحق ما أقول إن المرأة الشريفة في العالم التي تستند الى نفسها لتعيش بدون رجل إنما هي مساوية بالشقاء للرجل الذي يستند الى ذاته ليتمتع بالحياة بدون امرأة . فاذا ما وصل الرجل المنفرد الى وسط الحياة كارهاً لنفسه والانسانية فان المرأة لا تكاد تصل الى وسط الطريق حتى تشعر أنها

ضلت السبيل السويّ وأن كل ما بلغته من مجد أو ثروة لا يساوي ابتسامته واحدة من ابن أو إبنة تسند اليه أو إليها ما تبقى من قوى منحطة في خطواتها الأخيرة المترجفة. إن كل ما يمكن للمرأة أن تخدم به المجتمع من أعمال ليس الاّ فضولاً وتبرعاً في غير محله ، فللرأة التي تنشئ أمةً وتخلق وطناً لا تكون الاّ كالقابضة على الريح في فضلها الموهوم على الانسانية لأن الرجل الذي يمكنه أن يقوم بهذه الاعمال خيراً منها لا يمكنه أن يقوم مقامها باعداد جنّة الأسرة وإيجاد الملائكة الباسمين عن سرّ الله في الاكوان وعن سرّ الخلود في الارواح .

إذا كان الرجل المضرب عن العمل لا يعدّه المجتمع رجلاً ، فللرأة المضربة عن الأمومة ليست امرأة وأكره من هذين في عين الحق الأم التي تنجح عن تربية بنيتها لتذهب ضاربة في جاهل واجبات لا تأتلف وما فطرت عليه ، كأن تربية الطفل ليست بالعمل الأقدس والمهمّة الأسمى بين كل ما تدور عليه الأكوان وما يقوم عليه المجتمع من جهود .

إن نواشئ الحياة في ممالك الجماد والنبات والحيوان تكفلها العناية السكامنة في الطبائع والفرائز نفسها ، فللأمة المنسلخة عن أصل لها هي كالنبات المنفصل والحيوان المولود تمجه جميعها الى ما قدر لها بسائق لا اختيار فيه ولا ضعف في حوافزه ، أما الاطفال فيأتون الحياة وهم أشد احتياجاً الى ذراعي أمهم وفكرها بعد انسلاخهم عنها من احتياجهم الى الرّحم الذي تكوّنوا فيه .

إن لحظة واحدة تتحوّل فيها عينا الأم عن الطفل هي لحظة خطر على حياته لأن الطفل محروم من كل غريزة للدقاع عن ذاته بل ايضاً لي ان فيه من الميول ما يدفع به الى ايقاع الأذى بنفسه . اترك الطفل على شفير فأنه يندفع للارتقاء

عنه ، اتركه الى جنب نار او آلة قاطعة فإنه لينهب اليهما محترقاً مجروحاً كأن في الأم قوة تستهويه .

أن لهذا الطفل عينين ويدين ورجلين . وليكنه لا يري ولا يعمل ولا يسير ما لم تكن له في كل آونة عينسا أمه ويدها ورجلاها وتمرّ الشهور فاذا الشخص الادبي ينتبه في الطفل واذا زمن تكوين فطرته الثانية قد حان ، فعواطفه وافكاره عواطف أمه وافكارها لأن دماغها في رأسه وقلبها في صدره . وتمرّ السنون فاذا الطفل يافع يصارع الحياة ، فان هو لم يهتد بفلسفة قلب أمه صرخته الحياة . الحب الحقيقي المستمد من نور الله هو حب الأم مصدر كل حكمة وكل هداية في قلوب الناس .

أفليس من الغريب أن لا تُرضي مثل هذه الواجبات روح المرأة ولا تشبع أطماعها ، وهي أشرف وأقوى وأسمى كل واجب في الحياة ؟ ..
إن الأم مشاركة لله في إبداعه ، إذ يدفع بالطفل اليها وديعة ضعيفة لا حول ولا قوة له ويطلبها به إنساناً سوياً . . .

اذا كان استخدام الفتاة قبل زواجها تحت إمرة الغريب يرهقها ويرهق المجتمع معها بكسر عزّة نفسها وبتخذير الأنفة الغريزية في القيمين عليها من الرجال ، فكيف يكون حالها وحال المجتمع منها إذا هي حشرت عبوديتها معها في مملكة زوجيتها وأمومتها ؟

ما لنا ولزوج المستخدمة ، إنه مخير في هوانه ، وقد فضل على سكينه قلبه وتنظيم مرتعه دربهات لا تروة منها ولا خير فيها . أن في الدرهم يربحه الرجل باسالة عرق جبينه بركة لا تقابلها غير اللعنة في الدرهم تربحه المرأة باراقة ماء وجهها ما لنا ولمثل هذا الزوج ، إن من السخرية بالعواطف أن نشفق على من

لا يشفق على نفسه ، ولكنَّ هناك من أنزل به الشقاء تعسفاً وإرغاماً ، هناك
الطفل محرمه أمه أقدس حقِّ بانكارها أقدس واجب . قال الفرد دي موسسه (إن
الانسان تلميذ مؤدِّبه الالم ، وما يفتح المولود عينيه للنور حتى يتصب هذا المؤدِّب
أمامه ليجرِّعه كأس الأوجاع ، فتحنني الأم على هذا التلميذ الضعيف المروع
تسكب على كل قطرة ألم قطرة عطف وحنان فيمزج الحب بالألم وينشاء من امتزاجها
في شعور الطفل ذلك الكوثر العذب المرير الذي وضع الله فيه سر الجهاد والاعتلاء .
لحم وقفت أمام المتألمين رضعاناً ورجالاً مستجلبياً في ألمهم سرَّ الخوافز
الجبارة والنزعات الثائرة الضعيفة في الناس ، فرأيت أن الأحياء الذين يجرعون
كأس الأوجاع صرفاً لا تمازجها قطرات العطف والحنان إنما يجرعون سماً زعافاً
يخلق فيهم الضعف الثائر واللجاجة الصاخبة ، وأدركت أن سمَّ الآلام لا يستحيل
أكسيراً للحياة الروحية إن لم ينسكب فيه بقدره ترياق الحب ، والحب جوهر
واحد في عديد عناصره ، وأول هذه العناصر واقواها إنما هو مذوب قلب الأم
ينمصر حناناً على الطفل المتألم الباكي .

ويلٌ للشيخ المودع الحياة في آخر محنته إذا لم يجد فيمن حوله من الناس من
يحول بالحب رعدته الى استسلام وقطوب وجهه الى انبساط ، ويل للرجل المجاهد
تقرعه زواجر الحياة إذا لم يكن وراءه او الى جنبه او أمامه حنان أم او غرام زوجة
او عطف أبناء . ! ! والويل كل الويل للطفل تلقننه الحياة اوائل دروس الأوجاع
إذا تلقنت من سريره فلم ير عيني أمه وإذا هدَّ يديه الصغيرتين فلم تقبض عليهما يداها
تمرُّ امام عيني وأنا أبحث هذا السر المتغلغل في أعماق الحب والالم مشاهد
طفولتي الحافلة بالعلل والادواء فلا يلوح لي مشهد منها في مثاوي عقلي
الباطن دون ان ارى ذاتي طفلاً متألماً منطرحاً على سريره الصغير والى جنبه

أمه .. دائماً أمه .. تسكب الكوثر على الغسلين وتحترق الظلمات بالاشعاع
وتحوّل الأنين الى زفرات صبر وتسليم بما في صوتها من أنغام السماء .
تلك رؤى لم تزل منطبعة في أعماق نفسي تنبسط أمامي كلما اصطدمت بما
يكمن في ذاتي من أوصاب محتومة علىّ فيها وكلما صدمتني من الناس صدمات الجور
أو ظفر منهم الى رشاش الخيانة والعقوق ، فاذا ما أسمعني مؤدب الحياة صوته
القاسي أسمعني التذكّار ذلك الصوت العذب الذي ألهمني الصبر وعلمني
الاشفاق والغفران ،

لقد جلست كثيراً الى النساء اللواتي اضطرنّ أنانية الرجل الى الاندفاع
للحياة العامة في بلاد الغرب فامست فيهن كلهن مجسم اليأس والشقاء ، ولم يزل
يدوي في أذنيّ الى الآن صوت امرأة تجاوزت الاربعين لها دماغ الرجل ولم تزل
الأنوثة المكبوتة تعبق في أنفاسها وتشعّ في أحداقها ، وقد توسمت فيّ الاشفاق
على حالها في حين لم يكن يدور حولها غير الحسد لما بلغت من شهرة وعلو مقام ،
لم يزل صوتها في أذنيّ وهي تقول .

— إن ما تحسبه النساء حقاً لهن فتطابن به من العمل في المجتمع إن هو إلاّ
عبودية مستحدثة من أنانية الرجل ، فهو المستفيد منها ونحن ضحايتها . لقد كنت
في اوائل حياتي مندفة بجملة عقيدة الشباب مستهواة بأقوال الزعيمات ومرتب
بمالتونهن من الكتّاب أحسب ان السعادة للمرأة في الانعتاق من سلطة الرجل
وفي العمل الحرّ ، ولكنني ما لبثت ان أدركت أن العمل الحرّ ليس إلاّ كلمة لا
معنى لها فعرفت أن الهاربة من التقيد الطبيعي تقع في أشراك عبودية غير طبيعية
أقل ما أصفها به أنها إهانات متوالية لعاطفة المرأة الرقيقة وعزتها الخفية في
أعماق روحها .

جميل ان تكون المرأة متعلمة مثقفة وأقبح ما أرى فيها الجهل والانهطاط
ولكننى لا أعلم لماذا تعتقد النساء أن العلم والتهديب يستلزم حتماً اندفاعهن إلى العالم
الخارجي في حين أن علمهن وتهديبهن أجزل فائدة لهن وللمجتمع في عالم
الأسرة وهو على ضيقه أفسح مجالاً للمواهب السامية من ميادين هذه المدنية
المضلة على رجبها .

لقد كنت في زمن اغتراري أيام الشباب أقف عند كل امرأة عالمة مهذبة
تسعد زوجها وتنشئ العبقرية في بنيتها ، فأقول في نفسي — أما كان خيراً لهذه
المرأة أن تفيد الانسانية جميعها بما أوتيت من مواهب ، ليتها كانت وزيراً او قاضياً
او محامياً او طبيباً ، ولكننى اليوم ، عند ما أعر على امرأة بلغت قمة الشهرة في
ميادين الاعمال العامة أقف لديها دامعة العين أنظر نفسي فيها وأقول — يا للقوة
المضلة ، يا لضياح الجهود ، لقد أوتت الطبيعة هذه المرأة كل ما يمكنها ان تنشئ به
جنة زوج وأطفال في جحيم هذا العالم ففضلت أن تندفع « إلى نيران هذا الجحيم »
وأعجبني أن أسمع صوت تأملاتي الصامتة على أعالي لبنان حيث نهب نسمات
الوحي القديم خارجاً أينما عالمياً من فم الحياة الذاهبة في العالم المتمدن على السبيل
الذي أنكره عيسى وأهاب محمد بالعالم إلى التنكسب عن مزالقة ...

فقلت لهذه الحكيمة . — إن بنات بلادي في الشرق يتخذن المتمرديات
منكن مثلاً أعلى وهن على سبيل التمرد على الرجل وتقول بعضهن إن الاتقياد
لطاعة رجل إنما هو تضحية للحياة والرجل عقوق لا يقدر هذه التضحية قدرها .
فابتسمت الحكيمة بكل ما أودع الاختبار فيها من مرارة وقالت .

— متى كان الواجب الطبيعي تضحية ، بل أي مجتمع من مجتمعات الناس أوفر
عدلاً من الفرد وأنصف في منه في تقديره . هب المرأة العاقلة وقعت ضدفة

في يد أحمق فان مصيبتها به لأهون بما لا يقاس من مصيبتها بالناس اذا وقفت جهودها على المجتمع بأسره لأن المجتمع لا يغفر لها لمعانها وأقل ما يرميها به من عقوق إنكار صيانتها عليها واتهامها باستغلال أنوثتها وتعزيز عقلها بجهاها ...

قل لبنات الشرق الا يفعلن كذلك الطفل الذي رأى أخاه الأكبر يجرع دواء اضطره الداء اليه فحسبه هو شراباً مستطاباً فكرع منه فاضره ، إنني أعهد برجال الشرق غيرة ذهبت عندنا مثلاً فهل يقصد رجالكم رجالنا يبرود العاطفة نحو المرأة والتملص من واجبه نحوها حتى اضطروها الى ترك مهمتها العليا المهمة لم تخلق لها ؟

فاطرقت ولم أجب ، ولن أجب على هذا السؤال الآن ايضاً ، فليقل كلمتهم فيه من عليهم ان يستنطقوا ضمائرهم وفطرتهم عنه ...

*
*
*

لقد ذهبت ، الى أبعد ما ينفرج عنه المجال أمامي في تشخيص ما في مجتمعنا من علل تقضي على صحة أنسالنا ومستقبل شعوبنا ، وقد رأيت أنني وقفت وقفة المنصف الذي لا يتهيب ولا يحابي وسرت في البحث سير من يعلم من نفسه أنه فوق كل لوم وانتقاد لأنه قد اتخذ الاخلاص رائداً في طلب الاصلاح مستمداً قوته من الأم امته ، اظهرت معاييب الشرق في مجتمع المسيحيين كما اظهرتها في مجتمع المسلمين ، فان عاب على المسيحيون صراحتي قلت لهم ان من حق المسلمين ان يتألموا الكل فساد في الاسرة المسيحية لأنه يززع الوطن الواحد ويحول دون الرقي فيه وللمسلم أن يطالب الاسر المسيحية بهدى الشرق وصيانة اخلاقه لأن جنوحها عن شريعة عيسى لها صداها وتأثيرها المباشر على الاسر الاسلامية . وإن خطر لأحد إخواني المسلمين أن يرشقني بلوم ويرانني دخيلاً في

ما بحثت وعالجت ، فاني أقول له إن الأسرة المسلمة أسرتي لأنها أساس مجد
أوطاني ، والمرأة المسلمة أختي عبوديتها عبوديتي وحقها حق واعتلاؤها بما شرع النبي
إنما هو اعتلاء الشرق بأسره .

أنا ممن يعتقدون بوحدة مصدر الشريعة العيسوية والحمدية لأن وحي
الحق المطلق المنزل هداية للعالمين لا يمكنه ان يجيء متناقضاً فالبداً واحد وإن
اختلفت المذاهب فيه .

إن اتحاد الزوجين وعدم انفصالهما حتى الموت إنما هو ناموس خاص بالانسان
لانماء الصفات الأديبة العليا في الأنسال وهو الدليل على انفراد الشخصية
الانسانية وشعورها بذاتها لأنها على صورة الله ومثاله فينبما يتوالد الحيوان والنبات
دون شعور بالشخصية ودون أن يكون هنالك سوى حنان الأم أثناء الحضانة
نرى الأبوة والأمومة مشتركين على مقياس واحد في الانسان في إنماء
النسل والشعور به تكلمة لحياة الآباء والأمهات . لذلك لا يتولد حب في قلب
رجل وامرأة الا ويخلق مع ذلك الحب الشعور العميق بحافظة كل من القرينين
على قرينه والاحتفاظ به مدى الحياة جزاء متمما لذاته .

أستعرض ما شاهدت من لؤم على الأرض فلا أرى أشد لؤماً من
متولي طرف عقد يحمل عقاله من جهته وهو مثبت قدميه في موقفه ليرمي بالقابض
على الطرف الآخر الى الحضيض .

الزوجان رقيقان وضع كل منهما روحه في صدر الآخر وسارا في الحياة
يتلقيان ما تضم من زواجر العبر ومطهرات الآلام . ما علت شفقي أحدهما
ابتسامة حتى ارتسمت على شفقي الآخر وما انحدرت دمة من أجفان أحدهما حتى
أستنزلت من أجفان الآخر مثلها . لكم سهر كل منهما على رفيقه منظر حاف فوق

سرير الأوجاع ولكم نظرا كلاهما نظرة واحدة الى زوائل الاحلام وبوارق
الآمال ... ولقد يكونا كلاهما شعرا بالالام تدب في أوصالهما من أوجاع طفل
عليل . وشعرا بالموت نفسه يقبض على روحها المندغمة في روح طفل مدنف
يجود بأخر أنفاسه وهو ينظر اليها طابعاً شخصياً شخصاً واحداً على أحداقه قبل
أن ينسدل عليها ستار الظلام .

الزوجان رفيقا أيام وليالٍ وأسابيع وأعوام ، سبرا أغوار الشهوة فوجب أن
يعرفاها وسيلة لا نتيجة وعلمهما الألم المشترك أن التعاون في الحياة إنما هو
للقوف بوجه المحن لا لكرع كؤوس الملذات التي يملأها الوهم ويفرغها الألم ..
لقد يقف بوجهك الرجل ويقول لك إنني كنت أحب زوجتي ولكنني اليوم
قبيحة في عيني لقد حفرت الأمومة في جسمها أثلاماً وكشفت الايام من أخلاقها
ما لا قبل لي باحتماله . وتقف بوجهك امرأة صارخة إن زوجي كان عنوان الحب
ومجلى مكارم الأخلاق ولكن الايام قد بدلته تبديلاً فهو متغطرس مهمل قدر ..
يقف هذان الزوجان ويطالبان بالافتراق تجديداً للحياة ، فكل منهما يريد
أن يرفع على أنقاض أحلامه أحلاماً جديدة وأن يبعث من رماد قلبه قلباً ثانياً .
فرق بينهما ، دع الرجل يذهب من جهة والمرأة من جهة أخرى . ويل للنتقة
التي يوقعها مثل هذا الأبق في أسرهِ وويل للرجل الذي يعلق بأشراك مثل
هذه الناشزة . إن الغادر لا يجد في غيره عناصر يخلق منها في نفسه الوفاء . والخائنة
لا تنقلب أمينة بتغيير الذراع التي تستند اليها .

وفي الحقيقة أن ليس هنالك غدر ولا خيانة ، بل هنالك داء الضعف الموروث
وعلة التقلب التي تأصلت في الأجنة .

إن الحب في آخر الطريق لا في أوائله لو يعلم العاشقون ...

عرفت رجلاً يملك حفلاً على سفح جبل وليس للحقل ماء . فبدأ الرجل يحفر نفقاً في سفح هذا الجبل ، ولكنه لم يسر في قلب الأرض بضمة أمتار حتى اصطدم بصخر فوهنت عزيمته . تحوّل يمنة ثم يسرة يحفر النفق تلو الآخر حتى بلغت حفارُه العشرات وقد بقيت كلها مفتحة فوق الحقل كأنها عيون الشامتين والحقل لا يزال تحتها متجهبها يستقبل الشمس كرسول الموت لا كرسول الحياة . ولو أن صاحب الحقل نبت في اختراقه النفق الأول وحصر فيه ما بدد من جهود في عديد الأتفاق لبلغ قلب الجبل مستنزفاً منه بدل الجدول نهراً من ماء الحياة . تلك هي صورة الفاشين في الزواج رجالا ونساء . وكم في الأرض من قلب كان يمكنه كما كان يمكن لذلك الحقل الفاحل أن يتحوّل الى جنة مخصلة تنور فيها الأزهار . إن الحب الحقيقي الذي تتفجر السعادة منه على القلوب إنما هو كالينابيع الكامنة وراء الصخور

لقد اوردت لكم ، في بدء حديثي صورة عن ملتي محبين يربطان يديهما على عهد فاصغينا الى الكلمة التي يتفوه بها الرجل والمرأة كلا بالصيغة التي تملها عليه فطرته فكان معناها واحداً وهو الخيار الموحد والثبات حتى الموت ، وقد وصل بنا الاستقراء العالمي في سياق بحثنا الى الوثوق من أن هذا الصوت المرتفع همساً بين شفاه المحبين الصادقين ليس الا صوت الناموس الطبيعي نفسه ، وما يخذع الطبيعة أبناءها ولكنهم يخادعونها فيخدعون أنفسهم متطوعين للاضرار بأنفسهم وهم لا يعلمون .

واليكم الان حديثاً بين فتى من حكماء التمدن وفتاة لم تفسد فطرتها الايام ، وليس ما اورده الا الرسم الأمين لعقلية تحتاج الأدمغة اليوم من مهب المادية في كل الأقطار .

هو - أحبك حباً مازج دمي وملك عليّ كل مشاعري .
هي - وأنا ايضاً رأيت بك المثل الأعلى للرجولة فأصبحتُ لا أشعر بنفسي
الأبّ بافتكاري بك ، فكأن وجودي في الحياة خيال لوجودك .
هو - واخيراً جاد الزمان عليّ بما حصرت فيه الأمانى فانت لي اليوم اذاً .
هي - إنني لك اليوم وغداً والى الأبد .
هو مالك وللغد والأبد ، يا حبيبة القلب ، لنا اليوم ولنا التمتع بالحب كل
يوم ما دام هذا الحب حياً فينا .

هي - وهل أنت تتوقع موت هذا الحب يوماً ؟
هو - وأي شيء لا يموت في هذا العالم ، وما نحن في حياتنا الا اندثار
وتجدد مستمرّان على أنقاض أنفسنا . أنت اليوم ترتجفين كالقصبية أمام الريح لان
عاطفتك السائدة تهبّ عليك من مكان لا تعرفين مواضعها ، وما انا الا على
مثل ما انت عليه وكلانا العوبة في يد المجهول الذي يسير عواطفنا فيأسرها ثم
يطلقها ، فالحب كالأزهار في الحدائق تنور أياماً الى أن تضعف الحياة فيها فتلوي
تويجها وتموت ، وعند ما تحين ساعة ذبولها الأخير تعود الى الأرض مرغمة
فتعجز مياه الينابيع وأنداء السماء عن استعادة قوتها ونضارتها . إننا نحن أبناء الحياة
ندفع في جهننا بكلمة الثبات والبقاء تطاولاً وطيشاً فنطلب الوقوف ثابتين والأرض
التي نقف عليها دائرة متقلّبة تحت أرجلنا .

دعي الجهال ينخدعون بلزوال فيحسبونه خلوداً ، إننا اليوم نشتعل بنار
الحياة فلنصطلي بحرارتها واذا ما جاء يوم تتحوّل فيه هذه النار الى رماد ، فن
الجنون أن يخذع أحدهنا الآخر برماد تنفض فيه عبثاً لاستيقاده .

كلّ منا اليوم متمّم للآخر فنحن في حبنا نتبادل السعادة في الحرية فاذا

ما عاهدتك على أن أكون لك الى الموت فسيأتي زمن أصبح فيه عاجزاً عن القيام بمهد تفسده الطبيعة المتحوّلة نفسها ، أفتريدن أن تكوني في ذلك الحين كالأصفاة الثقيلة يجرّها المحكوم على أرض سجنه منوّمًا أو جاعه منها بخشيش حلقاتها ؟

إن العقول الراقية لا تؤخذ بالأوهام ، اليوم لنا أما الغد فللمجهول ، تعالي تقطف ما أنبتت حرارة هذا الربيع من الأزهار في حديقتنا حتى آخر برغم منها ، وحين تصوِّح الادواح وتتناثر الأوراق فلنخرجن من هذه الحديقة لئلا نخنقنا الروائح الكريهة المنبعثة عمّا تحت جذوعها من أقدار . . .

وبعد سكوت طويل رفعت الفتاة رأسها كمن يستفيق من حلم وقالت — أنت تتكلم عن الحب كأنه شخصية مستقلة عنا ، فأنت تراه قوة منسلخة عن إرادتك وإرادتي ، فهو في عرفك شخص ثالث بينما إن غاب عنك غاب عني وإن غاب عن عياني غاب عن عيانك لقد تعلق فلسفتك بمن يؤخذون بالمذاهب الكلامية ، ولكن المرأة التي تفكر بقلبها لا يمكنها أن تخدع لست سأرة الى مقارعتك بالحجة ، ولن اجيئك بخطاب كخطابك بل أطلب منك الجواب على هذا السؤال . — اذا ما أتيتك يوماً لاقول لك إن هذا الشخص الثالث الواقف بيننا وهو مجسّم الحب في عرفك قد توارى عن عياني ، وإنني أصبحت أراك ثقيلًا قبيحًا ، لذلك فأنا أذهب عنك كيلا يضايقني قبحك وكيلا يضايقك نفوري ، فبماذا تجيب على هذا القول ؟

هو . — أقول لك إنك مأخوذة بعشق سواي وإنه خير لك ولي أن تنفصل .

هي . — وهل لا يؤلمك أن تراني بين يدي سواك بعد ان كنت قطعة

من قلبك ؟

هو . — لقد أشعر ببعض الأسي ولكنني أعلم أن هذا الشعور إنما هو من بقايا الانحطاط الموروث عن أجدادنا رجال الكهوف وليس للعقل المرتقي المستنير أن يقف أمام هذه الأوهام .

وقفت الفتاة وفي أحداقها لمعان وولت وجهها شطر الباب فصرخ الشاب قائلاً — الى أين ،

فقالت — الى مجاهل الأرض ، أفقش فيها عن الكهوف وعن رجال الكهوف

* * *

لا ريب ، في أن هذا الشاب قد زرع في تربة الكره على زواج تجاري ، ونبت عسداً للطبيعة لأنه أستولد بالرغم منها . ولو ان الفتاة التي استغواها نشأت من مثل منشائه لكانت فهمت حكمته واستأنست بمبادئه . ولكنها ولدت من أبوين ساد الطباق بين عواطفها فهي تفتش عن رفيق يعاونها في الاستبقاء على أنوار المشعل الموروث فكان من المحتوم عليها أن تنفر من رجل المدينة متشوقة الى الغيرة المقدسة في رجال الكهوف

وكم من فتاة خرجت من منابت الكره مثل هذا الشاب تعدّ الغيرة في الرجل همجية وتوحشاً . إنها لأمرّاض مروّعة تحتاج المجتمع قاضية على الأنسال موقعة عليها جنبايات أخف منها ويلاً لبلاء الأمراض الزهرية .

إن المفكرين يشورون على الشبان الذين يقدمون على الزواج وفي دماهم سموم وفي مجاري نطفة الحياة منهم صديد ، ومن الأم من سنّت القوانين الصارمة لمنع زواج المبتلي بالعلل الزهرية وبالجنون محافظة على صحة النسل ، ولكنني لم اقرأ لمفكر رأياً في الحيولة دون الزواج الآتي المجرد عن كل عاطفة ، ويتراى لي أن

طفلاً يجني أبواه عليه بإرثه دماً أفسدته الأمراض لهو أقل شقاءً بنفسه وأقل
أضراراً بالمجتمع من طفل يرث من أبويه عمر العاطفة وضلال الفطرة
لقد تشفى العقاقير أبناء العلل ولسكن أيّ دواء يشفي الطفل الذي زرعه
توحش الرجل المفترس في أحشاء المرأة المنكسرة الذليلة؟ إن مثل هذا الطفل لن
يكون الأوحشاً كأبيه أو عبداً ذليلاً كأمه .

عرفت شاباً قوي الجسم بهيّ الطلعة يتنقل في الحياة وحيداً شريداً ولا همّ له
سوى إغواء العذارى حتى إذا افتضح أمره وأوصدت أبواب البيوت بوجهه ،
انقطع عنها إلى المواقير لا يرجع إلى أحدها ثانية مالم يبلغه قدوم امرأة جديدة إليه
استوضحت هذا الشاب حياته فافضى إلى بسرّ دائه الدفين ، قال .

« إن كأساً تقطر عسلاً على شفتيّ إنما أتذوق منها مرارة الحنظل إذا أعدتها
إليّ في ، أنا كالطير لا أستقرّ على غصن فأنشق عطر أزهاره حتى أشمر
بالاندفاع إلى سواه ، نصبت حبائلي لعذارى كثيرات فكنت كلما نشقت عبير الواحدة
منهن يستحيل شداؤها في أنفي رائحة كريهة ، وقد حاولت كثيراً أن أستقرّ على
حال وغالبت فطرتي فغلبتني حتى قطعت الأمل فعرفت أخيراً أنني خلقت
للمواقير فلجأت إليها واستقرّيت فيها وقد ارتحت من معاركة ضميري لأنني
أجد هنالك مجالاً لغريزة التجديد المتأصلة في دمي »

وشررت أمام كلمات هذا الشاب بإخلاصه في انحطاطه فما حاولت مجادته ولكنني
ذهبت مستقصياً عن منشأه فعرفت أن أباه كان على شاكلة وقد تزوج بأحدى فتيات
المراقص فسارت معه شوط سنوات قليلة في مجال الحياة الهاديئة ولكنّه ثار على
هذه الحياة ورجع إلى شركه القديم فعادت زوجته من جهتها إلى مراقبها ، وما كان
يلتقي الزوج والزوجة في البيت آخر الليل إلا لاقلاق الحى بالصخب والعراك . . .

وأعرف رجلاً آخر تزوج بفتاة محصنة اشتهرت بعفافها وطيب أحدوتها
وكنت من غابطيه لما أصاب من حظ، ولكنني رأيتُه بعد سنوات فاذا هو ناحل
مشئت الفكر يمشي في الحياة كمن يسير في حلم وقد ساءت حاله فجلس اليّ شاكياً
والدمع يجول في عينيه، قال . - غبطني الناس لزواجي بهذه الفتاة الطيبة فليتني
تزوجت مؤمسا... لقد مرت عليّ الأشهر تلتها السنون وأنا أحاول عبثاً نفخ
الحياة في هذه الدمية الرخامية، فزوجتي يضابقها الحب وكل كلمة او حركة تمت
اليّ الحب بصلة. وقد حاولت إثارة غيرتها توقعاً لحياء الحب فيها، فرأيتها
غاضبة لسكرامتها وكبريائها مما تقول صويحباتها وقد أوصتني أن أعني بكم ما يثير
سخرية من حولها بها وهذا كل ما أرجو.

وقد نغم الله عليّ بولد بلغ السنتين اليوم وهو جميل كأمه جامد مثلها فان أنت
لم تدفعه دفعاً اليّ الحركة بقي ساعات جامداً، وما كشف الاطباء علّة فيه ...
سكت أمام هذا الاعتراف المفجع وما كان يمكنني أن أقول في مصاب ثوت
أسبابه في ماض لن يعود. ولكنني جذبت هذه المرة أيضاً بفضل المفكر الاجتماعي
فسألت صديقي عما يعلم عن حياة حميه وحماته فقال .

« تزوجها مستنّاً غنياً وهي بنت بيت كريم فقضت حياتها في التقوى والورع
ولم ترزق من زوجها الا الفتاة الجميلة الرصينة التي أصبحت لها زوجاً . »

وهناك ظاهرة أخرى هائلة تجلّت أمامي بين ما استقرتته من مفسد الزواج
الذكذوب وعلتها أهم ما خفي عن الباحثين من قبل .

أما رأيتم في هذا العالم الشقي نساء يبسمن لبناتهن المنزقات على شفير الغواية
والعار، بل أفار رأيتم امرأة قوادة لابنتها تأكل معها بشديها فلا تشعر بأقل
اضطراب لبيعتها فلذة كبدها في أسواق نخاسة القرن العشرين .؟ .

لقد رأيتُ ذلك ، فذهبت مستقصياً سبب هذه الظاهرة فالتضح لي أن
الأبنة التي تجرّها أمها إلى الفساد إنما هي الأبنة المولودة من زوج مكروه . .
إن شخصية الأب مائلة بصورة أجلى في الفتاة كما أن الأم مائلة في الفتى .
وإذا ما نظرت في أحوال الأُسُر التي بُنيت على المصلحة لا على الحوافز الطبيعية
يتجلى لكم فيها فساد عاطفة الأمومة نحو الاناث من الأولاد وبرود عاطفة
الأبوة نحو الذكور منهم. فإذا ما راعى الأب ابنته في مثل هذه الأسرة الفاسدة فما
ذلك إلا لتحكم ناموس التخالف في عقله الباطن ولكنه يبقى شديد الشكيمة على
ابنائه الذكور لأن الابن سرّ أمه . وإذا ما راعت الأم ابنها رضوخاً لهذا الناموس
الخفي نفسه ، فأنها لتبدو مسيرة بهذا الناموس أيضاً إلى الانتقام من ابنتها لأن
الابنة سرّ أبيها . . .

وناموس التخالف هذا ، سلوا عنه علماء أحوال النفس ، فهم يعرفونه
بالتفاعل « الأوديبي » نسبة إلى أوديب الملك الذي قدر عليه أن يقتل أباه
ويتزوج بأمه وليس لي في هذه المحاضرة أن أتناول هذا الناموس بالتحليل ،
فأكتفي بأن أشير اليه من الوجهة الاجتماعية ، تاركاً لكل مفكّر أن يستقري
بنفسه عواطف الآباء والأمهات بخاصة في الأُسُر المفككة العرى التي رسا عقدها
على المصلحة وخلت من الحب الكافل الوحيد للارتقاء فوق المفساد . إن الأم
التي تلد ابنة من أب محبوب لتقف أمام هذه الابنة كسيف اللهيب المسلط حارساً
على باب الجنان .. لأن مثل هذه الأم تشعر بأن عفاف ابنتها إنما هو امتداد في
روحها لحرمة زوجها ، فكل نظرة فاحشة توجّه إلى ابنتها من كواسر الضلال
تذهب ذهاب السهم في قلبها .

ولكن الأم المقتصبة في زواجها وقد لا تكون منحطة فطرة فأنها لتفقد

الغيرة الطبيعية على عفاف فئاتها لعلتين الأولى لأن هذه الأم نفسها قد ابتذلت
وأُهينت من انتهاك حرمة قلبها فأصبحت على حد قول الشاعر

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِبْلَامُ

والثانية لأن التفاعل المتخالف الذي اقرّ ناموسه علماء أحوال النفس يدفعها
عن غير وية الى الاستخفاف بآبنة الرجل الذي استولدها دون حب ولا إيقاع ،
وهكذا تقتل الزوجة المُغتصبة ثمرة أحشائها .

ويل للأبناء الأسر الفاسدة من آبائهم والف ويل لبنات هذه الأسر
من أمهاتهن .

قرأت في أحد الكتب العربية القديمة قصة لا أتمالك النفس من إيرادها
بحرفها كما قرأتها :

قال الراوي « خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبانات
الشام فاذا امرأة جالسة على قبر تبكي ، قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فحكمت
شمساً عن متون غمامة فوقفنا متحيرين ننظر اليها فقال يزيد بن مهلب - يا أمة
الله هل لك في أمير المؤمنين فنظرت الينا ثم انشأت تقول :

فان تسألاني عن هواي فانه يجولُ بهذا القبرِ يا فتيانِ
وإني لأستحييه والتربُ بيننا كما كنتُ أستحييه وهو يراني

* * *

ويقول العرب استحييا منه للاقباض والامتناع خشية وإجلالا ...
أما والله ، ما نفذت هذه الكلمات إلى بصيرتي حتى رأيت البيتين يتراقضان
خلال الدموع في باصري .

إن هذه العظام البالية في التراب يستحيها الحب المتمرد على الموت خيرٌ من

حياة الفتوة والقوة والجمال تسير على الارض مرحة تواكبها الحيانة وتساورها الشهوة مدّاً فتغمرها وزجراً فتكشفها للوحشة والبلاء

إنّ من الحب ما ينشأ عن الحياة الجسدية حاجة ملحة متقلبة كالحياة نفسها وفي النساء كما في الرجال أناس جهم أشبه بالجوع والظماً يتهافتون على أية مائدة ويرتوون من أي ينبوع . وماذا عساه يفهم من الحب من يرى المحبوب مائدة وينبوعاً ، ؟ قل من الناس من يدرك أنه إن أنكر على المحبوب شخصيته التي لا تستبدل فقد أنكر على ذاته هو شخصيته التي يحسر بها .

إذا لم تكن المرأة التي تحبّ قد طوت شخصيتها في قلبك كلّ نساء الدنيا فأنت مشرّكٌ بوحدة ذاتها . وإذا لم يكن الرجل الذي تحبين قد طوت شخصيته في قلبك كلّ رجال الدنيا ، فأنت والاباحية على موقف واحد من مدارج الحياة الداخلية ، غير أنها تبذل كل يوم وأنت تبذلين على مدى السنين دوراً فدوراً .

إنني لو اتق من أنكم إذا نظرتم حولكم الى من يخلقون الشقاء في المجتمع بتقلّبهم وأكذبيهم ومخادعتهم للناس الأدين منهم والأبعدين عنهم لوجدتم أنهم نبتوا في الأسر المكوّنة تكويناً شاذّاً عن الفطرة ، المرقة ترقيعاً بالعنف والاكراه والخديعة والحيانة .

لا صلاح لامة فسدت منابت أطفالها ، وهذه عبر التاريخ ماثلة لعيان من يريد أن يرى .

أفما كانت كل الأمم التي اندثرت واستعبدت تمرّ أولاً في مرحلة تدني الأخلاق وانطلاق الشهوات عابثة بأشرف ما خلق الله في الانسان ؟

ان العربي المجاهد في صدر الاسلام ما كان يتحمّل عبء تعدد الزوجات الاّ

أخذاً بما تضمنته حكمة الآية الكريمة وما رمى إليه الشرع المقيد بالشرط المرهق من صيانة المرأة واعطائها حقها بالحياة في زمن كان الآباء يدفنون فيه البنات وهن في الحياة لزيادة عددهن على الرجال ، وما كان الرجال في تلك الأزمنة ، أزمنة الغزوات المتوالية والحروب الكاسحة الآ حصيد الموت يقطع منجله كل سنة منهم اغمراً فبقى النساء في الحيّ مشتتات لا عائل لهن ولا قيمّ عليهن ، وهل كان من غضاضة في مثل هذه الحال على الرجل أن يفتح قلبه للحنان على ثلاث نساء وفي ذلك القلب عرش الحب الواحد تتسمنه واحدة هي الرابعة او الثالثة او الثانية او الأولى ؟ أفما هي الرحمة بعينها تلك الشريعة الأنسانية السامية التي فتحت مجالاً للتبرّع على المنقطعات في سلسلة المجتمع وقد انفرط عقده .

ليسمح لي اخواني على ما أعترف به من قصور تجاه العلماء الأعلام ان أردّ معهم الرأي القائل بأن محمداً عليه السلام قد أجاز تعدد الزوجات مجارياً قساوة القلوب كما اجاز الرق في النوع البشري ، فان النبي العربي الكريم لم يكره ليجماري الناس في احوالهم المنكرة كما إن شريعته المسيح لم تكن لتجاريتهم فيها ، وهذا الحوار ي بولس لا يقضي بالغاء الرق بل هو يوجه الأمر الى الرقيق باطاعة سيده ولكنه بالوقت نفسه يدعو السادات بكل شدة الى البرّ بالرقيق والعطف عليه ، وكلمات محمد في هذا الشأن جلية توجب الأصلاح في قلب العلة لاني أطرافها .

ومن نظر الى حكمة الوحي السامية مستنيراً بالشريعتين يتضح له أن الامر بعقّ الرقيق إلزاماً في الاحوال الاجتماعية التي كانت سائدة بايام عيسى ومحمد ما كان ليدخل الاصلاح في المجتمع بل كان يؤدي الى إيجاد طبقة من الناس متشرّدة تنزل الدواهي بالمعاقب والمعقوق على السواء . وما كان الدين الصحيح لياخذ بالقشور من احوال البشر وهو الطامح الى تطهير اللباب من أدراغ الاخلاق حتى إذا

استقامت المباديء في النفوس امتنع الظلم وسادت المساواة الحقيقية لا المساواة الكاذبة حتى بين السيد ورقيقه .

إن الرقيق العامل في بيت سيد يأتمر بالمعروف الاسلامي والمسيحي قد كان ولا ريب أسعد حالاً وأوفر حرية من رقيق الآلة في مدينة اليوم تشده اليها النظم الاجتماعية والحاجة التي لا رحمة فيها ، إن هذا الرقيق خاضع لشخصية التنظيم المجهولة وهي لا تحيد عن السبيل الذي اختطته لها طبيعتها نفسها . فما كانت المسيحية ولا كان الاسلام مسافرين للظلم في السكوت عن الرق كما أن الاسلام لم يكن مجارياً لشهوات الرجل في إباحة تعدد الزوجات ، بل كانت هنالك أحوال اجتماعية تدعو الى هذه الإباحة رحمة بالناس لا مجاراة لحب السلطة وتساهلا مع الشهوات فيهم .

وجاء زمان تطوّرت الأحوال الاجتماعية فيه فاصبح الرق على ما تنفروا الانسانية منه فاتفق العالمان المسيحي والاسلامي على الغائه واعتباره جرماً يقع تحت طائلة العقاب فلم يقم أحد من رجال الشريعتين يعارض في تحرير الرقيق مستنداً الى الإباحة الواردة ، بل أن رجال الدين أنفسهم وجدوا الرق في تطوّر أحواله من الحرّيات التي لا تميزها المسيحية ولا يتساهل الاسلام فيها .

وما تعدد الزوجات في الاصل الاّ إباحة للرجل تمكّنه من البرّ بالمجتمع ، لان قبيلة كان عدد نساءها اضعاف عدد رجالها كان من المحموم فيها اذا اخذت بمبدأ الزوجة الواحدة ان تصبح النساء السائبات مباحات لكل الرجال فيقع التعدد مزدوجاً على شكل لا يبقى عنده فرق بين الانسان والحيوان .

ان تلك الحالة قد استلزمت هذه الإباحة فوردت في الشرع مقيدة بالعدل ، فكانت الإلية حاملة في نص الإباحة تحريماً عند امتناعه .

ويلوح لي ، ان كلمة العدل تمتد الى ابعدها ما يراد منها للعدل بين الضرائر من حيث التساوي في العطف والقيام بالحاجة من مآكل وملبس ، ولا اراني ذاهبا الى تأويل بعيد اذا قلت ان العدل الموجب أولا إنما هو تلافي الضرر الاجتماعي ، فاذا لم يكن هنالك ضرر يحول تعدد الزوجات دونه أصبح هذا التعدد كالعلاج لغير علة .

ولا تحتاج هذه النظرية الى إيضاح مطوّل ، ولا كمتفين بايراد مثال يجلو الحقيقة بحيث لا يبقى معها مجال للالتباس .

نحن في قبيلة تعيش على البداوة وقد تساوت طبقات الناس فيها لو وحدة موارد العيش وتساوي الثقافة بينهم ، قضت الغزوات على عدد وفير من الرجال فالقبيلة فيها عشرون رجلا وثمانون بكرا وثيباً ، فهي سائرة الى الانقراض ، فواجب العدل اذاً أن يكون لكل رجل اربع نساء ، ذلك واجب على ضمير الرجل لاحق لشهوته يقابله واجب التساهل من النساء ، اذ لا يمكن لامرأة أن تدعي حق الاستقلال برجل من رجال القبيلة دون ان تظلم ثلاث نساء من أخواتها ، ففي مثل هذه الحال يصح أن يقال ما قالت العرب قديماً «غيرة الرجل شرف وغيرة المرأة كفر» . ولكن اذا وقفت الغزوات وتطوّرت الحالة في هذه القبيلة نفسها فتساوى فيها عدد الرجال بعدد النساء وهي النسبة الطبيعية تقريباً في كل الأمم وادخلت الحضارة في مجتمعهم التفاوت في الغنى والفقير ، فهل يصح أن يباح للغني أن يتزوج أربع نساء لا لسبب من الاسباب الموجبة اجتماعياً كعقم زوجته ومرضاها مثلاً بل استناداً الى ما لديه من وسائل الانفاق على نساته فقط ؟ ، فنحصر معنى العدل

بين أربعة جدران من منزل هذا المقتدر وننكره على المجتمع ذاهبين الى تأويل حكمة
الوحي تأويلا يقضى للفرد على المجموع ...

* * *
ألقيت محاضرتنا هذه في الاسكندرية في ربيع سنة ١٩٣١ ، وبعد مرور ثلاث سنوات اى في ٦ مارس
سنة ١٩٣٤ ، نشرت جريدة البلاغ الغراء التي تصدر في القاهرة في عددها ٣٤٠٤ مقالا مطولا بقلم
الاستاذ عبد الله على الزايد من مفكري البحرين في الخليج الفارسي بحث فيه احوال الاسرة ، فاقتطفنا
من هذا المقال الفقرات الآتية .

* * *
« تعدد الزوجات » إذا أنهكت الحروب أمة من الامم فذهبت بشطر كبير
من الرجال وغدا بذلك عدد الأناث ضعفى عدد الذكور او اكثر ، الا يكون
من العدل والانصاف ورعاية الشرف والأخلاق ان يباح التعدد بقيود . وبطبيعة
الحال لن يقدم عليه الا من تتوفر لديه ثلاثة شروط هي الرغبة في التعدد ، وعدم
التحرج منه واليسار وحب النساء ، ومهما كانت الاحوال فان المعددين لن يزيدوا
على عشرة في الميئة .

ذلك ام القذف بقسم كبير منهم في الشارع يعرضن اعراضهن بدافع ضروري
ودافع طبيعي .

تلكم الحال التي وصفناها انفا من انهاك الحروب وتضاعف عدد الاناث
كانت هي حال الامة العربية قبل البعثة وبعدها ، فكان التعدد راجعا فلما جاء
الاسلام وجده لا يزال ضروريا إذ كان نقص الرجال في استمرار وازدياد بسبب
الحروب والهجرة فأقره وخفف من ويلاته ومساوئه بتعيين الحد الاقصى للتعدد
وتنظيم الحقوق الزوجية وانشاء المراجع القضائية ، ونص في آيات القرآن الحكيم
نصا لا يحتمل التأويل وأن فسره جل المفسرين بما يخالف ظاهر اللفظ العربي .
نص على أنه إن خيف أن لا يكون التعدد عدلا في الهيئة الاجتماعية وجب ان
يقصر على واحدة ... بذلك نطقت الاية الكريمة (وان خفتم ان لا تقصطوا في

اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان ختم الا
تعدلوا فواحدة)

ليس المقصود بالعدل هنا العدل بين النساء (الزوجات) المذكور في آية
(ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) الخ ...) لانه لو كان معنى
العدل في الآيتين واحداً لتناقضتا تناقضاً لا سبيلاً الى تأويله وجمعه .
يقول هناك أن العدل بين النساء خارج عن حيز الامكان ويؤكد ذلك تأكيداً
باتاً ويقول هنا إنه لجرّد الخوف من عدم العدل بين النساء (لا التحقيق) اقتصروا
على واحدة ...

الله جلّت حكمته لما أراد ذكر العدل بين الزوجات ذكره صراحة (ولن
تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)
اما في الآية الثانية فذكر العدل مطلقاً من دون قيد ولم يقل ، فان ختم ان لا تعدلوا
بين النساء ، فعليه يتعين ان المقصود من العدل في هذه الآية العدل في اهيئة
الاجتماعية للامة ولماذا نخصص العدل هنا وهو مطلق ، نخصه بما يكون بين المرء
وزوجته من معاملة وسلوك . الا يحتاج هذا التخصيص الى سبب ؟

يستخلص من ذلك انه يجوز بل يحتم على كل أمة من الأمم ترى أن التعدد
ليس عدلاً لأي سبب من الأسباب أن تمنعه وهي بما تفعل انما تنفذ الشريعة
الاسلامية وما بها من حكمة ونظام ، ولكل أمة حال ولكل حال مقتضى .

لامشاحة ان التعدد قبيح تنشأ عنه مفسد ونكبات بين الاب وبنيه وبين الاخ
وأخيه ، فهو في الحقيقة لا يكون مباحاً الا اذا كان نفعه اكبر من أئمه وأوروبا
اليوم تزاوّل التعدد في أقبح صورته وأشنع اشكاله ولعله اكثر أجراما وحيفاً من
تعدد الجاهلية . اجل ان المعددين في الأقطار الأوروبية كثيرون واولاد الزوجات

الغير الرسميات يملأون الشوارع ، تعددٌ لكنه ظلم فظيع فاحدى النساء من اللاتي يتصلن بالرجل ويستمتع بهنّ وأولادها تحظى بالحقوق الزوجية والبواقي وأولادهنّ محرومات . يا حسرة على أولئك الاطفال ماذا جنوا وماذا اقترفوا
ولقد كان المفسرون يجدون إشكالا في تفسير الآية (وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء) اذ ما هي علاقة اليتامى بعدم العدل بين الزوجات ؟ ولكن هذا التفسير الذي سبق عليه القول ينسجم معنى الآية ، فان قضية اليتامى مشكلة اجتماعية ، وتعدد الزوجات مشكلة اجتماعية ، ان خفتم من عدم العدل في ذلك خافوا من عدم العدل في هذا وفيه تلميح الى ان هذا أجدر بعنايتكم والتفاتهاكم .



في مثل هذه المواقف الحرجة في مراحل الانسانية تتجلى حكمة الالهام السماويّ ولو أنّ الأناية البشرية وقفت حكماً لتنظيم أحوال هذه القبيلة كما صورناها لكان الرجل يمتنع عن تحمّل وقر النساء العديدات مقيداً نفسه بالقسط والانصاف بينهن وباتعهد بإيفاء الحق كاملاً لكل منهنّ ، وكانت المرأة تتمرد على قبول الضرر يساوينها في مقامها ، ويعلم علماء النفس أن غيرة المرأة جلّها إن لم نقل كلّها معزة نفس وكبراً أكثر منها غيرة مجردة كغيرة الرجل ، فما كان للمنظم الانساني الاّ أن يقول لتذهب النساء الزائدات عن عدد الرجال الى الحقول ولتعملن كالرجال لتؤمن حياتهنّ

إن هذا الحلّ المبني على مصلحة الفرد لا على مصلحة المجموع لا ينتج عنه الاّ ما شاهده الرسول العربيّ في الجاهلية من تسبب مفرج ومن تسلط الأقوياء على أوفر عدد يمكن نواله من النساء ومن وأد البنات تخلصاً من عارهنّ وهنّ

معرضات لكل فجيرة ، وما تكون الفتاة في مجتمع لا مقام مشروع لانوثها فيه إن لم تكن مدفن الحياة أو مبعث الأطفال اللقطاء لا تعرف الأم نفسها من أي استسلام نشأوا

وقد تجلّت مثل هذه الحال في أوروبا بعد الحرب العالمية الكبرى التي حصدت ملايين الشبان وأبقت في المجتمع ملايين من النساء أوصدت في وجوههن أبواب الحياة الزوجية فقام كاتب جريء في باريس ينشر كتابه للمشهور بعنوان « الخلية المشروعة » قائلاً إن طبيعة الرجل لا تكتفي بزوجة واحدة وإن من حقة أن يشرع له الحق باقتناء الخليلات خارج بيته وقد تجدد طبع هذا الكتاب مئته وخمسين مرة ومن تصفّحه يندعش من قدرة هذا الكاتب على تسخير العلم للسفسطة خدمة للشهوات الجامحة المريضة ، فقد ادعى أن بقاء الرجل مع امرأة واحدة يضعف من حيويته وقال إن المرأة إنما هي آلة للتوليد فهي فاقدة أنوثتها مدة الحبل ومدة الرضاع ، وأظهر الرجل في مظهر الشيخ الذي صوّره لنا الدكتور شبنندر آلة ميكانيكية لا عمل لها إلا الفلاحة والزراعة في كل أرض .

ولكن هذا الكاتب لم يعد مثيلة له بين النساء فبرزت له كاتبة قديرة ترد مزاعمه في كتاب عنوانه « الخليل المشروع » هدمت فيه نظرية خصمها بنظريات من نوعها تؤيد فيها حق المرأة بتعدد الأزواج احتفاظاً بمجالها وقوة أعصابها وجرياً مع فطرتها فقالت إن انحطاط قوى الرجل يقابله نشاط المرأة من الاتصال الجنسي وإن ذلك دليل على وجوب إنالة المرأة حق تعدد الأزواج وقالت فوق ذلك إن العقم المتفشي بين الرجال يستلزم حتماً انطلاق المرأة للعثور على نطفة الحياة أيان يدفعها الحس الباطن

تلك كانت حكممة الانسان في العالم المتمدن ، فيا لضلال الانسان ويا لعظمة عيسى
ويا لحكمة محمد مستمدتين من الأنوار الأزلية الخالدة .

إن الحرب العالمية قد اجتاحت الدنيا سنوات معدودات وانقضت فما كانت
زيادة عدد الرجال على النساء إلا زيادة حوالة قام على اثرها التوازن في مدى سنوات
قليلة من النشء الجديد الذي لم تتناول ذكوره النار الآكلة ، فما كانت هنالك حالة
مستقرّة تمتد بتوالي الغزوات والحروب وتستلزم التحوط لها بنظام جديد ، وعلى
كل فان الكاتب والكاتبة الذين وضعوا مبادئ الصفحات لم يهتم كل منهما إلا بأشباع
الشهوة في الجنسين مغفلاً القضية الكبرى وهي قضية النسل ، فان الكاتب قد
تصور توهمًا أن الرجل المتمدن سيكثر نسله من خليلاته المشروعات في حين أن
هذا الرجل نفسه يرتجف فرقا من الواجبات التي تنزلها به ولادة طفل واحد
من زوجته المشروعة ، فهو إذا لا يتوصل في فلسفته إلا الى نتيجة واحدة وهي
تسجيل العلاقات الجنسية للتمتع فقط في سجلات الحكومة ، أما الكاتبة فانها في
طلبها تعدد الأزواج او بالحري تعدد العشاق الى جنب الزوج غرب عن بلها أن
الرجل يمكنه باربع نساء أن يدفع الى المجتمع باربعة أطفال في السنة في حين أن
المرأة لا تدفع إلا بولد واحد في سنين من خمسين رجلا . . . وعلى افتراض إمكان
حملها في مثل هذا الموقف فان الطفل المولود منها لا يأتي الحياة إلا معتمها عليلا . . .
تلك هي مسألة تعدد الزوجات في منشأها وتلك هي الحكمة في إباحتها مقيّدة
بما تقوم عليه من شروط فهل ينطبق التعدد الآن على حكمة الشرع ويؤ من
ما أراده من عدل . ؟

بعد ان انقضت أيام المحن الاولى بالجهاد والفتح ، استقرت المدينة الإسلامية
في العواصم ودخل المسلمون في طور استغلال الجهود القديمة فتناسوا أحكام

الشرع ومالوا الى الترف كسكل الامم التي تنقضي أيام محنتها وجهادها من أجل مبداءٍ كبير ، وبعد إن كانت النساء تؤخذ من الأمة للقيام بحق فرضهنّ على الرجال أصبحت دور الأغنياء تغصّ بالجواري مستوردة من كل أمة وبلاد تنويعاً للذة الفاسقين ، فكانّ النبي العظيم قد جاء بحكمته السماوية ليسنّ للناس قانوناً يحتكر به الغني النساء عن الفقراء باحتكاره المال ويشهد التاريخ الحق أنّ هذا النبي ما جاء الاّ بآيات الرحمة المرأة اذ رفعها الى مستوى الرجل في حين كانت بعض المجامع في أوروبا تبحث ما اذا كان يجوز أن يقال إن للمرأة نفساً حيّة كالرجال .

إن ما نراه في الشرق العربي اليوم من الاستمرار على تعدد الزوجات بلا مبرر اجتماعي او شخصي إنما هو ميراث تلك العصور التي جنت فيها الأمم الداخلة في الاسلام على مبادئه .

لقد كان زمان أيام العراك العنيف بعد بزوغ أنوار الهداية في بلاد العرب يقدم الأب فيه ابنته والأخ أخته الى زوج اثنتين او ثلاثة شاكرآله برّه ورحمته لانّ بتحمّله وقرها فوق ما يحمل تبرعاً جميلاً في سبيل الصيانة وتأمين الحياة ، اما في هذه الايام فلا أرى من تقدم على الزواج بمتزوج ولا أرى أهلها الاّ طامعين بحياة أعلى من مقامهم الماديّ في المجتمع فهي وهم يفضلون استغلال الموقف على الأخذ بحكمة الدين وروح التشريع

قال عليّ كرم الله وجهه (ما جاع فقير الاّ بما تمتع به غني) وهذه الحكمة تعني على القياس نفسه ، ما تمتع غني باكثر من امرأة الاّ بحرمان فقير من أسرة شريفة في فقرها .

اما مسألة الطلاق فيكفي ان نقف فيها عند هذا القول الجامع (أبغض الحلال على الله الطلاق) ، ولقد يندهش المفكر لاول وهلة من هذا التعبير لما في ظاهره

من تناقض ، ولعله يتسأل عما دعا الى تحليل البغوض ، فان كان الحق سبحانه يكره شيئاً للناس فما هي الحكمة في إباحة الأخذ بها لهم .

ولكن إنعام النظر في ما تتضمن هذه الكامة من حكمة يقود الى إدراك كنهها بالأخذ بروحها السامية لا بالوقوف عند اللفظ ومؤداه الحرفي . إن الاسلام لم يخالف النصرانية في إخضاع المرأة للرجل ليكون هو القائد والمدبر والامر المطاع بالبر والانصاف ، فالمرأة المسيحية مجبرة بحكم دينها أن تعتبر الرجل رأساً لها كما ان المسامة مأمورة باعتبار زوجها قيماً عليها . ذلك هو الوضع الطبيعي الذي لا مفر منه منها تقول المجددون وتشدقت الثائرات لذلك عند ما أباح عيسى الطلاق للرجل بقوله — من طلق امرأته لغير علة الزنا فقد جعلها تربي . لم يقل أين يجب على الرجل أن يثبت زنا امرأته ليجوز له ان يطلقها ، فالنصرانية كالاسلام إذاً قد أقامت الرجل كاهناً في هيكل أسرته كما أقامه الاسلام إماماً لهذه الاسرة .

غير أن هذا السلطان لم يعط للرجل اطلاقاً دون تقييده بالتبعات تجاه ربه وضميره وهذه حرية الرجل يقيدها هذا الأمر الصريح

« واللآتي تخافون نشوزهن فمظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً »

فاذا كان النبي العظيم يقضي بأمر الحق الأعلى على المسلم الا ينبغي على المرأة سبيلاً حتى في حال تمردّها عليه ، واذا كان يأمره بمحاولة إصلاحها بالموعظة ثم بالهجر وأباح حتى تأديبها كتأديب الولد الجاهل ، ولم يبيح له التخلي عنها إلا لأصرارها على عنادها وحكمها بنفسها على نفسها ، فهل من مبرر بعد هذا للقول بان الاسلام أرحب للرجل المجال فيمكن للمسلم دون أن يآثم ، أن يطلق امرأته حينما يريد وكيفما يريد ؟ إن اصرار المرأة على نشوزها والنشوز لغة البغض والكره والتمرد وضلال

العاطفة إنما هو الزنا المعنوي بعينه ومع ذلك أمر الحق الأعلى الرجل بالأبغى على المرأة سبباً من أجله إلا إذا أصرت عليه ، فإذا كان الحال على هذا المنوال ، وهو كذلك بحكم الآية نفسها ، فإي فرق جوهرى يمكن أن يأخذ به المنصف بين مرأى النصرانية ومرأى الاسلام من هذا القبيل ؟

إن الطلاق اذا مباح في النصرانية لعلة الزنا كما هو مباح في الاسلام لعلة النشوز المتصلب ومحرم غير هاتين العلتين . فاذا نحن وصلنا الى هذه النتيجة يتضح لنا الطباق التام بين جزئى قول النبي عن إباحة الطلاق وبفضه ، اذ يتضح ان الطلاق مكروه في حالتي وقوعه من خيانة المرأة أو من استبداد الرجل بدون مبرر .

قلنا إن النصرانية والاسلام قد جعلوا الرجل في موقف الحكم تجاه المرأة ، غير أنها أوقفوا الرجل تجاه ربه مشددين التنكير على ضميره ، وما كان بالامكان أن يوردا زجراً عليه وإكراهها لامتناع إكراهه طبعاً وهو المتبوع للمتبعدي لا التابع اللازم في العلاقة الجنسية ، واذا ما أدركنا المسؤولية الروحية العظمى التي ألقاها الشرع على الرجل تجاه المرأة نفهم تماماً معنى كلمات الرسول العظيم التي أرسلها مع آخر أنفاسه ففاضت مع روحه .

الله الله في النساء ، إنهن عوان بين أيديكم . أخذتموهن بأمانة الله ...
أجل إنهن لوديعه الله ، ولا يكسفن حقهن على الرجل إلا سماعه لها تف سريرته لا انبغات شهواته ولا يقين شر المنكر إلا الأخذ بما أمر الله من معروف إنها لوضعية لا قبل بتغييرها وقد نشأت عنها المشاكل الاجتماعية الخطيرة ، وقد حاول رجال الشرائع الانسانية عبثاً أن يحدوا لها حلاً قانونياً فما أمكنهم أن يضعوا المساواة بين الرجل والمرأة من حيث الازام بالعهد .

وإذا ما نحن نظرنا الى القوانين القديمة والحديثة فاننا نراها كلها تقضي على المرأة باللاتمتمتع نفسها عن اولته قيادها وقد وردت النصوص على أن اغتصاب الرجل لزوجته مباح اذا لا يمكن أن يعد اغتصاباً ما ليس الا تناول حق مكتسب على أننا لا نجد بالامكان أن تغتصب المرأة زوجها فهي وإن كانت تملك على الرجل الحق نفسه الذي يملكه عليها من حيث المبدأ المطلق لا يمكنها بالطبع أن تتصرف فيه إكراهاً . لذلك نرى القوانين واقفة عند حد القضاء للمرأة بالنفقات والتضمين وذلك جهد المستطاع .

من أجل هذا اتجهت قوة التشريع السماوي الى معالجة العلة في جوهرها لا في أعراضها ، فقال عيسى ان الزوجين ليسا جسدين بل جسد واحد ، وأبى على الرجل ان يكون مؤمناً بالله وباليوم الآخر فيسيء الى زوجة هي منه وفيه ، وقال محمد إن الرجل يأخذ المرأة بأمانة الله ، وأبى عليه أن يكون مؤمناً عاملاً بالمعروف منتهياً عن المنكر ويفرط بوديعة الله .

وإذا كان النبي الكريم قد أباح للرجل أن يزجر المرأة ويذهب حتى الى ضربها في ردعها عن النشوز فما كان ذلك الا احتفاظاً منه بوثاق الزواج وجعل الطلاق آخر ما يلجأ اليه قاطع الرجاء .

وما عاب على الاسلام هذه الاباحة وهي تشترب اللين في شدتها الا من جهل الأوجاع المبرحة التي تقطع قلب الرجل رب المرؤة والنخوة من رؤيته شطر جسده يرتقص متمرداً على عقوله وارادته طالباً الانعتاق ليرتقي في أحضان الغرباء

إن محمداً قد استند الى هذه الفطرة الشريفة التي عززت الطبيعة بها الرجل ولم تحرم حتى الحيوان منها وهي فطرة الاستماتة في سبيل المحافظة على المرأة والائتي

واستند من جهة أخرى الى ما نفخه في أتباعه من روح عدل الله ليسلم للرجل بان يكون الحكم في أمره والإمام في معبد حبه .

ليس من التوهم ولا من قبيل التخيل الشعري أن يقال إن الزوجة لحم من لحم الزوج ودم من دمه ، بل تلك حقيقة وردت منذ ألوف السنين في الكتب المقدسة فجاء العلم الحديث يؤيدها في استقرائه .

لقد أوردت لسكم في اول حديثي ما تبينه علماء وظائف الاحياء من مشابهة أبناء الزواج الثاني للزوج الأول ، والآر أشير إشارة ، إذ لا يسعني في هذا الموقف الايضاح المسهب باللغة الطبيئة ، الى أن الوظيفة الجنسية لا تقف عند حد التوليد فحسب بل تذهب ايضا الى ادخال المرأة بعد الزواج في تطور جديد يتغلغل في دمها وأدق خلاياها

ولقد يلاحظ الكثيرون انعكاس سيء الزوج على ملامح الزوجة ، ويتجلى هذا الانعكاس بأشد وضوح على ملامح المتزوجات أبقاراً

فاذا ما كان الناموس الطبيعي على ما نرى واذا ما كان الدين الموحى به من الحق ، وما تخفى على الحق خافية ، لا يبيح الانفصال الا عند الموت والنشوز وكلاهما اضمحلال وفناء عن الحياة ، فأنني لأعجب لرجل يقطع كبده ممتليئة حياة من دمه ليرمي بها طعمة لمن يشاء من الآكلين

لا يُقتطع من الجسم الا ما مات منه بعد ان تعجز المعالجة عن استبقاء الحياة فيه ، فاقولكم في من يقطع عينه لأنها رمدت ويقطع كبده لأنها احتقنت .

أكل هذا القطيع من المطلقات في الشرق العربي يحمل وصمة الخيانة والنشوز أكل هؤلاء البائسات يهرعن الى المحاكم ويملأن باحات المصالح للمطالبة بلقمة

النفقة الى حين ، كن خائبات زانيات ؟

أما والحق ، إن المرأه السليطة المستقوية ليست هي من تُطَلَّق في الغالب
فإن أمثالها لا يستقوين الا من ضعف رجالهن ، واذا كان هنالك نساء ينشزن
ويتمرذن على الاقوياء من الرجال الصالحين فما هن الا فيما ندر سوى معتوهات
عريضات وهن أحق بالمعالجة والرحمة من النعمة والعقاب .

يقول بعض أعداء الاسلام بل عدد من المسلمين أيضاً إن الشرع واسع
الرحاب لا يقضي بالعسر بل يقضي باليسر للناس وإنه شرع الفطرة ويريدون
بذلك أن الاسلام لا يقيد الرجل بما لا قبل له به ، فكانهم يقولون بهذا إن
الفطرة فاسدة وإن الشرع يجاري هذا الفساد ، يلي أيها الناس إن الدين الحنيف هو
كالمسيحية في جوهرها دين الفطرة ولكن أية فطرة يجاريها عيسى ومحمد ، أهي
الغرائز الحيوانيه الدخيلة على فطرة الانسان الروحية ، أم هي الأميال المستقرة
في أقصى النفوس التي أخذت بالحق وعرفت ربها ؟

إذا كان البعض يعتقدون أن الفطرة المقصودة هنا هي التي تسطو على الانسان
من استهواء الشر بالتمتع للذة بالعدد الأوفر من النساء وبأجلهن حتى يزول جمالها
وبأغضهن شيباً حتى تذبل أزهارها . فيا لويل هذا البعض مما يعتقد
كفراً وضلالاً...

إن الأسرة هيكل حب واخلاص وفاء متبادل ، إن الأسرة منفذ روح
الله الحية الى مسالك هذه الدنيا لتقوم بما قدر عليها استيفاء لما قدر لها .

وقد مررنا في رحلتنا في هذا الحديث الطويل على مشاهد وعبر لا يمكن
لمن يمعن فيها الا أن يقف رابطاً كفه على قلبه مرتجفاً فرحاً على بلدان أناخ عليها
الدهر بكلكاه وهي تلمس مكامن علمها للقضاء عليها مغضية عن علمها الكبرى
ودأبها القارض قاعدة حياتها في منابت أطفالها .

إن ذريةً لا تجيء الحياة من مصادر سليمة صالحة لا يمكن لها ان تنشيء
الاطنان قوية متحدة تسودها روح التفوق والعمران ، وإن طفلاً يأتي
الحياة من منبت الطباق والحب ومكارم الاخلاق خيراً من رجل جاء الحياة
طفلاً نشأ من منابت الضلال والكره حتى ولو أوردته أصفى مناهل
العلم والتهذيب

ولد طفل ، من أبوين ارتبطت حلقتاهما شهوةً من الرجل ورهبةً من المرأة ،
وطلقت الأم حملت الطفل الى حيث تحتضنه بعيدة عن الأب ، وهي مغلوبة
على أمرها حزينة منكسرة تمزج لبن رضيعها بالدموع ، فتح الطفل عينيه للحياة ،
فاذا هو يرى أمه ترسل النور الى عينيه ، نوراً قاتماً كله أمى وآلام ، وقد يلوح
فوق سريره وجه غريب من حين الى حين يأمره بأن يدعوه « أبي » ومن أرد انه
تهب رائحة امرأة غريبة هي غير رائحة أمه ، واضطرت الأم لتميش
ان تزوج ثانية ، فاذا بالولد يُسلخ عنها ويسلم لامرأة يجب عليه ان يدعوها
« أمي » ، ثم انقضت سنو حضاته ، فاذا هو بين يدي أبيه يعرفه الى أولاد لم
يرهم من قبل فيؤمر أن يدعوهم اخوته فينفرون منه لأن أمهاتهم قد علمتهم أن
يكرهوه لأنهن يعتبرنه غريباً دخيلاً

لقد أصبح هذا الولد المسكين أكرهة تملقها النوايب على ذلك المدى
الفسيح الفاصل بين علتي وجوه ، فهو منذ فتح عينيه للنور لم يشاهد الا كما
حلم مجتمعين من اجتماعا ليقذفاه به عيلاً ضعيفاً وحيداً الى هذا
الوجود الجائر

واذا ما هو اتبته الى نفسه وتسأل عن هذه الحياة تخالف ما يشعر به من

حاجة استقرت في أعماق نفسه قيل له ما قاله الزمخشري في تفسيره ،
وإنما أمهات الناس أوعيةٌ مستودعاتٌ وللأبناء آباءٌ
وتمرّ الأيام ، فإذا بهذا الولد ، ضحية هذه الحالة المفجعة ، يبلغ أشده وقد
تغلب الألم على حوافزه ، وانقلب ما تحمله من الظلم قساوة في نفسه ، فإذا هو
رجل لا يعتقد بالمرأة إلا ما لقتته الارزاء ، وإذا هو مهيباً لمثّل الدور الذي مثّله
أبوه بتضحية زوجته وطفله كما ضحيت أمه وكما ضحى هو . . .
وولد طفلٌ آخر في بيثة أخرى ، فإذا هو بين أبوين لا يعرف أيها أمه ،
وما أمه سوى رجل كأبيه ، فهي إن لم تكن عبدة لوظيفة محكم فيها الغرباء فلها
عبدة أهوائها وصويحباتها ومراقصها ومنزهاتها ، وما تنبئه عواطف هذا الطفل
فيه ويبدأ بالتمعن بما حوله ، حتى يرى موائد الميسر قائمة في جوانب البيت لا تطوى
إلا ليطوى من تحتها البساط ويكشف بلاط الدار ميداناً يتعانق عليه الرجال
والنساء أزواجاً متراقصين ، وقد يحسب الولد هذه الحركات لعباً كألعابه فيضحك
ويعرج ، واكتنه لا يلبث أن يرى الثديين الذين أرضعاه يلوحان تحت النسيج
الشفاف يضغطهما رجلٌ غريب على صدره ، فيخرج صوت القبور الصاخبة أنيناً
مختنقاً من فيه الصغير ، ويشعر بالغيرة تحرق صدره بعد إن استجالت رماداً في
قلب أبيه ، ويقوده أبواه الى أما كن الملاهي ، فيرى الغواني نصف عاريات يلقين
السم الى الناس فنوناً وما كان الجنون إلا مسخاً ولدته في فخشاها الفنون . . .
ويتعمد الولد إنزال المرأة عن عرشها في خياله بعد ان كانت فطرته توقفه
أمامها وقفة العابد أمام معبود متعالٍ مصون ، وقد يسمع في ما بعد عراك أمه مع
أبيه وتصل الى مسامعه كلمات الشتيمة والاتهام بالخيانة ، فيثبت لديه أن لا أمه
تثق بأبيه ولا أبوه يثق بأمه ، ولكنه يراها قد عادا الى الجمالة الكاذبة بعد حين

ليرجعنا الى المشادة بعد أيام ، فيتضح له أن الوفاء مصنع حوله وأن ما يراه نباتاً ليس الاً استقرار على إكراه . وهكذا يشبّ الولد جاحداً للاخلاص منكرّاً للعاطفة الهادئة المستقرّة معتقداً أن الأسرة قائمة على التضحية المؤلمة . . .

هذان الطفلان ، هما الأُمَّة في البلاد التي ندعوها موطن قوميتنا . وما أنا بالمتعامل على الأُسرتين الكبيرتين في بلادي بما أوردته عنها من رسوم .

إن في هذه البلدان أسراً عرفت أنجيلها وقرآنها فهي مجلى الكرامة والصيانة والحرية الحقّة حيث تتجلى القيود الشريفة تاجاً على مفارقها لا أغلالاً في أرجلها ولكن عدد هذه الاسر أقل من أن يحجب الأغلبية التي تلد لهذه البلدان كتلة شعوبها . وهذا الاحصاء الرسمي في القطر الزعيم يثبت وقوع الطلاق بنسبة خمسين في الميئة من عقود الزواج . .

ومن الغريب في أعراض هذا الانحطاط السائد على العدد الأوفر من الأسر أنها تتجلى في الطبقة الجاهلة بين المسلمين في حين أنها تتجلى بعكس الامر في الطبقة المتعامّة بين المسيحيين ، فالاسلام سائر بطبقاته المستنيرة نحو روح القرآن وحكمته ، أما النصرانية فانها في ارتقائها تسير مبتعدة عن إنجيلها لأنها استبدلت به إنجيل المدينة الحديثة في حياتها .

جلست يوماً الى صديق لي من أذكي رجال المسلمين وأوفرهم علماً وأرفعهم مقاماً أسأله عن رضائه بانقطاع نسله في حين أن له اتخاذاً زوجة أخرى تأميناً لحق يسهلّ الشرع له الوصول اليه ، فاجابني مبتسماً .

— لقد مرت سنوات على زواجي وأنا طيب ولا ريب عندي في أن العقم في رفيقتي لاني ، ولكنني لا أرى من مكارم الاخلاق أن اكسر قلب رفيقتي التي أحب وأحترم وهي لم تجن ذنباً ولم تقصّر يوماً في واجباتها تجاهي ، فان أنا اتخذت

عليها ضرّة أذلتها باغياً عليها ولقد لا تحمل هذه الاهانة فتلجأ الى الانطلاق بحق عصمتها ، وقد تلجأ مكرهةً للتزوّج من رجل آخر ، وتأبى عليّ عزتي العربية وكرامتي الاسلامية أن أرى من تغذي جسمها من جسيمي وقلبها من قلبي منظرحة على فراش غريب ..

والتقيت في اليوم نفسه ، وكان ذلك من غرائب الصدف ، شاباً من شبان العرب المتمدين المرّقصين لأخواتهم والراقصين مع أخوات الغير ونسائهم ، فدار بيننا حديث وجه به جليسي اللوم اليّ لمجاهرتي بتقبيح اجتماعات الآخذين باذئاب المدن من أبناء البلاد ، وقد أنهى سلسلة براهينه المتواليّة على فائدة الاختلاط والرقص بقوله .

- ما يضير الرجال المتزوجين من رقصنا مع نسائهم ؟ إننا معشر الشبان المهذبين نعرف أن محترم المرأة التي نراقصها فلا نذهب الى أبعد ما يميزه الفنّ لنا ، واذا ما أعاد الرقص النشاط الى المرأة بل واذا ما تنهت أعضابها وتولاها المرح ، فنّ يستفيد من هذه الحالة ؟ أليس المستفيد هو زوجها الذي يذهب بها مرحلة نشيطة الى بيته ، ونحن الذين نهىء أسباب سروره ينتهي بنا الحال في آخر الليل على فراش قدر في غرفة من غرف المواخير ...

ووجدت أنّي إن جاوبت هذا الشاب على كلامه أحتقر نفسي فاكتفيت بأن قلت بصوت عالٍ وأنا مدير ظهري لهذا الجليس كلمة موسوليني المأثورة .

« خيرٌ من تعليم المرأة الرقص أن نعلمها إطلاق الرصاص . »

سوف يأتي يوم ، وهو غير بعيد ، تنقبه المدنية فيه الى أن الرجل الكامل الذي ينشده العلماء في الغرب لن يخلق لهم من التمرين تقوى العقل وقوى الجسد ولا من

فخص خلايا المتزوجين بالمهجر حتى ولا من تلقيحهم بالمواد الكيماوية أو تطعيمهم
بغدد القروود ..

إن الرجل الكامل أو الاقرب الى الكمال إنما هو ابن الحب الكامل ، فالحبة
وحدها هي السبيل المؤدي إلى إدراك الحق والقوة والجمال .

لندع العالم المتمدن يفتش في علومه ونهضة مفكره على هذا الحب الذي
تخيَّله ماركس متجلياً في الحرية التامة للناس في أهوائهم فجأت البلشفة تثبت
انخداع هذا الفيلسوف في نظرياته ، ليفتشوا إنهم لن يتصلوا في تجاربهم الا الى
العبر الزاجرة المؤلمة .

أما نحن ، ابناء هذا الشرق الذي انبثق الحق فيه انضباطاً من الداخل بالالهام
لا تلمساً من الخارج ، فلنا المسلك المفتوح منفرجاً أمامنا للاعتلاء والخروج الى
النور بعد هذا الليل الطويل ، اذا نحن أخذنا بروح ما أوحاه الحق الينا .

لا بترقية الزراعة والصناعة ، ولا بنشر التعليم والتهذيب ولا بجعل البلاد جنة
غنى وتنظيماً ، تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد .

إن الجنين الذي يحمل أسباب شقائه وهو في بطن أمه لا يمكنه أن يصير رجلاً
حراً قوياً يفهم حقيقة الحياة ويتمتع بالمعزة الكامنة فيها .

إن الاهتمام بإيجاد الطفل الصالح أولى من العمل لاعداد العلم والتهذيب لطفل
نصقل مظاهره صقلاً وتنحطم كل محاولة للتفوذ الى علته المستقرّة فيه منذ تكوينه .

لقد اتضح لنا مما استعرضنا من أنوار الوحي ومن الشعور الباطن وحتى
من المشاهدات العلمية الحسية ، أن الأمرين السامة والمسيحية في هذا الشرق العربي
لا تسيران في اتجاهها الجسّاح عن الاسلامية والمسيحية الى تأمين إيجاد الطفل
الصحيح لانشاء الأمة الراقية الحية .

وقد اتضح لدينا فوق ذلك أن اتهام الدين بما يأتية أبناء الضلال الاجتماعي من مخالفة لروح الدين نفسه إنما هو المخداع إن لم يكن تحاملاً، أو هو الجهل بما قصده عيسى ومحمد للناس من إصلاح وصلاح

واقامه حكماً في كيان أسرته وعقابه وإثابته في ما يقضي يرجع ان الله فاحص النوايا والخفايا .

ان لهذا الاعتراض مظهرراً من الحق يجب الوقوف عنده . لا ينكر أن الرجل في أسرته والسيد في رقيقه مؤتمنان وعليهما أمام الله تبعة تفوق بالأمانة كل التبعات، ولكن ذلك لا يعني أن الانسان مطلق في الوديعة من كل مسؤولية اجتماعية اذا فرط بسلطانه لأن الأسرة لا تُبنى على حق الله فحسب كما تُبنى العقيدة ايماناً وجحوداً ، توحيداً وشركاً ، بل هي تتناول حقوق العباد، وما جعل الله حق عباده على مرتبة أدنى من حقه ، فننظيم الأسرة على ما يقتضي تبدل الأزمان إنما هو واجب على المجتمع يقوم به بالاحتفاظ بمبادئ التشريع العامة .

إن ما امر الدين به إلزاماً لا يجوز الاجتهاد فيه لتعديله أما ما اباحه إباحة فهو من أمور الدنيا التي تُطبق على الاحوال المتبدلة بخاصة في الاباحات التي قيدت بشروط وامتنع على الناس القيام بها .

إن النصرانية والاسلام قد أبيح فيهما الرق في زمن كان الرقيق فيه اذا عومل بما أوجبه الدين من انصاف في حكم الحر المستخدم تكفل حياته لقاء عمله، ولكن عند ما تطورت نظم الاجتماع على أصولٍ أخرجت العمل والجزاء فيه عن محوره الأول وعند ما حق لكل انسان أن يتقيد بملاء اختياره بجهوده، بل عند ما لم يأخذ الناس بما أوجبه رحمة الدين بالرقيق وتمادى الاقوياء في غيهم فاستمروا في

إرهاق الرقيق بل زادوا في قساوتهم عليه حتى انزلوه منزلة البهيمة ، تمرت روح الحق في أنفوس المصلحين ، فاعتبروا الرق جريمة يستحق المتاجر بها والمستفيد منها صارم العقاب. وقد أخذت الدول النصرانية والدول الاسلامية بهذا التشريع وعملت به ولم يقل أحد علماء النصرانية او أحد علماء الاسلام إن الاستمرار على تجارة الرقيق انما هو مباح ديناً فلا يجوز للناس ان يمنعوا ما اباحته شريعة الله . . .

أما وقد أصبح تعدد الزوجات والطلاق المسلم تقدير الرجل بلا قيد كما أصبح إطلاق المرأة في حريتها الشخصية وتسيب بعض الرجال في مرفقتهم وواجباتهم مما يلحق بالمجتمع العربي الشرقي ضرراً أبلغ من أضرار تجارة الرقيق وينزل بالرجل والمرأة على السواء أدهى النكبات ، لانه يقرض كيان الشعوب من أصولها ويقذف للمجتمع باطفال تموت فيهم غرائز الشرق السامية ولا يمكن أن يقوم عليهم وبهم بنيان الأمم التي تريد الحياة ، فقد لزم على السلطات الدينية والمدنية ان تتمعز بالدين نفسه للقضاء على الجنايات التي يرتكبها الناس باسم الدين على الاجيال الآتية فتتولى الفصل في الحالات التي تبرر التعدد والطلاق على عدل لان ترك الامر لتقدير الفرد لا يؤدي في الغالب إلا الى الجنوح مع الشهوة الى تقدير مغلوط يجر الويل على المجتمع والانسان إن في النطفة التي نشأنا منها عبرة يجدر بنا أن نستفيد منها وتتخذها مثالا نقتدى بما كمن فيها من حكمة إلهية .

وتلك العبرة كائنة في أول ظاهرة من تكون الأجنة ، عند اتحاد النطفتين ، اذ تتولد في الرحم حول الرسيم مادة صلبة تقف حاجزاً دون أي حيوان آخر يحاول ولوجها ، وما هذا التفاعل الطبيعي الا القوة الموحدة للحياة تدراء الشرك في الجنين بل تدراء الموت عنه ، فهل تكون نطفة الانسان خيراً منه ؟ . . .

أفما رأينا كيف أن النطفتين تتحدان لتكوين الجسد الواحد إنساناً سوياً
يصلح للحياة وكيف تقف الطبيعة مدافعة عن وحدته ، إن من ينفذ الى عظمة هذا السر
يدرك بلا عناء معنى الروح الواحد في جسدين والجسد الواحد جامعاً بين روحيين .
أفليس الرجل والمرأة المتحدان بالحب جنيناً يتكوّن موحداً في رحم هذا
الكون الفسيح يلفظه الى عالم الخلود كما تلفظ الأرحام الوليد الى عالم الفناء ؟ ..
ليقبل تشبيهي هذا من يريد ويرده من يشاء ، إن تفسيره يقتضي الدخول
في مبحث طويل ليس الآن زمن تناوله ، ونحن نبحت منابت الاطفال لا لما تجرّه
باختلاها على نفسها من الويلات بل لما تنزله من النوائب بهذه المخلوقات الضعيفة
الواقفة على باب الوجود مرّجفة حائرة ...

ليس الفقير المتسوّل ، ولا العليل المتألم ، ولا الشيخ الهرم يتمشّي بلا سند
الى قبره ، ليست المرأة المستعبدة بلقمة ولا الفتاة المخدوعة المنطرحة على أقدار
المواخير ، ليس كل هؤلاء الناس الأشقياء في الحياة بأشقى من الاطفال يجور عليهم
ابآؤهم وامهاتهم قبل أن يقذفوا بهم الى الوجود ويرهقونهم بالقطيعه والاهمال بعد
ان يدرجوا عليها باقدامهم الناحلة المتعثرة ...

الرجل الذي يمسح حبه الواحد شهوات متعددة والمرأة التي تتقصّف متهتكة
ماسخة هيكل نسمات الله مركباً لنفائيات البشر من عبّاد الخيانة والطيش ، انما هما
آدم وحواء مطرودين من الجنان الى ارض الجهود المضنيعة والآلام المحتمة ،
ومن يدري ان حديث معصية الابوين ليس رمزاً لخيانة الحب ، تلك الخيانة التي
تنزل اللعنة بمر تكبيها وبانثائهم من بعدهم ...

ويل للرجل الذي يهدم بيديه سعادته وسعادة بناءه وويل للمرأة التي تدّس منبت أطفالها .

وانما أطفالنا حولنا
اكبادنا تمشي على الأرض

« ٦ »

المهود

في الشرق والغرب

رؤيا صوفى عربى

كُتبت باللغة الفرنسية وترجمت الى العربية

عقلية الانسان بعد الحرب الكبرى — أوفر اللذات بأقل الجهود — التمردُ
على عاطفة الابوة والأمومة — قضية النسل بين الايمان والجهود — أنى
التوليد تجديد حياة أم تجديد فناء — الحكوماتُ وتناقض النسل — المسيحية
تجاه المهود في الغرب — رؤيا في السماء للاستاذ مصطفى صادق الرافعي — الأطفال
في الحياة وبعد الموت — الجهاد الحقيقي — التبتُّلُ والزواج — التحكمُ في
النسل — بين عاقِرٍ وثكلى — سرُّ الله في قلب امرأة — الحياة ما وراء هذه الحياة .

إنَّ اطراد النقص في الزواج الشرعي وفي المواليد، وتعدّد حوادث
الاجهاض وقتل الأطفال، لمسائل تقلق المفكرين ورجال الحكومات في الغرب
لأنهم يرونها منذرة بانحلال الأوطان ودمارها.

بعد ان مرّت عاصفة الحديد والنار على وجه أوروبا ملقبة بالاكفان الحمراء
على ركام القتلى وبالأوشحة السوداء على ما تأيّم من نساء وما تيّم من أطفال،
ترحف اليوم الطامة الدساسة الخرساء، طامة إبادة النسل لا كمال فجائع الحرب
مستخدمة من الناس استكلابهم في الحياة للقضاء على الحياة.

لقد قامت في العالم المتمدّد مذابح دامت خمس سنوات أفلت الناس منها
وقد انطبعت في أذهانهم كتل من الاشلاء وكوم من الأطلال غطت الأديم
وملأت ببحرتها وعشيرها الفضاء، فاصبحوا وكأنّ في قرارة نفوسهم رعباً من
الأطفال ووجلاً من اليهود.

لقد كان يُلاحظ نشاطاً في الحيوية على إثر فجائع التاريخ الكبرى فكانت تزداد
المواليد لاستعادة ما اختل من التوازن في المجتمع، غير أن الطامة الكبرى
الأخيرة لم تسفر إلا عن حيوية سادتها أنانية الفرد فتمرد عليها وتحكّم فيها.
كانت الطبيعة المنجبة في الأمومة يجلبها الحب والعفاف، فاذا هي الملاك الساقط
الشارد من جنانه تحمل العقم في أحشائها وقد تساقط عن مفرقها إكليل الأزاهر

البيضاء . مدت الشهوات يديها الى الأمومة فاسقطتها عن عرشها وحلت هي عليه
مختلصةً تستقبل الدنيا بوجه ملؤه القروح وثمر يلتمع بابتسامات الرياء والاكاذيب .
إن من ولد منذ ثلاثين او أربعين سنة فعُدَّت ولادته نعمةً ثم دخل الحياة
وهو يبارك أبويه الذين فتحا للنور عينيه ، أصبح اليوم مذعوراً مما يحمل من حياة
بين جنبيه محاذراً أن تفلت شرارة من كواضنها الى العالم المشهود .

لقد صمد هذا الرجل للمصافة الهوجاء ، وسمع إرعاد جوانب الجحيم . لقد داعبته
أسنة النيران الفاتكة وزحف كديدان الأرض في تراب الخنادق . لقد توسد
الثرى مع من توسدها من الأموات وقام من بينهم وجميعاً مشوهاً . بُعث من بين
الأشلاء فدعم قواه المتلاشمية برؤى الاصلاح الاجماعي ، برؤى حق الحياة إن لم
يمتني بها نفسه فانما يميتني بها من سترك على الأرض بعده .

وكان ربُّ الحرب قد رفع عقيرته من جميع عواصم العالم يهزُّ أجواء النفوس
بالمواعيد الخلابة وهو يهيب بها الى التضحية في سبيل حقوق الانسان ، ولكن
العائدين من جبهات الحرب يجراحهم وعاهاتهم تفرسوا في رب هذه الملحمة
وحدّ قوا به فاذا القناع يسقط عن وجهه واذا بهم أمام قوة أوثقت عهداً مع
مباديء الاستعباد لا مع مباديء تحرير العباد .

وهكذا تجلّى روح الشر مرة أخرى مخادعاً للانسانية المسكينة . فكانت
خدعته هذه أفظع ما أتى به من ضروب إرهاب العالم منذ توالى الأتسال .
عاد رجل العراك الى مسكنه فرأى من آثار الفاجعة فيه ما لا يقل عما
أبقت في جسده وفي روحه من علل وجراح . وكانت قد هبت على المسكن
نسمةٌ مَحْمَلَةٌ بالجراثيم فاجتاحته روح التمرد وأصبح ينمُّ عن غرائب من النشود وعجائب
من الشذوذ ، خلت الثقة من السرائر فتولت الوحشة القلوب تقرض نياطها قرصاً .

ضلّ الفكر من قبل في مجاهل المدينة وغاب عنه هدف التعاون من أجل الحياة فاذا بالعالم يساق كرهاً الى المعترك ، واذا بالمعترك يقذف بالناس الى ركام العالم المهتدم حيث لا يزالون منذ سنة ١٩١٨ يجيلون أنظارهم المرّوعة على ما جنوا وما جنى عليهم القضاء . . .

إنّ ما انزلت الحرب من النوائب كان قد أفرغ العروق من الدماء وأفرغ معها كل ما جمعه الانسانية بمجد جيل كامل من الثروات ، ولو أن هذا الافلاس تناول فقط ما بدّته وافتته الحرب من معدّات الدمار لكانت الفادحة وفتت عند حدّها ، غير أن هذا الاسراف في سبيل القضاء على الناس كان لا بد له من الحكم بالاذخار المعوّض على الذراري المقبلة .

ليس لنا أن نتناول في موضوعنا من المسائل الاقتصادية الا ما يقتضيه الامام بأطرافه ، فنكتفي بأن نقول إنّ ما تشعر به جميع الأمم التي حشرت في النار وجميع الأمم الأخرى التي تناواتها أسفة اللهب حتى من بعيد إنما هو الآن شعور أبناء يكرههم قضاء غريب على تأدية ما ابقاه آباؤهم المبتدّون من ديون لا من الميراث ، ولا ميراث ، بل من نتاج جهودهم ومن إذخار مرهق لا أمل يُعقد عليه .

إن ثروة الأفراد وبخاصّة قيمة جهود الطبقة العاملة قد حُشرت في مآزق تحوّل قيم النقد (القطع) التي وفقت الى فتحها أساليب الاقتصاد السياسي وقد كانت المدينة وصلت قبل الحرب بزمان بعيد الى موقف استحالة عليها فيه أن تصمد أمام ما أثارته مسألة الطبقة العاملة من مشاكل فان الآلة التي اخترعتها العبقريّة لتخفيف عناء العاملين كانت أصبحت في يد أرباب الأموال معصرةً للجهود وأداة استغلال عنيف . وما وضعت الحرب أوزارها حتى أدى تطوّر

الحالة الفكرية في الناس الى ظهور اختلال أدبي حديث وقف الى جنب الخلل الاقتصادي الناشئ في أزمان قبل الحرب ، فأينا جنون الحياة يستولي على الناس شأن كل سلالة قطرت فوق مهودها الدماء .

إنَّ إنسان اليوم لينفر من كل رابطة اجتماعية تقيده بأي واجب كان ، فكأنَّ السوداء استحالت وباء يكتسح المجتمع الغربي حيث يتجلى النفور بالتفاعل المنعكس في كل عاطفة سواء أكانت صداقة أم غراماً

إنَّ الرجال لا يجتمعون الا على أغراض سداها ولحمتها المال ، وقد أصبحت المرأة بعد أن كانت رفيقة الرجل في السراء والضراء تراه في الأعمال وتناسبه العدا . تلك حالة المدنية اليوم بعدما طراء عليها من تطورات خطيرة وهي حالة أجمع الواصفون على وصفها فلا تستلزم من البيان حجة ومن الوقائع برهاناً .

إنَّ الرجل والمرأة متساويان اليوم في العالم المتدن في إعلان نفورهما من أي عبء أو أي قيد يرضخها اتحادهما له . وقد أصبح الطفل سواء في الزواج الشرعي او المرافقة الغير المشروعة مفزعةً للزوجين وعباءً يجدر بها إقصاؤه .

إنَّ الفرد من الجنسين وقد أتعبته الحياة يحاول الا يفتح لتجديدها سبيلاً . وقد تسنى لرب العصر وقد أصبح اوراقاً خرساء لا تسمعك الا حفيفاً حزيناً كأوراق الخريف المتناثرة أن يتحکم في النفوس فيحوّلها عن الفضائل باكثرت مما تسنى من قبل الحرب للأصفر الرنان .

أفلا يكفي الانسان ظهوره على الارض أكرةً تعلقها أيدي من قاسيات النوائب لتقذف به بعد لهوها الى أسرة الأوجاع فالزرع فالقناء . . . وماذا يقصد الحي من جعل ذاته علة لظهور أحياء آخرين يقطعون مراحل الدنيا بالشقاء والأوصاب ليصبحوا اخيراً مرعىً قذراً للدود في القبور . . .

إنّ فتى العصر ليقف بوجهك ويقول لك . إنّ فراشاً يحطّ رحاله على
زهرة لا يلبث أن ينحطم جناحاه عليها وقد ذوت وريقاتها ويلّ لمن يحفّ
على نفسه ويقضى بالجفاف على سواه ومع ذلك فهل ترى أن ازهار هذه
الايام هي الازهار نفسها التي كانت تنور في حدائق الماضي ؟ وهل أصول ازهار
اليوم الا عروقاً متمرّدة رحالة نقالة ؟ . . . إنه لمجنون ذلك الفراش الذي يولي
قياده لزهرة تجرّه هي حيث تشاء بدلاً من أن يطير بجناحيه سائراً نحو آفاق
الحرية والنور

وهل تخاطبك الفتاة العصرية بغير هذه اللهجة أذ تقول لك - باي حق
تعملون علامة التآنيث في الاسم الذي اخترتموه لنا قياداً علينا ، وما دامت الشابة
تستطيع ان تؤمن عيشها من جهودها أفلا تكون ساذجة حمقاء أن هي أقامت عليها
من الناس سيدياً يتسلط علي حريتها ؟

وهكذا يقف كل من الجنسين موقف الدفاع عن قضية استقلاله وحرّيته .
وإذا ما ثارت جرائم الحب صدفه من بؤرة قلبين تأخر الردم فيها فأول ما
يهتم له المصابان بهذا الداء الويليل الجامع بين خصمين متنافسين هو استغلال
الطبيعية ومخادعتها بالعمل بدستور الأسماك التي تلتهم الطعم مفلتة من
صنارة الصائدين . . .

يرى الرجل ما تكلفه كسرة الخبز من جهود فيعزّ عليه اقتسامها مع أطفاله
وتقف المرأة أمام ما يتجلى لها في جسمها من رشاقة الشباب وتناسق الأعضاء
وقففة التاجر تجاه رأس ماله فيعزّ عليها أن تسلّم لحيوان غريب يتكوّن في أحشائها
بهذه الكنوز يشوّها وهي أداة عزّها وسلطانها

أفا يجدر بالانسان ، وهو الشبح الذي يبدو وشيكا على الارض ليتوارى ،

أن يتمتع بمسرات الحياة متعجباً إلاّ ما استطاع . إن من الخرق في الرأي أن
تخلق شعباً لطريقنا وأن نضيف على ثقل حملنا أحمالاً .

إنها لسرائر الفرد المتمدن وقد وصفناها إماماً ، لقد فقد الانسان ثقته بنفسه
واصبحت لذاته نفسها نوعاً من الأُم الهازيء الساخر . . .

أما العالم الثاني فمن غلاة المدنية يعتقد الاعتقاد المكين بوجوده ؟ ولا
أعلم كيف يؤمن بهذا العالم جاحداً لا يؤمن بالعالم الآخر . ومن العبث أن
نحاول إيقاظ عواطف الابوة والأمومة في رجل وأمرأة لا يعتقدان ببقاء الحياة
وبعث النفوس .

حاول بعض الملحدين أن يثبتوا أن عاطفة الأبوة في قلب الجاحد إنما
تنشأ من توقع الزوال بنفسه فيلجأ الى التوليد لأنه يعلم ان لا شيء يبقى منه سوى
ذريته يستبقي فيها على حياته .

إنه لتعليل فاسد ناشيء عن تصور مكذوب لشعور الانسان تجاه العدم .
إن رجلاً يتوقع الفناء المطلق في الموت لا يمكنه أن يخدع نفسه بفكرة
بقاء ذريته ، فهو يعلم ولا بد له من أن يعلم أن بين شعوره وشعور من يلد هاوية
بعيدة الغور ، فان الذرة الحية بمجرد انفصـالها عن أصلها تصبح ذاتاً مستقلة
بتفاعلها مع عناصر الحياة ، فمن التوهم أن نتصور أية علاقة بين إحساس الوالدين
وأبنائهم اذا ما صرفنا النظر عن الاتصال الفكري والاشترك الأدي في الشعور
وقد يكون أحد الأبوين ملقاً على سرير الأوجاع يجود بأخر الأنفاس ويكون
أحد الابناء بعيداً يتمرغ في حمأة الشهوات .

لا يمكن ان تنشأ عاطفة الأبوة والأمومة من التسلسل المادي ، والألجاز
لنا ان نجمل الحيوان بهذه العاطفة ، في حين أننا نعلم ماهي هذه العاطفة الموقته فيه

وهي عبارة عن غريزة لا يتجاوز الحنان فيها زمن العناية الضرورية لنشوء صفاره حتى اذا بلغت أشدها أنكرها .

إن الانسان ، عدا تجمله بعاطفة الأبوة الخاصة به ، يشترك والحيوان ايضاً بالغريزة الدافعة الى التوليد ، ولكن الانسان يمكنه ، اذا ما خرج عن حالة رجل الكهف ، أن يتحكم بهذه الغريزة ، وعندما يذهب الانسان في ارتقائه مذهباً يقوده الى الشك في حقيقة نفسه والى انكار الخلود عليها يصبح ضلاله دستوراً لأعماله ، وحينئذ لا بد له ، وهو في حكم الفاني منذ الآن لأنه سيفنى ، من أن يقف موقف العداء تجاه حياة لم يعد لها في سريره معنى الحياة .

وهل لرجل لا يتصور الخلود الا في سلسلة الذرية تمتد حلقاتها مجددة للفناء والاضحلال على ممر العصور أن يعتقد بتجدد حياته في أبنائه ؟ . . .
قال لي ملحد ذات يوم .

— لن يبق مني بعد موتي سوى ابنائي وستتجدد حياتي فيهم .

فاضطرت أن اجاب هذا الرجل على كلامه الذي ينقض مبناه معناه نقضاً تاماً . وهو من المؤمنين بالعدم ، فقلت له . - إن ما سياتجدد منه في أبنائه ليس حياته بل فناؤه بموته .

واردفت قائلاً : - هلاً اكتفيت بأن تموت مرة واحدة ، فتذهب من الدنيا الى العدم وأنت توصي ان يكتب على قبرك بيت أبي العلاء .
هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

* * *

إننا نرى في هذا الايضاح الموجز لحالة العالم المتمدن ما لقضية اليهود من أهمية وما هو المقام الذي تشغله بين مشاكل الاجتماع الكبرى .

لقد انكش الفرد على نفسه فهو متطيرٌ من الزوال لا عقيدة له بالخلود لا جسماً ولا روحاً، إن قوماً يحيط بهم العدم من كل جهة ليمتنع عليهم التصديق بولادة طفلٍ لغير الفناء. وهكذا يتضح لنا السبب في محاولة الأحياء استبعاد كل ما يقيم المصاعب على سبيلهم ويحول دون راحتهم بعد أن وقفوا في الجهة السلبية من الحياة.

ولكن هنالك رجالاً قبضوا على زمام الأمم فاصبح من واجبه ان يعالجوا تناقص النسل وفيه تكمن أخطار الانحمار في ميادين الاقتصاد والحروب. وتلك حوافز نرى آثارها جليّة في كل نداء يوجهه الرجال المسؤولون الى الهيئات الاجتماعية وفي كل بحث يقولاه علماء السياسة والاقتصاد فان أهم ما يتجه اليه النظر في ما يقفون الجهد عليه إنما هو تأمين الأُنسال وزيادة عدد الموايد لايجاد فيالق الصناع والجنود تنتصب سدّاً في وجه المنافسة والاجتياح. وما تذهب الحكومات الى أبعد من هذه المقاصد، لأنّه لو لم يكن عليها أن تراحم مناوئتها في ميادين الاتّاج وأن تكون على قدم الاستعداد لصدّ كل غارة تهددها، لما كانت تمدّ بسلطانها الى قلب حياة الفرد التابع لها. إن ما يهيمّ الحكومات من الانسانية إنما هو الوطن لا الانسانية بعينها. وما واجهها الا واجب حفظ التوازن والاستبقاء على حرمة الدولة. وكل مسألة تتعدى هذه الحدود لتتصل بالمسائل الأديية المجردة لا قبيل للحكومات بمعالجتها ويمتنع على سلطانها أن يتناولها.

لذلك نرى أبحاث الدول في ما يتعلّق بتناقص النسل تدور على محور حقوق المالكين وحالة العاملين واذا رأيت منها من تذهب باهتمامها للاصر الى أبعد ما يمكن فانها لتكتفي إلزاماً بفرض الضرائب على العازبين ومنح الجوائز للأسر التي تتعدد

المواليد فيها.

ويلوح لنا أن مثل هذه الوسائل لا ضعف من أن تقتلع الشر من أصوله. إن تحسين حالة العاملين لفرض يقتضيه حق الحياة بتخفيف أعباء الجهود المرهقة عنهم. غير أن الفرد العامل لن يذهب إلى ما تقصده الدولة من تأمين جزاءٍ أوفر لا تعابه، فهو بدلا من أن يتحوّل إلى استيلاء الأطفال يتجه بما يقنمه من مال نحو زيادة راحته واشباع شهواته وهو إن يفعل فإنما يقتدي بأهل اليسار، أولئك الذين لا يبرر إضرابهم عن التوليد أي مبرر وهم بالرغم من ذلك أقل الطبقات توليداً.

إن الأبوّة عاطفة نفسية إن لم تنشأ بقوة النفس امتنع على أية مساومة توليدها. فن الحال أن يتفاهم الفرد والدولة في هذا المطلب ما دامت الدولة تكاف الفرد لتوريد الصناعات للمعامل والجنود للفيالق وما دام هو من جهته يذهب في سريره إلى المذهب الملائم لراحته في حياته.

إذا لم يكن الإنسان مندفعاً إلى الأبوّة إرضاءً لعاطفة فيه فانه لن يخضع لأية قوة تريد تسخير عاطفته لاستغلالها.

ولربّ معترضٍ يدكرنا بما في الغرب سوى سلطان الحكومات من سلطان تعمل مختلف الكنائس به لمقاومة الرزائل في المجتمع والقضاء على وسائل التحكم بالنسل في الأسر، ونحن لا ننكر ما للمسيحية التي سادت الغرب والعالم الجديد من جهود في سبيل تعزيز الأسرة بالدعوة إلى التقيّد بالأحكام الصارمة وبارسال اللعنة إلى مدّسي فراش الزواج المتلاعبين بمقاصد العناية السرمدية ولكننا ملزمون مع هذا بأن نعترف آسفين بأن المسيحية التي قرر الغرب أحكامها وأوجد حواشيتها قد أصبحت وهي تقدّس الزواج ترى في كل حبّسٍ دنساً رافعةً بالعزوبة التي دعتهَا

عفةً الى مستوى أرفع من مستوى الاتحاد بين الجنسين معتبرة أن في التبتل نهاية الجمال .

وعلى هذا نرى المسيحية الغربية وهي راسية على تأويل بعيد عما يدركه مفكرو الشرق من الانجيل ، واقفةً عندما أخذته من المباديء في مجال الدعوة إلى الأنسال فاكثفت الكنائس بتهديد المرتبطين بالزواج بنار الجحيم إذا هم تخيروا العقم ، غير مهتمة بتحريك العاطفة الكامنة في القلوب لحياتها في سبيل تكثير النسل ، وكيف تفعل وهي لا ترى أن عاطفة الأبوة والأُمومة هي أشرف وأقدس عاطفة تمثل الخلود في عالم الزوال .

* * *

نشرت مؤخراً مجلة الرسالة الراقية في القاهرة مقالات تحت عنوان (رؤيا في السماء) للاستاذ مصطفى الرافي ، وقد نظر هذا الفيلسوف الشرقي فية إلى مسألة النسل نظرة سبر بها أقصى الموضوع مسترشداً بالأحكام الاسلامية ، فجاء مقاله تحفة يجدر بمفكري الغرب الوقوف عندها والتبصر فيها ، وهذا ما اهاب بنا إلى ترجمتها .



رؤيا في السماء

للاستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أبو خالد الأحول الزاهد: لما ماتت امرأة شيخنا أبي ربيعة الفقيه الصوفي، ذهبت مع جماعة من الناس فشهدنا أمرها، فلما فرغوا من دفنها وسوى عليها، قام شيخنا على قبرها وقال: يرحمك الله يافلانة! الآن قد شفيت أنت ومرضت أنا، وعوفيت وابتليت، وتركتني ذكراً وذهبت ناسية، وكان للدينا بك معنى، فستكون بعدك بلا معنى، وكانت حياتك لي نصف القوة، فعاد موتك لي نصف الضعف، وكنت أرى الهموم بمواساتك هوماً في صورها الخفيفة، فستأتيني بعد اليوم في صورها المضاعفة؟ وكان وجودك معي حجاباً بيني وبين مشقات كثيرة، فستخلص كل هذه المشاق إلى نفسي، وكانت الأيام تمرُّ أكثر ما تمرُّ في رقمتك وحنانك، فستأتيني أكثر ما تأتي متجرّدة في قسوتها وغلظتها. أما إني والله لم أُرْزَأُ منك في امرأة كالنساء، ولكني رزئتُ في المخلوقة الكريمة التي أحسستُ معها أن الخليقة كانت تتلطّف بي من أجلها!

قال أبو خالد: ثم استد مع الشيخ، فأخذت بيده ورجعنا إلى داره، وهو كان أعلم بما يعزي الناس بعضهم بعضاً، وأحفظ لما ورد في ذلك، غير أن الكلام ساعات تبطل فيها معانيه أو تضعف، إذ تكون النفس مستغرقة في الهم في معنى واحد قد انحصرت فيه، إما من هول الموت، أو حبٍ وقع فيه من الهول ظلُّ الموت، أو رغبة وقع فيها ظلُّ الحب أو لاجئة وقع فيها ظلُّ الرغبة. فكنت أحدثه وأعزّيه، وهو

بعيدٌ من حديثي وتعزيتي ، حتى انتهينا إلى الدار فدخلنا وما فيها أحد ، فنظر يميناً ويسرة ، وقلب عينيه ههنا وههنا ، وحوّقل واسترجع ، ثم قال : الآن ماتت الدار أيضاً يا أبا خالد ! إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة التي تمحرك في داخله ، وما دام هو الذي يحفظها للرجل ؛ فهو في عين الرجل كالمطرف^(١) تلبسه فوق ثيابها من فوق جسمها : وانظركم بين أن ترى عينك ثوب امرأة في يد دلال في السوق ، وبين أن تراه عينك يلبسها وتلبسه ! ولكنك يا أبا خالد لا تفقه من هذا شيئاً ، فأنت رجل آليت لا تقرب النساء ولا يقرّبك ، ونجوت بنفسك منهن وانقطعت بها لله وكأن كل نساء الأرض قد شاركن في ولادتك خرمن عليك ! وهذا مالا أفهمه أنا إلا أفاظاً ، كما لا تفهم أنت ما أجده الساعة إلا أفاظاً ، وشتان بين قائل يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلف .

فقلت له يا أبا ربيعة ، وما يمنحك الآن وقد أطرحت أثقالك وانبثت أسبابك من النساء - أن تعيش خفيف الظهر ، وتفرغ للنسك والعبادة ، وتجعل قلبك كالسما انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس ، فانه يقال : إن لمرأة ولو كانت صالحاً قاتنة - فهي في منزل الرجل العابد مدخل الشيطان إليه ، ولو أن هذا العابد كان يسكن في حسناته لا في دار من الطوب والحجارة لكانت امرأته كسوة يقتحم الشيطان منها . ولقد كان آدم في الجنة ، وبينها وبين الأرض سموات وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلق روح الأرض بالشيطان ، فيتعلق الشيطان بجواء ، وتعلق هي بآدم ، ومكر الشيطان فصورها لها في صيغة مسألة علمية ، ومكرت جواء فوضعت فيها جاذبية اللحم والدم ، فلم تعد مسألة علم ومعرفة ، بل مسألة طبع ولحاجة فأكلا منها فبدت لها سوءاً تهماً . وهل اجتمع الرجل والمرأة من بعدها

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة في دارها ، وهو المسمى (الروب)

على الأرض إلا كانا من نصب الحياة وهمومها، وشهواتها ومطامعها، ومضارها
ومعائبها - في معنى « بدت لها سوا أيتها » ... ؟
كلانا يا أبا ربيعة ممن لهم سيرٌ بالباطن في هذا الوجود غير السير بالظاهر ،
وممن لهم حركةٌ بالفكر غير الحركة بالجسم ، فقبیحٌ بنا أن نتعلق أدنى متعلقٍ
بنواميس هذا الكون اللّحمي الذي يسمّى المرأة ، فهو تدلٌ وإسفافٌ منا . ولعلك
تقول : « النسل وتكثير الأدمية . » فهذا إنما كُتب على إنسان الجوارح
والأعضاء ، أما إنسان القلب فله معناه وحكم معناه ؛ إذ يعيش بباطنه ، فيعيش
ظاهرة في قوانين هذا الباطن ، لا في قوانين ظاهر الناس . وإنه لشراً كلُّ ما تنقلك
إلى طبع أهل الجوارح وشهواتهم ، فزین لك ما يزین لهم ، وشغلك بما يشغلهم ،
فهم — ذا عندنا — برحمك الله — بابٌ كأنه من أبواب المجون الذي ينقل الرجل
إلى طبع الصبي .

فاطمس يا أخى على موضعها من قلبك ، واللقِ النور على ظلها ، فالنور في
قلب العابد نور التحويل ان شاء ، ونور الرؤية ان شاء ، يرى به المادة كما يريد ان
تكون لا كما تكون . وانت قد كانت فيك امرأة ، خوئها صلاة واعمل بنورك
عكس ما يعمل أهل الجوارح بظلامهم ، فقد تكون في احدثم الصلاة فيحولها امرأة .
قال أبو ربيعة : تالله إنه لرأى ؛ والوحدة بعد الآن أرواحٌ لقلبي ، وأجمعُ
لهسمى ، وقد خلعني الله مما كنت فيه ، وأخذ القبر أمرا تى وشهواتى معاً ، فسأعيش
ما بقى لى فيما بقى منى . وزوال شىء فى النفس هو وجود شىء آخر . ولقد انتهيت
بالمرأة ومعانيها وأيامها الى القبر ، فالبدءُ الآن من القبر ومعانيه وأيامه .

وتوائقا على أن يسيرا معاً في (باطن) الوجود ... ! وأن يعيشا في عمر هو

ساعةٌ معدودةٌ اللحظات ، وحياةٌ هي فكرةٌ مرسومةٌ مصورةٌ . قال أبو خالد :
ورأيت ان أبيت عنده وفاءً بحق خدمته ودفعاً للوحشة أن تعاوده فتدخل على
نفسه بأفكارها ووساوسها . وقد غمرنا تعب يومنا ، وأعياءُ بوربيعةٍ وخذلته
القوة ، فلما صلينا العشاء ، قلت : يا أبا ربيعة ، أحب لك ان تنعس فتريح نفسك
ليذهب ما بك ، فاذا استجممت أيقظتك فقمنا سائر الليل .

فما هو إلا أن اضطجع حتى غلبه النعاس . وجاست أفكر في حاله وما كان
عليه وما اجتهدت له من الرأي ، وقلت في نفسي : لعل أغريته بما لا قبل له به ،
واشرت عليه بغير ما كان يحسن بمثله ، فأكون قد غششته . وخامرني الشك في
حالي أنا أيضاً ، وجعلت أقابل بين الرجل متزوّجاً عابداً ، وبين الرجل عابداً لم
يتزوج ؛ وأنظر في ارتياض أحدهما بنفسه وأهله وعياله ، وارتياض الآخر بنفسه
وحدها ، وأخذت أذهب وأجيء من فكر إلى فكر ، وقد هداً كل شيء حولى
كأن المكان قد نام ، فلم ألبث حتى أخذتني عيني فنمت وأستثقلت ، كما
شددتُ شداً بحبال من النوم لم يجيء من يقطعها .

ورأيت في يومي كأنها القيامةُ وقد بُعثَ الناس وضاق بهم المحشر ، وأنا
من جملة الخلائق ، وكاننا من الضغطة حبّ مبيثوث بين حجري الرّحى .
هذا والموقفُ يغلي بنا غليان القدر بما فيها ، وقد اشتدّ الكربُ وجهدنا
العطش ، حتى مامنا ذوكبداً إلا وكان الجحيمُ تتنفس على كبده ، فما هو العطش بل
هو السّمار واللهبُ يحترقُ بها الجوفُ ويتأجج .

فنحن كذلك إذا وُلدنا يتخللون الجمع الحاشد ، عليهم مناديل من نور
وبأيديهم أباريق من فضةٍ وأكواب من ذهب ، يملئون هذه من هذه

بَسَّسَالٍ بَرُودٍ عَذْبٍ ، رُؤَيْتُهُ عَطَشٌ مَعَ الْعَطَشِ ، حَتَّى لِيَتَكَوَّى مَنْ
رَأَاهُ مِنَ الْأَلْمِ ، وَيَتَدَمَّلَعُ كَأَنَّمَا كُوِيَ بِهِ عَلَى أَحْشَائِهِ .

وجعل الولدانُ يَسْقُونَ الواحدَ بعدَ الواحدِ ويتجاوزونَ مَنْ يَبْنِيهِمْ وَهُمْ
كَثْرَةٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَأَنَّمَا يَتَخَلَّلُونَ الْجَمْعَ فِي الْبَحْثِ عَنْ أَنَاسٍ بِأَعْيَانِهِمْ يَنْضَحُونَ
غَلِيلَ أَكْبَادِهِمْ بِمَا فِي تِلْكَ الْأَبَارِيقِ مِنْ رُوحِ الْجَنَّةِ وَمَائِهَا وَنَسِيمِهَا .

وَمَرَّ بِي أَحَدُهُمْ ، فَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدِي وَقُلْتُ : « اسْقِنِي فَقَدْ بَدَسْتُ
وَاحْتَرَفْتُ مِنَ الْعَطَشِ : »

قال : « ومن أنت ؟ »

قلت : « أبو خالد الأحمق الزاهد . »

قال : « ألك في أطفال المسلمين ولدٌ أفرطه صغيراً فاحتسبته عند الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ كبيرٌ في طاعة الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ نالتك منه دعوةٌ صالحةٌ جزاءٌ حَقٌّ عليه في إخراجهِ

إلى الدنيا ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ من غير هؤلاء ولكنك تعبت في تقويمه ، وقت بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمك الله ، إني كلما قلتُ « لا » أحسستُ « لا » هذه تمرُّ على

لساني كالمكواة الحامية . . . »

قال : « فنحن لا نسقي إلا آبائنا ، تعبوا لنا في الدنيا ، فاليوم نتعب لهم في

الآخرة ، وقدّموا بين يديهم الطفولة ، وإنما قدّموا السنة طاهرةً للدفاع عنهم في

هذا الموقف الذي قامت فيه محكمة الحسنه والسنة . وليس هنا بعد السنة الانبياء
أشدُّ طلاقاً من السنة الاطفال ، فالطفل معنى من معاني آثامكم يحتبس فيه لسانه
أو يُبلِّجُ به »

قال أبو خالد : جُنَّ جنوني ، وجعلتُ أبحث في نفسي عن لفظة « ابن »
فكأنما مسحت الكلمة من حفظي كما مسحت من وجودي ؛ وذكرت صلاتي
وصيامي وعبادتي ، فما خطرت في قلبي حتى ضحك الوليدُ ضحكاً وجدتُ في معناه
بكائي وندمي وخيبتني

وقال : يا ويلك ! أما سمعت : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا
الصيام ، ويكفرها الغمُّ بالعيال . » أتعرف من أنا يا أبا خالد ؟
قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : انا ابن ذلك الرجل الفقير المهيل ، الذي قال لشيخك ابراهيم بن
ادم العابد الزاهد : « طوبى لك ! فقد تفرغت للعبادة بالجزوبة . » فقال ابراهيم :
« لروعة تنالك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه . . . » . وقد جاهد أبي
جهاد قلبه وعقله وبدنه وحمل على نفسه من مقاساة الاهل والولد حملها الانساني
العظيم ، وفكّر لغير نفسه ، واغتم لغير نفسه ، وعمل لغير نفسه ، وآمن وصبر
ووثق بولاية الله حين تزوج فقيراً ، وبضمان الله حين أعقب فقيراً ، فهو مجاهد في
سبيل كثيرة لا في سبيل واحدة كما يجاهد الغزاة ، هؤلاء يستشهدون مرة واحدة ،
أما هو فيستشهد كل يوم مرة في هومه بنا ، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته إيانا
في الدنيا

أما بلغتك قولُ ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو : « أتعلمون عملاً
أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا : فما هو ؟ قال : رجل

متعفف^١ على فقره ذو عائلة قد قام من الليل ، فنظر الى صبيانه نياماً منكشفين ،
فسترهم وغطاهم ثموبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه ... »

يخلع الأب المسكين ثوبه على صبيته ليُدْفهم به ويتلقى بجلده البرد في الليل .
إن هذا البرد -- يا أبا خالد -- تحفظه له الجنة هنا في حر هذا الموقف ، كأنها مؤمنة^٢
عليه الى أن تؤديه . وإن ذلك الدفء الذي شمل أولاده يا أبا خالد -- هو هنا يقاتل
جهنم ويدفعها عن هذا الأب المسكين

قال أبو خالد : وبهم الوليد أن يمضى ويدعني ، فما أملك نفسي ، فأمد^٣
يدي الى الابريق فأنشطه من يده ، فاذا هو يتحول الى عظم ضخم قد نشب في
كفي وما يليها من أسلة الذراع^(١) فغابت فيه أصابعي ، فلا أصابع لي ولا كف .
وأبي الابريق أن يسقيني وصار مثله بي ، وتجسدت هذه الجريمة لتشهد على فأخذني
المهول والفرع ، وجاء ابريق من الهواء ، فوقع في يد الوليد ، فتركني ومضى
وقلت لنفسي : ويحك يا أبا خالد ! ما أراك الا محاسباً على حسناتك كما يحاسب
المدنبون على سيئاتهم ، فلا حول ولا قوة الا بالله !

وبلغني الصيحة الرهيبة : أين أبو خالد الأ حول الزاهد العابد ؟

قلت : ها نذا :

قيل : طاووس من طاووس الجنة قد حص^(٢) ذيله فضاع أحسن^٣
ما فيه ! أين ذيلك من أولادك وأين محاسنك فيهم ، أخلقت لك المرأة لتتجنبها
وجعلت نسل أبويك لقتبراً أنت من النسل ؟

(١) الأسله : ما يلي الكف من الذراع الى القسم المستغلظ منها . فالأسله هي العظمة
التي تشد عليها ساعة اليد
(٢) حص ذيله : قطع وجد

جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة؛ فما صنعت للحياة نفسها إلا ان
هربت منها وانهمزت عن ملاقاتها، ثم تأمل جائزة النصر على هزيمة...
عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك، ولكنها عقت فلم تعمل بك. لك ألف
ألف ركعة ومثلها سجدة من النوافل، وخير منها كلها أن تكون قد خرجت
من صلبك أعضاء تركع وتسجد
قتلت رجولتك؛ ووأدت فيها النسل، ولبثت طوال عمرك ولدًا كبيراً
لم تبلغ رتبة الأب! فلئن أتمت الشريعة، عطّلت الحقيقة، ولئن...
قال أبو خالد: ووقعت غنة النون الثانية في مسمعي من هول ما خفت
مما بعدها كالنفخ في الصّور، فطار نومي وفت فزعا مشت القلب، كمن فتح
عينيه بعد غشية فرأى نفسه في كفن قبر سدّ عليه...!
وما كدت أعي وأنظر حولي وقد برق الصبح في الدار حتى رأيت أباريعة
يتقلب كأنما دحرجته يد، ثم نهض مستطار القلب من فزعه وقال: أهلكتنى
يا أبا خالد، أهلكتنى والله.

قلت: ما بالك يرحمك الله!
قال: انى نمت على تلك النية التي عرفت: ان أجمع قلبي للعبادة، وأخلص
من المرأة والولد، ومن المعاناة لهما في مرمة المعاش والتلفيق بين رغيف ورغيف،
وأن أعني نفسي من لا وإئهم وضرائهم وبلائهم لأفرغ الى الله وأقبل عليه وحده.
وسألت الله أن يخير لي في نومي، فرأيت كأن أبواب السماء قد فتحت، وكان
رجالا ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً، أجنحة وراء أجنحة، فكلموا
نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه: هذا هو المشؤم!

فيقول الآخر : هو نعم المشئوم !

وينظر هذا الآخر الى ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له هذا هو المشئوم :

فيقول الآخر نعم هو المشئوم !

وما زالت « نلشئوم للمشئوم » حتى مرُّوا ، لا يقولون غيرها ولا أسمع غيرها ،
وأنا في ذلك أخاف أن أسألهم ، هيبة من الشئوم ، ورجاء أن يكون المشئوم
إنساناً ورأيي يبصرونه ولا أبصره . ثم مرَّ بي آخرهم ، وكان غلاماً . فقلت له : يا هذا ،
من هو المشئوم الذي تومنون إليه ؟

قال : أنت !

فقلت : ولم ذلك ؟

قال : كنا نرفع عمرك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك ،
وتحزنت على ما فاتك من القيام بحجِّها ، فرفعنا عمرك درجة أخرى ، ثم أمرنا الليلة
أن نضع عمرك مع الخالفين الذين فرُّوا وجبُّنوا !

إِنْ سُمِّى الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ طَيْرَانٌ إِلَى الْأَعْلَى ...
وَلَكِنَّهُ طَيْرَانٌ عَلَى أَجْنَحَةِ الشَّيَاطِينِ !
طَيْرَانٌ بِالرُّجْلِ إِلَى فُوهَةِ الْبُحْرِ كَانَ الَّذِي فِي الْأَعْلَى ! ...

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

بمثل هذا البيان الساحر يتناول الرافعي أدق مسألة اجتماعية تشغل العصر
الحاضر فيسبر أعماقها ، إن هذا الفيلسوف الشرقي يأتي بفصل الخطاب في صفحة
من الرموز برؤيا صادقة يراها الجاحدون أضغاث أحلام ، ليقبل هولاء الجاحدون

ما يشاؤون فإن المفكر المنصف من أية طائفة كان من الطوائف المسلمة بخلود الروح لا يسمعه إلا الانحناء اجلالاً وفي نفسه هزة الخشوع أمام هذه الرؤى الرائعة تتجلي فيها الأبوة والأُمومة لا ركناً للمجتمع الانساني على الارض فحسب بل قوة سرية خالدة تتعالى فوق الفناء لتتصل بالدوائر الخفية وراء القبور. إن الرافعي لم يتحفظ الأدب العربي بمثل هذه الرسالة الخالدة ، إلا وهو منحني على ما في عقله الباطن من ثقافة عربية موروثه يستنير بحكمة الكتاب الهادي متوغلاً في المجهل الفكرية التي رادها من تقدموه في التصور الاسلامية الأولى فكانت عبادتهم فلسفة وكانت صلواتهم استغراقاً وتفكيراً .

بينما كنا نرى فيئة كبيرة من كتاب الشرق تتسلخ عن الثقافة العربية متناسية ميراثها ذاهبة من البيان مذاهب تعارض وما في دمها من حوافز وفي سلالاتها من عقائد ، شهد القرن الماضي بداية نهضة التجدد الحقيقي منذ أيام الافغانى ومحمد عبده فهدت معارج الاعتلاء يرقاها في هذه الايام أمثال رشيد رضا وطه حسين ومحمد هيسكل ووجدي وأضرابهم من الأعلام وبينهم الرافعي ينفخ في البيان المصري روح الشرق في وحيه وإلهامه .

وقفت أمام (رؤيا في السماء) وقفة المعجب الخاشع فاملكت نفسي من اقتحام ترجمتها الى اللغة الافرنسية ترجمة اجتهدت ان استبقي فيها على الاصل في مبناه العربي الصميم لا ثبت لمقتبسي المبنى الافرنجي في بيانهم العربي أنهم يضلون بتعاميمهم من استعارات بياننا وبلاغته ليحلوا محلها صوراً ليست على شيء من الجمال في انشأهم للمصنع .

لقد أورد الرافعي في تحفته الأدبية هذه أجلّ دفاع عن قضيه الحياة برجوعه فيه الى الحقائق الازلية التي أنزلها الوحي على عيسى ومحمد تحت سماء للشرق الصافية

ولكن.. هذه الحقائق التي جعلها الانجيل كما جعلها القرآن أساساً لعبادة الله لم تنفذ الى عقلية الغرب لتأثرها بما أورده الحوارى بولس من المبادئ بشأن التبتل ، فإن هذا الحوارى وقد سادته الثقافة الرومانية وربط عليه ضيق الازمان التي عاش فيها لم يتردد في دعوته المسيحيين الاولين الى الاضراب عن الزواج اذ جاهر بفضل التبتل عليه وتكريس النفس لخدمة الله والتخلص من قيود الأسرة وأعبائها وهي في نظره من تكاليف الحياة الفانية ...

أما المدافعون عن قضية النسل في المدينة الحديثة فما يهمهم من إيجاد الطفل الا إيجاد العمال للانتاج وحشد الفياق للحرب والنزال ، وغايتهم القصوى إنما هي إعداد أكوام الجسوم لمعصرة الاقتصاد تُسبّل الحجر المسمومة على ولائم الانسانيه المضللة . فالمسألة في نظر هؤلاء الداعين الى تكثير النسل لا علاقة لها بالحقائق الروحية التي يجولونها وليس في جميع ما كتبوه بشأنها ما يمت بصلة ولو بعيدة الى هذه الحجّة التي يتقدم بها الرافعى ليصف الابوة عاطفة روحية تحترق حجاب الموت لتتجلى أسرارها عند هدفها الأسمى في عالم الخلود فلا عجب اذا رأى المؤمنون بالبقاء بعد الموت في ما قاله الرافعى خير دعوة الى إجلال الخالق والرضوخ لحقه في تناسل عباده .

إن الرجل والمرأة الذين لا يشكّان في بقاء أولادها بعد الموت يحسان بالأبوة متغلغلة في أعماق روحيها لا في مكان الكبرياء والغرور ولا يسعها التغلب على هذا الشعور للرجوع معه بذلة المنكسر امام أية بلية من بلايا الحياة وأي ارهاق من تكاليفها إن محمداً قد أقام الرجل كما أقامه المسيح رأساً للأسرة تلقى على عاتقه أثقلمها وتبعاتها ، فاذا ما وقف الرجل يستقبل الحياة منفرداً وحده فانما هو إذ ذاك الحلقة المكسورة في سلسلة استمرار الحياة ، بل هو السراط المنعرج والقوس الخائنة تدفع

بسهم القضاء الى غير مرامها . كما أن المرأة المنفردة المتمردة على الرجل تجلّي في
الهيئة الاجتماعية دليلاً على انحطاط هذه الهيئة بفقد المروءة في الرجال وأستيلاء
الفحشاء على قلوبهم .

ان المسيحيين الأوّلين لم يحجموا عن اقتحام تكاليف العيال بالرغم مما كان
يساورهم من ضيق واطهاد ، ودليلنا على ذلك اضطرار الحواري بولس ، بعد أن
فشلت توصياته بالتبقل ، الى اصدار أمره في رسالته (تيموثاوس اصحاح ٣) بأن
يكون الاسقف زوج امرأة واحدة . . . ، وليس هنا مجال النظر في مسألة تعدد
الزوجات في صدر المسيحية .

وهكذا . كان المسمون الاولون سواء إبان هجرتهم او طوال جهادهم وأغارتهم
على عديد الشعوب لا يتقاعسون في القيام باعباء الأسر المعدّة .
إن التخوف من فقد الرغيف لم يكن في أي زمن سبباً في وأد جرثومة النسل
قبل مثولها الى النور . فسألة تناقص النسل لا يتوقف حلها اذاً على حلّ المسائل
الاقتصادية ولن ينتج عن اكتشاف الطريقة المثلى لتوزيع الانتاج على الاحياء
ما يضيع حداً لهذه الجرائم التي ترتكبها الانسانية اليوم تحت ستار العلل الاقتصادية
من إباحة الأعراض واسقاط الأجنة وقتل الاطفال .

لقد كان الرجل القديم يستغني عن أية عاطفة دينية في خضوعه لغريزة
التوليّد — اما الرجل الحديث الراقي فقد أصبح عدواً للنسل بالغريزة المرتدة
الى الأنانية الصرفة فهو إن تعرّى عن الايمان بالله وبخالود يتطير من قيود الزواج
وأعباء البنين .

غير أن الشرق المؤمن لا يزال ، وقد تكسرت على شواطئه أمواج الاحداد ،
مستسماً لعناية الله يعتبر الاتصال الجنسي لبقاء النوع عقيدة دينية ، في حين أن

الغرب ، وقد جهل تعاليم المسيح وعدلها بنظرياته الخاصة ، لا يرى في هذه القضية
الأمسألة اقتصادية تنشأ بين حدسي الأُسرة والقبور .

ان الشرق يواجه الأبوّة والامومة كواجب يرسو على التضحية ، ذلك هو .
تعليم المسيح وتعليم محمد في رسالتهما الى العالم ، ولكن الغرب الذي كان يستنير
قدما بأنوار المسيحية أوجد بدعة لنفسه تتوافق وما يراه ارتقاء وتكاملا للمجتمع .
فالعقلية الغربية اليوم بعيدة جد البعد عن الاحكام القائلة بالتناسل والتكاثر وإملاء
الارض فهي متّجهة الى رفع السدود بوجه أنهار الحياة المتدفقة ، وقد أصبح همها أن
تضع قواعد لاختيار الأنسب وترقية النوع البشري طلباً لايجاد الانسان الكامل ،
أو بتعبير أدقّ الانسان المتفوق ، وما نرى هذا المثل الأعلى المنشود إلا مسخاً
تحلم بخلقه التصورات المعتلة جامعاً بين القوة المريمة والأناية المتغطّرة العمياء .
إن ما ينظر اليه مفكرو العالم المتمدن في الطفل ليس تلك الروح الخالدة التي
تستنبت جناحها للاعتلاء الى الكائن الحق ، بل الجسم نفسه الذي يريدونه متفوقاً
كامل القوى يتنعم بجميع اللذات فتتنعم به وبخيال ملذاته ديدان القبور .

هذا ما يريده مفكرو عصر المدنية الحديثة ، لذلك نرى من العلماء من يهتم
جدياً باخضاع التوليد للخيار ، وتعليم الزوجين الوسائل التي تحكمها في النسل ،
فلا يقدمان على إنتاج الطفل إلا بعد وثوقها من إمكان تزويده بالشهادات
العالية العالية وتأمين حياته بثروة تقيه الاحتياج بل تقيه بذل الجبود للكفاح في
معتك هذه الحياة . . .

لقد هبّت على مجتمعات العصر زعازع من الخبل ، فاصبحت ولا هم لها غير
مسألة المال يحشده المرء تفادياً من بذل الجهد في سبيل الحياة ، فالعالم مأخوذ
بالرعب يرتجف فرقاً من الحياة ومن إيجاد الحياة ، إن جميع ما يبذله الانسان

من جهد إنما يتجه الى توفير الجهد والتهرّب من العمل والانسان الانسان اليوم هو من ألقى اعباء الحياة على دماغه واقفاً ما في عضلاته وأعصابه من قوة على اللذات والفحشاء .

إن المرأة تمرد على طبيعتها نفسها فهي تُضرب عن الأمومة وتجاهر بدمم رضائها بأن تصبح آلة للولادة وللرضاع . وقد سخر العالم نفسه لتردها فقام احد العلماء يمتدح وسيلة تغني الجنين عن أحشاء الأم باجراء العلوق ضمن وعاء من زجاج . وقد ورد في الاخبار أن فتاة مستخدمة لا متسع لديها من الوقت لمعاينة الحمل ولا رغبة عندها في تشويه تناسب جسمها البض تقدمت الى هذا العالم العلامة طالبة استخراج ما يحتاج من مبيضها لآتحافها بالولد الذي ترجوه ، وقد تكون هذه الفتاة من رجعيات بنات العصر ولم يزل في قلبها بقية من خلجان الأمومة القديمة ولديها من المال المقتصد ما يسمح لها بالتطوع لأمومة مصطنعة لا تقضي على هيف قامتها ونضارة شبابها فيضطرها التشويه الى الخروج من فيالق الغلاميات المجاهدات من اجل حريتهن في القرن العشرين ...

إنه لحادث أشبه بالمهازل المضحكة ، ولكن المفكر الواقف على مساوي، هذه المدينة لا يسهه الا التفجع على حال هذه الفتاة المستعبدة ، هذه الفتاة المضطرة الى العمل في ما لم تخلق لأجله ، فإنه ليتلمس في أعماق روحها بقية عاطفة إنسانية لم تقو على استئصالها عوادي المبادي، وضلالات التنظيم الحديث . إن هذه الفتاة لما تزل واقفة على الشفير فهي لم تنزل بعد الى الهاوي حيث يسود ظلام الفحشاء وحيث تقبض الألوف من مكذوبات العذارى بأناملهن على أعناق الأطفال كاتمات عن صدورهم المتهدجة أوائل الانفاس .

تلك هي قرحة البشرية في هذا العصر يتدفق منها الصديد ، فلترجع بمسبرنا
عنها إنَّ التهاب حوافيها لا يختلف عن التهاب أعمقها .

إنَّ في أوروبا من المصلحين من لا ينون يرفعون عقيرتهم منادين بانثبور أمام
هذه المآسي المروعة ، غير أن هنالك أيضاً من لا يتورّع في الدفاع عن حق الحياة
في قتل الحياة ، وهنالك من لا يتردد في إتهام المصلحين بالخبيل والضلال .
واليكم مثالا من هذه الحجج يدلى بها أنصار التحكّم بالانسال .

قال الدكتور هودان في كتابه (الحب والغريزة الجنسية) المطبوع في برلين
(صفحة ١٣٤ - ١٣٥) ما يأتي

(ويقولون لكم أيضاً ، إنَّ التحكّم في الانسال إنما هو — وخطيئة ومعارضة
لمقدرات الألوهمية الخفية . إنه نسكين هذا الاله الذي ينال من كرامته جهاز
الوقاية الصفيق . ولكنكم لا تجهلون أن الدين ضرورة تقتضيها حالة العامة ، ولا يخال
لكم انني مبالغ في ما اقول ، فان هذه الضرورة يقول بها ويردد ذكرها في كل
مناسبة بعض رجال العلم أنفسهم وما هم الا اعلاء أزممت عليهم بالجهل فهم
يخدمون بهذه الاقوال أصحاب روؤس المسال دون أن يشعروا . وما عليكم الا ان
تقرأوا الرسالة التي نشرت مؤخراً بعنوان (البؤس في الزواج)

وهذا بعض ما فيها

(إن السبب الاول في هذا الشقاء وفي هذا الضلال والفساد إنما هو استغناء
أبناء الحياة عن ربهم ولا دواء لهذا الداء الا بتقويم الضمائر ولا تسقيم الضمائر
مالم ترجع الى الله . يجب أن تعود روح الأسرة الى المجتمع حتى تخفت أصوات الشكاية

من وفرة النسل وحتى يرى الأبوان في تكاثر البنين بركة ونعمة)

هذا ما كتبه الدكتور سيدير في رسالته ، وانا اقول لكم إنه مادام في المانيا مثل هذا المعتوه يهتف جدياً بمثل هذه الخزعبلات ، فاننا لن نتقدم)

وبعد ذلك ينتفخ الدكتور هودان بروح التفلسف والحكمة فيقول

(إنَّ من واجبننا نحن الاشتراكيين أن نجاهر على الأقل بهذه الحقيقة وهي إنَّ للأُنسان ملء الحلق اذا ما طالب بتحريره من القيود الاقتصادية أن يطالب أيضاً باعتاقه من شقاء الغريزة الجنسية وتبعاتها .)

ما أراني جاهلاً مباديء الاشتراكية ويلوح لي أن تأويلها على ما يؤدي الى الاضراب عن التوليد إنما هو تأويل غريب لا يصل بطبقة العمال الى الفوز في المعترك ، فإن الدكتور هودان يريد التغلب على أصحاب روؤس المال بافناء العاملين والقضاء عليهم ...

لا أريد الآن السير بالبحث الى المشاكل الاقتصادية التي ضلَّ في شعابها العدد الوفير من مفكري اوروبا ، ولكنني استميتح علماء الاجتماع أن أبدي اندهاشي من مبدأ غريب يعلّق النصر لفئة محاربة على تقليل عددها وإضعاف قوتها في المعترك ...

يتضح للمفكر مما تقدم كيف تعالج المسائل المعقدة في أوربا في ما يتعلق بأحوال الحياة ، فإن الافكار مشبعة هنالك بعداء الأمم وبكيد الطبقات المختلفة فاذا دعي الشعب هنالك الى التوليد فانما يدعى باسم الوطن لاعداد جنود المعارك هجوماً او دفاعاً ، واذا ما دعي الى مقاطعة الغريزة المولدة فانما يدعى بماطفة الكيد للامتناع عن إيجاد السواعد العاملة يستعبد بها أرباب الاموال ، واذا ما

وقف مفكرٌ يأخذ بالمبديّ الروحية رافعاً عقيرته على هذه النظريات قامت قيامة
الفلاسفة الماديين عليه وأتهموه بالعمه والجهل الفاضح .

ولعاني أسىءُ الى صديقي الاستاذ الرافيّ بترجمة مقاله ، فكم من (هودان)
هنالك ، اذا ما اطلع عليه ، لن يتردد في في نعت الاستاذ بالخبيل طالباً ارساله وانا
معه بالطبع الى مستشفى المجانين . . .

أن الانوار لتؤذي العيون اذا ألفت التحديق بالظلام . ولكنّ شعاع
الحقائق الروحية يستغني عن اجتياز الاحداق للنفوذ الى اقصى الضمائر وما (رؤيا
في السماء) الا شرارة من هذا الشعاع الذي بذغ ثلاث مرات من سماء الشرق .
لينير الدنيا من مشارقها الي مغاربها .

إن مقال (رؤيا في السماء) لا يوضح رافعاً لمبديّ الاسلام التي بنيت على قواعد
اساسية تستبطن منها الاحكام لتعززها لا لتشوّه مراميها . ونحن لا نرى هذه
المبديّ الأساسية الا متوافقة وما اورده عيسى في تعاليمه ، بصرف النظر عن كل
ما تبع هذه التعاليم من تأويل وشروح .

فاذا ما نظر الى قضية النسل بالاستنارة بهذه المبديّ الروحية ، فإن هذه
القضية تحلّ لذاتها بمعزل عن أية مسألة اقتصادية او اجتماعية . بل اننا نؤكد بأن
مشكاة النسل ، اذا هي حلت في ضمير الفرد ، ستخرج حتماً من بين العقد التي
تتولد من اختلاف الأمم ومن تصادم أرباب الاموال وفيئة العمال .

ليس للفكر الانساني بل ليس بوسعه أن يتناول بالتحليل قضية التناسل ،
اذا هو جحد الخلود ولم يعتقد الا بالحياة الدنيا يحدها العدم في الازل والزوال في
الأبد ، ذلك لأن عاطفة الأبوة في قلب الجاحد إنما هي نقض صريح لصوره
الحياة في ذهنه . ليس لمن لا يعتقد الا بالموت أن يهتم لمسألة التناسل وفيها تجديد

الحياة وما يكون معنى الزواج ياترى لمن لا تجول ابصاره الا في آفاق المادة المتحوّلة
حول شخصيات وهمية فانية ؟ ، اي معنى يتجلى أمام الملحدين في الزواج وليس
الزواج في الحقيقة الا اعباء وواجبات ، فاذا ما طلب الكافر لذّة فيها فاما يرتكب
حماقة ما بعدها حماقة وهو الكائن الذي يرى الواجب ضرباً من العتة لأنّه يعيش
لنفسه لا لغيره .

ليس بين جدران مسكن الأسرة غير الجهد المستمر يرهق الزوجين للسير
بها الى التفاهم والاندغام بتضحية النزعات المختلفة ولا يبلغ مثل هذه الوحدة ما
في الاجسام من شهوة ، لأنها الوحدة القائمة باندغام الصفات الادبية المعنوية .
وهناك أيضاً وخاصة السرّ الأكبر في تجليّ الذات في حياة أخرى ، فيرى الرجل
والمرأة ذاتها ماثلة في اولادهما ، شخصية واحدة تتحمل بالرغم مما تحمل من عبر
الحياة جميع ما في الطفولة من ضعف وصبر والالام ، إنه لسر عميق أن تزج روح
الزوجين ثانية في سجون هذه الأجسام الضعيفة الواهية التي خرجت من جسمها
إنّ للغيرية معنى لا يدركه الا من أحسّ في صميمه بضعف الطفل ، وما
الطفل من الابوين الا ذلك الكائن القريب حتى ليحسّان به كأنه ذاتها والبعيد
البعيد حتى ليشعران أنّ بينهما وبينه مجالات الابد والازل .

اذا كنت لم تقف الى جنب أسرة هولاء الصغار تتأكلهم الحمى وتقطع أوصالهم
الأوجاع وهم يتمسكون بالعالمهم وينتصبون للتفاهات التي تأسر لبيهم في سداجتهم
في حين تقطع أحشاء الأب والأم لوعة وارتباعاً ، واذا كنت لم تشهد هولاء
الضعفاء الصغار يصارعون الفناء كأنهم الجبابرة في غمرات الاحتضار . أن انت لم تر
النعوش الصغيرة تجتاز على مهل عتبة المسكن المرّوع حاملة بقية مهجة ثوت فيها
مهجتان دامتان ، فانك لم تدرك من الموت الا قليلا ولم تدرك من الحياة شياء .

إذا أمعن الفكر في أصول الاشياء فلا بد له من الوقوف تجاه برهان ذي حدّين لا مخرج له من بينهما . إن نحن اعتقدنا بأننا أتينا الحياة لنقوم عليها بدور نهايته الفناء والاضمحلال وذهبنا الى أن كل ما يتجلّى فينا من قوى إنما هدفه الوحيد الابتلاع والهضم والى أن مهمتنا في هذه الحياة إنما هي عبارة عن إمناء أنفسنا بلذات وهمية حقيقتها أوصابٌ والآم ، وإذا لم يكن هذا الرقيّ الانسانيّ الذي كلّف البشر كل هذه الجهود الاّ تراكضاً أشبه بتراكض القافلة الضالة في الصحراء وراء خادعات السراب وإذا ما رأينا المباديء الادبية خبلاً والصلاح جنوناً والاخلاص ضعفاً والأمانة هوساً وانخداعاً ، وإذا ما نحن اعتقدنا خيراً بأن الحياة الادبية قبل الموت والحياة الروحية بعده إنما توهمٌ مبني على الأباطيل والترهات ، فإن التناسل ليصبح في نظرنا مهزلة يحتقرها العقل بأكثر من احتقاره لمهزلة الخليقة الاولى . وللزم والحالة هذه أن يتحوّل أولُّ بكاء الطفل حين يخرج من سواد الظلمة الى سواد النور لعنةً يوجهها لمن كانا علة وجوده . وإذا ما أتيح لهذا الطفل أن يبلغ أشده فأول واجب عليه إنما هو الامتناع عن ارتكاب الجناية التي جناها ابواه عليه . وخير له وللعالم أن يحطم على سندان الفحشاء حلقة الحياة التي اتصلت اليه كيلا تتصل بها حلقات أخرى من الاوصاب والواجاع .

اما اذا نحن اعتقدنا بأن الحياة المادية المنظورة ليست سوى مظهر لواجب الوجود الذي لا يتغير ، وإذا نحن قلنا إن مجرد تفكرنا يدل على وجودنا (وأضفنا الى ذلك قولنا) إننا موجودون فلا يمكننا ونحن الوجود أن نتصور العدم) وإذا ما تمكنا خيراً من إنارة الفكر المنطقي بأوار العقل الباطن الذي ينمرّد على أن يتصور العدم ولا يمكنه ان يسلم بالا وجود ، فانما لتبلغ اذ ذاك أول سبيل الايمان وهذا السبيل يقودنا الى موقف العقيدة السكينة حيث يتمتع على المعتقد أن

يتصوّر إمكان اضمحلال وجوده وحيث يشعر شعوراً كلياً بأنه خالدٌ لا بالصورة الخارجية المقضي عليها بالتحوّل بل بالسر الخفي الذي لا يتحوّل ولا يفنى وهو الجوهر الدائم الحالّ حولاً في ما يلبس من صورة زائلة يرافقتها ويشهد ولايتها ونموها واندثارها .

ليس للانسان من غير هذا الموقف أن يدرك سرّ التناسل المقدس ، لأن المؤمن وحده أن يرى الوجود بأسره كقوة تتجه الى هدف يبرر كونه ومسيره فيرى نفسه جزاء لا ينفصل عن هذه القوة ويقف عقله عن الاستنتاجات العقيمة مستسماً للعقل الأزلي ، للعلة الاولى ، فلا يتجه بعد هذا الاستسلام الا الى تمهيد العقبات التي تعترض سيره في حياته .

لقد كتب على الانسان أن يجاهد في السبيل الذي اختطته العناية له ، فاذا ما أقدم على الشرود عن هذا السبيل مخططاً لنفسه مناهج جديدة فانما يأتي بدعة ويرتكب ضلالاً ، بل يجحد نفسه بنفسه ويقمرد على المبدأ الذي صدر عنه . ليس للعقل السليم ان يأخذ الا باحدى مقدمتين ، فإما ان ينكر نفسه وخالفه وعليه حينئذ ان يختار المقاومة السلبية للتمرد على التناسل ، وإما أن يعتقد بنفسه وبربه ، فلا بد له حينئذ من الأخذ بمبدأ الرافعي اذ قال .

إن سمو الرجل بنفسه عن الزوجة والولد طيران الى الأعلى . . . ولكنه طيرانٌ على أجنحة الشياطين ، طيرانٌ بالرجل الى فوهة البركان الذي في الأعلى .

قبل الانهاء من البحث في هذه التحفة الادبية العالمية ، أرى أن أوجه الفكر الى نقطة بقيت فيها غامضة وقد ينطوي هذا الغموض على شيء من التناقض وهذه النقطة هي ما ألفت إليها الاستاذ الرافعي بكناب ارسلته اليه فقلت له .

إن في ختام مقالك ما يفسح للفكر مجالاً للذهاب مذاهب تختلف اختلافاً
بيدنا عند النتيجة التي ترمي إليها .

قلت إن أبا ربيعه وقف في آخر حمله تمرّ به طغمة الخالدين وتلقى إليه بكلمة
المشثوم حتى مرّ غلام هو آخرهم فقال له .

(كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك فحزنت
على ما فاتك من القيام بمقتها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ، ثم أمرنا الليلة أن نضع
عملك مع الخالفين الذين فرّوا وجبنوا .)

فهل لك أيها الاستاذ الكبير ، أن تأتينا بايضاح عمّا رآه الحق تخلفاً وجبناً
في أبي ربيعه ؟ هل استحق هذا الشيخ نعته بالمشثوم لأنه ، وقد استهوته عظة
رفيقه ، آلى على نفسه أن (يحول المرأة التي في قلبه الى صلاة) فاراد قتل تذكّرها
بالوفاء لله دون الوفاء لها في قبرها ، أم كان ذلك لأنه قرر التبتّل بعدها فلا يأخذ
من بنات حواء من تقوم مقامها ؟

إن من ينظر الى حديث الشيخين ويأخذ بما ورد في القصة وفي ختامها
ليقف مخيراً محتاراً بين السببين ، وليس غير الأستاذ الكبير من يزيل هذا الابهام
فيأتي بمقال عن مسألة لها مكانها بين العقد الاجتماعية ، فيقول لنا ما اذا كان المثل
الأعلى في العلاقة الزوجية محبة الشخصية في الأ نوثة أم محبة الأ نوثة في الشخصية ؟ »
وقد بادر الاستاذ ، أعزه الله ، الى إرسال الجواب الآتي

قرأت كلمتكم البليغة في الرسالة واثني أشكركم كل الشكر وأحمل هذا الشناء
على محمله من نفسك الطيبة الكريمة ، بارك الله فيها وبارك للشرق في أديها العالي
أما ما سألتك عنه ، فإن القصة يجب أن تنتهي نهاية فنيّة يترك فيها موضع
يتممه القارىء ، فالكلام يحتمل ما ذكرتم من الوجيهن كليهما ، غير أن الحالة الاسلامية

مخصص احد المعنيين فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن أخذ بسنتهم من العلماء يكره أحدهم أن يبیت عزباً حتى ان ابن عمر لما كان في الموت قال « زوجوني فأني أكره أن التى الله عزبا » ولا يخفى أن واجب الرجولة هو حمل نصيبها من الأثوثة والتكفل بها وحمایتها ، فلما انطوت نية الشيخ أن يتعزب ووافق على ذلك تحت نيته حسناته ونقلته من حال الى حال وبطل معنى وفائه لزوجته الميتة لأن حقيقة الوفاء أن يثيبها ببر واحد من جنسها والأسلام لا يعرف الشخصية الفردة الا في حدود ضيقة وانما يعنى بالشخصية الاجتماعية الكبرى كما هو معروف هذا وإنني أختم بطيب التحيات وحفظكم الله للمخلص .

مصطفى صادق الرافعي

ذلك هو التحديد الذي جاد به المؤلف فلا حاجة بعد لتأويل ما احتمل القولين في رسالته . لقد رأينا الاستيضاح فورد التفسير جلياً ، غير أن هذا الجلاء يوقفنا تجاه مسألة لها خطورتها وقد تكون مثاراً للبحث في ما اذا كان العلماء الذين يشير الرافعي اليهم ذهبوا بشيء من الانغراق نحو الوجهة المخالفة لوجهة التي سار الحواري بولس نحوها .

إن مثل هذا البحث لا يتسع مجاله في حاشية من الموضوع الذي نتناوله الآن ، وحسبنا أن نكون أتينا بتعليق أوردنا فيه من الحياة نفسها ما يؤيد الالهام الحق الذي سیر قلم الرافعي لكتابة (رؤيا في السماء) ، وحسبنا أن نكون وقفنا الى تعبیر رؤيا شرقية ببيان غربي ونحن نعتقد أن هذا الشرق المفكر الملهم قد جاء العالم في كل زمان بعلاج الادواء التي تقذف بالانسان الى المهايوي لتقصيه عن علته الأولى .

والآن وقد فرغنا من تعبير هذه الرؤيا ، يجدر بنا أن نورد من مشاهد الحياة ما كنا كتبناه منذ سنوات وفيه من الارض رؤى كأنها مقدمات لروياء السماء .

سرّ الله في قلب امرأة

لا اذكر اين رأيتُ هذا المشهد -

(وكان القطار يتهباً للمسير من أحد مواقفه ، واذا بسيدة تقفز الى احدى مركباته ، سيدة رائعة الجمال يفوح منها عبير الربيع . جلست فاذا أمامها على المقعد المقابل امرأة تتساقط دموعها وأنفاسها تتعثر بالزفرات وعلى ركبتيها طفل هامد النفس مغمض الأجنان على نيمون أطفأت لهيها عاصفة الموت .

وجمت السيدة لهذا المشهد ، فتقلصت شفتاها ولاح نذير البكاء في أحداقها ، ولكنها ما لبثت إن ابتسمت ابتسامة مرّة مروعة وحدقت بالأم الثااكل كأنها تريد أن ترمي اليها بكلمة عصت مخرج النطق فاستقرت متلاشمية فيه .
فقال الثااكل -

-- حملته الى الطيب ، فمات على الطريق .

فضحكت ابنة الجمال ضحكة لن ترسمها ريشة ولن يعرفها قلم وقالت

- هنيئاً لك ، أيتها المرأة ، ليتني كنت أنت إن البكاء على الطفل الميت لأقل روعة وأخف حرقة من البكاء على الطفل الذي لم يولد لقد درّ قلبك حناناً ودرّ نهداك ماء حياة ، فلتسل الدموع من عينيك ، إنها ندى السماء

على زهرة ذابلة ، أما أنا ، فإن بكيت ، فأنا اطرح بالعبرات على صحراء قاحلة وأرض
تحترق فيها بذور الحياة .

* * *

ومنذ يومين أمت دار الولادة في الثغر فاستوقفني مشهد أم جالسة على فراشها
ترضع طفلة بنت عشرين يوماً ، وقد حدقت بعينها كأنها فما طفلين يتوقان
إلى نهد ... فما عرفت أكانت الطفلة أوفر رضاعاً لنهد أمها أم عينا الأم لطلعة ابنتها .
لست بالغريب عن حنان العيون ، وما للشعراء من منهل غيرها في الحياة ،
رأيت لفتات حنان كثيرة من عيون وعيون ، ولاكنني لا أذكر أن رأيت مرة
مثل هذا العطف الجائع ومثل هذه الروح تذوب في الآفاق ...

— سامت طفلتك أيتها السيدة

— ليسمع الله دعائك ، فأنتى اشتريتها من الفناء وجدت بحياتي من أجلها .

وأذلت حركة الاستفهام في سكوني قالت

— تزوجت منذ ست سنوات حملت مرتين ، وكان الطبيب في كل مرة

يضطر إلى تقطيع الطفل في أحشائي احتفاظاً بحياتي ، وقد حضرت هذه المرة إلى

المستشفى وأنا واثقة من اني سادفع بجملة من قبر احشائي إلى قبر التراب .

عاينني الطبيب الجراح فقال بتقطيع الجنين ، بكيت مسترحمة لاعنة حظي

العائر فاستغرق لحظة وقال

— انا بزين حياتين لا تسلم احدهما الا بتضحية الأخرى ، وقد استمعين

بالمبضع للاستبقاء على الحياتين ولكنني لست مخيراً في الأمر فالعملية خطيرة قد

تودي بحياتك أيتها المسكينة .

قلت — بحياتك ؛ أفعل ولا تتردد ...

وكانت منذ عشرين يوماً ليلةً ماطرة عاصفة الريح ، وكانت مضت ساعتان على منتصف الليل ، فاذا بالحياة الكامنة في احشائي تتحفز للخروج ولا منفذ لها من غير ثامة يفتحها المبضع .

وما مرت نصف ساعة حتى كان الجراح أمامي وقد قطع المسافة الشاسعة من منزله تحت قصف الرعود وأعاصير الأمطار .

— الأتزالين مصرّة على اقتحام الخطر ؟

— أريد الولد حياً ولو متّ

— كوني ساكنة ، ولا تخافي فان العناية التي تشدّد قلبك تسدد يدي .

وخيمّل لي أن بين أجفان الاستاذ الجراح شيئاً يشبه الدموع .

نشقت الخدّر وعاطفة الأمومة متغلبّة في على حب الحياة .

غبت عن الوجود وانا واثقة من أنني اذا طبقت عيني الى الأبد فأههما ستنتقمحان بعيني طفلي الى نور الحياة .

هاهي الان حية تستند الى صدري ، إني أراها ، أنا أمها في الحياة ، ولو أنني بقيت في عالم الموت لكنت أبقى أمها ايضاً ، لكنت أراها بعينيّ روعي اللتين لا تنطفئان .

شخصت بالابنة وأمها ، فاستغرقت لحظة عاينت فيها أصول الاشياء

وتجلّت لي فيها الحياة ، الحياة الدائمة التي ينبعث عنها كل شيء ويرجع اليها كل شيء ،

وشعرت أنّ فيّ كما في جميع المخلوقات حياة هي غير الحياة التي نمرّ فيها على

المدى القصير بين المهد والمحد ، وأنّ هذه الحياة تجول في آفاق أوسع وأسمى

من هذه الآفاق المحدودة بين المهود والقبور .



كلمة الاستاذ حبيب مسعود

مدير ورئيس تحرير مجلة العصبية في سان باولو

عن نظرنا في كتاب الاستاذ نعيمه

ننقل عن عدد العصبية بتاريخ ٢ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٣٦ ما ديجتبه في هذا الموضوع يراعة السكاتب الألمى الفذ الاستاذ حبيب مسعود غير متهمين ان نورد في كتاب نشره كلمات ثناء موجهة الينا لاننا ملزمون بالاقرار بالجميل لهذا الصديق الذى دعانا الى القيام نحو جبران والحقيقة ونهيمه بهذا الواجب .

فليكس فارس علم من اعلام البيان وجبار من جبابرة المنابر ، عرفه الأدب العربى فارسا مجلياً فى حلبته ومرقماً تقطر البلاغة والحجة من شقه . وانه ليغبطنا ان يجرى قلمه اليوم على صفحات « العصبية » فيستمع قراؤها لروائمه وضروب بدائمه . هجر الصحافة منذ عقدين خرم عشاق أدبه منهلاً صافياً عذباً قلما يظفرون بمثله ولكنه كان يروي غلتهم بين حين وآخر بأوشال خواطره فيستزيدونه فتحول شواغل الحياة دون أمنيته . وهو الان مقيم فى الاسكندرية بمصر يشغل منصب كبير مترجمى بلديتها . ولما كنا نعرف صلواته الوثيقة بجبران بعد ان تعرف اليه فى اثناء رحلته الى الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ سألناه كلة فى كتاب الاديب ميخائيل نعيمه بجبران لاعتقادنا ان كلة يرسلها فليكس هى الحجة التى يركن اليها والمنطق الذى يؤتم به . وقد قال لنا فى الكتاب الذى أصحبه مقاله القيم :

« . . . استفدت من عطلة العيد اربعة أيام لا كتب المقال عن كتاب

نعيمه في جبران فاذا بالقلم يمنح كاتباً ٣٥ صفحة كبيرة استوجبه التحليل للوقائع التي أوردها المؤلف عن جبران . وقد وقفت عند هذه النتيجة الغير المقصودة حائراً ، لان مجلتكم لن تتسع لهذا المقال برمته ، ولن يرضيكم ، كما لن يرضيني ان ينشر تباعاً . لذلك رأيت أن ارسل اليكم المقدمة وشيئاً من صلب الحديث باثني عشرة صفحة يكون منها مقال مستقل تقريباً يرضى القراء . اما الباقي فسأسامه لمطبعة هنا مع محاضرتي التي ألقيتها عن جبران منذ سنتين وهي محاضرة تناولت فيها البحث عن فلسفة فقيدانا وشرحت فيها كتاب « النبي » شرحاً غير موجز وغير مطول . وانني أؤمل ان يتم طبع الكتاب الذي سيقع بحسب تقديري في ٢٥٠ صفحة بوقت قريب فتكون هذه المحاضرة مكملة لمنظراني في كتاب نعيمه »

تنشر الان مقال ادبنا الكبير والشوق يلج بنا الى مطالعة كتابه الذي سيكون ولا صراء تحفة من تحف الادب الغالية وطرفة من طرائف المنطق البائنة



كلمة الاستاذ الياس أبي شبكة عن محاضرة

منابت الاطفال

—:—

كان الاستاذ الياس أبي شبكة، وهو مفخرة من مفاخر الأدب العربي بشعره العميق ونثره البليغ، تفضل وكتب لرسالة المنبر مقدمة مطولة، تناول فيها مباحث لها شأنها ببيانها الشعري الرصين، غير ان مرور أربع سنوات على تأخير ظهور الرسالة واضطرارنا إلى ادخال تعديل كبير على صفحاتها الأولى أوجدنا تجاه أمر واقع فخرنا من ضم ابحاث صديقنا أبي شبكة إلى ابحاث محاضرتنا، ولعلنا نوفق إلى نشرها في مجلة أدبية كبرى. مكتفين بأن نقتطف منها النقرة الآتية عن منابت الأطفال.

* * *

لقد جمعت في هذه المحاضرة البليغة أوفى هذه العظة الاجتماعية الخالدة عصارة ما تلفظ به الانبياء فلاسفة التوراة وشعراؤها وخير ما فكر به المصلحون في المجتمع البشري منذ ما باعدت الأهواء والشهوات بين الانسان ونفسه، على انك عرفت أن تطبع هذه العصارة بطابع من نفسك ما كمنت لأشك يوماً في أنك أجدر الناس بأدائه ببيان بليغ وحكمة صادقة.

ولقد استهواني وصفك الرائع لطبقات المجتمع الشرقي المستعير فساده من الغرب فقد أتيت عليه بمنطق في النذر ما يجاريك فيه أديب عربي مليء قرأح العباقرة العالمين في الأدب والاجتماع وأتيح له أن يصطبغ بذاتية علمية يفرضها على المفكرين والحكماء.

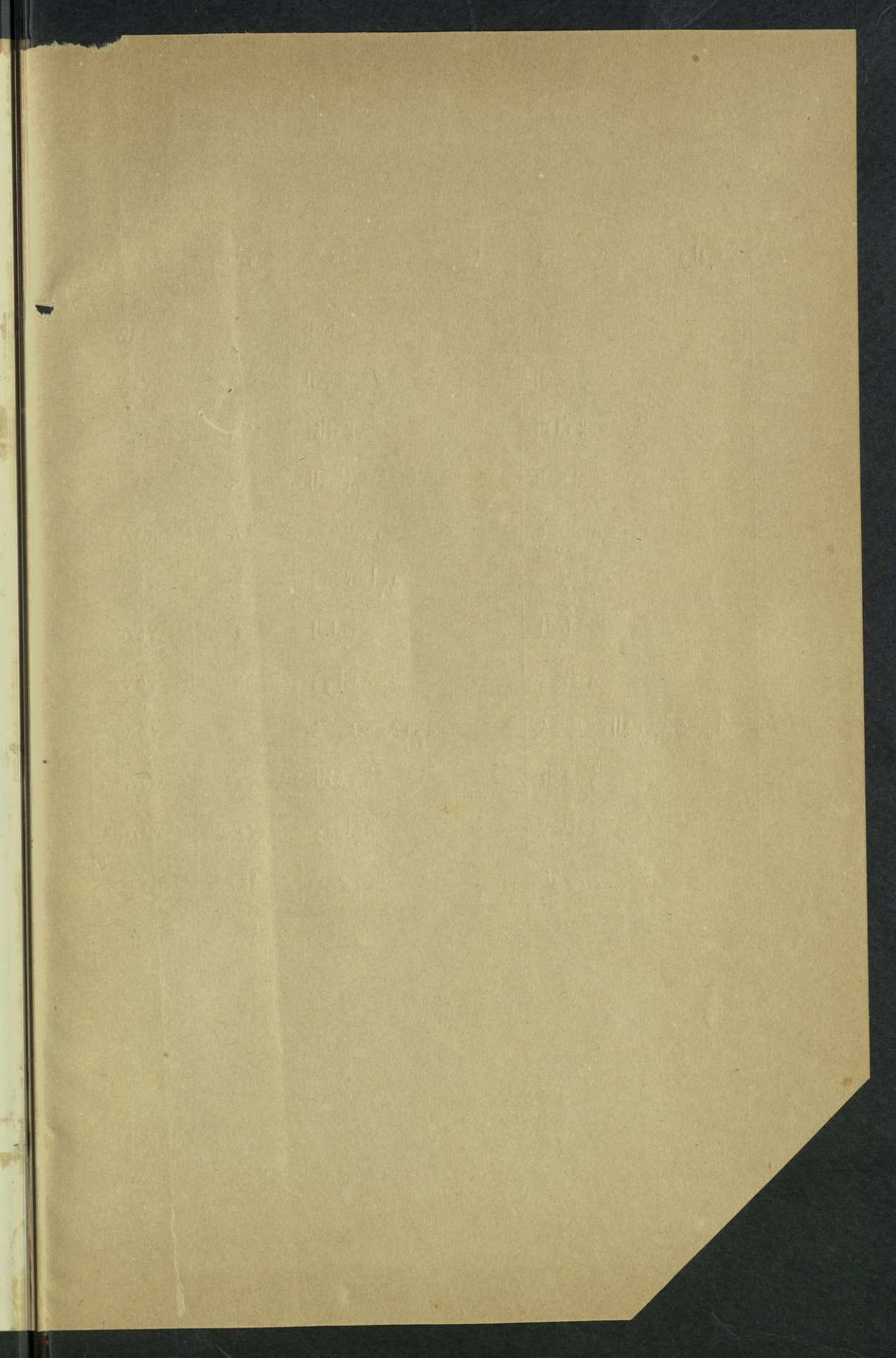
وانني لا أقول بكل ما أوتيت من الصراحة في القول أن على كل امرأة وزوج
من أي مذهب كانا أن يقرأ محاضرتك هذه كما يقرآن أي سفر جليل من أسفار
الاجتماع ، ففي كل فقرة منها عظة مهذبة رادعة بل وفي كل سطر وكل كلمة .
وإني لا أسأل نفسي ألا يحق لهذه المحاضرة أن تدرج في عداد الكتب الملهمة ،
وأن تكون سفراً من الأسفار في توراة القرن العشرين .

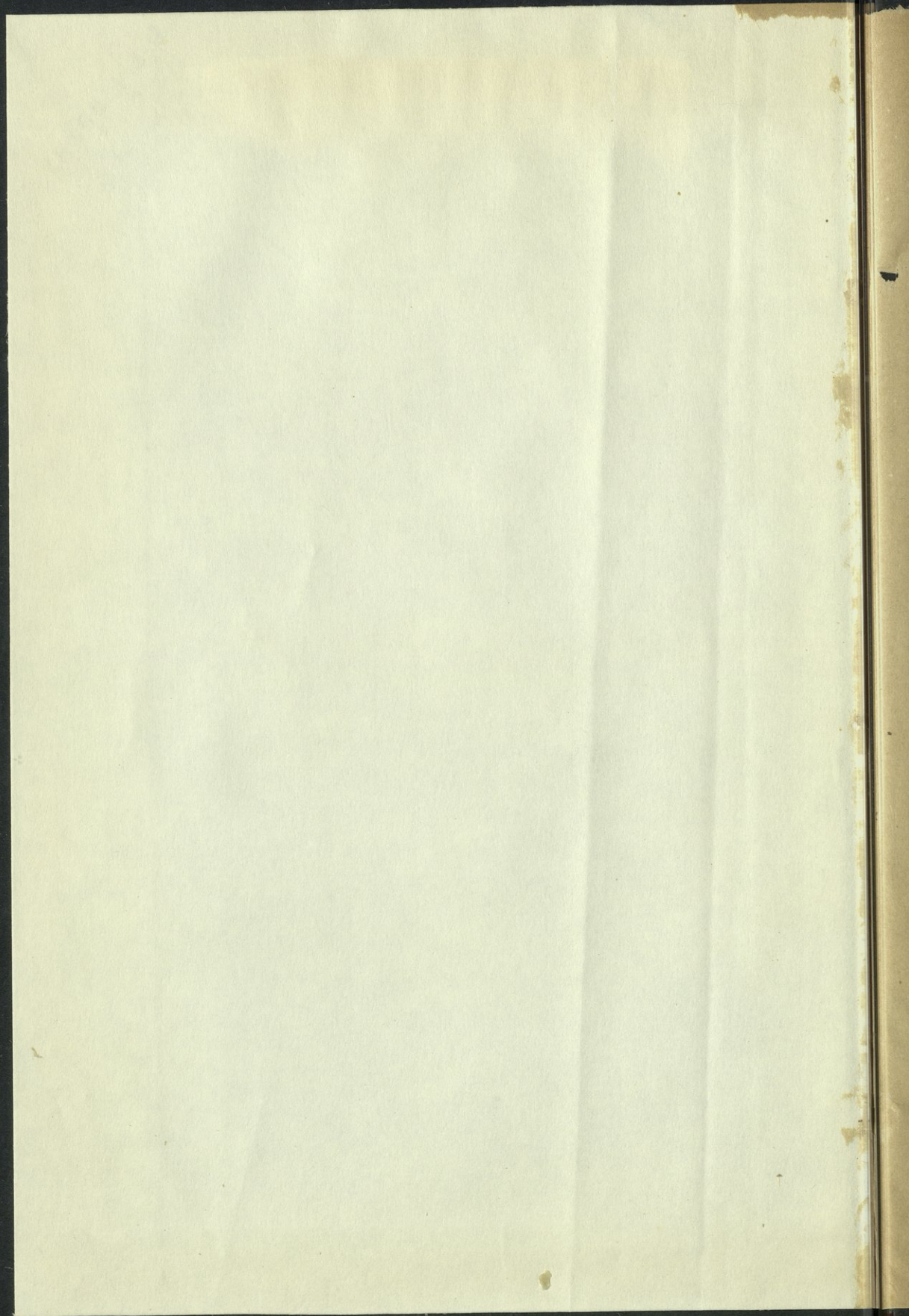


تصحيح

صفحة	سطر	خط أ	صواب
٤٣	١٤	الغريسة	الغريسة
٤٨	٥	تشوس	تشوش
٩٣	١٣	الخمس السنوات	السنوات الخمس
٩٧	٧	الجنوب	الجنوب
١١٠	١	بدأوا به صلاة	بدأوا به من صلاة
١١٩	٧	ومكتبة	ومكتبه
١١٩	٢١	مالتق	ما أصاب
١٤٧	٣	لذكر	لذكره
١٤٧	١٣ و ١٦	الضمانات في البيتين	تنوين
١٤٨	٨ و ٩	القافية بالفتح في البيتين	بالضم
١٤٨	١٩	خمس كلمات بالضم	بالتنوين
١٤٩	٦	يباغت منها الفكر	يباغت منها الفكر
١٤٩	١٧	منا يتصيد	ما يتصيد
١٥٢	٢ و	يضحى	يضحى
١٨٦	١٧	النهي	النهي
١٩٤	١٩	خليلة	خليلة
١٩٨	٢	وصله	أوصله
		تتحضروا	تتحسروا

صفحة	سطر	خط أ	صواب
١٩٨	٢	الظلمة	الظلمة
٢٠٢	٩	العربي	العربي
٢١٠	١١	أفائدة	أفائدة
٢١٤	٦	العظام	العظام
٢١٨	١٨	على السير	في السير
٢٤٦	٣	واستنتاجه	استنتاجه
٢٤٨	٤	للملجأ	للملجأ
٢٥٢	٦	مواقفه	مواقفه
٢٥٦	١	فكانت شبيهة	فكانت الشبيهة شبيهة
٣٠٨	٢٠	النشوذ	النشوز
٣١٨	٢٠	ولحاجة	ولحاجة
٣٢٠	١٤	يومى	نومى
٣٣٤	١٣	مغنى	مغنى





DATE DUE

U. S. LIBRARY

A. U. B. LIBRARY

CA:892.78:F22rA:c1

فارس، فليكس

رسالة المنبر الى الشرق العربي...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01042032



